مجموع فتاوى

شيخ الإسلام أحمد بن تيمية

« قدّس الله روحه »

جمع وترتيب

عبد الرحمن بن محمد بن قاسم « رحمه الله »

وساعده ابنه محمد « وفقه الله »

ـ المجلّد العاشر ـ

طُبع بأمر

خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود

أجزل الله مثوبته

طبعت هذه الفتاوى في

مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

في المدينة المنورة

تحت إشراف

وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

بالمملكة العربية السعودية

عام ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

ابن تيميه ، أحمد بن عبدالحليم

فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيميه .

٧٩٢ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك ٦-٢٠-٧٧٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

٣-٣٠-٧٧٠-٩٩٦٠ (ج ١٠)

١ - الفتاوى الإسلامية ٢- الفقه الحنبلي أ - العنوان

ديوي ٢٥٨,٤ ١٥/٢٠٠٩

رقم الإيداع : ١٥/٢٠٠٩

ردمك : ٦-٢٠-٧٧٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

٣-٣٠-٧٧٠-٩٩٦٠ (ج ١٠)

كتاب

علم السلوك



قال شيخ الإسلام

أحمد بن تيمية ـ قدس الله روحه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله . صلى الله عليه وآله وسلم .

أما بعد : فهذه كلمات مختصرات في أعمال القلوب ـــ التى قد تسمي « المقامات والأحوال » [١] ـــ وهي من أصول الإيمان ، وقواعد الدين ؛ مثل

(١) تسمى « التحفة العراقية فى الأعمال القلبية » .

محبة الله ورسوله ، والتوكل على الله ، وإخلاص الدين له ، والشكر له ، والصبر على حكمه ، والخوف منه ، والرجاء له ، وما يتبع ذلك . اقتضى ذلك بعض من أوجب الله حقه من أهل الإيمان ، واستكتبها وكل منا عجلان .

فأقول : هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق — المأمورين فى الأصل — باتفاق أئمة الدين ، والناس فيها على « ثلاث درجات » كما هم فى أعمال الأبدان على « ثلاث درجات » : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات .

فالظالم لنفسه : العاصي بترك مأمور أو فعل محظور .

والمقتصد : المؤدي الواجبات والتارك المحرمات .

والسابق بالخيرات : المتقرب بما يقدر عليه من فعل واجب ومستحب والتارك للمحرم والمكروه . وإن كان كل من المقتصد والسابق قد يكون له ذنوب تمحى عنه : إما بتوبة — والله يحب التوابين ويحب المتطهرين — وإما بحسنات ماحية ، وإما بمصائب مكفرة ، وإما بغير ذلك . وكل من الصنفين المقتصدين والسابقين من أولياء الله الذين ذكرهم فى كتابه بقوله : (أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ) فحد أولياء الله : هم المؤمنون المتقون ، ولكن ذلك ينقسم : إلى «عام» ، وهم المقتصدون

و «خاص» وهم السابقون ، وإن كان السابقون هم أعلى درجات ، كالأنبياء والصديقين .

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم « القسمين » فى الحديث الذي رواه البخاري فى صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « يقول الله من عادى لى ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشي ؛ ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه . وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » .

وأما الظالم لنفسه من أهل الإيمان : فمعه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه ، كما معه من ضد ذلك بقدر فجوره ، إذ الشخص الواحد قد يجتمع فيه الحسنات المقتضية للثواب ، والسيئات المقتضية للعقاب ، حتى يمكن أن يثاب ويعاقب ، وهذا قول جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأئمة الإسلام وأهل السنة والجماعة الذين يقولون : إنه لا يخلد في النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان .

وأما القائلون بالتخليد : كالخوارج والمعتزلة القائلين إنه لا يخرج من النار من دخلها من أهل القبلة ، وإنه لا شفاعة للرسول ولا لغيره فى أهل الكبائر ، لا قبل دخول النار ولا بعده ؛ فعندهم لا يجتمع فى الشخص الواحد ثواب وعقاب ؛ وحسنات وسيئات . بل من أثيب لا يعاقب ، ومن عوقب لم يثب . ودلائل هذا الأصل من الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة كثير ليس هذا موضعه وقد بسطناه فى مواضعه .

وينبني على هذا أمور كثيرة ، ولهذا من كان معه إيمان حقيقي فلا بد أن يكون معه من هذه الأعمال بقدر إيمانه ، وإن كان له ذنوب كما روى البخاري فى صحيحه عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ «أن رجلا كان يسمي حماراً وكان يضحك النبي صلى الله عليه وسلم . وكان يشرب الخمر ، ويجلده النبي صلى الله عليه وسلم ، فأتى به مرة فقال رجل لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله » .

فهذا يبين أن المذنب بالشرب وغيره قد يكون محباً لله ورسوله ، وحب الله ورسوله أوثق عرى الإيمان ، كما أن العابد الزاهد قد يكون لما فى قلبه من بدعة ونفاق مسخوطاً عليه عند الله ورسوله من ذلك الوجه ، كما استفاض فى الصحاح وغيرها من حديث أمير المؤمنين على بن أبى طالب وأبى سعيد الخدري وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه ذكر الخوارج فقال : « يحقر

أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم ، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، أينما لقيتموهم فاقتلوهم ؛ فإن فى قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة ، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » .

وهؤلاء قاتلهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمير المؤمنين على بن أبى طالب بأمر النبي صلى الله عليه وسلم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم فيهم فى الحديث الصحيح : « تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق » .

ولهذا قال أئمة الإسلام كسفيان الثوري وغيره إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، لأن البدعة لا يتاب منها ، والمعصية يتاب منها . ومعنى قولهم إن البدعة لا يتاب منها : أن المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله ولا رسوله قد زين له سوء عمله فرآه حسناً فهو لا يتوب ما دام يراه حسناً ، لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه ، أو بأنه ترك حسناً مأموراً به أمر إيجاب أو استحباب ليتوب ويفعله . فما دام يرى فعله حسناً وهو سيء فى نفس الأمر فإنه لا يتوب .

ولكن التوبة منه ممكنة وواقعة بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق كما هدى سبحانه وتعالى من هدى من الكفار والمنافقين وطوائف من أهل

البدع والضلال ، وهذا يكون بأن يتبع من الحق ما علمه ، فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم كما قال تعالى : (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) وقال تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وقال تعالى : (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) وقال تعالى : (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) . وشواهد هذا كثيرة في الكتاب والسنة .

وكذلك من أعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعاً لهواه فإن ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح ، كما قال تعالى : (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) . وقال تعالى : (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) وقال تعالى : (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) وهذا استفهام نفي وإنكار : أي وما يدريكم إنها إذا جاءت لايؤمنون ، وإنا نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة على قراءة من قرأ (إنها) بالكسر تكون

جزماً بأنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة؛ ولهــذا قال من قال من السلف كسعيد بن جبير : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها .

وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليــه وسلم أنه قال : « عليكم بالصدق ! فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . وإياكم والكذب ؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب . ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » فأخبر النبى صلى الله عليه وســلم أن الصدق أصــل يستلزم البر، وأن الكذب يستلزم الفجور .

وقد قال تعالى : (إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ) ولهذا كان بعض المشايخ إذا أمر بعض متبعيه بالتوبة وأحب أن لا ينفره ولا يشعب قلبــه أمره بالصدق . ولهذا كان يكثر فى كلام مشايخ الدين وأئمتــه ذكر الصدق والإخلاص حتى يقولوا : قل لمن لايصدق: لا يتبعني . ويقولون :الصدق سيف الله فى الأرض ، وما وضع على شيءإلا قطعه ، ويقول يوسف بن أسباط وغيره: ما صدق الله عبد إلا صنع له وأمثال هذا كثير .

والصدق والإخــلاص هما فى الحقيقة تحقيق الإيمان والإســلام ، فإن

المظهرين للإسلام ينقسمون إلى مؤمن ومنافق ، والفارق بين المؤمن والمنافق هو الصدق فإن أساس النفاق الذي يبنى عليه هو الكذب ؛ ولهذا إذا ذكر الله حقيقة الإيمان نعته بالصدق كما فى قوله تعالى : (قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا) إلى قوله : (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ) .
وقال تعالى : (لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ) .

فأخبر أن الصادقين فى دعوى الإيمان هم المؤمنون الذين لم يتعقب إيمانهم ريبة وجاهدوا فى سبيله بأموالهم وأنفسهم ، وذلك أن هذا هو العهد المأخوذ على الأولين والآخرين كما قال تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ) قال ابن عباس مابعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه .

وقال تعالى:(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن

يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) فذكر تعالى أنه أنزل الكتاب والميزان ، وأنه أنزل الحديد لأجل القيام بالقسط ؛ وليعلم الله من ينصره ورسله ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدي ، وسيف ينصر ، وكفى بربك هاديا ونصيراً . والكتاب والحديد وإن اشتركا فى الإنزال فلا يمنع أن يكون أحدهما نزل من حيث لم ينزل الآخر . حيث نزل الكتاب من الله ، كما قال تعالى : (تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ) وقال تعالى : (الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) وقال تعالى : (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) والحديد أنزل من الجبال التى خلق فيها .

وكذلك وصف الصادقين في دعوى البر الذي هو جماع الدين في قوله تعالى (لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ) إلى قوله (أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ) وأما المنافقون فوصفهم سبحانه بالكذب فى آيات متعددة كقوله تعالى : (فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ) وقوله تعالى (إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ) وقوله تعالى : (فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ) ونحو ذلك في القرآن كثير .

ومما ينبغي أن يعرف أن الصدق والتصديق يكون في الأقوال وفى

الأعمال ، كقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى الحديث الصحيح : « كتب على ابن آدم حظه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة ، فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، والأذنان تزنيان وزناهما السمع ، واليدان تزنيان وزناهما البطش ، والرجلان تزنيان وزناهما المشي ، والقلب يتمنى ويشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » . ويقال حملوا على العدو حملة صادقة إذا كانت إرادتهم للقتال ثابتة جازمة ، ويقال فلان صادق الحب والمودة ونحو ذلك . ولهذا يريدون بالصادق ؛ الصادق فى إرادته وقصده وطلبه ، وهو الصادق فى عمله ويريدون الصادق في خبره وكلامه ، والمنافق ضد المؤمن الصادق ، وهو الذي يكون كاذبا فى خبره أو كاذبا فى عمله كالمرائي فى عمله . قال الله تعالى : (إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ) الآيتين .

وأما الإخلاص فهو حقيقة الإسلام إذ « الإسلام » هو الاستسلام لله لا لغيره كما قال تعالى : (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ) الآية . فمن لم يستسلم لله فقد استكبر ، ومن استسلم لله ولغيره فقد أشرك ، وكل من الكبر والشرك ضد الإسلام ، والإسلام ضد الشرك والكبر . ويستعمل لازما ومتعديا كما قال تعالى : (إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) وقال تعالى : (بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) وأمثال ذلك فى القرآن كثير .

ولهذا كان رأس الإسـلام « شهادة أن لا إله إلا الله»، وهي متضمنة عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه ، وهو الإسلام العـام الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين دينا سواه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ وقال تعـالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ .

وهذا الذي ذكرناه مما يبين أن أصل الدين فى الحقيقـة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال ، وأن الأعمال الظاهرة لاتنفـع بدونها . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذي رواه أحمد فى مسنده : « الإسلام علانية والإيمان فى القلب » ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسـلم فى الحديث المتفق عليه عن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم « الحلال بـين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات لايعلمهن كثير من النـاس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع فى الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ألاوإن لكل ملك حمى ألاوإن حمى الله محارمه ألاوإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب » وعن أبي هريرة قال : القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث الملك خبثت جنوده .

فصـــــــل

وهذه الأعمال الباطنة كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك، كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة لا يكون تركها محموداً في حال أحد ، وإن ارتقى مقامه .

وأما « الحزن » فلم يأمر الله به ولا رسوله ، بل قد نهى عنه في مواضع وإن تعلق بأمر الدين ، كقوله تعالى : (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) وقوله : (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ) وقوله : (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) وقوله : (وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ) وقوله : (لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) وأمثال ذلك كثير .

وذلك لأنه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه، ومالا فائدة فيه لا يأمر الله به ، نعم ! لا يأثم صاحبه إذا لم يقترن بحزنه محرم ، كما يحزن على المصائب ، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله لا يؤاخذ على دمع العين ولا على حزن القلب ولكن يؤاخذ على هذا أو يرحم وأشار بيده إلى لسانه » وقال صلى الله عليه وسلم « تدمع العين ويحزن القلب

ولا نقول إلا ما يرضي الرب » ومنه قوله تعالى : (وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) .

وقد يقترن بالحزن مايثاب صاحبه عليه ويحمد عليه فيكون محموداً من تلك الجهة لا من جهة الحزن ، كالحزين على مصيبة فى دينه ، وعلى مصائب المسلمين عموما فهذا يثاب على ما فى قلبه من حب الخير ،وبغض الشر ، وتوابع ذلك ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة نهى عنه ، وإلا كان حسب صاحبه رفع الإثم عنه من جهة الحزن .

وأما إن أفضى إلى ضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما أمر الله ورسوله به كان مذموما عليه من تلك الجهة ، وإن كان محموداً من جهة أخرى .

وأما المحبة لله والتوكل عليه والإخلاص له ونحو ذلك فهذه كلها خير محض، وهي حسنة محبوبة فى حق كل أحد من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ومن قال إن هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط فى ذلك إن أراد خروج الخاصة عنها : فإن هذه لا يخرج عنها مؤمن قط ، وإنما يخرج عنها كافر أو منافق . وقد تكلم بعضهم فى ذلك بكلام بينا غلطه فيه وأنه تقصير في تحقيق هذه المقامات بكلام مبسوط وليس هذا موضعه .

ولكن هذه « المقامات » ينقسم الناس فيها إلى خصوص وعموم ، فللخاصة خاصها ، وللعامة عامها . مثال ذلك أن هؤلاء قالوا : «إن التوكل مناضلة عن النفس فى طلب القوت ، والخاص لاينـاضل عن نفسه . وقالوا : المتوكل يطلب بتوكله أمراً من الأمور ، والعارف يشهد الأمور بفروعها منهـا فلا يطلب شيئاً». فيقال أما الأول فإن التوكل أعم من التوكل في مصالح الدنيا ، فإن المتوكل يتوكل على الله فى صلاح قلبه ودينه وحفظ لسانه وإرادته وهـذا أهم الأمور إليه ، ولهذا يناجي ربه فى كل صلاة بقوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) كما فى قوله تعـالى (فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) وقوله : (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) وقوله : (قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ)

فهو قد جمع بين العبادة والتوكل فى عدة مواضع ؛ لأن هذين يجمعان الدين كله ؛ ولهذا قال من قال من السلف : إن الله جمع الكتب المنزلة فى القرآن ، وجمع علم القرآن فى المفصل ، وجمع علم المفصل فى فاتحة الكتاب ، وجمع علم فاتحة الكتاب فى قوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

وهاتان الكلمتان هما الجامعتان اللتـان للرب والعبد ، كما فى الحديث الذي في صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليـه وسـلم أنه قال : « يقول الله سبحانه قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها لعبدي ، ولعبدي ما سأل قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : يقول العبد:الحمد لله رب العالمين ، يقول الله حمدنى عبدي ، يقول العبـد: الرحمن

الرحيم ، يقول الله:أثنى علي عبدي ، يقول العبد : مالك يوم الدين ، يقول الله مجدني عبدي ، يقول العبـد إياك نعبد وإياك نستعين ، يقول الله فهـذه الآية بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل ، يقول العبد: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضـالين يقول الله فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل » فالرب سبحانه له نصف الثنـاء والخير والعبد له نصف الدعاء والطلب ،وهاتان جامعتان ما للرب سبحانه ، وما للعبد فإياك نعبد للرب،وإياك نستعين للعبد .

وفي الصحيحين عن معاذ رضي الله عنه قال : كنت رديفا للنبي صلى الله عليـه وسلم على حمار فقال : « يامعاذ أتدري ماحق الله على العبـاد ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، أتدري ماحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت الله ورسوله أعلم قال حقهم عليه ألاّيعذبهم » والعبادة هي الغاية التى خلق الله لها العبـاد من جهة أمر الله ومحبته ورضـاه كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ وبهـا أرسل الرسل وأنزل الكتب وهي اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته ، وكمال الذل لله ونهايته ، فالحب الخلي عن ذل والذل الخلي عن حب لا يكون عبادة ، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين ، ولهذا كانت العبـادة لا تصلح إلا لله ، وهي وإن كانت منفعتها للعبد والله غني عن العالمين فهي له من جهة محبته لها ورضاه بهـا ، ولهذا كان الله أشد فرحـاً بتوبة العبد من

الفـــاقد لراحلته عليها طعامـــه وشرابـــه فى أرض دويـــة مهلـكة إذا نام آ يسا منها ثم استيقظ فوجدهـــا ، فالله أشد فرحاً بتوبة عبـــده من هذا براحلتـــه ، وهـــذا يتعلق به أمور جليلة قـــد بسطناها وشرحناها في غير هذا الموضع .

والتوكل والاستعـــانة للعبد ، لأنه هو الوسيلة والطريق الذي ينـــال به مقصوده ومطلوبه من العبادة ، فالاستعانة كالدعاء والمسئلة . وقـــد روى الطبراني فى كتاب الدعاء عن النبي صلى الله عليـــه وسلم قال : « يقول الله عز وجل : يا ابن آدم ! إنما هي أربع واحدة لي ، وواحدة لك ، وواحـــدة بيني وبينك ، وواحدة بينك وبين خلقى . فأما التى لي فتعبدنى لا تشرك بي شيئاً ، وأما التى هي لك فعملك أجازيك به أحوج ماتـكون إليه ، وأما التى بيني وبينك فمنك الدعاء وعلي الإجابة ، وأما التى بينك وبين خلقى فأت للنـــاس ما تحب أن يأتوا إليك »

وكون هذا لله وهذا للعبد هو باعتبار تعلق المحبة والرضا ابتداء ، فإن العبد ابتداء يحب ويريد مايراه ملائماً له ، والله تعـــالى يحب ويرضى ماهو الغاية المقصودة فى رضاه ، ويحب الوسيلة تبعاً لذلك ، وإلا فـكل مأمور به فمنفعته عائدة على العبد ، وكل ذلك يحبه الله ويرضاه ، وعلى هذا فالذي ظن أن التوكل من المقامات العامة ظن أن التوكل لا يطلب به إلاحظوظ الدنيـــا ، وهو غلط بل التوكل فى الأمور الدينية أعظم .

وأيضاً التوكل من الأمور الدينية التى لاتتم الواجبات والمستحبات إلا بها والزاهد فيها زاهد فيما يحبه الله ويأمر به ويرضاه .

و « الزهد المشروع » هو ترك الرغبة فيما لا ينفع فى الدار الآخرة ، وهو فضول المباح التى لا يستعان بها على طاعة الله ، كما أن « الورع المشروع » هو ترك ما قد يضر فى الدار الآخرة ، وهو ترك المحرمات والشبهات التى لا يستلزم تركها ترك ما فعله أرجح منها ، كالواجبات فأما ما ينفع في الدار الآخرة بنفسه أو يعين على ما ينفع فى الدار الآخرة ، فالزهد فيه ليس من الدين بل صاحبه داخل فى قوله تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ) كما أن الاشتغال بفضول المباحات، هو ضد الزهد المشروع ، فإن اشتغل بها عن فعل واجب أو [تَرْكِ][1] محرم كان عاصياً ، وإلا كان منقوصا عن درجة المقربين إلى درجة المقتصدين .

و (أيضاً) فإن التوكل هو محبوب لله مرضي له مأمور به دائماً ، وما كان محبوبا لله مرضياً له مأموراً به دائماً لا يكون من فعل المقتصدين دون المقربين ، فهذه ثلاثة أجوبة عن قولهم: المتوكل يطلب حظوظه .

وأما قولهم إن الأمور قد فرغ منها ، فهذا نظير ماقاله بعضهم فى الدعاء أنه لا حاجة إليه ، لأن المطلوب إن كان مقدراً فلا حاجة إليه ، وإن لم يكن

(١) في المطبوع (فعل) وعدلت حسب مفهوم السياق .

مقدراً لم ينفع الدعاء ، وهذا القول من أفسد الأقوال شرعاً وعقلاً .

وكذلك قول من قال : التوكل والدعاء لا يجلب به منفعة، ولا يدفع به مضرة ، وإنما هو عبادة محضة . وإن حقيقة التوكل بمنزلة حقيقة التفويض المحض ، وهذا وإن كان قاله طائفة من المشايخ فهو غلط أيضاً ، وكذلك قول من قال : إن الدعاء إنما هو عبادة محضة .

فهذه الأقوال وما أشبهها يجمعها أصل واحد : وهو أن هؤلاء ظنوا أن كون الأمور مقدرة مقضية يمنع أن تتوقف على أسباب مقدرة ـ أيضاً ـ تكون من العبد ؛ ولم يعلموا أن الله سبحانه يقدر الأمور ويقضيها بالأسباب التي جعلها معلقة بها من أفعال العباد ، وغير أفعالهم ، ولهذا كان طرد قولهم يوجب تعطيل الأعمال بالكلية .

وقد سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن هذا الأصل مرات فأجاب عنه كما أخرجا فى الصحيحين عن عمران بن حصين قال : « قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يارسول الله ! أعلم أهل الجنة من أهل النار؟ قال : نعم. قالوا : ففيم العمل ؟ قال : كل ميسر لما خلق له » وفى الصحيحين عن علي بن أبي طالب قال : « كنا في جنازة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس ومعه مخصرة فجعل ينكت بالمخصرة فى الأرض ثم رفع رأسه وقال: « ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها من النار أو الجنة ، إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة » قال :

فقال رجل من القوم يا نبي الله ! أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فمن كان من أهل السعادة ليكونن إلى السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة ليكونن إلى الشقاوة قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له. أما أهل السعادة فييسرون للسعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون للشقاوة»، ثم قال نبي الله صلى الله عليه وسلم (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ) أخرجه الجماعة في الصحاح والسنن والمسانيد .

وروى الترمذي « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل فقيل: يارسول الله ! أرأيت أدوية نتداوى بها ، ورقى نسترقي بها وتقى نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال : هي من قدر الله » .

وقد جاء هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى عدة أحاديث .

فبين صلى الله عليه وآله وسلم أن تقدم العلم والكتاب بالسعيد والشقي لا ينافى أن تكون سعادة هذا بالأعمال الصالحة ، وشقاوة هذا بالأعمال السيئة؛ فإنه سبحانه يعلم الأمور على ما هي عليه ، وكذلك يكتبها ؛ فهو يعلم أن السعيد يسعد بالأعمال الصالحة ، والشقي يشقى بالأعمال السيئة ، فمن كان سعيداً ييسر للأعمال الصالحة التى تقتضي السعادة ؛ ومن كان شقياً ييسر للأعمال السيئة

التى تقتضي الشقاوة ؛ وكلاهما ميسر لما خلق له ، وهو ما يصير إليه من مشيئة الله العامة الكونية التى ذكرها الله سبحانه فى كتابه فى قوله تعالى: (وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ) .

وأما ما خلقوا له من محبة الله ورضاه وهو إرادته الدينية التى أمروا بموجبها فذلك مذكور فى قوله : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

والله سبحانه قد بين في كتابه فى كل واحدة : من « الكلمات » و « الأمر » و « الإرادة » و « الإذن » و « الكتاب » و « الحكم » و «القضاء» و « التحريم » ونحو ذلك ما هو ديني موافق لمحبة الله ورضاه وأمره الشرعي؛ وما هو كوني موافق لمشيئته الكونية .

مثال ذلك أنه قال فى « الأمر الديني » : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ) وقال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا) ونحو ذلك . وقال فى « الكونى » : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) وكذلك قوله : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ) على إحدى الأقوال فى هذه الآية .

وقال فى « الإرادة الدينية » : (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)

(يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ) وقال في « الإرادة الكونية » : (وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

وقال : (فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ) وقال نوح عليه السلام : (وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ) وقال تعالى : (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) .

وقال تعالى في « الإذن الديني » : (مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ) وقال تعالى في « الكوني » : (وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ) .

وقال تعالى في « القضاء الديني » : (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ) أي أمر . وقال تعالى في « الكوني » : (فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ) .

وقال تعالى في « الحكم الديني » : (أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ) وقال تعالى : (ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ) وقال تعالى في « الكوني » عن ابن يعقوب : (فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ)

وقال تعالى : (قَلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ) .

وقال تعالى فى « التحريم الدينى » : (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ) (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ) الآية . وقال تعالى فى « التحريم الكونى » : (فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ) .

وقال تعالى (وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ) وقال تعالى في « الكلمات الدينية » (وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) وقال تعالى فى « الكونية » : (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟) ومنه قوله صلى الله عليه وسلم المستفيض عنه من وجوه فى الصحاح والسنن والمسانيد إنه كان يقول فى استعاذته « أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر » ومن المعلوم أن هذا هو الكونى الذي لا يخرج منه شيء، عن مشيئته وتكوينه . وأما الكلمات الدينية فقد خالفها الفجار بمعصيته.

والمقصود هنا : أنه صلى الله عليه وسلم بين أن العواقب التى خلق لها الناس من سعادة وشقاوة ييسرون لها بالأعمال التى يصيرون بها إلى ذلك ، كما أن سائر المخلوقات كذلك ؛ فهو سبحانه يخلق الولد وسائر الحيوان في الأرحام بما يقدره من اجتماع الأبوين على النكاح ، واجتماع المائين فى الرحم ، فلو قال الإنسان أنا أتوكل ولا أطأ زوجتى فإن كان قد

قضي لي بولد وجد وإلا لم يوجد ولا حاجة إلى وطء ، كان أحمق بخلاف ما إذا وطئ وعزل الماء فإن عزل الماء لا يمنع انعقاد الولد إذا شاء الله ، إذ قد يسبق الماء بغير اختياره .

ومن هذا ما ثبت فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدري . قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بنى المصطلق فأصبنا سبياً من العرب فاشتهينا النساء واشتدت علينا العزبة وأحببنا العزل فسألنا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما عليكم ألا تفعلوا ، فإن الله قد كتب ما هو خالق إلى يوم القيامة » وفى صحيح مسلم عن جابر : « أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن لي جارية هي خادمتنا وسانيتنا في النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل فقال اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدر لها » .

وهذا مع أن الله سبحانه قادر على ما قد فعله من خلق الإنسان من غير أبوين كما خلق آدم ، ومن خلقه من أب فقط كما خلق حواء من ضلع آدم القصير ومن خلقه من أم فقط كما خلق المسيح بن مريم عليه السلام ، لكن خلق ذلك بأسباب أخرى غير معتادة .

وهذا الموضع وإن كان إنما يجحده الزنادقة المعطلون للشرائع فقد وقع فى كثير من دقه كثير من المشايخ المعظمين يسترسل أحدهم مع القدر

غير محقق لما أمر به ونهى عنه ، ويجعل ذلك من باب التفويض والتوكل ، والجري مع الحقيقة القدرية ، ويحسب أن قول القائل ينبغي للعبد أن يكون مع الله كالميت بين يدي الغاسل يتضمن ترك العمل بالأمر والنهي حتى يترك ما أمر به ، ويفعل مانهى عنه وحتى يضعف عنده النور والفرقان الذي يفرق به بين ما أمر الله به وأحبه ورضيه ، وبين ما نهى عنه وأبغضه وسخطه فيسوى بين ما فرق الله بينه كما قال تعالى (أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ) وقال تعالى : (أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) وقال تعالى: (أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ) وقال تعالى : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) وقال تعالى : (وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ)
وأمثال ذلك .

حتى يفضي الأمر بغلاتهم إلى عدم التمييز بين الأمر بالمأمور النبوي الإلهي الفرقاني الشرعي الذي دل عليه الكتاب والسنة ، وبين ما يكون فى الوجود من الأحوال التى تجري على أيدي الكفار والفجار ، فيشهدون وجه الجمع من جهة كون الجميع بقضاء الله وقدره وربوبيته وإرادته العامة ،

وأنه داخل فى ملـكه ، ولا يشهدون وجـه الفرق الذي فرق الله به بـين أوليائه وأعدائه ، والأبرار والفجار ، والمؤمنين والـكافرين ، وأهل الطاعـة الذين أطاعـوا أمره الديني ، وأهـل المعصية الذين عصوا هـذا الأمر ويستشهدون في ذلك بكلمات مجمـلة نقلت عن بعض الأشيـاخ ، أو ببعض غلطات بعضهم .

وهذا « أصل عظيم » من أعظم ما يجب الاعتناء به على أهل طريق الله السالكين سبيل الإرادة:إرادة الذين يريدون وجهه ؛ فإنـه قـد دخل بسبب إهمال ذلك على طوائف منهم من الكفر والفسوق والعصيان مالايعلمه إلا الله، حتى يصيروا معاونين على البغي والعدوان للمسلطين فى الأرض من أهل الظلم والعلو ،كالذين يتوجهون بقلوبهـم في معاونة من يهوونه من أهل العـلو فى الأرض والفساد ظانين أنهم إذا كانت لهم أحوال أثروابها فى ذلك كانوا بذلك من أولياء الله ـــ فإن القلوب لهـا من التأثير أعظـم ممـا للأبدان ؛ لكن إن كانت صالحة كان تأثيرها صالحاً ، وإن كانت فاسدة كان تأثيرهـا فاسداً ، فالأحوال يكون تأثيرها محبوباً لله تارة ، ومكروها لله أخرى،وقد تكلم الفقهاء عـلى وجوب القود عـلى من يقتـل غـيره فى الباطن حيث يجب القود فى ذلك ـــ ويستشهدون ببواطنهـم وقلوبهم الأمر الكوني ، ويعدون مجرد خرق العادة لأحدهم بكشف يكشف له أو بتأثير يوافق إرادته هو كرامة من الله له ، ولا يعلمون أنه فى الحقيقة إهانـة ، وأن الكرامة لزوم الاستقامة ، وأن

الله لم يكرم عبده بكرامة أعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه، وهو طاعته وطاعة رسوله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه، وهؤلاء هم أولياء الله الذين قال الله فيهم : (أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

فإن كانوا موافقين له فيما أوجبه عليهم فهم من المقتصدين، وإن كانوا موافقين فيما أوجبه وأحبه فهم من المقربين ، مع أن كل واجب محبوب وليس كل محبوب واجباً ، وأما ما يبتلي الله به عبده من السراء بخرق العادة أو بغيرها ، أو بالضراء فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه، ولا هوانه عليه بل قد يسعد بها قوم إذا أطاعوه فى ذلك ، وقد يشقى بها قوم إذا عصوه فى ذلك .

قال الله تعالى : (فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ * كَلَّا)
ولهذا كان الناس فى هذه الأمور على « ثلاثة أقسام » :

(قسم) ترتفع درجاتهم بخرق العادة إذا استعملوها فى طاعة الله .

وقوم يتعرضون بها لعذاب الله إذا استعملوها فى معصية الله كبلعام وغيره .

وقوم تكون فى حقهم بمنزلة المباحات .

والقسم الأول هم المؤمنون حقاً ، المتبعون لنبيهم سيد ولد آدم الذي إنما كانت خوارقه لحجة يقيم بها دين الله ، أولحاجة يستعين بها على طاعة الله. ولكثرة الغلط فى هذا الأصل نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاسترسال مع القدر بدون الحرص على فعل المأمور الذي ينفع العبد ، فروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير . أحرص على ماينفعك واستعن باللهولا تعجزن وإنأصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل:قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان » .

وفي سنن أبى داود : « أن رجلين اختصما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى على أحدهما فقال المقضى عليه: حسبيالله ونعم الوكيل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يلوم على العجز ،ولكنعليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل حسبيالله ونعمالوكيل »فأمر النبيصلى الله عليه وسلم المؤمنأن يحرص على ما ينفعه،وأن يستعين بالله ، وهذا مطابقلقوله تعالى:(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ وقولهتعالى:(فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)فإنالحرص علىماينفع العبدهو طاعةاللهوعبادته إذ النافع له هو طاعة الله ولا شيء أنفع له من ذلك ، وكل ما يستعان به على الطاعة فهو طاعة وإن كان من جنس المباح .

قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح لسعد : « إنك لن

تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة تضعها فى في امرأتك » فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله يلوم على العجز الذي هو ضد الكيس وهو التفريط فيما يؤمر بفعله ، فإن ذلك ينافى القدرة المقارنــة للفعل ، وإن كان لاينافى القدرة المتقدمة التى هي مناط الأمر والنهي .

فإن الاستطاعة التى توجب الفعل تكون مقارنة له ولاتصلح إلا لمقدورها كما ذكرهــا الله تعالى في قــوله (مَاكَانُواْيَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ) وفى قوله : (وَكَانُواْلَايَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا) . وأما الاستطاعــة التى يتعلق بها الأمر والنهي فتلك قــد يقترن بها الفعل وقد لا يقترن . كما فى قوله تعــالى : (وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) وقول النبي صلى الله عليه وسلم لعمران ابن حصين « صل قائما، فإن لم تستطع فقاعداً ،فإن لم تستطع فعلى جنب » .

فهذا الموضع قد انقسم الناس فيه إلى « أربعة أقسام » :

قوم ينظرون إلى جانب الأمر والنهي والعبادة والطاعة شاهدين لإلهيــة الرب سبحانــه الذي أمروا أن يعبــدوه ، ولا ينظرون إلى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة ، وهو حال كثير من المتفقهة والمتعبدة ؛ فهــم مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمــات الله ولشعائره يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان ؛لأن الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه والدعاء له هي التى تقوي العبد ، وتيسر عليه الأمور .

ولهذا قال بعض السلف : من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله . وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو « أن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم صفته في التوراة إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يجزي بالسيئة الحسنة ويعفو ويغفر ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء فأفتح به أعيناً عميا وآذاناً صما وقلوباً غلفاً بأن يقولوا لا إله إلا الله »

ولهذا روى أن حملة العرش إنما أطاقوا حمل العرش بقولهم لاحول ولا قوة إلا بالله . وقد ثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنهـا كنز من كنوز الجنة » قال تعـالى : (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) وقال تعالى : (ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ) إلى قوله (فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) وفى صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله : (وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ) قالها إبراهيم الخليل حين ألقى فى النـار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لـكم

و (قسم ثان) :يشهدون ربوبية الحق، وافتقارهم إليـه،ويستعينون به لكن على أهوائهم وأذواقهم ، غير ناظرين إلى حقيقـة أمره ونهيه ورضـاه وغضبه ومحبته ، وهـذا حال كثير من المتفقرة والمتصوفة ، ولهـذا كثيراً

ما يعملون على الأحوال التي يتصرفون بها في الوجود ، ولا يقصدون ما يرضى الرب ويحبه ، وكثيراً ما يغلطون فيظنون أن معصيته هي مرضاته فيعودون إلى تعطيل الأمر والنهي ويسمون هذا حقيقة ، ويظنون أن هذه الحقيقة القدرية يجب الاسترسال معها دون مراعاة الحقيقة الأمرية الدينية التي هي تحوي مرضاة الرب ومحبته وأمره ونهيه ظاهراً وباطناً .

وهؤلاء كثيراً ما يسلبون أحوالهم ، وقد يعودون إلى نوع من المعاصي والفسوق ، بل كثير منهم يرتد عن الإسلام ، لأن العاقبة للتقوى ، ومن لم يقف عند أمر الله ونهيه فليس من المتقين ، فهم يقعون في بعض ماوقع المشركون فيه تارة في بدعة يظنونها شرعة، وتارة في الاحتجاج بالقدر على الأمر؛ والله تعالى لما ذكر ماذم به المشركين في سورة الأنعام والأعراف ذكر ما ابتدعوه من الدين وجعلوه شرعة كما قال تعالى : (وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ) وقد ذمهم على أن حرموا مالم يحرمه الله ، وأن شرعوا مالم يشرعه الله، وذكر احتجاجهم بالقدر في قوله تعالى (سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ) ونظيرها في النحل ويس والزخرف وهؤلاء يكون فيهم شبه من هذا وهذا .

وأما (القسم الثالث) : وهو من أعرض عن عبادة الله واستعانته به فهؤلاء شر الأقسام .

و (القسم الرابع) : هو القسم المحمود وهو حال الذين حققوا (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وقوله : (فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) فاستعانوا به على طاعته ، وشهدوا أنه إلههم الذي لا يجوز أن يعبدوا إلا إياه بطاعته وطاعة رسوله ، وأنه ربهم الذي (لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ) وأنه (مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ) (وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ) (قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ)

ولهذا قال طائفة من العلماء الالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص فى العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع ، وإنما التوكل المأمور به ما اجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع .

فقد تبين أن من ظن التوكل من مقامات عامة أهل الطريق فقد غلط غلطاً شديداً ، وإن كان من أعيان المشايخ ـ كصاحب « علل المقامات » وهو من أجل المشايخ ، وأخذ ذلك عنه صاحب «محاسن المجالس» ـ وظهر ضعف حجة من قال ذلك لظنه أن المطلوب به حظ العامة فقط ، وظنه أنه لا فائدة له فى تحصيل المقصود ، وهذه حال من جعل الدعاء كذلك ، وذلك بمنزلة من جعل الأعمال المأمور بها كذلك ، كمن اشتغل بالتوكل عن ما يجب عليه من

الأسباب التى هي عبادة وطاعة مأمور بها ؛ فإن غلط هذا في ترك الأسباب المأمور بها التى هي داخلة فى قوله تعالى : (فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ) كغلط الأول في ترك التوكل المأمور به الذي هو داخل فى قوله تعالى (فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ)

لكن يقال: من كان توكله على الله ودعاؤه له هو فى حصول مباحات فهو من العامة ، وإن كان فى حصول مستحبات وواجبات فهو من الخاصة، كما أن من دعاه وتوكل عليه فى حصول محرمات فهو ظالم لنفسه ، ومن أعرض عن التوكل فهو عاص لله ورسوله ، بل خارج عن حقيقة الإيمان ، فكيف يكون هذا المقام للخاصة ، قال الله تعالى : (وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ) وقال تعالى : (إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ) وقال تعالى : (وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ) وقال تعالى : (قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ) إلى قوله (قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ)

وقد ذكر الله هذه الكلمة (حَسۡبِيَ ٱللَّهُ) فى جلب المنفعة تارة ، وفى دفع المضرة أخرى . (فالأولى) فى قوله تعالى : (وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ) الآية .
و (الثانية) فى قوله : (ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ

فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ) وفى قوله تعالى : (وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ) وقوله : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ) يتضمن الأمر بالرضا والتوكل .

والرضا والتوكل يكتنفان المقدور ، فالتوكل قبل وقوعه . والرضا بعد وقوعه ؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول فى الصلاة « اللهم بعلمك الغيب وبقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد فى الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ؛ وأسألك لذة النظر إلى وجهك ؛ وأسألك الشوق إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة . اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين » رواه أحمد والنسائى من حديث عمار بن ياسر .

وأما ما يكون قبل القضاء فهو عزم على الرضا لا حقيقة الرضا ؛ ولهذا كان طائفة من المشايخ يعزمون على الرضا قبل وقوع البلاء ؛ فإذا وقع انفسخت عزائمهم كما يقع نحو ذلك فى الصبر وغيره كما قال تعالى : (وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ) وقال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ

مَّرْصُوصٌ) نزلت هذه الآ ية لما قالوا لو علمنا أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه فأنزل الله سبحانه وتعالى آ ية الجهاد فكرهه من كرهه .

ولهـذا كره للمرء أن يتعرض للبلاء بأن يوجب على نفسه مالا يوجبه الشارع عليه بالعهد والنذر ونحو ذلك ، أو يطاب ولاية ، أو يقدم على بلد فيه طاعون . كما ثبت فى الصحيحين من غير وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن النذر ؛ وقال : « إنه لا يأتى بخير وإنما يستخرج به من البخيل » وثبت عنه فى الصحيحين أنه قال لعبد الرحمن بن سمرة : « لا تسأل الإمـارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ؛ وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منهـا فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك » وثبت عنه فى الصحيحين أنه قال فى الطاعون: « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » وثبت عنه فى الصحيحين أنه قال : « لاتتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ولكن إذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » وأمثـال ذلك مما يقتضي أن الإنسان لا ينبغى له أن يسعى فيما يوجب عليه أشياء ويحرم عليه أشياء فيبخل بالوفاء ؛ كما يفعل كثير ممن يعاهـد الله عهوداً على أمور وغالب هؤلاء يبتلون بنقض العهود .

ويقتضي أن الإنســان إذا ابتلى فعليــه أن يصبر ويثبت ولا ينكل حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبـات ، ولا بد فى جميع ذلك من

الصبر ؛ ولهذا كان الصبر واجباً باتفاق المسلمين على أداء الواجبات ، وترك المحظورات . ويدخل فى ذلك الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها ، والصبر عن اتباع أهواء النفوس فيما نهى الله عنه .

وقد ذكر الله الصبر في كتابه فى أكثر من تسعين موضعاً ، وقرنه بالصلاة فى قوله تعالى : (وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ) (ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ) وقوله : (وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ) إلى قوله (وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ) (فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا) (فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ) الآية

وجعل «الإمامة فى الدين» موروثة عن الصبر واليقين بقوله : (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ) . فإن الدين كله علم بالحق وعمل به، والعمل به لا بد فيه من الصبر ، بل وطلب علمه يحتاج إلى الصبر ، كما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه : عليكم بالعلم فإن طلبه لله عبادة ، ومعرفته خشية ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ؛ ومذاكرته تسبيح . به يعرف الله ويعبد ، وبه يمجد الله ويوحد ، يرفع الله بالعلم أقواما يجعلهم للناس قادة وأئمة يهتدون بهم ، وينتهون إلى رأيهم .

فجعل البحث عن العلم من الجهاد ، ولا بد فى الجهاد من الصبر ؛ ولهذا

قال تعـــالى : (وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ) وقال تعالى : (وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ)

فالعلم النافع هو أصل الهدى ، والعمل بالحق هو الرشاد ، وضد الأول الضلال ، وضد الثاني الغي ، فالضلال العمل بغير علم ، والغي اتباع الهوى. قال تعالى : (وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ) فلا ينـال الهدى إلا بالعلم ، ولا ينال الرشاد إلا بالصبر ؛ ولهـذا قال علي : ألا إن الصبر من الإيمـان بمنزلة الرأس من الجسد ـ فإذا انقطع الرأس بان الجسد ـ ثم رفـع صوته فقال : ألا لا إيمان لمن لا صبر له .

وأما « الرضا » فقد تنازع العلماء والمشايخ من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم فى الرضا بالقضاء : هل هو واجب أو مستحب ؟ على قولين : فعـلى الأول يكـون من أعمال المقتصدين ، وعلى الثانى يكون من أعمال المقربين . قال عمر بن عبد العزيز[1] الرضا عزيز ولكن الصبر معول المؤمن . وقد روي عن النبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قال لابن عبـاس : « إن استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن فى الصبر عـلى ما تكره خيراً كثيراً » .

---

(١) نسخة الحسن البصرى

ولهـذا لم يجيء في القرآن إلا مدحُ الراضين لا إيجاب ذلك وهـذا فى الرضا بما يفعله الرب بعبده من المصائب كالمرض والفقر والزلزال كما قال تعالى : (وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ) وقال تعالى (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟) فالبأساء فى الأموال ، والضراء فى الأبدان والزلزال فى القلوب .

وأما « الرضا بما أمر الله به » فأصله واجب ، وهو من الإيمان كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً، وبالاسلام ديناً، وبمحمد نبياً » وهو من توابع المحبة كما سنذكره إن شاء الله تعالى قال تعالى : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا) وقال تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ) الآية . وقال تعالى : (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ) وقال تعالى : (وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ) .

ومن « النوع الأول » ما رواه أحمد والترمذي وغيرهما عن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من سعادة ابن آدم استخارته

لله ورضاه بما قسم الله له . ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارته لله وسخطه بما يقسم الله له » .

وأما « الرضا بالمنهيات » من الكفر والفسوق والعصيان فأكثر العلماء يقولون لا يشرع الرضا بها ، كما لا تشرع محبتها ، فإن الله سبحانه لا يرضاها ولا يحبها ، وإن كان قد قدرها وقضاها كما قال سبحانه : ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ وقال تعالى : ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ وقال تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ؛ بل يسخطها كما قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ .

وقالت طائفة ترضى من جهة كونها مضافة إلى الله خلقاً وتسخط من جهة كونها مضافة إلى العبد فعلاً وكسباً . وهذا القول لا ينافي الذي قبله ، بل هما يعودان إلى أصل واحد . وهو سبحانه إنما قدر الأشياء لحكمة ، فهي باعتبار تلك الحكمة محبوبة مرضية ، وقد تكون في نفسها مكروهة ومسخوطة . إذ الشيء الواحد يجتمع فيه وصفان يحب من أحدهما ويكره من الآخر ، كما في الحديث الصحيح : « ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » .

وأما من قال بالرضا بالقضاء الذي هو وصف الله وفعله لا بالمقضى الذي

هو مفعوله ، فهو خروج منه عن مقصود الكلام . فإن الكلام ليس فى الرضا فيما يقوم بذات الرب تعالى من صفاته وأفعاله ، وإنما الكلام فى الرضا بمفعولاته والكلام فيما يتعلق بهذا قد بيناه فى غير هذا الموضع .

والرضا وإن كان من أعمال القلوب فكماله هو الحمد ، حتى إن بعضهم فسر الحمد بالرضا ؛ ولهذا جاء فى الكتاب والسنة حمد الله على كل حال، وذلك يتضمن الرضا بقضائه . وفى الحديث : « أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله فى السراء والضراء » وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا أتاه الأمر يسره قال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وإذا أتاه الأمر الذي يسوؤه قال : الحمد لله على كل حال » وفى مسند الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قبض ولد العبد يقول الله لملائكته : أقبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : أقبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حمدك واسترجع ،فيقول: ابنوا لعبدي بيتاً فى الجنة ، وسموه بيت الحمد » ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو صاحب لواء الحمد ، وأمته هم الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء . والحمد على الضراء يوجبه مشهدان :

(أحدها) : علم العبد بأن الله سبحانه مستوجب لذلك ، مستحق له لنفسه ؛ فإنه أحسن كل شيء خلقه ، وأتقن كل شيء ، وهو العليم الحكيم . الخبير الرحيم .

و (الثاني) : علمه بأن اختيار الله لعبده المؤمن ، خير من اختياره لنفسه، كما روى مسلم في صحيحه وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ».

فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء ويشكر على السراء فهو خير له . قال تعالى : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) وذكرها في أربعة مواضع من كتابه .

فأما من لا يصبر على البلاء ، ولا يشكر على الرخاء ، فلا يلزم أن يكون القضاء خيراً له . ولهذا أجيب من أورد هذا على ما يقضى على المؤمن من المعاصي بجوابين .

(أحدهما) : أن هذا إنما يتناول ما أصاب العبد لا ما فعله العبد ، كما في قوله تعالى : (مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ) أي من سراء (وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ) أي من ضراء . وكقوله تعالى : (وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) أي بالسراء والضراء كما قال تعالى : (وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً) وقال تعالى : (إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ

سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا) فالحسنات والسيئات يراد بهـا المسار والمضار ، ويراد بها الطاعات والمعاصي .

(والجواب الثانى) أن هـذا فى حق المؤمن الصبار الشكور . والذنوب تنقص الإيمان ، فإذا تاب العبد أحبه الله ، وقد ترتفع درجته بالتوبة . قال بعض السلف : كان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة . فمن قضي له بالتوبة كان كما قال سعيد بن جبير : إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار ، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة ؛ وذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نصب عينه ويعجب بها ، ويعمل السيئة فتكون نصب عينه فيستغفر الله ويتوب إليه منها وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الأعمال بالخواتيم » والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع عنه بعشرة أسباب :

أن يتوب فيتوب الله عليه ، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له . أو يستغفر فيغفر له ، أو يعمل حسنات تمحوها فإن الحسنات يذهبن السيئات . أو يدعو له إخوانه المؤمنون ويستغفرون له حياً وميتاً . أو يهدون له من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به ، أو يشفع فيه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . أو يبتليه الله تعالى فى الدنيا بمصائب تكفر عنه ، أو يبتليه فى البرزخ بالصعقة فيكفر بها عنه . أو يبتليه فى عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه . أو يرحمه أرحم الراحمين .

فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه ، كما قال تعالى فيما يروي عنه رسوله صلى الله عليه وسلم : « يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

فإذا كان المؤمن يعلم أن القضاء خير له إذا كان صباراً شكوراً ، أو كان قد استخار الله وعلم أن من سعادة ابن آدم استخارته لله ورضاه بما قسم الله له كان قد رضي بما هو خير له . وفى الحديث الصحيح عن علي رضي الله عنه قال « إن الله يقضي بالقضاء فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط » ففي هذا الحديث الرضا والاستخارة ، فالرضا بعد القضاء والاستخارة قبل القضاء ، وهذا أكمل من الضراء والصبر ، فلهذا ذكر فى ذاك الرضا ، وفى هذا الصبر .

ثم إذا كان القضاء مع الصبر خيراً له فكيف مع الرضا ، ولهذا جاء فى الحديث « المصابُ من حُرِمَ الثواب » فى الأثر الذي رواه الشافعي فى مسنده : « أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مات سمعوا قائلاً يقول : يا آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إن فى الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفا من كل هالك ، ودركا من كل فائت ، فبالله فثقوا ، وإياه فارجوا . فإن المصاب من حرم الثواب » ولهذا لم يؤمر بالحزن المنافى للرضا قط، مع أنه لا فائدة فيه، فقد يكون فيه مضرة لكنه يعفى عنه إذا لم يقترن به ما يكرهه الله .

لكن البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب ، وذلك لا ينافي الرضا ؛ بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه ، وبهذا يعرف معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم لما بكى على الميت وقال : « إن هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » فإن هذا ليس كبكاء من يبكي لحظه لا لرحمة الميت ؛ فإن الفضيل بن عياض لما مات ابنه علي فضحك وقال: رأيت أن الله قد قضى فأحببت أن أرضى بما قضى الله به : حاله حال حسن بالنسبة إلى أهل الجزع . وأما رحمة الميت مع الرضا بالقضاء وحمد الله تعالى ، كحال النبي صلى الله عليه وسلم فهذا أكمل . كما قال تعالى : (ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ) فذكر سبحانه التواصي بالصبر والمرحمة .

والناس « أربعة أقسام » : منهم من يكون فيه صبر بقسوة . ومنهم من يكون فيه رحمة بجزع . ومنهم من يكون فيه القسوة والجزع . والمؤمن المحمود الذي يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس .

وقد ظن طائفة من المصنفين فى هذا الباب أن الرضا عن الله من توابع المحبة له ، وهذا إنما يتوجه على « المأخذ الأول » وهو الرضا عنه لاستحقاقه ذلك بنفسه ، مع قطع العبد النظر عن حظه ، بخلاف « المأخذ الثاني » وهو الرضا لعلمه بأن المقضى خير له ، ثم إن المحبة متعلقة به والرضا متعلق بقضائه ، لكن قد يقال في تقرير ما قال هذا المصنف ونحوه . إن المحبة لله نوعان :

محبة له نفسه ، ومحبة له لما فيه من الإحسان ، وكذلك الحمد له نوعان : حمد له علــى مايستحقه نفسه ، وحمد عــلى إحسانه إلى عبده ، فالنوعان للرضـا كالنوعين للمحبة .

وأما الرضا به وبدينه وبرسوله فذلك من حظ المحبة ؛ ولهذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذوق طعم الإيمان ، كما ذكر فى المحبة وجود حــلاوة الإيمان. وهذان الحديثان الصحيحان هما أصل فيما يذكر من الوجد والذوق الإيماني الشرعي ؛ دون الضلالي البدعي . ففي صحيح مســلم عن النبي صلى الله عليــه وسلم أنه قال : « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمــد نبيــا » وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمــان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لايحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » . وهذا ممـا يبين من الـكلام على المحبة فنقول .

فصـــــل

محبة الله بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمـان وأكبر أصوله وأجل قواعده ؛ بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمــان والدين ، كما أن

التصديق به أصل كل قول من أقوال الإيمان ، والدين ؛ فإن كل حركة فى الوجود إنما تصدر عن محبة : إما عن محبة محمودة ، أو عن محبة مذمومة ، كما قد بسطنا ذلك فى « قاعدة المحبة » من القواعد الكبار .

فجميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة . وأصل المحبة المحمودة هى محبة الله سبحانه وتعالى ، إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون عملا صالحاً ، بل جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله ؛ فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملا فأشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو كله للذي أشرك » وثبت في الصحيح حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار : « القارئ المرائى ، والمجاهد المرائى والمتصدق المرائى» .

بل إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه ، وهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل ، وأنزل به جميع الكتب ، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان ، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية ، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه .

قال تعالى : (تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ)

والسورة كلها عامتها فى هذا المعنى . كقوله : (قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ) إلى قوله :

(قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي) إلى قوله : (أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ) إلى قوله : (قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ) الآيــة . إلى قوله : (أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ * قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ * وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ) إلى قوله : (قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ) إلى قوله (بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ) .

وقال تعالى فيما قصه من قصة آدم وإبليس أنه قال : (فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ) وقال تعالى : (إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ) وقال : (إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ) فبين أن سلطان الشيطان وإغواءه إنما هو لغير المخلصين ؛ ولهذا قال فى قصة يوسف : (كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ) وأتباع الشيطان هم أصحاب النار، كما قال تعالى : (لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ) .

وقد قال سبحانه : (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ) وهذه الآية فى حق من لم يتب ولهذا خصص الشرك، وقيــد مـا

سواه بالمشيئة، فأخبر أنه لا يغفر الشرك لمن لم يتب منه ومادونه يغفره لمن يشاء. وأما قوله: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ فتلك في حق التائبين؛ ولهذا عم وأطلق، وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها.

وقد أخبر سبحانه أن الأولين والآخرين إنما أمروا بذلك في غير موضع كالسورة التي قرأها النبي صلى الله عليه وسلم على أبي لما أمره الله تعالى أن يقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ * وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ الآية.

وهذا حقيقة قول لا إله إلا الله. وبذلك بعث جميع الرسل قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ وقال: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾.

وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الأصل كما قال نوح عليه السلام: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ وكذلك هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كل يقول: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ لاسيما أفضل

الرسل الذين اتخذ الله كلاهما خليلا إبراهيم ومحمداً عليهما السلام ، فإن هـذا الأصل بينه الله بهما وأيدهما فيه ونشره بهما ، فإبراهيم هو الإمام الذي قال الله فيه : (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) وفى ذريته جعل النبوة والكتاب والرسل ، فأهل هذه النبوة والرسالة هم من آله الذين بارك الله عليهم قال سبحانه : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .

فهذه الكلمة هي كلمة الإخلاص لله وهي البراءة من كل معبود إلا من الخالق الذي فطرنا كما قال صاحب يس : (وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ * إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)
وقال تعالى فى قصته بعد أن ذكر ما بين ضلال من اتخذ بعض الكواكب ربا يعبده من دون الله، قال : (فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) إلى قوله (وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا) وقال إبراهيم الخليل عليه السلام (أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ)
وقال تعالى (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟

مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ) الآية .

ونبينا صلى الله عليه وسلم هو الذي أقام الله به الدين الخالص لله دين التوحيد، وقمع به المشركين من كان مشركا فى الأصل، ومن الذين كفروا من أهل الكتب ، وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام أحمد وغيره « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم »، وقد تقدم بعض ما أنزل الله عليه من الآيات المتضمنة للتوحيد .

وقال تعالى أيضاً : (وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا) إلى قوله : (إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ) إلى قوله : (إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ * بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ) إلى قوله : (أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ) إلى ما ذكره من قصص الأنبياء في التوحيد وإخلاص الدين لله، إلى قوله : (سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ) وقال تعالى : (إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) .

وفى الجملة فهذا الأصل فى سورة الأنعام والأعراف والنور وآل طسم

وآل حم وآل المر وسور المفصل وغير ذلك من السور المكية ومواضع من السور المدنية كثير ظاهر ، فهو أصل الأصول وقاعدة الدين حتى فى سورتى الإخلاص : (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ) و (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) . وهاتان السورتان . كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ بهما في صلاة التطوع كركعتى الطواف ، وسنة الفجر ، وهما متضمنتان للتوحيد .

فأما (قل يا أيها الكافرون) فهي متضمنة للتوحيد العملي الإرادي ، وهو إخلاص الدين لله بالقصد والإرادة ، وهو الذي يتكلم به مشايخ التصوف غالباً . وأما سورة(قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) فمتضمنة للتوحيد القولي العملي كما ثبت فى الصحيحين عن عائشة « أن رجلا كان يقرأ : قل هو الله أحد فى صلاته فقال النبي صلى الله عليه وسلم : سلوه لم يفعل ذلك ؟ فقال : لأنها صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأ بها فقال أخبروه أن الله يحبه » .

ولهذا تضمنت هذه السورة من وصف الله سبحانه وتعالى الذي ينفي قول أهل التعطيل، وقول أهل التمثيل، ما صارت بـه هي الأصل المعتمد في مسائل الذات كما قد بسطنا ذلك فى غير هذا الموضع . وذكرنا اعتماد الأئمة عليها مع ما تضمنته من تفسير الأحد الصمد كما جاء تفسيره عن النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، وما دل على ذلك من الدلائل .

لكن المقصود هنا هو « التوحيد العملي » وهو إخلاص الدين لله وإن

كان أحد النوعين مرتبطاً بالآخر . فلا يوجد أحد من أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة إلا وفيه نوع من الشرك العملي ، إذ أصل قولهم فيه شرك وتسوية بين الله وبين خلقه ، أو بينه وبين المعدومات كما يسوى المعطلة بينه وبين المعدومات في الصفات السلبية التى لا تستلزم مدحا ولا ثبوت كمال ، أو يسوون بينه وبين الناقص من الموجودات فى صفات النقص ، وكما يسوون إذا أثبتوا هم ومن ضاهاهم من الممثلة بينه وبين المخلوقات فى حقائقها حتى قد يعبدونها فيعدلون بربهم ، ويجعلون له أنداداً ، ويسوون المخلوقات برب العالمين .

واليهود كثيراً مايعدلون الخالق بالمخلوق ويمثلونه به حتى يصفوا الله بالعجز والفقر والبخل ونحو ذلك من النقائص التى يجب تنزيهه عنها وهي من صفات خلقه . والنصارى كثيراً ما يعدلون المخلوق بالخالق حتى يجعلوا فى المخلوقات من نعوت الربوبية ، وصفات الإلهية ، ويجوزون له مالا يصلح إلا للخالق سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

والله سبحانه وتعالى قد أمرنا أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » وفى هذه الأمة من فيه شبه من هؤلاء وهؤلاء كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو

دخلوا جحر ضب لدخلتموه ، قالوا : يارسول الله : اليهود والنصارى ، قال فمن » والحديث فى الصحيحين .

فإذا كان أصل العمل الديني هو إخلاص الدين لله ، وهو إرادة الله وحده فالشيء المراد لنفسه هو المحبوب لذاته ، وهذا كمال المحبة ، لكن أكثر ما جاء المطلوب مسمى باسم العبادة كقوله : (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) وقوله : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ) وأمثال هذا ، والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته ، وكمال الذل ونهايته ؛ فالمحبوب الذي لا يعظم ولا يذل له لا يكون معبوداً ، والمعظم الذي لا يحب لا يكون معبوداً ؛ ولهذا قال تعالى : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) فبين سبحانه أن المشركين بربهم الذين يتخذون من دون الله أنداداً ، وإن كانوا يحبونهم كما يحبون الله ، فالذين آمنوا أشد حباً لله منهم لله ولأوثانهم ؛ لأن المؤمنين أعلم بالله ، والحب يتبع العلم ، ولأن المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده ، وأولئك جعلوا بعض حبهم لغيره وأشركوا بينه وبين الأنداد فى الحب ، ومعلوم أن ذلك أكمل . قال تعالى : (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

واسم المحبة فيه إطلاق وعموم فإن المؤمن يحب الله ويحب رسله وأنبياءه وعباده المؤمنين ، وإن كان ذلك من محبة الله ، وإن كانت المحبة التى لله

لا يستحقها غيره ؛ ولهذا جاءت محبة الله سبحانه وتعالى مذكورة بما يختص به سبحانه من العبادة والإنابة إليه والتبتل له ؛ ونحو ذلك. فكل هذه الأسماء تتضمن محبة الله سبحانه وتعالى.

ثم إنه كما بين أن محبته أصل الدين، فقد بين أن كمال الدين بكمالها ونقصه بنقصها، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله ». فأخبر أن الجهاد ذروة سنام العمل وهو أعلاه وأشرفه. وقد قال تعالى: (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ) إلى قوله: (أَجْرٌ عَظِيمٌ)، والنصوص في فضائل الجهاد وأهله كثيرة.

وقد ثبت أنه أفضل ما تطوع به العبد. والجهاد دليل المحبة الكاملة. قال تعالى: (قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ) الآية. وقال تعالى فى صفة المحبين المحبوبين: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ) فوصف المحبوبين المحبين بأنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، وأنهم يجاهدون فى سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم.

فإن المحبة مستلزمة للجهاد ، لأن المحب يحب ما يحب محبوبه ، ويبغض ما يبغض محبوبه ، ويوالي من يواليه ويعادي من يعاديه ؛ ويرضى لرضاه ويغضب لغضبه ، ويأمر بما يأمر به وينهي عما ينهى عنه ، فهو موافق له فى ذلك . وهؤلاء هم الذين يرضى الرب لرضاهم ويغضب لغضبهم ، إذ هم إنما يرضون لرضاه ويغضبون لما يغضب له ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر فى طائفة فيهم صهيب وبلال : « لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك . فقال لهم : يا إخوتي ! هل أغضبتكم قالوا لا ؛ يغفر الله لك يا أبا بكر ! » وكان قد مر بهم أبو سفيان بن حرب فقالوا : ما أخذت السيوف من عدو الله مأخذها ، فقال لهم أبو بكر : أتقولون هذا لسيد قريش ؟ وذكر أبو بكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال له ما تقدم ؛ لأن أولئك إنما قالوا ذلك غضباً لله لكمال ما عندهم من الموالاة لله ورسوله ، والمعاداة لأعداء الله ورسوله .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح فيما يروى عن ربه : « لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ؛ ويده التى يبطش بها ؛ ورجله التى يمشي بها ؛ فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشي ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن : يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه » . فبين سبحانه أنه يتردد لأن التردد تعارض إرادتين ، وهو سبحانه يحب ما يحب عبده

ويكره ما يكرهه ، وهو يكره الموت فهو يكرهه ، كما قال وأنا أكره مساءته ؛ وهو سبحانه قد قضى بالموت فهو يريد أن يموت ، فسمى ذلك تردداً، ثم بين أنه لا بد من وقوع ذلك .

وهذا اتفاق واتحاد في المحبوب المرضي المأمور به والمبغض المكروه المنهي عنه . وقد يقال له اتحاد نوعي وصفي ، وليس ذلك اتحاد الذاتين ؛ فإن ذلك محال ممتنع ، والقائل به كافر ، وهو قول النصارى، والغالية من الرافضة والنساك كالحلاجية ونحوهم ، وهو « الاتحاد المقيد » فى شيء بعينه .

وأما « الاتحاد المطلق » الذي هو قول أهل وحدة الوجود الذين يزعمون أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق ، فهذا تعطيل للصانع وجحود له ، وهو جامع لكل شرك ؛ فكما أن الاتحاد نوعان ، فكذلك الحلول نوعان : قوم يقولون : بالحلول المقيد فى بعض الأشخاص ، وقوم يقولون : بحلوله فى كل شيء ، وهم الجهمية الذين يقولون : إن ذات الله فى كل مكان .

وقد يقع لبعض المصطلمين من أهل الفناء فى المحبة أن يغيب بمحبوبه عن نفسه وحبه ؛ ويغيب بمذكوره عن ذكره ؛ وبمعروفه عن معرفته ، وبموجوده عن وجوده ؛ حتى لا يشهد إلا محبوبه، فيظن فى زوال تمييزه ونقص عقله وسكره أنه هو محبوبه . كما قيل : إن محبوباً وقع في اليم فألقى المحب نفسه خلفه ، فقال

أنا وقعت فأنت ما الذي أوقعك ؟ فقال ، غبت بك عني ، فظننت أنك أني،فلا ريب أن هذا خطأ وضلال .

لكن إن كان هذا لقوة المحبة والذكر من غير أن يحصل عن سبب محظور زال به عقله كان معذوراً في زوال عقله ؛ فلا يكون مؤاخذاً بما يصدر منه من الكلام في هذه الحال التي زال فيها عقله بغير سبب محظور ؛ كما قيل في عقلاء المجانين : إنهم قوم آتاهم الله عقولاً وأحوالاً فسلب عقولهم وأبقى أحوالهم ، وأسقط ما فرض بما سلب .

وأما إذا كان السبب الذي به زوال العقل محظوراً لم يكن السكران معذوراً ؛ وإن كان لا يحكم بكفره في أصح القولين ، كما لا يقع طلاقه في أصح القولين،وإن كان النزاع في الحكم مشهوراً.وقد بسطنا الكلام في هذا ؛ وفيمن يسلم له حاله ومن لا يسلم في «قاعدة» ذلك .

وبكل حال ؛ فالفناء الذي يفضي بصاحبه إلى مثل هذا حال ناقص ؛ وإن كان صاحبه غير مكلف ، ولهذا لم يرد مثل هذا عن الصحابة الذين هم أفضل هذه الأمة ولا عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهو أفضل الرسل ، وإن كان لهؤلاء في صعق موسى نوع تعلق ، وإنما حدث زوال العقل عند الواردات الإلهية على بعض التابعين ومن بعدهم ، وإن كانت المحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه وولايته وعداوته ، فمن المعلوم أن من

أحب الله المحبــة الواجبة فلا بد أن يبغض أعداءه ، ولا بد أن يحب ما يحبــه من جهادهم كما قال تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ) .

والمحب التام لا يؤثر فيه لوم اللائم وعذل العاذل ، بل ذلك يغريه بملازمة المحبة، كما قد قال أكثر الشعراء فى ذلك ، وهؤلاء هم أهــل الملام المحمود وهم الذين لا يخافون من يلومهم على ما يحب الله ويرضاه من جهاد أعدائه ، فإن الملام على ذلك كثير . وأما الملام على فعل ما يكرهه الله أو ترك ما أحبــه فهو لوم بحق ، وليس من المحمود الصبر على هذا الملام ، بل الرجوع إلى الحق خير من التمادي فى الباطل . وبهذا يحصل الفرق بين «الملامية» الذين يفعــلون ما يحبــه الله ورســوله ولا يخــافون لومــة لائم فى ذلــك ، وبــين « الملاميــة » الذين يفعــلون ما يبغضــه الله ورسوله ويصبرون عــلى الملام فى ذلك .

فصـــــل

وإذا كانت المحبة أصل كل عمل دينى ، فالخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها ، فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبــه لا فيما يبغضه . والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب . قال تعــالى : (أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ

يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ)

الآية . وقال (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ) .

و«رحمته» اسم جامع لكل خير . «وعذابه» اسم جامع لكل شر . ودار الرحمة الخالصة هي الجنة ، ودار العذاب الخالص هي النار ، وأما الدنيا فدار امتزاج، فالرجاء وإن تعلق بدخول الجنة فالجنة اسم جامع لكل نعيم وأعلاه النظر إلى وجه الله ، كما في صحيح مسلم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد . يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : ما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ؟ ألم يثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة وينجينا من النار ؟ قال فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه » وهو الزيادة .

ومن هنا يتبين زوال الاشتباه في قول من قال : ما عبدتك شوقاً إلى جنتك ولا خوفاً من نارك ؛ وإنما عبدتك شوقاً إلى رؤيتك ، فإن هذا القائل ظن هو ومن تابعه أن الجنة لا يدخل في مسماها إلا الأكل والشرب واللباس والنكاح والسماع ونحو ذلك مما فيه التمتع بالمخلوقات ، كما يوافقه على ذلك من ينكر رؤية الله من الجهمية، أو من يقربها، ويزعم أنه لا تمتع بنفس رؤية الله ، كما يقوله طائفة من المتفقهة . فهؤلاء متفقون على أن مسمى الجنة والآخرة

لا يدخل فيه إلا التمتع بالمخلوقات ؛ ولهذا قال بعض من غلط من المشايخ لما سمع قوله : (مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ) قال فأين من يريد الله ، وقال آخر فى قوله تعالى :(إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ) قال إذا كانت النفوس والأموال بالجنة فأين النظر إليه، وكل هذا لظنهم أن الجنة لا يدخل فيها النظر .

و « التحقيق » أن الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم ، وأعلى مافيها النظر إلى وجه الله ، وهو من النعيم الذي ينالونه فى الجنة ؛ كما أخبرت به النصوص . وكذلك أهل النار فإنهم محجوبون عن ربهم ، يدخلون النار ، مع أن قائل هذا القول إذا كان عارفاً بما يقول فإنما قصده أنك لو لم تخلق ناراً أو لو لم تخلق جنة لكان يجب أن تعبد ويجب التقرب إليك والنظر إليك ، ومقصوده بالجنة هنا ما يتمتع فيه المخلوق .

وأما عمل الحي بغير حب ولا إرادة أصلا فهذا ممتنع ،وإن تخيله بعض الغالطين من النساك ، وظن أن كمال العبد أن لا تبقى له إرادة أصلا فذاك لأنه تكلم فى حال الفناء.والفاني ــ الذي يشتغل بمحبوبه ــ له إرادة ومحبة ولكن لا يشعر بها ، فوجود المحبة شيء ، والإرادة شيء ، والشعور بها شيء آخر. فلما لم يشعروا بها ظنوا انتفاءها وهو غلط ؛ فالعبد لا يتصور أن يتحرك قط إلا عن حب وبغض وإرادة ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « أصدق الأسماء حارث وهمام » فكل إنسان له حرث وهو العمل ، وله هم وهو أصل

الإرادة ولكن تارة يقوم بالقلب من محبة الله مايدعوه إلى طاعته ، ومن إجلاله والحياء منه ماينهاه عن معصيته كما قال عمر رضي الله عنه نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه أي هو لم يعصه ولو لم يخفه فكيف إذا خافه ، فإن إجلاله وإكرامه لله يمنعه من معصيته .

فالراجي الخائف إذا تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب باحتجاب الرب عنه والتنعم بتجليه له فمعلوم أن هذا من توابع محبته له ، فالمحبة هي التى أوجبت محبة التجلي والخوف من الاحتجاب ، وإن تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب بمخلوق والتنعم به فهذا إنما يطلب ذلك بعبادة الله المستلزمة محبته، ثم إذا وجد حلاوة محبة الله وجدها أحلى من كل محبة ؛ ولهذا يكون اشتغال أهل الجنة بذلك أعظم من كل شيء كما فى الحديث « إن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس» وهو يبين غاية تنعمهم بذكر الله ومحبته. فالخوف من التعذب بمخلوق والرجاء له يسوقه إلى محبة الله التى هي الأصل .

وهذا كله ينبني على «أصل المحبة» فيقال قد نطق الكتاب والسنة بذكر محبة العباد المؤمنين ، كما فى قوله : (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) وقوله تعالى: (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ) وقوله تعالى : (أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ) وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقي فى النار »

بل محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت لمحبة الله كما فى قوله تعالى : (أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ) وكما فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » ، وفى صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب أنه قال : والله يارسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال : لا يا عمر ! حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال والله لأنت أحب إلي من نفسي قال : الآن ياعمر »

وكذلك محبة صحابته وقرابته ، كما فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار » وقال : « لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر » وقال علي رضي الله عنه : « إنه لعهد النبي الأمي إلي أنه لا يحبني إلا مؤمن ، ولا يبغضني إلا منافق » وفى السنن أنه قال للعباس : « والذي نفسي بيده لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم لله ولقرابتي » يعني بني هاشم . وقد روى حديث عن ابن عباس مرفوعا أنه قال : « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبوني بحب الله وأحبوا أهل بيتي لأجلي »

وأما محبة الرب سبحانه لعبده فقال تعالى : (وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا) وقال تعالى : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ) وقال تعالى : (وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ) (وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ) (فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ

مُدَّتِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ) (فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ) (إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ) (بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ)

وأما الأعمال التي يحبها الله من الواجبات والمستحبات الظاهرة والباطنة فكثيرة معروفة ، وكذلك حبه لأهلها وهم المؤمنون أولياء الله المتقون .

وهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة ، والذي عليه سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والحديث وجميع مشايخ الدين المتبعون ، وأئمة التصوف أن الله سبحانه محبوب لذاته محبة حقيقية ؛ بل هي أكمل محبة ، فإنها كما قال تعالى : (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) وكذلك هو سبحانه يحب عباده المؤمنين محبة حقيقية .

وأنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الطرفين ، زعما منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب ، وأنه لامناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة ، وكان أول من ابتدع هذا فى الإسلام هو الجعد بن درهم فى أوائل المائة الثانية فضحى به خالد بن عبد الله القسري أمير العراق والمشرق بواسط .
خطب الناس يوم الأضحى فقال : أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحايا كم ، فإني مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم

موسى تكليما ثم نزل فذبحه وكان قد أخذ هذا المذهب عنه الجهم بن صفوان فأظهره وناظر عليه ، وإليه أضيف قول الجهمية فقتله سلم بن أحوز أمير خراسان بها ثم انتقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد وظهر قولهم أثناء خلافة المأمون ، حتى امتحن أئمة الإسلام ودعوا إلى الموافقة لهم على ذلك .

وأصل قولهم هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة من البراهمة والمتفلسفة ومبتدعة أهل الكتاب الذين يزعمون أن الرب ليس له صفة ثبوتية أصلا ، وهؤلاء هم أعداء إبراهيم الخليل عليه السلام ، وهم يعبدون الكواكب ويبنون الهياكل للعقول والنجوم وغيرها ، وهم ينكرون فى الحقيقة أن يكون إبراهيم خليلا ، وموسى كليما ، لأن الخلة هي كمال المحبة المستغرقة للمحب كما قيل :

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمى الخليل خليلا

ويشهد لهذا ماثبت في الصحيح عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله » — يعني نفسه — . وفى رواية : « إنى أبرأ إلى كل خليل من خلته ، ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لا تخذت أبا بكر خليلا » وفى رواية : « إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم

خليلا » فبين صلى الله عليه وسلم أنه لايصلح له أن يتخذ من المخلوقين خليلا وأنه لوأمكن ذلـك لـكان أحـق الناس بهـا أبو بكر الصديق رضـي الله عنـه .

مع أنه صلى الله عليه وسلم قد وصف نفسه بأنـه يحب أشخاصا كما قال لمعاذ : « والله إني لأحبك » وكذلك قوله للأنصار . وكان زيـد بن حارثة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك ابنـه أسامة حبه، وأمثال ذلك . وقال له عمرو بن العاص : « أي الناس أحب إليـك ؟ قـال : عائشة . قال فمن الرجال . قال أبوها » . وقال لفاطمة ابنته رضي الله عنها « ألا تحبين ما أحب ؟ قالت : بلى ! قال : فأحبي عائشة » . وقال للحسن : « اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه » وأمثال هذا كثير .

فوصف نفسه بمحبة أشخاص وقـال : « إنى أبرأ إلى كل خليل من خلته،ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا » فعـلم أن الخلة أخص من مطلق المحبة بحيث هي من كمالهـا وتخللها المحب حتى يكون المحبوب بها محبوباً لذاته لا لشيء آخر . إذ المحبوب لشيء غيره هو مؤخر فى الحب عن ذلك الغير، ومن كمالهـا لاتقبل الشركة والمزاحمة لتخللها المحب ففيهـا كمال التوحيد وكمال الحب .

فالخلة تنافى المزاحمة ، وتقدم الغير بحيث يكون المحبوب محبوباً لذاتـه

محبة لا يزاحمه فيها غيره ، وهذه محبة لاتصلح إلا لله ، فلا يجوز أن يشركه غيره فيما يستحقه من المحبة ، وهو محبوب لذاتـه وكل مايحب غيره — إذا كان محبوبا بحق — فإنما يحب لأجـله ، وكل ما أحب لغـيره فمحبته باطـلة، فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله تعالى . وإذا كانت الخـلة كذلك فمن المعلوم أن من أنكر أن يكون الله محبوبا لذاته ينكر مخاللته . وكذلك أيضاً إن أنكر محبته لأحد من عباده فهو ينكر أن يتخذه خليلا بحيث يحب الرب ويحبه العبد على أ كمل مايصلح للعباد .

وكذلك تكليمه لموسى أنكروه لإنكارهم أن تقوم بـه صفة من الصفات أو فعل من الأفعال ، فكما ينكرون أن يتصف بحياة أو قـدرة أو عـلم أو أن يستوي أو أن يجيء فكذلك ينكرون أن يتكلم أو يكلـم، فهذا حقيقة قولهم . (كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ) .

لكن لما كان الإسلام ظاهراً، والقرآن متـلوا لا يمكن جحده لمن أظهر الإسلام ، أخذوا يلحدون في أسماء الله ويحرفون الـكلم عن مواضعه فتأولوا محبة العباد له بمجرد محبتهم لطاعته أو التقرب اليه ، وهذا جهل عظيم ، فإن محبة المتقرب إلى المتقرب إليه تابع لمحبته وفرع عليه ، فمن لايحب الشيء لا يمكن أن يحب التقرب إليه ، إذ التقرب وسيلة ، ومحبـة الوسيلة تبـع لمحبة المقصود ، فيمتنع أن تكون الوسيلة إلى الشيء المحبوب هي المحبوب دون الشيء المقصود بالوسيلة .

وكذلك «العبادة والطاعة» إذا قيل فى المطاع المعبود : إن هذا يحب طاعته وعبادته ، فإن محبته ذلك تبع لمحبتــه ، وإلا فمن لايحب لا يحب طاعتــه وعبادته ، ومن كان لايعمل لغيره إلا لعوض يناله منه أو لدفع عقوبة فإنــه يكون معاوضاً له أو مفتديا منــه لا يكون محباً له . ولا يقال إن هــذا يحبه ويفسر ذلك بمحبة طاعته وعبادتــه ، فإن محبــة المقصود وإن استلزمت محبــة الوسيلة أو غير محبة الوسيلة ، فإن ذلك يقتضي أن يعبر بلفظين محبة العوض والسلامة عن محبة العمل . أما محبة الله فــلا تعلق لهــا بمجرد محبــة العوض ، ألا ترى أن من استأجر أجيراً بعوض لايقال إن الأجير يحبه بمجرد ذلك ، بل قد يستأجر الرجل من لايحبه بحال بل من يبغضه ، وكذلك من افتدى نفسه بعمل من عذاب معذب لايقال إنه يحبــه بل يكون مبغضاً له . فعلم أن مــا وصف الله به عباده المؤمنين من أنهــم يحبونه يمتنــع أ لا يكون معناه إلا مجرد محبة العمل الذي ينالون به بعض الأغراض المخلوقة من غير أن يكــون ربهم محبوبا أصلا .

وأيضاً فلفظ «العبادة» متضمن للمحبة مع الذل كما تقدم ، ولهذا كانت محبة القلب للبشر على طبقات .

أحدها : « العلاقة » وهو تعلق القلب بالمحبوب . ثم « الصبابة » وهو انصباب القلب إليه . ثم « الغرام » وهو الحب اللازم . ثم « العشق » وآخر

المراتب هو «التتيم» وهو التعبد للمحبوب ، والمتيم المعبود ، وتيم الله عبد الله فإن المحب يبقى ذاكراً معبداً مذللا لمحبوبه .

و(أيضاً) فاسم الإنابة إليه يقتضي المحبة أيضاً ، وما أشبه ذلك من الأسماء كما تقدم .

و (أيضاً) فلو كان هذا الذي قالوه حقاً من كون ذلك مجازاً لما فيه من الحذف والإضمار ؛ فالمجاز لا يطلق إلابقرينة تبين المراد. ومعلوم أن ليس في كتاب الله وسنة رسوله ماينفى أن يكون الله محبوباً ، وأن لا يكون المحبوب إلا الأعمال لا فى الدلالة المتصلة ولا المنفصلة بل ولا فى العقل أيضاً و (أيضا) فمن علامات المجاز صحة إطلاق نفيه فيجب أن يصح إطلاق القول بأن الله لا يحب ولا يحب ،كما أطلق إمامهم الجعد بن درهم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، ومعلوم أن هذا ممتنع بإجماع المسلمين، فعلم دلالة الإجماع على أن هذا ليس مجازاً ، بل هي حقيقة .

و (أيضاً) فقد فرق بين محبته ومحبة العمل له فى قوله تعالى (أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ) كما فرق بين محبته ومحبة رسوله فى قوله تعالى (أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ) فلو كان المراد بمحبته ليس إلا محبة العمل لكان هذا تكريراً ، أو من باب عطف الخاص على العام ، وكلاهما على خلاف ظاهر الكلام الذي لا يجوز المصير إليه إلا بدلالة تبين المراد . و كما أن

محبته لا يجوز أن تفسر بمجرد محبة رسوله ، فكذلك لا يجوز تفسيرها بمجرد محبة العمل له ، وإن كانت محبته تستلزم محبة رسوله ومحبة العمل له .

و(أيضاً) فالتعبير بمحبة الشيء عن مجرد محبة طاعته لا عن محبة نفسه أمر لا يعرف فى اللغة لا حقيقة ولا مجازاً : فحمل الكلام عليه تحريف محض أيضاً . وقد قررنا فى مواضع من القواعد الكبار أنه لا يجوز أن يكون غير الله محبوباً مراداً لذاته كما لا يجوز أن يكون غير الله موجوداً بذاته ، بل لا رب إلا الله ولا إله إلا هو المعبود الذي يستحق أن يحب لذاته ويعظم لذاته ، كمال المحبة والتعظيم .

وكل مولود يولد على الفطرة فإنه سبحانه فطر القلوب على أنه ليس في محبوباتها ومراداتها ما تطمئن إليه وتنتهي إليه إلا الله وحده ، وأن كل ما أحبه المحبوب من مطعوم وملبوس ومنظور ومسموع وملموس يجد من نفسه أن قلبه يطلب شيئاً سواه ، ويحب أمراً غيره يتألهه ويصمد إليه ويطمئن إليه ويرى ما يشبهه من هذه الأجناس ، ولهذا قال الله تعالى فى كتابه : (أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ) وفى الحديث الصحيح عن عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى أنه قال : « إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين ، وحرمَتْ عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً » كما فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج

البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم (فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ) .

و (أيضاً) فكل ما فطرت القلوب على محبته من نعوت الكمال فالله هو المستحق له على الكمال ، وكل ما فى غيره من محبوب فهو منه سبحانه وتعالى فهو المستحق لأن يحب على الحقيقة والكمال . وإنكار محبة العبد لربه هو فى الحقيقة إنكار لكونه إلهاً معبوداً ، كما أن إنكار محبته لعبده يستلزم إنكار مشيئته وهو يستلزم إنكار كونه رباً خالقاً فصار إنكارها مستلزماً لإنكار كونه رب العالمين ، ولكونه إله العالمين . وهذا هو قول أهل التعطيل والجحود .

ولهذا اتفقت الأمتان قبلنا على ما عندهم من مأثور وحكم عن موسى وعيسى صلوات الله عليهما وسلامه أن أعظم الوصايا أن تحب الله بكل قلبك وعقلك وقصدك وهذا هو حقيقة الحنيفية ملة إبراهيم التى هي أصل شريعة التوراة والإنجيل والقرآن ، وإنكار ذلك هو مأخوذ عن المشركين والصابئين أعداء إبراهيم الخليل ومن وافقهم على ذلك من متفلسف ومتكلم ومتفقه ومبتدع أخذه عن هؤلاء ؛ وظهر ذلك فى القرامطة الباطنية من الإسماعيلية ، ولهذا قال الخليل إمام الحنفاء صلوات الله وسلامه عليه (أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ) وقال أيضاً : (لَآ أُحِبُّ

ٱلۡأٓفِلِينَ) وقال تعالى : (يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ)
وهو السليم من الشرك .

وأما قولهم: «إنه لا مناسبة بين المحدث والقديم توجب محبته له وتمتعه بالنظر إليه». فهذا الكلام مجمل . فإن أرادوا بالمناسبة أنه ليس بينهما توالد فهذا حق ، وإن أرادوا أنه ليس بينهما من المناسبة ما بين الناكح والمنكوح والآكل والمأكول،أو نحو ذلك فهذا أيضاً حق ، وإن أرادوا أنه لا مناسبة بينهما توجب أن يكون أحدهما محباً عابداً،والآخر معبوداً محبوباً فهذا هو رأس المسألة ، فالاحتجاج به مصادرة على المطلوب ، ويكفي فى ذلك المنع .

ثم يقال بل لا مناسبة تقتضي المحبة الكاملة إلا المناسبة التى بين المخلوق والخالق الذي لا إله غيره الذي هو في السماء إله وفي الأرض إله ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض . وحقيقة قول هؤلاء جحد كون الله معبوداً فى الحقيقة ، ولهذا وافق على هذه المسألة طوائف من الصوفية المتكلمين الذين ينكرون أن يكون الله محباً فى الحقيقة ، فأقروا بكونه محبوباً ومنعوا كونه محباً ؛ لأنهم تصوفوا مع ما كانوا عليه من قول أولئك المتكلمة ، فأخذوا عن الصوفية مذهبهم فى المحبة،وإن كانوا قد يخلطون فيه ، وأصل إنكارها إنما هو قول المعتزلة ونحوهم من الجهمية،فأما محبة الرب عبده فهم لها أشد إنكاراً .
ومنكروها قسمان :

(قسم) يتأولونها بنفس المفعولات التى يحبها العبد فيجعلون محبته نفس خلقه .

و (قسم) يجعلونها نفس إرادته لتلك المفعولات . وقد بسطنا الكلام فى ذلك فى « قواعد الصفات والقدر » وليس هذا موضعها .

ومن المعلوم أنه قد دل الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة على أن الله يحب ويرضى ما أمر بفعله من واجب ومستحب ، وإن لم يكن ذلك موجوداً،وعلى أنه قد يريد وجود أمور يبغضها ويسخطها من الأعيان والأفعال كالفسق والكفر ، وقد قال الله تعالى : (وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ) وقال تعالى: (وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ) .

والمقصود هنا إنما هو ذكر محبة العباد لإلههم .

وقد تبين أن ذلك هو أصل أعمال الإيمان ، ولم يتبين بين أحد من سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان نزاع فى ذلك ، وكانوا يحركون هذه المحبة بما شرع الله أن تحرك به من أنواع العبادات الشرعية كالعرفان الإيماني والسماع الفرقاني ، قال تعالى : (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ) إلى آخر السورة .

ثم إنه لما طال الأمد صار في طوائف المتكلمة من المعتزلة وغيرهم من ينكر هذه المحبة.

وصار فى بعض المتصوفة من يطلب تحريكها بأنواع من سماع الحدبث كالتغبير ، وسماع المكاء والتصدية ، فيسمعون من الأقوال والأشعار ما فيه تحريك جنس الحب الذي يحرك من كل قلب ما فيه من الحب بحيث يصلح لحب الأوثان والصلبان والإخوان والأوطان والمردان والنسوان كما يصلح لحب الرحمن ، ولكن كان الذين يحضرونه من الشيوخ يشترطون له المكان والإمكان والخلان ، وربما اشترطوا له الشيخ الذي يحرس من الشيطان ، ثم توسع فى ذلك غيرهم حتى خرجوا فيه إلى أنواع من المعاصي ، بل إلى أنواع من الفسوق؛بل خرج فيه طوائف إلى الكفر الصريح بحيث يتواجدون على أنواع من الأشعار التى فيها الكفر والإلحاد ، مما هو من أعظم أنواع الفساد ، وينتج ذلك لهم من الأحوال بحسبه، كما تنتج لعباد المشركين وأهل الكتاب عباداتهم بحسبها.

والذي عليه محققو المشايخ أنه كما قال الجنيد رحمه الله : من تكلف السماع فتن به ، ومن صادفه السماع استراح به . ومعنى ذلك أنه لا يشرع الاجتماع لهذا السماع المحدث ، ولا يؤمر به ، ولا يتخذ ذلك ديناً ، وقربة ، فإن القرب والعبادات إنما تؤخذ عن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، فكما أنه لا حرام إلا ما حرمه الله،ولا دين إلا ما شرعه الله . قال الله تعالى : (أَمْ

لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ) ولهذا قال تعالى : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) فجعل محبتهم لله موجبة لمتابعة رسوله ، وجعل متابعة رسوله موجبة لمحبة الله لهم ، قال أبي ابن كعب رضي الله عنه : عليكم بالسبيل والسنة ،فإنه ما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله فاقشعر جلده من مخافة الله إلا تحاتت عنه خطاياه ، كما يتحات الورق اليابس عن الشجرة،وما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله إلا لم تمسه النار أبداً ، وإن اقتصاداً فى سبيل وسنة خير من اجتهاد فى خلاف سبيل وسنة؛ فاحرصوا أن تكون أعمالكم اقتصاداً أو اجتهاداً على منهاج الأنبياء وسنتهم . وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع.

فلو كان هذا مما يؤمر به ويستحب وتصلح به القلوب للمعبود المحبوب لكان ذلك مما دلت الأدلة الشرعية عليه ، ومن المعلوم أنه لم يكن فى القرون الثلاثة المفضلة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم : « خير القرون قرني الذي بعثت فيه،ثم الذين يلونهم،ثم الذين يلونهم » لا فى الحجاز ، ولا فى الشام ، ولا فى اليمن ، ولا فى العراق ، ولا فى مصر ، ولا فى خراسان أحد من أهل الخير والدين يجتمع على السماع المبتدع لصلاح القلوب، ولهذا كرهه الأئمة كالإمام أحمد وغيره ، حتى عده الشافعي من إحداث الزنادقة حين قال : خلفت ببغداد شيئاً أحدثه الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن .

وأما مالم يقصده الإنسان من الإستماع فلا يترتب عليه لا نهي ولا ذم باتفاق الأئمة ؛ ولهذا إنما يترتب الذم والمدح على الاستماع لا على السماع ، فالمستمع للقرآن يثاب عليه،والسامع له من غير قصد وإرادة لايثاب على ذلك إذ الأعمال بالنيات . وكذلك ماينهى عن استماعه من الملاهي لو سمعه السامع بدون قصده لم يضره ذلك ، فلو سمع السامع بيتاً يناسب بعض حاله فحرك ساكنه المحمود،وأزعج قاطنه المحبوب أو تمثل بذلك ونحو ذلك لم يكن هذا مما ينهى عنه ، وكان المحمود الحسن حركة قلبه التي يحبها الله ورسوله إلى محبته التي تتضمن فعل مايحبه الله وترك ما يكرهه الله ، كالذي اجتاز بيتاً فسمع قائلا يقول :

كل يوم تتلون غير هذا بك أجمل

فأخذ منه إشارة تناسب حاله؛ فإن الإشارات من باب القياس والاعتبار وضرب الأمثال .

ومسألة « السماع » كبيرة منتشرة قد تكلمنا عليها في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن المقاصد المطلوبة للمريدين تحصل بالسماع الإيماني القرآني النبوي الديني الشرعي الذي هو سماع النبيين ، وسماع العالمين ، وسماع العارفين ، وسماع المؤمنين . قال الله تعالى : (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم

مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ) إلى قوله : (إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا) وقال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا) إلى قوله (وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) وقال تعالى : (وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ) وقال تعالى : (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) . وقال تعالى : (ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) الآية .

وكما مدح المقبلين على هذا السماع فقد ذم المعرضين عنه في مثل قوله : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا) إلى قوله (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) وقال تعالى : (وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا) وقال تعالى : (فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ).

وقال تعالى : (إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ) الآية وقال تعالى : (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) وقال تعالى : (فَمَا لَهُمْ

عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ * كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ * فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ) ومثل هذا كثير في القرآن .

وهذا كان سماع سلف الأمة، وأكابر مشايخها وأئمتها كالصحابة والتابعين ومن بعدهم من المشايخ كإبراهيم بن أدهم ، والفضيل بن عياض ، وأبي سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي ، ويوسف بن أسباط ، وحذيفة المرعشي ، وأمثال هؤلاء .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري : يا أبا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يسمعون ويبكون . وكان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ القرآن والباقي يستمعون وقد ثبت في الصحيح : « أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ فجعل يستمع لقراءته وقال لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود » وقال : « مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك فقال : لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً » أي لحسنته لك تحسيناً وقال صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » وقال : « الله أشد أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته » ـ أذنا أي استماعا ـ كقوله: (وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ) أي استمعت وقال صلى الله عليه وسلم : «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به » وقال : «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» .

ولهـــذا السماع من المواجيد العظيمة ، والأذواق الكريمــة ، ومزيد المعارف والأحوال الجسيمة مالا يتسع له خطاب ، ولا يحويه كتــاب ، كما أن فى تدبر القرآن وتفهمه من مزيد العلم والإيمان مالا يحيط به بيان .

ومما ينبغي التفطن له أن الله سبحانه قال في كتابه : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) قال طائفة من السلف ادعى قوم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) الآية . فبين سبحانه أن محبته توجب اتباع الرسول ، وأن اتباع الرسول يوجب محبة الله للعبد ، وهذه محبة امتحن الله بهــا أهل دعوى محبة الله ، فإن هذا الباب تــكثر فيه الدعاوى والاشتباه ؛ ولهذا يروى عن ذي النون المصري أنهم تكلموا فى مسألة المحبة عنده فقال : اسكتوا عن هذه المسألة لئلا تسمعها النفوس فتدعيها .

وقال بعضهم من عبد الله بالحب وحـــده فهو زنديق ، ومن عبــد الله بالخوف وحده فهو حروري ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحــد ، وذلك لأن الحب المجرد تنبسط النفوس فيه حتى تتوسع فى أهوائها إذا لم يزعها وازع الخشية لله حتى قالت اليهود والنصارى (نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) ويوجد فى مدعى المحبة من مخالفة الشريعة مالا يوجد فى أهل الخشية،ولهـــذا قرن الخشية بهــا فى قوله :

(هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ) .

وكان المشايخ المصنفون في السنة يذكرون فى عقائدهم مجانبة من يكثر دعوى المحبة والخوض فيها من غير خشية ، لما فى ذلك من الفساد الذي وقع فيه طوائف من المتصوفة ، وما وقع فى هؤلاء من فساد الاعتقاد والأعمال أوجب إنكار طوائف لأصل طريقة المتصوفة بالكلية ، حتى صار المنحرفون صنفين .

صنف يقر بحقها وباطلها .

وصنف ينكر حقها وباطلها كما عليه طوائف من أهل الكلام والفقه .

والصواب إنما هو الإقرار بما فيها وفى غيرها من موافقة الكتاب والسنة والإنكار لما فيها وفى غيرها من مخالفة الكتاب والسنة .

وقال تعالى : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) ، فاتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم وشريعته باطناً وظاهراً هي موجب محبة الله، كما أن الجهاد فى سبيله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه هو حقيقتها ، كما فى الحديث : «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض فى الله»،

وفى الحديث : «من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله فقد استكمل الإيمان» .

وكثير ممن يدعي المحبة هو أبعد من غيره عن اتباع السنة وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد فى سبيل الله ، ويدعي مع هذا أن ذلك أكمل لطريق المحبة من غيره لزعمه أن طريق المحبة لله ليس فيه غيرة ، ولا غضب لله وهذا خلاف مادل عليه الكتاب والسنة ، ولهذا فى الحديث المأثور . « يقول الله تعالى يوم القيامة أين المتحابون بجلالي ؟ اليوم أظلهم فى ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » فقوله أين المتحابون بجلال الله تنبيه على مافى قلوبهم من إجلال الله وتعظيمه مع التحاب فيه ، وبذلك يكونون حافظين لحدوده ، دون الذين لا يحفظون حدوده لضعف الإيمان فى قلوبهم ، وهؤلاء الذين جاء فيهم الحديث « حقت محبتى للمتحابين فى ، وحقت محبتى للمتجالسين فى ، وحقت محبتى للمتزاورين في ، وحققت محبتى للمتباذلين فى » والأحاديث فى المتحابين فى الله كثيرة .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم من حديث أبى هريرة رضي الله عنه « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة

ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله رب العالمين » .

وأصل المحبة هو معرفة الله سبحانه وتعالى ولها أصلان :

(أحدهما) : وهو الذي يقال له محبة العامة لأجل إحسانه إلى عباده ، وهذه المحبة على هذا الأصل لاينكرها أحد ، فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها،وبغض من أساء إليها،والله سبحانه هو المنعم المحسن إلى عبده بالحقيقة، فإنه المتفضل بجميع النعم ، وإن جرت بواسطة ؛ إذ هو ميسر الوسائط ، ومسبب الأسباب ، ولكن هذه المحبة فى الحقيقة إذا لم تجذب القلب إلى محبة الله نفسه ، فما أحب العبد فى الحقيقة إلا نفسه،وكذلك كل من أحب شيئاً لأجل إحسانه إليه فما أحب فى الحقيقة إلا نفسه . وهذا ليس بمذموم بل محمود .

وهذه المحبة هي المشار إليها بقوله صلى الله عليه وسلم « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه،وأحبوني لحب الله،وأحبوا أهلي بحبي » والمقتصر على هذه المحبة هو لم يعرف من جهة الله ما يستوجب أنه يحبه إلا إحسانه إليه، وهذا كما قالوا : إن الحمد لله على « نوعين » :

« حمد » هو شكر ، وذلك لا يكون إلا على نعمته .

و « حمد » هو مدح وثناء عليه ومحبة له وهو بما يستحقه لنفسه سبحانه ،

فكذلك الحب ، فإن الأصل الثاني فيه هو محبته لما هو له أهل، وهذا حب من عرف من الله ما يستحق أن يحب لأجله، وما من وجه من الوجوه التى يعرف الله بها مما دلت عليه أسماؤه وصفاته إلا وهو يستحق المحبة الكاملة من ذلك الوجه حتى جميع مفعولاته ، إذ كل نعمة منه فضل،وكل نقمة منه عدل ، ولهذا استحق أن يكون محموداً على كل حال ، ويستحق أن يحمد على السراء والضراء،وهذا أعلى وأكمل،وهذا حب الخاصة .

وهؤلاء هم الذين يطلبون لذة النظر إلى وجهه الكريم ، ويتلذذون بذكره ومناجاته ، ويكون ذلك لهم أعظم من الماء للسمك حتى لو انقطعوا عن ذلك لوجدوا من الألم مالا يطيقون ، وهم السابقون كما فى صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال « مر النبي صلى الله عليه وسلم بجبل يقال له : جمدان فقال : سيروا هذا جمدان ، سبق المفردون ، قالوا : يارسول الله من المفردون؟قال الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » وفى رواية أخرى قال : « المستهترون بذكر الله يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون الله يوم القيامة خفافا » والمستهتر بذكر الله يتولع به ينعم به كلف لايفتر منه .

وفى حديث هارون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:«قال موسى : يارب أي عبادك أحب إليك ؟ قال الذي يذكرني ولا ينساني ، قال : أي عبادك أعلم ؟ قال:الذي يطلب علم الناس إلى علمه ليجد كلمة تدله على

هدى أو ترده عن ردى ، قال أي عبادك أحكم؟قال:الذي يحــكم على نفسه كما يحكم على غيره ويحكم لغيره كما يحكم لنفسه » فذكر فى هذا الحديث الحب والعلم والعدل وذلك جماع الخير .

ومما ينبغي التفطن له أنه لا يجوز أن يظن فى باب محبة الله تعالى ما يظن فى محبة غــيره ممــا هو من جنس التجنى ، والهجر ، والقطيعة لغــير سبب ونحو ذلك مما قد يغلط فيه طوائف من الناس،حتى يتمثلوا فى حبه بجنس مــا يتمثلون به فى حب من يصد ويقطع بغير ذنب،أو يبعد من يتقرب اليه ، وإن غلط فى ذلك من غلط من المصنفين في رسائلهم حتى يكون مضمون كلامهــم إقامة الحجة على الله ، بل لله الحجة البالغة .

وقد ثبت فى الصحيحين عن أبي هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله تعــالى : من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسي ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، ومن تقرب إلي شبراً تقربت إليهذراعا ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا ، ومن أتانى يمشي أتيته هرولة » . وفى بعض الآثار يقول الله تعالى : « أهل ذكرى أهل مجالستى ، وأهل شكري أهل زيارتى ، وأهل طاعتى أهــل كرامتى ، وأهل معصيتى لا أؤيسهم من رحمتى ، وإن تابوا فأنا حبيبهم ــ لأن الله يحب التوابين ــ وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب حتى أطهرهم من المعائب » .

وقد قال تعالى (وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) قالوا : الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره ، والهضم أن ينقص من حسنات نفسه . وقال تعالى : (وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) وفى الحديث الصحيح عن أبى ذر رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى : ياعبادي ! إنى حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، ياعبادي ! كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم ، ياعبادي ! كلكم جائع الا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم . ياعبادي كلكم عار إلا من كسونه فاستكسونى أكسكم ، ياعبادي ! إنكم تذنبون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب ولا أبالي فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادي ! إنكم لن تبلغوا ضري فتضرونى ولن تبلغوا نفعي فتنفعونى ، ياعبادي ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أنقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئاً ، ياعبادي ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً يا عبادي ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكي إلا كما ينقص المخيط إذا غمس فى البحر ، ياعبادي ! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

ومن ذلك ما رواه البخاري فى صحيحه عن شداد بن أوس قال : « قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربى لا إله إلا الله أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ماصنعت أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها إذا أصبح موقناً بها فمات في يومه دخل الجنة ، ومن قالها إذا أمسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة » .

فالعبد دائماً بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر ، وذنب منه يحتاج فيه إلى الاستغفار ، وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائماً ،فإنه لا يزال يتقلب فى نعم الله وآلائه ولا يزال محتاجا إلى التوبة والاستغفار .

ولهذا كان سيد ولد آدم وإمام المتقين محمد صلى الله عليه وسلم يستغفر فى جميع الأحوال . وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري : « أيها الناس توبوا إلى ربكم فإنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » وفى صحيح مسلم أنه قال «إنه ليغان على قلبي وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » وقال عبد الله بن عمر: « كنا نعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس الواحد يقول رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور مائة مرة » .

ولهذا شرع الاستغفار فى خواتيم الأعمال . قال تعالى : (وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ) وقال بعضهم : أحيوا الليل بالصلاة فلما كان وقت السحر أمروا بالاستغفار، وفى الصحيح «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً، وقال: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام » وقال تعالى : (فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ) إلى قوله: (وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) وقد أمر الله نبيه بعد أن بلغ الرسالة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وأتى بما أمر الله به مما لم يصل إليه أحد غيره فقال تعالى (إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا) .

ولهذا كان قوام الدين بالتوحيد والاستغفار كما قال الله تعالى : (الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا) الآية .وقال تعالى : (فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ) وقال تعالى : (فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ) .

ولهذا جاء فى الحديث « يقول الشيطان أهلكت الناس بالذنوب وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار » وقد قال يونس (لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ

إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ) وكان النبي صلى الله عليه وسلم « إذا ركب دابته يحمد الله ثم يكبر ثلاثاً ويقول : لا إله إلا أنت سبحانك ظلمت نفسي فاغفر لي » وكفارة المجلس التى كان يختم بها المجلس « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » والله أعلم وصلى الله على محمد وسلم .

وقال شيخ الإسلام

تقي الدين أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى :

الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما (١)

فصل

«في مرض القلوب وشفائها»

قال الله تعالى عن المنافقين : (فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا) وقال تعالى : (لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ)

---

(١) تسمى: أمراض القلوب وشفاءها.

وقال : (لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا) وقال : (وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا) وقال تعالى : (قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) وقال : (وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) وقال : (وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ) .

و « مرض البدن » خلاف صحته وصلاحه ، وهو فساد يكون فيه يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية ، فإدراكه إما أن يذهب كالعمى والصمم . وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه كما يدرك الحلو مراً ، وكما يخيل إليه أشياء لا حقيقة لها فى الخارج .

وأما فساد حركته الطبيعية ، فمثل أن تضعف قوته عن الهضم ، أو مثل أن يبغض الأغذية التي يحتاج إليها ، ويحب الأشياء التى تضره ، ويحصل له من الآلام بحسب ذلك ؛ ولكن مع ذلك المرض لم يمت ولم يهلك ؛ بل فيه نوع قوة على إدراك الحركة الإرادية في الجملة [فيتولد من ذلك] ألم يحصل فى البدن إما بسبب فساد الكمية أو الكيفية :

(فالأول) إما نقص المادة فيحتاج إلى غذاء ، وإما بسبب زيادتها

فيحتاج إلى استفراغ .

و (الثـاني) كقـوة فى الحرارة والبرودة خارج عن الاعتـدال فيـداوى .

فصـــل

وكذلك « مرض القلب » هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره، وإرادته ، فتصوره بالشبهات التى تعرض له حتى لا يرى الحق ، أو يراه علـى خلاف ما هو عليه ، وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار ؛ فلهـذا يفسر المرض تارة بالشك والريب . كما فسر مجاهـد وقتـادة قوله : (فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) أي شك . وتارة يفسر بشهوة الزنا كما فسر به قوله : (فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ) .

ولهذا صنف الخرائطي « كتاب اعتلال القلوب » أي مرضها ، وأراد بـه مرضها بالشهوة ، والمريض يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح ، فيضره يسير الحر والبرد والعمـل ونحـو ذلك ، مـن الأمـور التى لا يقوى عليهـا لضعفه بالمرض .

والمرض فى الجملة يضعف المريض بجعل قوته ضعيفـة لا تطيق ما يطيقـه

القوي ، والصحة تحفظ بالمثل ، وتزال بالضد والمرض يقوى بمثل سببه . ويزول بضده ، فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه ، وزاد ضعف قوته ، حتى ربما يهلك . وإن حصل له ما يقوى القوة ويزيل المرض كان بالعكس .

و « مرض القلب » ألم يحصل فى القلب كالغيظ من عدو استولى عليك ، فإن ذلك يؤلم القلب . قال الله تعالى : (وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ) فشفاؤهم بزوال ماحصل فى قلوبهم من الألم ، ويقال : فلان شفى غيظه ، وفى القود استشفاء أولياء المقتول ، ونحو ذلك . فهذا شفاء من الغم والغيظ والحزن ، وكل هذه آلام تحصل فى النفس .

وكذلك « الشك ، والجهل » يؤلم القلب ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : هلا سألوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال» . والشاك فى الشيء المرتاب فيه يتألم قلبه ، حتى يحصل له العلم واليقين ، ويقال للعالم الذي أجاب بما يبين الحق : قد شفانى بالجواب .

والمرض دون الموت ، فالقلب يموت بالجهل المطلق ويمرض بنوع من الجهل ، فله موت ومرض ، وحياة وشفاء ، وحياته وموته ومرضه وشفاؤه أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفائه ، فلهذا مرض القلب إذا ورد عليه شبهة أو شهوة قوت مرضه ، وإن حصلت له حكمة وموعظة كانت من

أسباب صلاحه وشفائه . قال تعالى : (لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) ؛ لأن ذلك أورث شبهة عندهم ، والقاسية قلوبهم ليبسها فأولئك قلوبهم ضعيفة بالمرض ، فصار ما ألقى الشيطان فتنة لهم ، وهؤلاء كانت قلوبهم قاسية عن الإيمان ، فصار فتنة لهم .

وقال : (لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ) كما قال : (وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) لم تمت قلوبهم كموت الكفار والمنافقين ، وليست صحيحة صالحة كصالح قلوب المؤمنين ، بل فيها مرض شبهة وشهوات ، وكذلك (فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ) وهو مرض الشهوة ، فإن القلب الصحيح لو تعرضت له المرأة لم يلتفت إليها ، بخلاف القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه ، فإذا خضعن بالقول طمع الذي في قلبه مرض .

والقرآن شفاء لما في الصدور ، ومن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات ففيه من البينات ما يزيل الحق من الباطل ، فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه ، وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب ، فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره ، فيبقى القلب محباً للرشاد مبغضاً للغي ، بعد أن كان مريداً للغي مبغضاً للرشاد .

فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب فتصلح إرادته ، ويعود إلى فطرته التى فطر عليهـا كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي ، ويغتذى القلب من الإيمان والقرآن بمـا يزكيه ويؤيده كما يغتذى البدن بما ينميه ويقومه ، فإن زكاة القلب مثل نماء البدن .

و « الزكاة فى اللغة » النماء والزيادة فى الصلاح . يقال : زكا الشيء إذا نما فى الصلاح ، فالقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح ، كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له ، ولا بد مع ذلك من منع ما يضره، فلا ينمو البدن إلا بإعطـاء ما ينفعه ومنع ما يضره ، كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحـه إلا بحصول ما ينفعـه ودفع مايضره ، وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا .

و « الصدقة » لمـا كانت تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار صـار القلب يزكو بها ، وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب . قال الله تعالى : (خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا)

وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب .

وكذلك ترك المعاصي فإنهـا بمنزلة الأخلاط الرديئة فى البـدن ، ومثل الدغل في الزرع ، فإذا استفرغ البدن من الأخلاط الرديئة كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعية واستراحت فينمو البدن ، وكذلك القلب إذا

تاب من الذنوب كان استفراغا من تخليطاته حيث خلط عملا صالحاً وآخر سيئاً ، فإذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإراداته للأعمال الصالحة ، واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه .

فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل .

قال تعالى : (وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا) وقال تعالى : (وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ) وقال : (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ) وقال تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ) وقال تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا) وقال تعالى : (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰ) وقال تعالى : (فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ) فالتزكية وإن كان أصلها النماء والبركة وزيادة الخير ، فإنما تحصل بإزالة الشر ؛ فلهذا صار التزكي يجمع هذا وهذا .

وقال : (وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ) وهي التوحيد والإيمان الذي به يزكو القلب ، فإنه يتضمن نفي إلهية ماسوى الحق من القلب ، وإثبات إلهية الحق في القلب ، وهو حقيقة لا إله إلا الله . وهذا أصل ما تزكو به القلوب .

والتزكية جعل الشيء زكياً : إما في ذاته ، وإما في الاعتقاد والخبر ؛

كما يقال عدلته إذا جعلته عدلا في نفسه ، أو فى اعتقاد الناس ، قال تعالى : (فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ) أي تخبروا بزكاتها . وهذا غير قوله : (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا) ولهذا قال : (هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ) وكان اسم زينب برة فقيل تزكي نفسها ، فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب .

وأما قوله : (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ) أي يجعله زاكياً ، ويخبر بزكاته كما يزكي المزكى الشهود فيخبر بعدلهم .

و «العدل» هو الاعتدال، والاعتدال هو صلاح القلب، كما أن الظلم فساده ، ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالماً لنفسه ، والظلم خلاف العدل فلم يعدل على نفسه ؛ بل ظلمها ؛ فصلاح القلب في العدل، وفساده فى الظلم ، وإذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم وهو المظلوم ، كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه ، فمنه العمل وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر . قال تعالى : (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ) .

والعمل له أثر فى القلب من نفع وضر وصلاح قبل أثره في الخارج ، فصلاحها عدل لها وفسادها ظلم لها .قال تعالى : (مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا) وقال تعالى : (إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) قال بعض السلف : إن للحسنة لنوراً فى القلب ، وقوة فى البدن ، وضياء فى الوجه ، وسعة فى الرزق ، ومحبة فى قلوب الخلق ، وإن للسيئة لظلمة في

القلب ، وسواداً فى الوجه ووهناً في البـدن ، ونقصاً فى الرزق . وبغضاً فى قلوب الخلق .

وقال تعالى : (كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ) وقال تعالى : (كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ) وقال : (وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ) و (تبسل) أي ترتهن وتحبس وتؤسر : كما أن الجسد إذا صح من مرضه قيل قد اعتدل مزاجه ، والمرض إنما هو بإخراج المزاج ، مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخـلاط لا سبيل إليـه ، لكن الأمثل : فالأمثل ؛ فهكذا صحة القلب وصلاحه فى العـدل ، ومرضه من الزيـغ والظلم والانحراف . والعدل المحض فى كل شيء متعذر علماً وعمـلا ، ولكن الأمثل فالأمثل ؛ ولهذا يقال : هذا أمثل ، ويقال للطريقة السلفية : الطريقة المثلى . وقال تعالى : (وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡ) وقـال تعالى : (وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا) .

والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط ، وأعظـم القسط عبادة الله وحده لا شريك له ، ثم العدل على الناس فى حقوقهم ، ثم العدل على النفس .

والظلم « ثلاثة أنواع » : والظلم كله من أمراض القلوب ، والعدل صحتها وصلاحها . قال أحمد بن حنبل لبعض الناس : لو صححت لم تخف أحداً ، أي خوفك من المخلوق هو من مرض فيك ، كمرض الشرك والذنوب .

وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته ، قال تعالى : (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا).

لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها وموتها وظلمتها فى غير موضع . كقوله : (لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ) وقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) ثم قال : (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) وقال تعالى : (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) . ومن أنواعه أنه يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن . وفى الحديث الصحيح « مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت وفى الصحيح أيضاً : « اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً » .

وقد قال تعالى : (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ) وذكر سبحانه آية النور وآية الظلمة فقال : (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ)

فهذا مثل نور الإيمان فى قلوب المؤمنين ثم قال : (وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ) .

(فالأول) مثل الاعتقادات الفاسدة والأعمال التابعة لها يحسبها صاحبها شيئاً ينفعه فإذا جاءها لم يجدها شيئاً ينفعه ، فوفاه الله حسابه على تلك الأعمال .

و (الثاني) : مثل للجهل البسيط وعدم الإيمان والعلم ، فإن صاحبها فى ظلمات بعضها فوق بعض لا يبصر شيئاً ؛ فإن البصر إنما هو بنور الإيمان والعلم .

قال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ) وقال تعالى (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ) وهو برهان الإيمان الذي حصل فى قلبه فصرف الله به ما كان هم به وكتب له حسنة كاملة ولم يكتب

عليــه خطيئة إذ فعل خيراً ولم يفعل سيئة . وقال تعالى : (لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ) وقال :(ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ) وقال : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ) .

ولهذا ضرب الله للإيمان « مثلين » . مثلا بالماء الذي بـه الحياة وما يقترن به من الزبد ، ومثــلا بالنار الــتي بهــا النور وما يقترن بمــا يوقــد عليه من الزبد .

وكذلك ضرب الله للنفاق « مثلين » قال تعالى :(أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ) وقال تعالى فى المنافقين :

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ * صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ * يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) .

فضرب لهم مثلاً كالذي أوقد النار كلما أضاءت أطفأها الله ، والمثل المائي كالمثل النازل من السماء وفيه ظلمات ورعد وبرق يرى . ولبسط الكلام فى هذه الأمثال موضع آخر .

وإنما المقصود هنا ذكر حياة القلوب وإنارتها ، وفى الدعاء المأثور « اجعل القرآن ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا » . و « الربيع » هو المطر الذي ينزل من السماء فينبت به النبات ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم » . والفصل الذي ينزل فيه أول المطر تسمية العرب الربيع لنزول المطر الذي ينبت الربيع فيه ، وغيرهم يسمي الربيع الفصل الذي يلي الشتاء ؛ فان فيه تخرج الأزهار التى تخلق منها الثمار ، وتنبت الأوراق على الأشجار .

والقلب الحي المنور ؛ فإنه لما فيه من النور يسمع ويبصر ويعقل ، والقلب الميت فإنه لا يسمع ولا يبصر . قال تعالى : (وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) وقال تعالى : (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ) وقال تعالى : (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ

وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ) الآيات .

فأخبر أنهم لا يفقهون بقلوبهم ولا يسمعون بآذانهم ولا يؤمنون بما رأوه من النار ، كما أخبر عنهم حيث قالوا : (قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ) . فذكروا الموانع على القلوب والسمع والأبصار ، وأبدانهم حية تسمع الأصوات وترى الأشخاص ؛ لكن حياة البدن بدون حياة القلب من جنس حياة البهائم ، لها سمع وبصر وهي تأكل وتشرب وتنكح ، ولهذا قال تعالى : (وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً) .

فشبههم بالغنم الذى ينعق بها الراعي وهي لا تسمع إلا نداء . كما قال فى الآية الأخرى : (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) وقال تعالى : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ) .

فطائفة من المفسرين تقول فى هــذه الآيات وما أشبهها كقوله :
﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ وأمثالهـا مما ذكر الله فى عيوب الإنسان وذمها ، فيقول هؤلاء : هذه الآية فى الكفار ، والمرادبالإنسان هنا الكافر ، فيبقى من يسمع ذلك يظن أنه ليس لمن يظهر الإسلام فى هذا الذم والوعيد نصيب ؛ بل يذهب وهمه إلى من كان مظهراً للشرك من العرب ، أو إلى من يعرفهم من مظهرى الكفر ، كاليهود والنصارى ومشركي الترك والهند . ونحو ذلك ، فلا ينتفع بهذه الآيات التى أنزلها الله ليهتدى بها عباده .

فيقال : — أولاً — : المظهرون للإسلام فيهم مؤمن ومنافق ، والمنافقون كثيرون في كل زمان ، والمنافقون فى الدرك الأسفل من النار .

ويقال : « ثانياً » الإنسان قد يكون عنده شعبة من نفاق وكفر ، وإن كان معه إيمان ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب وإذا اؤتمن خان ، وإذا عاهد غدر . وإذا خاصم فجر » فأخبر أنه من كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق .

وقد ثبت فى الحديث الصحيح أنه قال لأبى ذر رضي الله عنه : « إنك امرؤ فيك جاهلية » وأبو ذر — رضي الله عنه — من أصدق الناس إيماناً ، وقال فى الحديث الصحيح : « أربع فى أمتى من أمر الجاهلية : الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والنياحة ، والاستسقاء بالنجوم » وقال فى الحديث الصحيح « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : اليهود والنصارى ؟ ! قال : فمن ؟ ! » وقال أيضاً فى الحديث الصحيح : « لتأخذن أمتى ما أخذت الأمم قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع . قالوا : فارس والروم ؟ ! قال : ومن الناس إلا هؤلاء » .

وقال ابن أبى مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب محمد — صلى الله عليه وسلم — كلهم يخاف النفاق على نفسه ، وعن علي - أو حذيفة - رضي الله عنهما — قال : القلوب « أربعة » . قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن ، وقلب أغلف فذاك قلب الكافر ، وقلب منكوس . فذاك قلب المنافق ، وقلب فيه مادتان : مادة تمده الإيمان ، ومادة تمده النفاق ، فأولئك قوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

وإذا عرف هذا علم أن كل عبد ينتفع بما ذكر الله فى الإيمان من مدح شعب الإيمان وذم شعب الكفر ، وهذا كما يقول بعضهم في قوله : (ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ) . فيقولون المؤمن قد هدي إلى الصراط المستقيم ، فأي

فائدة فى طلب الهدى ؟! ثم يجيب بعضهم بأن المراد ثبتنا على الهدى كما تقول العرب للنائم : نم حتى آتيك ، أو يقول بعضهم ألزم قلوبنا الهدى ، فحذف الملزوم ، ويقول بعضهم زدني هدى ، وإنما يوردون هــذا السؤال لعدم تصورهم الصراط المستقيم الذي يطلب العبد الهداية إليه ؛ فإن المراد به العمل بما أمر الله به ، وترك ما نهى الله عنه فى جميع الأمور .

والإنسان وإن كان أقر بأن محمــداً رسول الله ، وأن القرآن حق على سبيل الإجمال ، فأكثر ما يحتاج إليه من العلم بما ينفعه ويضره وما أمر به ومــا نهى عنه فى تفاصيل الأمور وجزئياتها لم يعرفه ، وما عرفه فكثير منه لم يعمل بعلمــه ، ولو قدر أنه بلغــه كل أمر ونهي فى القرآن والسنة ، فالقرآن والسنة إنمــا تذكر فيهما الأمور العــامة الكلية لا يمكن غير ذلك لا تذكر ما يخص به كل عبد ، ولهــذا أمر الإنســان فى مثل ذلك بسؤال الهدى إلى الصراط المستقيم .

والهدى إلى الصراط المستقيم يتناول هذا كله ، يتناول التعريف بما جاء به الرسول مفصلا ، ويتنــاول التعريف بما يدخل فى أوامره الكليــات ، ويتناول إلهام العمل بعلمه ، فإن مجرد العلم بالحق لا يحصل به الاهتداء إن لم يعمل بعلمه ، ولهذا قال لنبيه بعــد صلح الحديبية : (إِنَّافَتَحْنَالَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا)

وقال فى حق موسى وهرون : (وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ)

والمسلمون قد تنازعوا فيما شاء الله من الأمور الخبرية والعلمية الاعتقادية والعمليــة ، مع أنهم كلهم متفقون على أن محمداً حق والقرآن حق ، فلو حصل لـكل منهم الهدى إلى الصراط المستقيم فيما اختلفوا فيه لم يختلفوا ، ثم الذين علموا ما أمر الله به أكثرهم يعصونه و[لا] يحتذون حذوه ، فلو هدوا إلى الصراط المستقيم فى تلك الأعمـال لفعلوا ما أمروا به وتركوا مانهو عنـه ، والذين هداهم الله من هذه الأمة حتى صاروا من أوليـاء الله المتقين كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم الله بهذا الدعاء فى كل صلاة ، مع علمهم بحـاجتهم وفاقتهم إلى الله دائماً فى أن يهديهم الصراط المستقيم .

فبدوام هذا الدعاء والافتقار صاروا من أولياء الله المتقين . قال سهل ابن عبد الله التستري ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار ، وما حصل فيه الهدى فى الماضي فهو محتاج إلى حصول الهدى فيه فى المستقبل وهذا حقيقة قول من يقول : ثبتنا واهدنا لزوم الصراط .

وقول من قال : زدنا هدى يتناول ما تقدم ؛ لكن هـذا كله هدى منه فى المستقبل إلى الصراط المستقيم ؛ فإن العمل فى المستقبل بالعلم لم يحصل بعد ، ولا يكون مهتديا حتى يعمل فى المستقبل بالعلم ، وقـد لا يحصل العلم فى

المستقبل بل يزول عن القلب ، وإن حصل فقد لا يحصل العمل ، فالناس كلهم مضطرون إلى هذا الدعاء ؛ ولهذا فرضه الله عليهم فى كل صلاة ، فليسوا إلى شيء من الدعاء أحوج منهم إليه ، وإذا حصل الهدى إلى الصراط المستقيم حصل النصر والرزق وسائر ما تطلب النفوس من السعادة والله أعلم .

واعلم أن حياة القلب ، وحياة غيره ليست مجرد الحس والحركة الإرادية ، أو مجرد العلم والقدرة كما يظن ذلك طائفة من النظار فى علم الله وقدرته ، كأبي الحسين البصري . قالوا : إن حياته أنه بحيث يعلم ويقدر ، بل الحياة صفة قائمة بالموصوف ، وهي شرط فى العلم والإرادة والقدرة على الأفعال الاختيارية ، وهي أيضاً مستلزمة لذلك ، فكل حي له شعور وإرادة وعمل اختياري بقدرة ، وكل ما له علم وإرادة وعمل اختياري فهو حي .

والحياء مشتق من الحياة ؛ فإن القلب الحي يكون صاحبه حيا فيه حياء يمنعه عن القبائح ، فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التى تفسد القلب ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الحياء من الإيمان » وقال : « الحياء والعي شعبتان من الإيمان . والبذاء والبيان شعبتان من النفاق »

فان الحي يدفع ما يؤذيه ؛ بخلاف الميت الذي لاحياة فيه [فإنه] يسمى وقحا ، والوقاحة الصلابة ، وهو اليبس المخالف لرطوبة الحياة ، فإذا كان وقحاً يابساً صليب الوجه لم يكن فى قلبه حياة توجب حياءه ، وامتناعه من القبح كالأرض

اليابسة لا يؤثر فيها وطء الأقدام ، بخلاف الأرض الخضرة .

ولهذا كان الحي يظهر عليه التأثر بالقبح ، وله إرادة تمنعه عن فعل القبح ، بخلاف الوقح الذي ليس بحي فلا حياء معه، ولا إيمان يزجره عن ذلك . فالقلب إذا كان حياً فمات الإنسان بفراق روحه بدنه كان موت النفس فراقها للبدن ، ليست هي في نفسها ميتة بمعنى زوال حياتها عنها .

ولهذا قال تعالى : (وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ) وقال تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ) مع أنهم موتى داخلون في قوله : (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ) وفي قوله : (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ) وقوله : (وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) فالموت المثبت غير الموت المنفي . المثبت هو فراق الروح البدن ، والمنفي زوال الحياة بالجملة عن الروح والبدن .

وهذا كما أن النوم أخو الموت ، فيسمى وفاة ويسمى موتا ، وإن كانت الحياة موجودة فيها . قال الله تعالى : (ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) . وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذ استيقظ من منامه يقول : «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور» وفي حديث آخر :

« الحمد لله الذي رد علي روحي ، وعافاني في جسدي ، وأذن لي بذكره وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا » وإذا أوى إلى فراشه يقول : « اللهم أنت خلقت نفسي وأنت توفاها لك مماتها ومحياها إن أمسكتها فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » ويقول : « باسمك اللهم أموت وأحيا » .

فصل

ومن أمراض القلوب « الحسد » كما قال بعضهم في حده : إنه أذى يلحق بسبب العلم بحسن حال الأغنياء . فلا يجوز أن يكون الفاضل حسوداً ؛ لأن الفاضل يجري على ما هو الجميل ، وقد قال طائفة من الناس إنه تمنى زوال النعمة عن المحسود ، وإن لم يصر للحاسد مثلها ، بخلاف الغبطة فإنه تمنى مثلها من غير حب زوالها عن المغبوط .

والتحقيق أن الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود وهو نوعان :

(أحدهما) كراهة للنعمة عليه مطلقاً ، فهذا هو الحسد المذموم ، وإذا أبغض ذلك فإنه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه ، فيكون ذلك مرضاً في قلبه ، ويلتذ بزوال النعمة عنه ، وإن لم يحصل له نفع بزوالها ؛ لكن نفعه

زوال الألم الذي كان في نفسه ، ولكن ذلك الألم لم يزل إلا بمباشرة منه ، وهو راحة ، وأشده كالمريض الذي عولج بما يسكن وجعه والمرض باق ؛ فإن بغضه لنعمة الله على عبده مرض ، فإن تلك النعمة قد تعود على المحسود وأعظم منها ، وقد يحصل نظير تلك النعمة لنظير ذلك المحسود .

والحاسد ليس له غرض في شيء معين ؛ لكن نفسه تكره ما أنعم به على النوع . ولهذا قال من قال : إنه تمنى زوال النعمة ، فإن من كره النعمة على غيره تمنى زوالها بقلبه .

و (النوع الثاني) : أن يكره فضل ذلك الشخص عليه ، فيحب أن يكون مثله أو أفضل منه ، فهذا حسد وهو الذي سموه الغبطة ، وقد سماه النبي صلى الله عليه وسلم حسداً في الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها ، ورجل آتاه الله مالا وسلطه على هلكته في الحق » هذا لفظ ابن مسعود .

ولفظ ابن عمر « رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفق منه في الحق آناء الليل والنهار» رواه البخاري من حديث أبي هريرة ولفظه : « لا حسد إلا في اثنين رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه الليل والنهار ، فسمعه رجل فقال : ياليتني أوتيت مثل ما أوتي هذا

فعملت فيه مثل ما يعمل هــذا ، ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه فى الحق فقال رجل : ياليتني أوتيت مثل ما أوتى هذا فعملت فيه مثل ما يعمل هذا »
فهــذا الحسد الذي نهى عنــه النبي صلى الله عليه وسلم إلا في موضعين هو الذي سماه أولئك الغبطــة ، وهو أن يحب مثل حال الغير ويكره أن يفضل عليه .

فإن قيل : إذا لم سمي حسداً وإنمــا أحب أن ينعم الله عليه ؟ . قيل مبدأ هذا الحب هو نظره إلى إنعامــه على الغير وكراهته أن يتفضل عليــه ، ولولا وجود ذلك الغير لم يحب ذلك ، فلما كان مبدأ ذلك كراهته أن يتفضل عليه الغير كان حسداً ؛ لأنه كراهة تتبعها محبة ، وأما من أحب أن ينعم الله عليه مع عدم التفاته إلى أحوال الناس فهذا ليس عنده من الحسد شيء .

ولهذا يبتلى غالب الناس بهذا القسم الثاني ، وقد تسمى المنافسة فيتنافس الاثنان فى الأمر المحبوب المطلوب ، كلاهما يطلب أن يأخذه ، وذلك لكراهية أحدهما أن يتفضل عليه الآخر ، كما يكره المستبقان كل منهما أن يسبقه الآخر ، والتنافس ليس مذموماً مطلقــاً ، بل هو محمود فى الخير . قال تعالى : (إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ)

فأمر المنــافس أن ينافس فى هــذا النعيم ، لا ينافس في نعيم الدنيــا

الزائل ، وهذا موافق لحديث النبي صلى الله عليه وسلم فإنه نهى عن الحسد إلا فيمن أوتى العلم فهو يعمل به ويعلمه ، ومن أوتي المال فهو ينفقه ٠ فأما من أوتي علماً ولم يعمل به ولم يعلمه ٠ أو أوتى مالا ولم ينفقه فى طاعة الله فهذا لا يحسد ولا يتمنى مثل حاله ، فإنه ليس فى خير يرغب فيه ٠ بل هو معرض للعذاب ، ومن ولي ولاية فيأتيها بعلم وعدل ٠ أدى الأمانات إلى أهلها ، وحكم بين الناس بالكتاب والسنة فهذا درجته عظيمة ؛ لكن هذا في جهاد عظيم ، كذلك المجاهد فى سبيل الله .

والنفوس لا تحسد من هو فى تعب عظيم ؛ فلهذا لم يذكره ، وإن كان المجاهد فى سبيل الله أفضل من الذي ينفق المال ؛ بخلاف المنفق والمعلم فإن هذين ليس لهم فى العادة عدو من خارج ، فإن قدر أنهما لهما عدو يجاهدانه . فذلك أفضل لدرجتهما ، وكذلك لم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم المصلي والصائم والحاج ؛ لأن هذه الأعمال لا يحصل منها فى العادة من نفع الناس الذي يعظمون به الشخص ويسودونه ما يحصل بالتعليم والإنفاق .

والحسد فى الأصل إنما يقع لما يحصل للغير من السؤدد والرياسة ، وإلا فالعامل لا يحسد فى العادة ، ولو كان تنعمه بالأكل والشرب والنكاح أكثر من غيره ، بخلاف هذين النوعين فإنهما يحسدان كثيراً ، ولهذا يوجد بين أهل

العلم الذين لهم أتباع من الحسد ما لا يوجد فيمن ليس كذلك، وكذلك فيمن له أتباع بسبب إنفاق ماله فهذا ينفع الناس بقوت القلوب وهذا ينفعهم بقوت الأبدان ، والناس كلهم محتاجون إلى ما يصلحهم من هذا وهذا .

ولهذا ضرب الله سبحانه « مثلين » : مثلاً بهذا، ومثلاً بهذا فقال :
(ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) .

و (المثلان) ضربهما الله سبحانه لنفسه المقدسة ولما يعبد من دونه ؛ فإن الأوثان لا تقدر لا على عمل ينفع ، ولا على كلام ينفع ، فإذا قدر عبد مملوك لا يقدر على شيء ، وآخر قد رزقه الله رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوى هذا المملوك العاجز عن الإحسان وهذا القادر على الإحسان المحسن إلى الناس سراً وجهراً ، وهو سبحانه قادر على الإحسان إلى عباده ، وهو محسن إليهم دائماً ، فكيف يشبه به العاجز المملوك الذي لا يقدر على شيء حتى يشرك به معه ، وهذا مثل الذي أعطاه الله مالاً فهو ينفق منه آناء الليل والنهار .

و (المثل الثاني) إذا قدر شخصان أحدهما أبكم لا يعقل ولا يتكلم ولا يقدر على شيء ، وهو مع هذا كل علـى مولاه أينما يوجهه لا يأت بخـير ، فليس فيه من نفع قط ، بل هو كلّ على من يتولى أمره ، وآخر عالم عادل يأمر بالعدل ، ويعمل بالعدل ، فهو على صراط مستقيم . وهذا نظير الذي أعطاه الله الحكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس .

وقد ضرب ذلك مثلاً لنفسه ؛ فإنه سبحانه عالم عادل قادر يأمر بالعدل ، وهو قائم بالقسط على صراط مستقيم . كما قال تعالى : (شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) وقال هود : (إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) .

ولهذا كان الناس يعظمون دار العباس ، كان عبد الله يعلم الناس وأخوه يطعم النـاس ، فـكانوا يعظمون عـلى ذلك . ورأى معـاوية النـاس يسألون ابن عمر عن المناسك وهو يفتيهـم فقال : هذا والله الشرف ، أو نحو ذلك .

هذا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه نافس أبا بكر رضي الله عنه الإنفـاق كما ثبت في الصحيح عن عمر بن الخطاب ـــ رضي الله عنه ــ قال : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق فوافق ذلك ما لا عندي فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً . قال : فجئت بنصف مالي ، قال : فقال لي رسول

الله صلى الله عليه وسلم ما أبقيت لأهلك قلت مثله ، وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أبقيت لأهلك قال أبقيت لهم الله ورسوله فقلت لا أسابقك إلى شيء أبداً » .

فكان ما فعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة ؛ لكن حال الصديق رضي الله عنه أفضل منه وهو أنه خال من المنافسة مطلقاً لا ينظر إلى حال غيره .

وكذلك موسى صلى الله عليه وسلم فى حديث المعراج « حصل له منافسة وغبطة للنبي صلى الله عليه وسلم حتى بكى لما تجاوزه النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أبكي ؛ لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي» أخرجاه فى الصحيحين وروى فى بعض الألفاظ المروية غير الصحيح « مررنا على رجل وهو يقول ويرفع صوته : أكرمته وفضلته ، قال : فرفعناه إليه فسلمنا عليه فرد السلام ، فقال : من هذا معك يا جبريل ؟ قال : هذا أحمد ، قال : مرحباً بالنبي الأمي الذى بلغ رسالة ربه ونصح لأمته ، قال : ثم اندفعنا فقلت من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا موسى ابن عمران ، قلت : ومن يعاتب ؟ قال : يعاتب ربه فيك ، قلت : ويرفع صوته على ربه قال إن الله عز وجل قد عرف صدقه » .

وعمر رضي الله عنه كان مشبهاً بموسى، ونبينا حاله أفضل من حال موسى فإنه لم يكن عنده شيء من ذلك .

وكذلك كان فى الصحابة أبو عبيدة بن الجراح ونحوه كانوا سالمين من جميع هذه الأمور ، فكانوا أرفع درجة ممن عنده منافسة وغبطة ، وإن كان ذلك مباحاً ، ولهذا استحق أبو عبيدة رضي الله عنه أن يكون أمين هذه الأمة فإن المؤتمن إذا لم يكن فى نفسه مزاحمة على شيء مما اؤتمن عليه كان أحق بالأمانة ممن يخاف مزاحمته ؛ ولهذا يؤتمن على النساء والصبيان الخصيان ، ويؤتمن على الولاية الصغرى من يعرف أنه لا يزاحم على الكبرى ، ويؤتمن على المال من يعرف أنه ليس له غرض فى أخذ شيء منه ، وإذا اؤتمن من فى نفسه خيانة شبه بالذئب المؤتمن على الغنم ، فلا يقدر أن يؤدى الأمانة فى ذلك لما فى نفسه من الطلب لما اؤتمن عليه .

وفى الحديث الذي رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أنس رضي الله عنه : « قال : كنا يوما جلوسا عندرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة ، قال : فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوء قد علق نعليه فى يده الشمال فسلم ، فلما كان الغد قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فطلع ذلك الرجل على مثل حاله فلما كان اليوم الثالث ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : مقالته فطلع ذلك الرجل على مثل حاله فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم اتبعه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي

الله عنه فقال : إني لا حيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً فإن رأيت أن تؤيني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت قال : نعم ! قال أنس رضي الله عنه فكان عبد الله يحدث أنه بات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئاً ؛ غير أنه إذا تعار انقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم إلى صلاة الفجر، فقال عبد الله غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً، فلما فرغنا من الثلاث وكدت أن أحقر عمله قلت : ياعبد الله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة، ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ثلاث مرات يطلع عليكم رجل من أهل الجنة فطلعت أنت الثلاث مرات فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك، فأقتدي بذلك، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : ماهو إلا ما رأيت غير أنني لا أجد على أحد من المسلمين فى نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه قال عبد الله هذه التى بلغت بك وهي التى لا نطيق » . فقول عبد الله بن عمرو له هذه التى بلغت بك وهي التى لا نطيق يشير إلى خلوه وسلامته من جميع أنواع الحسد .

وبهذا أثنى الله تعالى على الأنصار فقال : (وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) أي مما أوتى إخوانهم المهاجرون، قال المفسرون لا يجدون فى صدورهم حاجة أي حسداً وغيظاً مما أوتي المهاجرون، ثم قال بعضهم من مال الفيء، وقيل من الفضل والتقدم،

فهم لا يجدون حاجة مما أوتوا من المال ولا من الجاه ، والحسد يقع على هذا .

وكان بين الأوس والخزرج منافسة على الدين فكان هؤلاء إذا فعلوا ما يفضلون به عند الله ورسوله أحب الآخرون أن يفعلوا نظير ذلك ، فهو منافسة فيما يقربهم إلى الله كما قال : (وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) .

وأما الحسد المذموم كله فقد قال تعالى فى حق اليهود : (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ) يودون أي يتمنون ارتدادكم حسداً ، فجعل الحسد هو الموجب لذلك الود من بعد ما تبين لهم الحق ؛ لأنهم لما رأوا أنكم قد حصل لكم من النعمة ما حصل ؛ بل مالم يحصل لهم مثله حسدوكم ، وكذلك فى الآية الأخرى : (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا) وقال تعالى : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) .

وقد ذكر طائفة من المفسرين أنها (نزات) بسبب حسد اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم حتى سحروه : سحره لبيد بن الأعصم اليهودي ، فالحاسد

المبغض للنعمة على من أنعم الله عليه بها ظالم معتد ، والكاره لتفضيله المحب لماثلته منهي عن ذلك إلا فيما يقربه إلى الله ، فإذا أحب أن يعطى مثل ما أعطى مما يقربه إلى الله فهذا لابأس به ، وإعراض قلبه عن هذا بحيث لاينظر إلى حال الغير أفضل .

ثم هذا الحسد إن عمل بموجبه صاحبه كان ظالما معتديا مستحقاً للعقوبة إلا أن يتوب ، وكان المحسود مظلوما مأموراً بالصبر والتقوى ، فيصبر على أذى الحاسد ويعفو ويصفح عنه ، كما قال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ وقد ابتلي يوسف بحسد إخوته له حيث قالوا : ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فحسدوهما على تفضيل الأب لهما ، ولهذا قال يعقوب ليوسف :

﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

ثم إنهم ظلموه بتكلمهم فى قتله وإلقائه فى الجب وبيعه رقيقاً لمن ذهب به إلى بلاد الكفر فصار مملوكاً لقوم كفار ، ثم إن يوسف ابتلي بعد أن ظلم بمن يدعوه إلى الفاحشة ويراود عليها ويستعين عليه بمن يعينه على ذلك فاستعصم واختار السجن على الفاحشة ، وآثر عذاب

الدنيا على سخط الله ، فكان مظلوماً من جهة من أحبه لهواه وغرضه الفاسد .

فهذه المحبة أحبته لهوى محبوبها شفاؤها وشفاؤه إن وافقها ، وأولئك المبغضون أبغضوه بغضة أوجبت أن يصير ملقى في الجب ثم أسيراً مملوكا بغير اختياره . فأولئك أخرجوه من إطلاق الحرية إلى رق العبودية الباطلة بغير اختياره ، وهذه ألجأته إلى أن اختار أن يكون محبوساً مسجوناً باختياره ، فكانت هذه أعظم فى محنته ، وكان صبره هنا صبراً اختيارياً اقترن به التقوى ، بخلاف صبره على ظلمهم فإن ذلك كان من باب المصائب التى من لم يصبر عليها صبر الكرام سلا سلو البهائم . والصبر الثاني أفضل الصبرين ؛ ولهذا قال : (إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ) .

وهكذا إذا أوذي المؤمن على إيمانه وطلب منه الكفر أو الفسوق أو العصيان ، وإن لم يفعل أوذي وعوقب ، فاختار الأذى والعقوبة على فراق دينه : إما الحبس وإما الخروج من بلده ، كما جرى للمهاجرين حيث اختاروا فراق الأوطان على فراق الدين ، وكانوا يعذبون ويؤذون .

وقد أوذي النبي صلى الله عليه وسلم بأنواع من الأذى فكان يصبر عليها صبراً اختيارياً ، فإنه إنما يؤذى لئلا يفعل ما يفعله

باختياره ، وكان هذا أعظم من صبر يوسف : لأن يوسف إنما طلب منه الفاحشة وإنما عوقب إذا لم يفعل بالحبس ، والنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه طلب منهم الكفر وإذا لم يفعلوا طلبت عقوبتهم بالقتل فما دونه، وأهون ما عوقب به الحبس ، فإن المشركين حبسوه وبني هاشم بالشعب مدة، ثم لما مات أبو طالب اشتدوا عليه ، فلما بايعت الأنصار وعرفوا بذلك صاروا يقصدون منعه من الخروج ويحبسونه هو وأصحابه عن ذلك ولم يكن أحد يهاجر إلا سراً ، إلا عمر بن الخطاب ونحوه ، فكانوا قد ألجأوهم إلى الخروج من ديارهم ومع هذا منعوا من منعوه منهم عن ذلك وحبسوه .

فكان ما حصل للمؤمنين من الأذى والمصائب هو باختيارهم طاعة لله ورسوله ، لم يكن من المصائب السماوية التى تجري بدون اختيار العبد من جنس حبس يوسف ، لا من جنس التفريق بينه وبين أبيه ، وهذا أشرف النوعين ، وأهلها أعظم درجة — وإن كان صاحب المصائب يثاب على صبره ورضاه وتكفر عنه الذنوب بمصائبه — فإن هذا أصيب وأوذي باختياره طاعة لله يثاب على نفس المصائب ويكتب له بها عمل صالح . قال تعالى : (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ) .

بخلاف المصائب التى تجري بلا اختيار العبد كالمرض وموت العزيز عليه وأخذ اللصوص ماله فإن تلك إنما يثاب على الصبر عليها لا على نفس ما يحدث من المصيبة ؛ لكن المصيبة يكفر بها خطاياه ، فإن الثواب إنما يكون على الأعمال الاختيارية وما يتولد عنها .

والذين يؤذون على الإيمان ، وطاعة الله ورسوله ، ويحدث لهم بسبب ذلك حرج أو مرض أو حبس أو فراق وطن وذهاب مال وأهل ، أو ضرب أو شتم أو نقص رياسة ومال هم فى ذلك على طريقة الأنبياء وأتباعهم كالمهاجرين الأولين فهؤلاء يثابون على ما يؤذون به ويكتب لهم به عمل صالح ، كما يثاب المجاهد على ما يصيبه من الجوع والعطش والتعب وعلى غيظه الكفار ، وإن كانت هذه الآثار ليست عملاً فعله يقوم به لكنها متسببة عن فعله الاختيارى ، وهي التى يقال لها متولدة .

وقد اختلف الناس هل يقال إنها فعل لفاعل السبب ، أو لله أو لا فاعل لها ، والصحيح أنها مشتركة بين فاعل السبب وسائر الأسباب ولهذا كتب له بها عمل صالح .

والمقصود أن « الحسد » مرض من أمراض النفس ، وهو مرض غالب فلا يخلص منه إلا قليل من الناس ، ولهذا يقال : ما خلا

جسد من حسد ، لكن اللئيم يبديه والكريم يخفيه . وقد قيل للحسن البصري : أيحسد المؤمن ؟ فقال ما أنساك إخوة يوسف لا أبالك ! ولكن عمه في صدرك ، فإنه لا يضرك ما لم تعد به يداً ولساناً .

فمن وجد في نفسه حسداً لغيره فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر . فيكره ذلك من نفسه ، وكثير من الناس الذين عندهم دين لا يعتدون على المحسود ، فلا يعينون من ظلمه ، ولكنهم أيضاً لا يقومون بما يجب من حقه ، بل إذا ذمه أحد لم يوافقوه على ذمه ولا يذكرون محامده ، وكذلك لو مدحه أحد لسكتوا ، وهؤلاء مدينون في ترك المأمور في حقه مفرطون في ذلك ؛ لا معتدون عليه ، وجزاؤهم أنهم يبخسون حقوقهم فلا ينصفون أيضاً في مواضع ، ولا ينصرون على من ظلمهم كما لم ينصروا هذا المحسود ، وأما من اعتدى بقول أو فعل فذلك يعاقب .

ومن اتقى الله وصبر فلم يدخل في الظالمين نفعه الله بتقواه : كما جرى لزينب بنت جحش — رضي الله عنها — فإنها كانت هي التي تسامي عائشة من أزواج النبي — صلى الله عليه وسلم — وحسد النساء بعضهن لبعض كثير غالب لا سيما المتزوجات بزوج واحد ، فإن المرأة تغار على زوجها لحظها منه ، فإنه بسبب المشاركة يفوت بعض حظها .

وهكذا الحسد يقع كثيراً بين المتشاركين في رئاسة أو مال إذا أخذ بعضهم قسطاً من ذلك وفات الآخر ؛ ويكون بين النظراء لكراهة أحدهما أن يفضل الآخر عليه كحسد إخوة يوسف ، وكحسد ابني آدم أحدهما لأخيه ، فإنه حسده لكون أن الله تقبل قربانه ولم يتقبل قربان هذا ؛ فحسده على ما فضله الله من الإيمان والتقوى — كحسد اليهود للمسلمين — وقتله على ذلك ؛ ولهذا قيل أول ذنب عصى الله به ثلاثة : الحرص ، والكبر ، والحسد . فالحرص من آدم والكبر من إبليس والحسد من قابيل حيث قتل هابيل .

وفى الحديث « ثلاث لا ينجو منهن أحد : الحسد ، والظن ، والطيرة . وسأحدثكم بما يخرج من ذلك إذا حسدت فلا تبغض ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض » رواه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة .

وفى السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم « دب إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد ، والبغضاء ، وهي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين » فسماه داء ، كما سمى البخل داء فى قوله : « وأى داء أدوأ من البخل؟! » فعلم أن هذا مرض ، وقد جاء في حديث آخر « أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأهواء ، والأدواء » فعطف الأدواء على الأخلاق والأهواء .

فإن « الخلق » ما صار عادة للنفس ، وسجية . قال تعالى : (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) قال ابن عباس وابن عيينة وأحمد بن حنبل رضي الله عنهم : على دين عظيم ، وفى لفظ عن ابن عباس : على دين الإسلام . وكذلك قالت عائشة — رضي الله عنها — : كان خلقه القرآن . وكذلك قال الحسن البصرى : أدب القرآن هو الخلق العظيم .

وأما « الهوى » فقد يكون عارضاً ، والداء هو المرض ، وهو تألم القلب والفساد فيه ، وقرن فى الحديث الأول الحسد بالبغضاء ؛ لأن الحاسد يكره أولاً فضل الله على ذلك الغير ، ثم ينتقل إلى بغضه ؛ فإن بغض اللازم يقتضي بغض الملزوم ، فإن نعمة الله إذا كانت لازمة وهو يحب زوالها ، وهي لا تزول إلا بزواله أبغضه وأحب عدمه ، والحسد يوجب البغي ، كما أخبر الله تعالى عمن قبلنا : أنهم اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغيابينهم ، فلم يكن اختلافهم لعدم العلم ، بل علموا الحق ولكن بغى بعضهم على بعض ، كما يبغي الحاسد على المحسود .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ؛ ولا تدابروا ، ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال : يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام » وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته من رواية أنس أيضاً « والذي

نفسي بيده لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وقد قال تعالى : (وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا) .

فهؤلاء المبطئون لم يحبوا لإخوانهم المؤمنين مايحبون لأنفسهم ، بل إن أصابتهم مصيبة فرحوا باختصاصهم ، وإن أصابتهم نعمة لم يفرحوا لهم بها ، بل أحبوا أن يكون لهم منها حظ ، فهم لا يفرحون إلا بدنيا تحصل لهم ، أو شر دنيوي ينصرف عنهم ، إذا كانوا لا يحبون الله ورسوله والدار الآخرة ولو كانوا كذلك لأحبوا إخوانهم ، وأحبوا ماوصل إليهم من فضله وتألموا بما يصيبهم من المصيبة ومن لم يسره ما يسر المؤمنين ويسوءه مايسوء المؤمنين فليس منهم .

ففي الصحيحين عن عامر قال سمعت النعمان بن بشير يخطب ويقول : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد . إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » وفى الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه » .

والشح مرض ، والبخل مرض ، والحسد شر من البخل كما فى الحديث

الذي رواه أبو داود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار » وذلك أن البخيل يمنع نفسه ، والحسود يكره نعمة الله على عباده ، وقد يكون في الرجل إعطاء لمن يعينه على أغراضه وحسد لنظرائه ، وقد يكون فيه بخل بلا حسد لغيره والشح أصل ذلك .

وقال تعالى : (وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » وكان عبد الرحمن بن عوف يكثر من الدعاء فى طوافه يقول : اللهم ! قنى شح نفسي ، فقال له رجل : ما أكثر ما تدعو بهذا ! فقال : إذا وقيت شح نفسي وقيت الشح والظلم والقطيعة . والحسد يوجب الظلم .

فصل

فالبخل والحسد مرض يوجب بغض النفس لما ينفعها ، بل وحبها لما يضرها ، ولهذا يقرن الحسد بالحقد والغضب ، وأما مرض الشهوة والعشق فهو حب النفس لما يضرها ، وقد يقترن به بغضها لما ينفعها ، والعشق مرض نفسانى ، وإذا قوى أثر فى البدن فصار مرضاً فى الجسم ، إما من أمراض

الدماغ كالماليخوليا ؛ ولهذا قيل فيه هو مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا ، وإما من أمراض البدن كالضعف والنحول ونحو ذلك .

والمقصود هنا « مرض القلب » فإنه أصل محبة النفس لما يضرها كالمريض البدن الذي يشتهي مايضره ، وإذا لم يطعم ذلك تألم ، وإن أطعم ذلك قوى به المرض وزاد .

كذلك العاشق يضره اتصاله بالمعشوق مشاهدة وملامسة وسماعا ، بل ويضره التفكر فيه والتخيل له وهو يشتهي ذلك ، فإن منع من مشتهاه تألم وتعذب ، وإن أعطي مشتهاه قوي مرضه ، وكان سبباً لزيادة الألم .

وفى الحديث : « إن الله يحمي عبده المؤمن الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه الطعام والشراب » وفى مناجاة موسى المأثورة عن وهب التى رواها الإمام أحمد في (كتاب الزهد) « يقول الله تعالى : إنى لأذود أوليائي عن نعيم الدنيا ورخائها كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مراتع الهلكة . وإني لأجنبهم سكونها وعيشها كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغرة وما ذلك لهوانهم علي، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالما موفرا لم تكلمه الدنيا ولم يطفئه الهوى » . وإنما شفاء المريض بزوال مرضه ؛ بل بزوال ذلك الحب المذموم من قلبه .

والناس فى العشق على قولين :

قيل إنه من باب الإرادات ، وهذا هو المشهور .

وقيل : من باب التصورات ، وأنه فساد فى التخييل، حيث يتصور المعشوق على ماهو به ، قال هؤلاء : ولهذا لايوصف الله بالعشق ، ولا أنه يعشق ؛ لأنه منزه عن ذلك ، ولا يحمد من يتخيل فيه خيالا فاسداً .

وأما الأولون فمنهم من قال : يوصف بالعشق فإنه المحبة التامة ، والله يحب ويحب ، وروى فى أثر عن عبد الواحد بن زيد أنه قال : « لا يزال عبدى يتقرب إلي يعشقني وأعشقه » وهذا قول بعض الصوفية .

والجمهور لايطلقون هذا اللفظ في حق الله ؛ لأن العشق هو المحبة المفرطة الزائدة على الحد الذي ينبغي ، والله تعالى محبته لانهاية لها فليست تنتهي إلى حد لا تنبغي مجاوزته .

قال هؤلاء : والعشق مذموم مطلقاً لايمدح لا فى محبة الخالق ولا المخلوق، لأنه المحبة المفرطة الزائدة على الحد المحمود و (أيضاً) فإن لفظ « العشق » إنما يستعمل فى العرف فى محبة الإنسان لامرأة أو صبى ، لا يستعمل فى محبة كمحبة الأهل والمال والوطن والجاه ، ومحبة الأنبياء والصالحين ، وهو مقرون كثيراً بالفعل المحرم : إما بمحبة امرأة أجنبية أو صبى ، يقترن به النظر المحرم ، واللمس المحرم ، وغير ذلك من الأفعال المحرمة .

وأما محبة الرجل لامرأته أو سريته [محبة] تخرجه عن العدل بحيث يفعل لأجلها مالا يحل ، ويترك ما يجب ، كما هو الواقع كثيراً ، حتى يظلم ابنه من امرأته العتيقة ؛ لمحبته الجديدة ، وحتى يفعل من مطالبها المذمومة ما يضره فى دينه ودنياه ، مثل أن يخصها بميراث لا تستحقه ، أو يعطي أهلها من الولاية والمال ما يتعدى به حدود الله ، أو يسرف في الإنفاق عليها ، أو يملكها من أمور محرمة تضره فى دينه ودنياه ، وهذا فى عشق من يباح له وطؤها .

فكيف عشق الأجنبية والذكران من العالمين ، ؟ ! ! ففيه من الفساد مالا يحصيه إلا رب العباد وهو من الأمراض التى تفسد دين صاحبها وعرضه ، ثم قد تفسد عقله ثم جسمه . قال تعالى : (فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ) .

ومن فى قلبه مرض الشهوة وإرادة الصورة متى خضع المطلوب طمع المريض ،والطمع الذي يقوي الإرادة والطلب ، ويقوي المرض بذلك بخلاف ما إذا كان آيساً من المطلوب ، فإن اليأس يزيل الطمع فتضعف الإرادة فيضعف الحب ، فإن الإنسان لا يريد أن يطلب ماهو آيس منه ، فلا يكون مع الإرادة عمل أصلا ، بل يكون حديث نفس إلا أن يقترن بذلك كلام أو نظر ونحو ذلك فيأثم بذلك .

فأما إذا ابتلى بالعشق وعف وصبر فإنه يثاب على تقواه لله ، وقد روى في الحديث : « أن من عشق فعف وكتم وصبر ، ثم مات كان شهيداً » وهو معروف من رواية يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا ، وفيه نظر ولا يحتج بهذا .

لكن من المعلوم بأدلة الشرع أنه إذا عف عن المحرمات نظراً وقولاً وعملاً ، وكتم ذلك فلم يتكلم به حتى لا يكون في ذلك كلام محرم ، إما شكوى إلى المخلوق ، وإما إظهار فاحشة ، وإما نوع طلب للمعشوق ، وصبر على طاعة الله ، وعن معصيته ، وعلى ما في قلبه من ألم العشق ، كما يصبر المصاب عن ألم المصيبة ؛ فإن هذا يكون ممن اتقى الله وصبر . ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

وهكذا مرض الحسد وغيره من أمراض النفوس ، وإذا كانت النفس تطلب ما يبغضه الله فينهاها خشية من الله كان ممن دخل في قوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾

فالنفس إذا أحبت شيئاً سعت في حصوله بما يمكن ، حتى تسعى في أمور كثيرة تكون كلها مقامات لتلك الغاية ، فمن أحب محبة مذمومة أو أبغض بغضاً مذموماً وفعل ذلك كان آثماً ، مثل أن يبغض شخصاً لحسده له فيؤذي من له به تعلق ، إما بمنع حقوقهم ؛ أو بعدوان عليهم . أو لمحبة له

لهواه معه فيفعل لأجله ما هو محرم ، أو ما هو مأمور به لله فيفعله لأجل هواه لا لله ، وهذه أمراض كثيرة فى النفوس ، والإنسان قد يبغض شيئاً فيبغض لأجله أموراً كثيرة بمجرد الوهم والخيال .

وكذلك يحب شيئاً فيحب لأجله أموراً كثيرة ؛ لأجل الوهم والخيال ، كما قال شاعرهم :

أحب لحبها السودان حتى ... أحب لحبها سود الكلاب

فقد أحب سوداء ؛ فأحب جنس السواد ، حتى فى الكلاب ، وهذا كله مرض في القلب فى تصوره وإرادته .

فنسأل الله تعالى أن يعافى قلوبنا من كل داء ؛ ونعوذ بالله من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء .

والقلب إنما خلق لأجل « حب الله تعالى » وهذه الفطرة التى فطر الله عليها عباده كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ؛ كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه اقرأوا إن شئتم : (فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ) أخرجه البخاري ومسلم .

فالله سبحانه فطر عباده على محبته وعبادته وحده ؛ فإذا تركت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفاً بالله محباً له عابداً له وحده ، لكن تفسد فطرته من مرضه كأبويه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، وهذه كلها تغير فطرته التي فطره عليها ، وإن كانت بقضاء الله وقدره — كما يغير البدن بالجدع — ثم قد يعود إلى الفطرة إذا يسر الله تعالى لها من يسعى في إعادتها إلى الفطرة .

والرسل صلى الله عليهم وسلم بعثوا لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغيير الفطرة وتحويلها ، وإذا كان القلب محباً لله وحده مخلصاً له الدين لم يبتل بحب غيره [أصلا] ، فضلا أن يبتلى بالعشق . وحيث ابتلي بالعشق فلنقص محبته لله وحده .

ولهذا لما كان يوسف محباً لله مخلصاً له الدين لم يبتل بذلك ، بل قال تعالى : (كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ) . وأما امرأة العزيز فكانت مشركة هي وقومها ، فلهذا ابتليت بالعشق ، وما يبتلي بالعشق أحد إلا لنقص توحيده وإيمانه ، وإلا فالقلب المنيب إلى الله الخائف منه فيه صارفان يصرفانه عن العشق :

(أحدهما) إنابته إلى الله . ومحبته له ، فإن ذلك ألذ وأطيب من كل شيء . فلا تبقى مع محبة الله محبة مخلوق تزاحمه .

و (الثانى) خوفه من الله ، فإن الخوف المضاد للعشق يصرفه ، وكل من أحب شيئاً بعشق أو غير عشق فإنه يصرف عن محبته بمحبة ما هو أحب إليه منه ، إذا كان يزاحمه ، وينصرف عن محبته بخوف حصول ضرر يكون أبغض إليه من ترك ذاك الحب ، فإذا كان الله أحب إلى العبد من كل شيء ، وأخوف عنده من كل شيء ، لم يحصل معه عشق ولا مزاحمة إلا عند غفلة أو عند ضعف هذا الحب والخوف ، بترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ، فإن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، فكلما فعل العبد الطاعة محبة لله وخوفاً منه، وترك المعصية حباً له ، وخوفاً منه قوي حبه له وخوفه منه ، فيزيل ما فى القلب من محبة غيره ومخافة غيره .

وهكذا أمراض الأبدان : فإن الصحة تحفظ بالمثل ، والمرض يدفع بالضد ، فصحة القلب بالإيمان تحفظ بالمثل ، وهو ما يورث القلب إيماناً من العلم النافع والعمل الصالح ، فتلك أغذية له ، كما في حديث ابن مسعود مرفوعاً وموقوفاً « إن كل آدب يحب أن تؤتى مأدبته ، وأن مأدبة الله هي القرآن » والآدب المضيف فهو ضيافة الله لعباده (١) .

مثل آخر الليل، وأوقات الأذان والإقامة وفى سجوده وفى أدبار الصلوات ويضم إلى ذلك الاستغفار ؛ فإنه من استغفر الله ثم تاب إليه متعه متاعا حسناً إلى أجل مسمى .

---

(١) بياض بالاصل

وليتخذ ورداً من « الأذكار » فى النهـار ، ووقت النوم ، وليصبر على ما يعرض له من الموانع والصوارف ، فإنه لا يلبث أن يؤيده الله بروح منه ، ويكتب الإيمان فى قلبه .

وليحرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنة وظاهرة فإنها عمود الدين ، وليكن هجيراه لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنها بها تحمل الأثقال وتكابد الأهوال ، وينال رفيع الأحوال .

ولا يسأم من الدعاء والطلب ، فإن العبد يستجاب له ما لم يعجل ، فيقول: قد دعوت ودعوت فلم يستجب لي ، وليعلم أن النصر مـع الصبر ، وأن الفرج مع الـكرب ، وأن مع العسر يسراً ، ولم ينـل أحد شيئاً مـن ختم الخير نبي فمن دونه إلا بالصبر .

والحمد لله رب العالمين . وله الحمد والمنة على الإسلام والسنة حمـداً يكافئ نعمه الظاهرة والباطنة ، وكما ينبغي لـكرم وجهه وعز جلاله .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهـات المؤمنين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين . وسلم تسليماً كثيراً .

قال شيخ الإسلام

رحمه الله

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وصحبه وسلم .

فصل

في مرض القلوب وشفائها

قد ذكرنا فى غير موضع : أن صلاح حال الإنسان فى العدل ، كما أن فساده في الظلم . وأن الله سبحانه عدله وسواه لما خلقه ، وصحة جسمه وعافيته من اعتدال أخلاطه وأعضائه ومرض ذلك الانحراف والميل .

وكذلك استقامة القلب واعتداله واقتصاده وصحته وعافيته وصلاحه متلازمة .

وقد ذكر الله « مرض القلوب وشفاءها » فى مواضع من كتابه وجاء ذلك فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، كقوله تعالى عن المنافقين : (فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا) وقال : (فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ) وقال تعالى : (وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ) وقال : (قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ) . وقال تعالى : (وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) . وقال تعالى : (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ) . وقال تعالى : (فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ) . وقال : (لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ) . وقال : (وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هلا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال » وقال الرشيد : الآن شفيتني يا مالك ! وفى صحيح البخاري عن ابن مسعود « إن أحداً لا يزال بخير ما اتقى الله ، وإذا شك فى تفسير شيء سأل رجلاً فشفاه . وأوشك أن لا يجده ، والذي لا إله إلا هو » .

وما ذكر الله من مرض القلوب وشفائها بمنزلة ما ذكر من موتها

وحياتها وسمعها وبصرها وعقلها وصممها وبكمها وعماها .

لكن المقصود معرفة مرض القلب فنقول : المرض نوعان :

فساد الحس .

وفساد الحركة الطبيعية وما يتصل بها من الإرادية .

وكل منهما يحصل بفقده ألم وعذاب ، فكما أنه مع صحة الحس والحركة الإرادية والطبيعية تحصل اللذة والنعمة ، فكذلك بفسادها يحصل الألم والعذاب ؛ ولهذا كانت النعمة من النعيم ، وهو ما ينعم الله به على عباده ، مما يكون فيه لذة ونعيم ، وقال : (لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ) أي عن شكره .

فسبب اللذة إحساس الملائم ، وسبب الألم إحساس المنافى ، ليس اللذة والألم نفس الإحساس والإدراك ؛ وإنما هو نتيجته وثمرته ومقصوده وغايته، فالمرض فيه ألم لا بد منه وإن كان قد يسكن أحيانا لمعارض راجح ، فالمقتضي له قائم يهيج بأدنى سبب ، فلا بد فى المرض من وجود سبب الألم ، وإنما يزول الألم بوجود المعارض الراجح .

ولذة القلب وألمه أعظم من لذة الجسم وألمه، أعنى ألمه ولذته النفسانيتان

وإن كان قد يحصل فيه من الألم من جنس ما يحصل فى سائر البدن بسبب مرض الجسم فذلك شيء آخر .

فلذلك كان مرض القلب وشفاؤه أعظم من مرض الجسم وشفائه ، فتارة يكون من جملة الشبهات . كما قال : (فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ) وكما صنف الخرائطي « كتاب اعتلال القلوب بالأهواء » ففي قلوب المنافقين : المرض من هذا الوجه ، ومن هذا الوجه من جهة فساد الاعتقادات ، وفساد الإرادات .

والمظلوم فى قلبه مرض،وهو الألم الحاصل بسبب ظلم الغير له ، فإذا استوفى حقه اشتفى قلبه . كما قال تعالى : (وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ) فإن غيظ القلب إنما هو لدفع الأذى والألم عنه ، فإذا اندفع عنه الأذى واستوفى حقه زال غيظه .

فكما أن الإنسان إذا صار لا يسمع بأذنه،ولا يبصر بعينه،ولا ينطق بلسانه كان ذلك مرضاً مؤلماً له يفوته من المصالح ويحصل له من المضار فكذلك إذا لم يسمع ولم يبصر ولم يعلم بقلبه الحق من الباطل ، ولم يميز بين الخير والشر ، والغي والرشاد كان ذلك من أعظم أمراض قلبه وألمه ؛ وكما أنه إذا اشتهى ما يضره مثل الطعام الكثير فى الشهوة الكلية ، ومثل أكل الطين ونحوه كان ذلك مرضاً ؛ فإنه يتألم حتى يزول ألمه

بهذا الأكل الذي يوجد ألماً أكثر من الأول ؛ فهو يتألم إن أكل ؛ ويتألم إن لم يأكل .

فكذلك إذا بلي بحب من لا ينفعه العشق ونحوه سواء كان لصورة أو لرئاسة أو لمال ونحو ذلك فإن لم يحصل محبوبه ومطلوبه فهو متألم ومريض سقيم ؛ وإن حصل محبوبه فهو أشد مرضاً وألماً وسقماً ؛ ولذلك كما أن المريض إذا كان يبغض ما يحتـاج إليه من الطعام والشراب كان ذلك الألم حاصلاً ؛ وكان دوامه على ذلك يوجب من الألم أكثر من ذلك حتى يقتـله ؛ حتى يزول ما يوجب بغضه لما ينفعه ويحتاج إليه ؛ فهو متألم فى الحال ؛ وتألمه فيما بعد إن لم يعافه الله أعظم وأكبر .

فبغض الحاسد لنعمة الله على المحسود كبغض المريض لأكل الأصحاء لأطعمتهم وأشربتهم حتى لا يقدر أن يراهم يأكلون ؛ ونفرته عـن أن يقوم بحقه كنفرة المريض عما يصلح له من طعـام وشراب ؛ فالحب والبغض الخـارج عن الاعتـدال والصحة في النفس كالشهوة والنفرة الخارج عن الاعتدال والصحة فى الجسم . وعمى القلب وبكمه أن يبصر الحقائق ، ويميز ما ينفعه ويضره ، كعمى الجسم وخرسه عن أن يبصر الأمور المرتبة ، ويتكلم بها ويميز بين ما ينفعه ويضره .

وكما أن الضرير إذا أبصر وجد أن الراحة والعافية والسرور أمراً

عظيماً فبصر القلب ، ورؤيته الحقائق بينه وبين بصر الرأس من التفاوت ما لا يحصيه إلا الله ، وإنما الغرض هنا تشبيه أحد المرضين بالآخر . فطب الأديان يحتذي حذو طب الأبدان .

وقد كتب سليمان إلى أبى الدرداء . أما بعد : فقد بلغني أنك قعدت طبيباً فإياك أن تقتل ، والله أنزل كتابه شفاء لما فى الصدور . وقال تعالى : (وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) ذلك أن الشفاء إنما يحصل لمن يتعمد الدواء وهم المؤمنون وضعوا دواء القرآن على داء قلوبهم .

فمرض الجسم يكون بخروج الشهوة والنفرة الطبيعية عن الاعتدال : أما شهوة مالا يحصل، أو يفقد الشهوة النافعة ،وينفر به عما يصلح ويفقد النفرة عما يضر ، ويكون بضعف قوة الإدراك والحركة ، كذلك مرض القلب يكون بالحب والبغض الخارجين عن الاعتدال ، وهي الأهواء التى قال الله فيها : (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ) . وقال : (بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ) .

كما يكون الجسد خارجا عن الاعتدال إذا فعل ما يشتهيه الجسم بلا قول الطبيب ، ويكون لضعف إدراك القلب وقوته حتى لا يستطيع أن يعلم ويريد ما ينفعه ويصلح له ، وكما أن المرضى الجهال قد يتناولون ما يشتهون فلا

يحتمون ولا يصبرون على الأدويـة الكريهة لمـا فى ذلك من تعجيل نوع من الراحـة واللذة ، ولكن ذلك يعقبهـم من الآلام مايعظـم قـدره ، أو يعجل الهلاك .

فكذلك بنوا آدم هم جهال ظلموا أنفسهم : يستعجل أحدهم ما ترغبه لذته ويترك ما تكرهه نفسه مما هو لايصلح له ، فيعقبهـم ذلك من الألم والعقوبات ، إما في الدنيا وإما في الآخرة مافيه عظم العذاب والهلاك الأعظم .

و « التقوى » هي الاحتماء عمـا يضره بفعل ما ينفعه ؛ فإن الاحتماء عن الضار يستلزم استعمال النافع ، وأما استعمال النافع فقد يكون معه أيضاً استعمال لضار ، فلا يكون صاحبه من المتقين .

وأما ترك استعمال الضار والنافع فهذا لا يكون ، فإن العبـد إذا عجز عن تناول الغذاء كان مغتذيا بما معه من المواد التى تضره حـتى يهلك ، ولهـذا كانت العاقبة للتقوى ، وللمتقين ؛ لأنهم المحتمون عما يضرهم فعاقبتهم الإسلام والكرامة ، وإن وجدوا ألما فى الابتـداء لتناول الدواء والاحتماء ، كفعل الأعمال الصالحة المـكروهة . كما قال تعالى (كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ).

ولكثرة الأعمال الباطلة المشتهاة ، كما قال تعالى : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ

وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ) . وكما قال : (وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ) فأما من لم يحتم فإن ذلك سبب لضرره فى العاقبة ، ومن تناول ما ينفعه مع يسير من التخليط فهو أصلح ممن احتمى حمية كاملة ولم يتناول الأشياء سراً ؛ فإن الحمية التامة بلا اغتذاء تمرض ، فهكذا من ترك السيئات ولم يفعل الحسنات .

وقد قدمنا فى « قاعدة كبيرة » أن جنس الحسنات أنفع من جنس ترك السيئات ، كما أن جنس الاغتذاء من جنس الاحتماء ، وبينا أن هذا مقصود لنفسه وذلك مقصود لغيره بالانضمام إلى غيره ، وكما أن الواجب الاحتماء عن سبب المرض قبل حصوله ، وإزالته بعد حصوله ، فهكذا أمراض القلب يحتاج فيها إلى حفظ الصحة ابتداء وإلى إعادتها ــ بأن [عرض] له المرض ــ دواماً ، والصحة تحفظ بالمثل ، والمرض يزول بالضد ، فصحة القلب تحفظ باستعمال أمثال مافيها ، أو هو مايقوي العلم والإيمان من الذكر والتفكر والعبادات المشروعة ، وتزول بالضد ، فتزال الشبهات بالبينات ، وتزال محبة الباطل ببغضه ومحبة الحق .

ولهذا قال يحيى بن عمار : العلوم خمسة : فعلم هو حياة الدنيا . وهو علم التوحيد . وعلم هو غذاء الدين ؛ وهو علم التذكر بمعانى القرآن والحديث . وعلم هو دواء الدين ؛ وهو علم الفتوى إذا نزل بالعبد نازلة احتاج إلى من

يشفيه منها ، كما قال ابن مسعود . وعلـم هو داء الدين وهو الكلام المحدث وعلم هو هلاك الدين ؛ وهو علم السحر ونحوه .

فحفظ الصحة بالمثل ، وإزالة المرض بالضد ، فى مرض الجسم الطبيعي ، ومرض القلب النفسانى الدينى الشرعي . قال النبى صلى الله عليـه وسـلم : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانـه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» ثم يقول أبوهريرة: اقرؤوا إن شئتم : (فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا) أخرجاه فى الصحيحين . قال الله تعالى (وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) إلى قوله (بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ) إلى قوله (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) .

فأخبر أنه فطر عباده على إقامة الوجـه حنيفاً ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فهذه من الحركة الفطرية الطبيعية المستقيمة المعتدلة للقلب ،وتركها ظلم عظيم اتبع أهله أهواءهم بغير علم ، ولا بد لهذه الفطرة والخلقـة . ـ وهي صحة الخلقة ـ من قوت وغذاء يمدها بنظير ما فيها ممـا فطرت عليه علماً وعملا ؛ ولهذا كان تمام الدين بالفطرة المكملة بالشريعة المنزلة ، وهي مأدبـة الله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن مسعود : « إن كل آدب يحب أن

تؤتى مأدبته وإن مأدبــة الله هي القرآن » ومثله كماء أنزله الله من السماء ، كما جرى تمثيله بذلك فى الكتاب والسنة . والمحرفون للفطرة المغيرون للقلب عن استقامته هم ممرضون القلوب مسقمون لها ، وقد أنزل الله كتابــه شفاء لما في الصدور .

وما يصيب المؤمن فى الدنيا من المصائب هي بمنزلة ما تصيب الجســم من الألم يصح بها الجسم وتزول أخلاطه الفاسدة . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها خطاياه » وذلك تحقيق لقوله : (مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ) .

ومن لم يطهر فى هذه الدنيا من هذه الأمراض فيؤوب صحيحاً ، وإلا احتاج أن يطهر منها فى الآخرة فيعذبه الله ، كالذي اجتمعت فيــه أخلاطـــه ، ولم يستعمل الأدوية لتخفيفها عنه فتجتمع حتى يكون هلاكه بها ، ولهذا جاء فى الأثر « إذا قالوا المريض : اللهم ارحمه ، يقول الله : كيف أرحمه من شيء به أرحمه ؟! » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « المرض حطــة يحط الخطايا عن صاحبه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها » .

وكما أن أمراض الجسم ما إذا مات الإنسان منه كان شهيداً . كالمطعون والمبطون وصاحب ذات الجنب ، وكذلك الميت بغرق أو حرق أو هدم ؛ فمن

أمراض النفس، ما إذا اتقى العبد ربه فيه وصبر عليه حتى مات كان شهيداً، كالجبان الذي يتقي الله ويصبر للقتال حتى يقتل؛ فإن البخل والجبن من أمراض النفوس إن أطاعه أوجب له الألم، وإن عصاه تألم كأمراض الجسم.

وكذلك العشق فقد روى «من عشق فعف وكتم وصبر، ثم مات مات شهيداً» فإنه مرض في النفس يدعو إلى ما يضر النفس كما يدعو المريض إلى تناول ما يضر، فإن أطاع هواه عظم عذابه في الآخرة وفي الدنيا أيضاً، وإن عصى الهوى بالعفة والكتمان صار في نفسه من الألم والسقم ما فيها فإذا مات من ذلك المرض كان شهيداً، هذا يدعوه إلى النار فيمنعه كالجبان تمنعه نفسه عن الجنة فيقدمها.

فهذه الأمراض إذا كان معها إيمان وتقوى كانت كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له إن أصابته سراء فشكر، كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له».

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين. وسلم تسليما.

سئل الشيخ رحمه الله

عن قوله عز وجل : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ) فما العبادة وفروعها؟ وهل مجموع الدين داخل فيها أم لا ؟ وما حقيقة العبودية ؟ وهل هي أعلا المقامات فى الدنيا والآخرة أم فوقها شيء من المقامات ؟ وليبسطوا لنا القول فى ذلك .

فأجاب : الحمد لله رب العالمين .

« العبادة » هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه : من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، فالصلاة والزكاة . والصيام ، والحج ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ؛ وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم ، والدعاء والذكر والقراءة ، وأمثال ذلك من العبادة .

وكذلك حب الله ورسوله ، وخشية الله والإنابة إليه . وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ؛

والرجاء لرحمته ، والخوف لعذابه ، وأمثال ذلك هي من العبادة لله .

وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له ، التى خلق الخلق لها ، كما قال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) وبها أرسل جميع الرسل ، كما قال نوح لقومه : (ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ) ، وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم .

وقال تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ) وقال تعالى: (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ) وقال تعالى: (إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ) كما قال فى الآية الأخرى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) . وجعل ذلك لازماً لرسوله إلى الموت كما قال : (وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ)

وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه فقال تعالى : (وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) وقال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ) وذم المستكبرين عنها بقوله : (وَقَالَ

رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)

ونعت صفوة خلقه بالعبودية له فقال تعالى : (عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا) وقال : (وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا) الآيات . ولما قال الشيطان : (قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ) قال الله تعالى : (إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ)

وقال في وصف الملائكة بذلك : (وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ * لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ) إلى قوله : (وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ) وقال تعالى : (وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا * لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا * وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا * لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا * وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا)

وقال تعالى عن المسيح ــ الذي ادعيت فيه الإلهية والنبوة ــ (إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ) ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى

ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله »

وقد نعته الله « بالعبودية » فى أكمل أحواله فقال فى الإسراء : (سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا) وقال فى الإيحاء : (فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ) وقال فى الدعوة : (وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا) وقال فى التحدي : (وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ) فالدين كله داخل فى العبادة .

وقد ثبت في الصحيح أن جبريل لما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صورة أعرابي وسأله عن الإسلام قال : « أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا . قال : فما الإيمان ؟ قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال فما الإحسان؟ قال أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك « ثم قال في آخر الحديث « هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم » فجعل هذا كله من الدين .

و « الدين » يتضمن معنى الخضوع والذل . يقال : دنته فدان أي : ذللته فذل ، ويقال يدين الله ، ويدين لله أي : يعبد الله ويطيعه ويخضع له فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له .

و « العبادة » أصل معناها الذل أيضاً ، يقال : طريق معبد إذا كان مذللا قد وطئته الأقدام .

لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب ، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له ، فإن آخر مراتب الحب هو التتيم ، وأوله « العلاقة » لتعلق القلب بالمحبوب ، ثم « الصبابة » لا نصباب القلب إليه ، ثم « الغرام » وهو الحب اللازم للقلب ، ثم « العشق » وآخرها « التتيم » يقال : تيم الله أي : عبد الله ، فالمتيم المعبد لمحبوبه .

ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له ، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له ، كما قد يحب ولده وصديقه ، ولهذا لايكفي أحدهما في عبادة الله تعالى ، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء ، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء ، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله .

وكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة ، وما عظم بغير أمر الله كان تعظيمه باطلاً ، قال الله تعالى : (قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ)

، فجنس المحبة تكون لله ورسوله ، كالطاعة ؛ فإن الطاعة لله ورسوله

والإرضاء لله ورسوله : (وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ) والإيتاء لله ورسوله: (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ)

وأما « العبادة » وما يناسبها من التوكل ؛ والخوف ؛ ونحو ذلك فلا يكون إلا لله وحده ، كما قال تعالى : (قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا) إلى قوله : (فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) وقال تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ) فالإيتاء لله والرسول كقوله : (وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟) . وأما الحسب وهو الكافي فهو الله وحده ، كما قال تعالى : (ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ) وقال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) أي حسبك وحسب من اتبعك الله .

ومن ظن أن المعنى حسبك الله والمؤمنون معه فقد غلط غلطاً فاحشاً ، كما قد بسطناه في غير هذا الموضع وقال تعالى : (أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ) .

و « تحرير ذلك » أن العبد يراد به « المعبد » الذي عبده الله فذلله ودبره

وصرفه ، وبهذا الاعتبار المخلوقون كلهم عباد الله من الأبرار والفجار والمؤمنين والكفار وأهل الجنة وأهل النار ؛ إذ هو ربهم كلهم ومليكهم ، لا يخرجون عن مشيئته وقدرته ، وكلماته التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ؛ فما شاء كان وإن لم يشاءوا. وما شاءوا إن لم يشأه لم يكن، كما قال تعالى : (أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) .

فهو سبحانه رب العالمين وخالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم ومقلب قلوبهم ومصرف أمورهم لا رب لهم غيره ولا مالك لهم سواه ولا خالق إلا هو سواء اعترفوا بذلك أو أنكروه ، وسواء علموا ذلك أو جهلوه : لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك واعترفوا به ؛ بخلاف من كان جاهلا بذلك ؛ أو جاحداً له مستكبراً على ربه لا يقر ولا يخضع له ؛ مع علمه بأن الله ربه وخالقه .

فالمعرفة بالحق إذا كانت مع الاستكبار عن قبوله والجحد له كان عذابا على صاحبه ، كما قال تعالى : (وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ) وقال تعالى : (ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) وقال تعالى : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ) .

فإن اعترف العبد أن الله ربه وخالقه ؛ وأنه مفتقر إليه محتاج إليه عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله ، وهذا العبد يسأل ربه فيتضرع إليه ويتوكل عليه، لكن قد يطيع أمره ؛ وقد يعصيه ، وقد يعبده مع ذلك ؛ وقد يعبد الشيطان والأصنام .

ومثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة والنار ، ولا يصير بها الرجل مؤمناً . كما قال تعالى : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ) فإن المشركين كانوا يقرون أن الله خالقهم ورازقهم وهم يعبدون غيره قال تعالى : (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) وقال تعالى: (قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) إلى قوله : (قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ)

وكثير ممن يتكلم فى الحقيقة ويشهدها يشهد هذه الحقيقة وهي «الحقيقة الكونية» التى يشترك فيها وفى شهودها ومعرفتها المؤمن والكافر، والبر والفاجر ، وإبليس معترف بهذه الحقيقة ؛ وأهل النار . قال إبليس : (رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) وقال : (رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) وقال : (فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) وقال : (أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ) وأمثال هذا من الخطاب الذي يقر فيه بأن الله ربه وخالقه وخالق غيره : وكذلك أهل النار قالوا : (رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا

ضَآلِّينَ) وقال تعالى : (وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا)

فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها ولم يقم بما أمر به من الحقيقة الدينية التي هي عبادته المتعلقة بإلهيته وطاعة أمره وأمر رسوله كان من جنس إبليس وأهل النار ؛ وإن ظن مع ذلك أنه من خواص أولياء الله وأهل المعرفة والتحقيق الذين يسقط عنهم الأمر والنهي الشرعيان ، كان من أشر أهل الكفر والإلحاد .

ومن ظن أن الخضر وغيره سقط عنهم الأمر لمشاهدة الإرادة ونحو ذلك كان قوله هذا من شر أقوال الكافرين بالله ورسوله . حتى يدخل فى « النوع الثانى » من معنى العبد وهو العبد بمعنى العابد فيكون عابداً لله لا يعبد إلا إياه ؛ فيطيع أمره وأمر رسله ، ويوالى أولياءه المؤمنين المتقين ؛ ويعادي أعداءه ، وهذه العبادة متعلقة بإلهيته ، ولهذا كان عنوان التوحيد « لا إله إلا الله » بخلاف من يقر بربوبيته ولا يعبده : أو يعبد معه إلهاً آخر ، فالإله الذي يأله القلب بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك ، وهذه العبادة هي التى يحبها الله ويرضاها ، وبها وصف المصطفين من عباده ، وبها بعث رسله .

وأما « العبد » بمعنى المعبد سواء أقر بذلك أو أنكره ؛ فتلك يشترك

فيهـا المؤمن والـكافر . وبالفرق بين هـذين النوعين يعرف الفرق بـين « الحقائق الدينيـة » الداخلة فى عبـادة الله ودينه وأمره الشرعي التى يحبها ويرضاها ويوالى أهلهـا ويكرمهم بجنته ، وبين « الحقـائق الـكونية » التى يشترك فيها المؤمن والـكافر والبر والفـاجر التى من اكتفى بهـا ولم يتبـع الحقائق الدينية كان من أتبـاع إبليس اللعين والـكافرين برب العالمين . ومن اكتفى بها فى بعض الأمور دون بعض،أو فى مقـام أو حال نقص من إيمـانه وولايته لله بحسب مانقص من الحقائق الدينية .

وهذا مقام عظيم فيه غلط الغالطون ، وكثر فيه الاشتباه على السالكين ، حتى زلق فيـه من أكابر الشيوخ المدعين التحقيق والتوحيـد والعرفان مالا يحصيهم إلا الله الذي يعلم السر والإعـلان ؛ وإلى هـذا أشار الشيخ « عبد القادر » رحمه الله فيما ذكر عنه ، فبين أن كثيراً من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا إلا أنا فإنى انفتحت لي فيه روزنة فنـازعت أقدار الحق بالحق للحق ؛ والرجـل من يـكون منازعا للقـدر لا من يكـون موافقاً للقدر .

والذي ذكره الشيخ رحمه الله هو الذي أمر الله بـه ورسوله ؛ لكـن كثير من الرجال غلطوا ، فإنهم قد يشهدون ما يقدر على أحـدهم من المعاصي والذنوب ؛ أو ما يقدر على النـاس من ذلك ، بل من الكفر ؛ ويشهدون أن هذا جار بمشيئة الله وقضائه وقدره داخل فى حكم ربوبيته ومقتضى مشيئته

فيظنون الاستسلام لذلك وموافقته والرضا به ، ونحو ذلك ، ديناً وطريقاً وعبادة ؛ فيضاهون المشركين الذين قالوا : (لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ) . وقالوا : (أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ) . وقالوا : (لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم)

ولو هدوا لعلموا أن القدر أمرنا أن نرضى به،ونصبر على موجبه فى المصائب التى تصيبنا كالفقر والمرض والخوف ، قال تعالى : (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ) . قال بعض السلف : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم ، وقال تعالى : (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ) .

وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « احتج آدم وموسى فقال موسى أنت آدم الذي خلقك الله بيده،ونفخ فيك من روحه،وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء ، فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ فقال آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه ، فهل وجدت ذلك مكتوباً عليَّ قبل أن أخلق ؟ قال : نعم . قال : فحج آدم موسى » .

وآدم عليه السلام لم يحتج على موسى بالقدر ظناً أن المذنب يحتج بالقدر ، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل ، ولو كان هذا عذراً لكان عذراً لإبليس وقوم نوح وقوم هود وكل كافر ، ولا موسى لام آدم أيضاً لأجل الذنب ، فإن آدم قد تاب إلى ربه فاجتباه وهدى ، ولكن لامه لأجل المصيبة التى لحقتهم بالخطيئة ، ولهـذا قال : فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ فأجابه آدم أن هذا كان مكتوباً قبل أن أخلق ، فكان العمل والمصيبة المترتبة عليه مقدراً ، وما قدر من المصـائب يجب الاستسلام له ، فإنه من تمام الرضا بالله رباً .

وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب ، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب ، فيتوب من المعائب ويصبر على المصائب . قال تعالى : (فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ) وقال تعـالى : (وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا) وقال : (وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ) وقال يوسف : (إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ) .

وكذلك ذنوب العباد ، يجب عـلى العبد فيهـا أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكـر ـــ بحسب قدرته ـــ ويجاهد فى سبيل الله الكفار والمنـافقين ويوالي أوليـاء الله ويعادي أعداء الله ، ويحب فى الله ويبغض فى الله . كما قال تعـالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ

إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ) إلى قوله : (قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ) ، وقال تعالى : (لَّا تَجِدُ قَوۡمًا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ) إلى قوله :

(أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ)

وقال تعالى : (أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ) وقال : (أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ) وقال تعالى : (أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ)

وقال تعالى : (وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ * وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُ)

وقال تعالى : (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا) وقال تعالى : (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ) إلى قوله : (بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ * وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ) إلى قوله : (وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ) وقال تعالى : (لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ) .

ونظائر ذلك مما يفرق الله فيه بين أهل الحق والباطل ، وأهل الطاعة وأهل

المعصية، وأهل البر وأهل الفجور، وأهل الهدى والضلال، وأهل الغي والرشاد وأهل الصدق والكذب .

فمن شهد « الحقيقة الكونية » دون « الدينية » سوى بين هذه الأجناس المختلفة التى فرق الله بينها غاية التفريق حتى يؤول به الأمر إلى أن يسوى الله بالأصنام ، كما قال تعالى عنهم : (تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) بل قد آل الأمر بهؤلاء إلى أن سووا الله بكل موجود ، وجعلوا ما يستحقه من العبادة والطاعة حقاً لكل موجود إذ جعلوه هو وجود المخلوقات ، وهذا من أعظم الكفر والإلحاد برب العباد .

وهؤلاء يصل بهم الكفر إلى أنهم لا يشهدون أنهم عباد لا بمعنى أنهم معبدون، ولا بمعنى أنهم عابدون ؛ إذ يشهدون أنفسهم هي الحق ، كما صرح بذلك طواغيتهم كابن عربي صاحب « الفصوص » ، وأمثاله من الملحدين المفترين كابن سبعين وأمثاله · ويشهدون أنهم هم العابدون والمعبودون ، وهذا ليس بشهود لحقيقة ؛ لا كونية ولا دينية ؛ بل هو ضلال وعمى عن شهود الحقيقة الكونية ، حيث جعلوا وجود الخالق هو وجود المخلوق ، وجعلوا كل وصف مذموم وممدوح نعتاً للخالق والمخلوق ، إذ وجود هذا هو وجود هذا عندهم .

وأما المؤمنون بالله ورسوله عوامهم وخواصهم الذين هم أهل الكتاب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن لله أهلين من الناس. قيل : من هم يارسول الله ؟ قال أهل القرآن هم أهل الله ، وخاصته » فهؤلاء يعلمون أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه، وأن الخالق سبحانه مباين للمخلوق ليس هو حالاً فيه، ولا متحداً به، ولا وجوده وجوده .

و « النصارى » كفرهم الله بأن قالوا : بالحلول والاتحاد بالمسيح خاصة ، فكيف من جعل ذلك عاماً فى كل مخلوق ؟!.

ويعلمون مع ذلك أن الله أمر بطاعته وطاعة رسوله ونهى عن معصيته ومعصية رسوله ، وأنه لا يحب الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر وأن على الخلق أن يعبدوه فيطيعوا أمره، ويستعينوا به على ذلك ، كما قال (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) .

ومن عبادته وطاعته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ــ بحسب الإمكان ــ والجهاد فى سبيله لأهل الكفر والنفاق . فيجتهدون فى إقامة دينه ، مستعينين به ، دافعين مزيلين بذلك ما قدر من السيئات ، دافعين بذلك ما قد يخاف من ذلك ، كما يزيل الإنسان الجوع الحاضر بالأكل ، ويدفع به الجوع المستقبل ، وكذلك إذا آن أوان البرد

دفعه باللباس ، وكذلك كل مطلوب يدفع به مكروه . كما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم « يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ، ورقى نسترقي بها ونقاة نتقي بها هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال : هي من قدر الله » . وفى الحديث « إن الدعاء والبلاء ليلتقيان فيعتلجان بين السماء والأرض » فهذا حال المؤمنين بالله ورسوله العابدين لله وكل ذلك من العبادة .

وهؤلاء الذين يشهدون « الحقيقة الكونية » وهي ربوبيته تعالى لكل شيء ، ويجعلون ذلك مانعاً من اتباع أمره الديني الشرعي على مراتب فى الضلال .

فغلاتهم يجعلون ذلك مطلقاً عاماً ، فيحتجون بالقدر فى كل ما يخالفون فيه الشريعة . وقول هؤلاء شر من قول اليهود والنصارى ، وهو من جنس قول المشركين الذين قالوا : (سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ) . وقالوا : (لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم) .

وهؤلاء من أعظم أهل الأرض تناقضاً ؛ بل كل من احتج بالقدر فإنه متناقض ، فإنه لا يمكن أن يقر كل آدمي على ما فعل ؛ فلا بد إذا ظلمه ظالم ، أو ظلم الناس ظالم ، وسعى فى الأرض بالفساد وأخذ يسفك دماء الناس ، ويستحل الفروج ، ويهلك الحرث والنسل ونحو ذلك من

أنواع الضرر التى لا قوام للناس بها أن يدفع هذا القدر ؛ وأن يعاقب الظالم بما يكف عدوان أمثاله . فيقال له إن كان القدر حجة فدع كل أحد يفعل ما يشاء بك وبغيرك ، وإن لم يكن حجة بطل أصل قولك : حجة . وأصحاب هـذا القول [الذين] يحتجون بالحقيقة الكونية لا يطردون هذا القول ولا يلتزمونه ، وإنما هم بحسب آرائهم وأهوائهم ؛ كما قال فيهم بعض العلماء : أنت عند الطاعة قدري ، وعند المعصية جبري ؛ أي مذهب وافق هواك تمذهبت به .

ومنهم « صنف » يدعون التحقيق والمعرفة فيزعمون أن الأمر والنهي لازم لمن شهد لنفسه فعلاً وأثبت له صنعاً ؛ أما من شهد أن أفعاله مخلوقة ؛ أو أنه مجبور على ذلك ؛ وأن الله هو المتصرف فيه ، كما تحرك سائر المتحركات ؛ فإنه يرتفع عنه الأمر والنهي والوعد والوعيد .

وقد يقولون : من شهد « الإرادة » سقط عنه التكليف ، ويزعم أحدهم أن الخضر سقط عنه التكليف لشهوده الإرادة ، فهؤلاء لا يفرقون بين العامة والخاصة الذين شهدوا الحقيقة الكونية ، فشهدوا أن الله خالق أفعال العباد وأنه يدبر جميع الكائنات ، وقد يفرقون بين من يعلم ذلك علماً وبين من يراه شهوداً ، فلا يسقطون التكليف عمن يؤمن بذلك ويعلمه فقط ، ولكن عمن

يشهده ، فلا يرى لنفسه فعلاً أصلاً ، وهؤلاء لا يجعلون الجبر وإثبات القدر مانعاً من التكليف على هذا الوجه .

وقد وقع فى هذا طوائف من المنتسبين إلى التحقيق والمعرفة والتوحيد .

وسبب ذلك أنه ضاق نطاقهم عن كون العبد يؤمر بما يقدر عليه خلافه ، كما ضاق نطاق المعتزلة ونحوهم من القدرية عن ذلك . ثم المعتزلة أثبتت الأمر والنهي الشرعيين دون القضاء والقدر الذي هو إرادة الله العامة ، وخلقه لأفعال العباد ، وهؤلاء أثبتوا القضاء والقدر ، ونفوا الأمر والنهي فى حق من شهد القدر ، إذ لم يمكنهم نفي ذلك مطلقاً . وقول هؤلاء شر من قول المعتزلة ؛ ولهذا لم يكن فى السلف من هؤلاء أحد ، وهؤلاء يجعلون الأمر والنهي للمحجوبين الذين لم يشهدوا هذه الحقيقة الكونية ولهذا يجعلون من وصل إلى شهود هذه الحقيقة يسقط عنه الأمر والنهي ، وصار من الخاصة .

وربما تأولوا على ذلك قوله تعالى : (وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ) وجعلوا اليقين هو معرفة هذه الحقيقة ، وقول هؤلاء كفر صريح . وإن وقع فيه طوائف لم يعلموا أنه كفر ؛ فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن الأمر والنهي لازم لكل عبد ما دام عقله حاضراً

إلى أن يموت ، لا يسقط عنه الأمر والنهي لا بشهوده القدر ، ولا بغير ذلك ، فمن لم يعرف ذلك عرفه ، وبين له فإن أصر على اعتقاد سقوط الأمر والنهي فإنه يقتل .

وقد كثرت مثل هذه المقالات في المستأخرين .

وأما المستقدمون من هذه الأمة فلم تكن هذه المقالات معروفة فيهم .

وهذه المقالات هي محادة لله ورسوله ، ومعاداة له ، وصد عن سبيله ، ومشاقة له ؛ وتكذيب لرسله ؛ ومضادة له في حكمه ، وإن كان من يقول هذه المقالات قد يجهل ذلك ويعتقد أن هذا الذي هو عليه هو طريق الرسول ؛ وطريق أولياء الله المحققين ؛ فهو فى ذلك بمنزلة من يعتقد أن الصلاة لا تجب عليه لاستغنائه عنها بما حصل له من الأحوال القلبية ، أو أن الخمر حلال له لكونه من الخواص الذين لايضرهم شرب الخمر ؛ أو أن الفاحشة حلال له ؛ لأنه صار كالبحر لا تكدره الذنوب ؛ ونحو ذلك .

ولا ريب أن المشركين الذين كذبوا الرسل يترددون بين البدعة المخالفة لشرع الله ؛ وبين الاحتجاج بالقدر على مخالفة أمر الله ؛ فهؤلاء الأصناف

فيهم شبه من المشركين ، إما أن يبتدعوا ، وإما أن يحتجوا بالقدر وإما أن يجمعوا بين الأمرين كما قال تعالى عن المشركين : (وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) وكما قال تعالى عنهم : (سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ)

وقد ذكر عن المشركين ما ابتدعوه من الدين الذي فيه تحليل الحرام ، والعبادة التي لم يشرعها الله بمثل قوله تعالى : (وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ) إلى آخر السورة . وكذلك في سورة الأعراف في قوله : (يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ) إلى قوله (وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ) إلى قوله : (قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ) إلى قوله : (وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ) إلى قوله : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) .

وهؤلاء قد يسمون ما أحدثوه من البدع « حقيقة » ، كما يسمون ما يشهدون من القدر « حقيقة » . وطريق الحقيقة عندهم هو السلوك الذي لا يتقيد صاحبه بأمر الشارع ونهيه ، ولكن بما يراه ويذوقه ويجده ونحو ذلك . وهؤلاء لا يحتجون بالقدر مطلقاً ؛ بل عمدتهم اتباع آرائهم وأهوائهم وجعلهم لما يرونه ويهوونه حقيقة ، وأمرهم باتباعها دون اتباع أمر الله ورسوله ، نظير بدع أهل الكلام من الجهمية وغيرهم ، الذين يجعلون ما ابتدعوه من الأقوال المخالفة للكتاب والسنة حقائق عقلية يجب اعتقادها ، دون مادلت عليه السمعيات . ثم الكتاب والسنة إما أن يحرفوه عن مواضعه ، وإما أن يعرضوا عنه بالكلية ، فلا يتدبرونه ولا يعقلونه ، بل يقولون : نفوض معناه إلى الله ، مع اعتقادهم نقيض مدلوله . وإذا حقق على هؤلاء ما يزعمونه من العقليات المخالفة للكتاب والسنة وجدت جهليات واعتقادات فاسدة .

وكذلك أولئك إذا حقق عليهم مايزعمونه من حقائق أولياء الله المخالفة للكتاب والسنة وجدت من الأهواء التي يتبعها أعداء الله لا أولياؤه .

وأصل ضلال من ضل هو بتقديم قياسه على النص المنزل من عند الله ، واختياره الهوى على اتباع أمر الله ، فإن الذوق والوجد ونحو ذلك هو بحسب مايحبه العبد ، فكل محب له ذوق ووجد بحسب محبته . فأهل الإيمان لهم من الذوق والوجد مثل مابينه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله في الحديث الصحيح : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما

سواها ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار » . وقال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبياً » .

وأما أهل الكفر والبدع والشهوات فكل بحسبه ، قيل لسفيان بن عيينة : ما بال أهل الأهواء لهم محبة شديدة لأهوائهم ؟! فقال أنسيت قوله تعالى : (وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ) أو نحو هذا من الكلام؟ ! فعباد الأصنام يحبون آلهتهم ، كما قال تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ)وقال : (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ) وقال : (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ) ولهذا يميل هؤلاء إلى سماع الشعر والأصوات التى تهيج المحبة المطلقة التى لا تختص بأهل الإيمان ، بل يشترك فيها محب الرحمن ، ومحب الأوثان ، ومحب الصلبان ومحب الأوطان ، ومحب الإخوان ، ومحب المردان ، ومحب النسوان . وهؤلاء الذين يتبعون أذواقهم ومواجيدهم من غير اعتبار لذلك بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة .

فالمخالف لما بعث به رسوله من عبادته وطاعته وطاعة رسوله لا يكون متبعا لدين شرعه الله ، كما قال تعالى :(ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا

وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا) إلى قوله . (وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ) ، بل يكون متبعا لهواه بغير هدى من الله قال تعالى : (أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ) وهم فى ذلك تارة يكونون على بدعة يسمونها حقيقة يقدمونها على ما شرعه الله ، وتارة يحتجون بالقدر الكونى على الشريعة ، كما أخبر الله به عن المشركين كما تقدم .

ومن هؤلاء طائفة هم أعلاهم قدراً وهم مستمسكون بالدين فى أداء الفرائض المشهورة ، واجتناب المحرمات المشهورة ، لكن يغلطون فى ترك ما أمروا به من الأسباب التى هي عبادة ، ظانين أن العارف إذا شهد « القدر » أعرض عن ذلك ، مثل من يجعل التوكل منهم أو الدعاء ونحو ذلك من مقامات العامة دون الخاصة ، بناء على أن من شهد القدر علم أن ماقدر سيكون ، فلا حاجة إلى ذلك ، وهذا غلط عظيم . فإن الله قدر الأشياء بأسبابها كما قدر السعادة والشقاوة بأسبابها . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق للجنة أهلا خلقها لهم وهم فى أصلاب آبائهم ، وبعمل أهل الجنة يعملون» وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم لما أخبرهم بأن الله كتب المقادير فقالوا : يارسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب ؟ فقال : « لا . اعملوا فكل ميسر لما خلق له . أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة » .

فما أمر الله به عباده من الأسباب فهو عبادة والتوكل مقرون بالعبادة كما في قوله تعالى : (فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) وفي قوله : (قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ) وقول شعيب عليه السلام (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

ومنهم طائفة قد تترك المستحبات من الأعمال دون الواجبات ، فتنقص بقدر ذلك .

ومنهم طائفة يغترون بما يحصل لهم من خرق عادة مثل مكاشفة ؛ أو استجابة دعوة مخالفة للعادة العامة ، ونحو ذلك ، فيشتغل أحدهم عما أمر به من العبادة والشكر ونحو ذلك .

فهذه الأمور ونحوها كثيراً ما تعرض لأهل السلوك والتوجه ؛ وإنما ينجو العبد منها بملازمة أمر الله الذي بعث به رسوله في كل وقت . كما قال الزهري : كان من مضى من سلفنا يقولون : الاعتصام بالسنة نجاة . وذلك أن السنة ــ كما قال مالك رحمه الله ــ مثل سفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق .

والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد، ولها أصلان :

« أحدهما » ألا يعبد إلا الله .

و « الثاني » أن يعبد بما أمر وشرع لا بغير ذلك من البدع . قال تعالى :
(فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا)
وقال تعالى : (بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) وقال تعالى : (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا) فالعمل الصالح هو الإحسان وهو فعل الحسنات . و « الحسنات » هي ما أحبه الله ورسوله ، وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب ، فما كان من البدع في الدين التى ليست مشروعة فإن الله لايحبها ولا رسوله ، فلا تكون من الحسنات ولا من العمل الصالح ، كما أن من يعمل مالا يجوز كالفواحش والظلم ليس من الحسنات ، ولا من العمل الصالح .

وأما قوله : (وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا) وقوله : (أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ) فهو إخلاص الدين لله وحده ، وكان عمر بن الخطاب يقول : اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً .

وقال الفضيل بن عياض فى قوله : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) قال : أخلصه وأصوبه ، قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ قال :

إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكـن خالصـاً لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة .

فإن قيل فإذا كان جميع ما يحبه الله داخلاً فى اسم العبادة فلماذا عطف عليها غيرهـا ؛ كقوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وقوله : (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) وقول نوح : (اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ) وكذلك قول غيره من الرسل، قيل هذا له نظائر كما فى قوله (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ) والفحشاء من المنكر وكذلك قوله : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ) وإيتاء ذي القربى هو من العدل والإحسان ، كما أن الفحشاء والبغي من المنكر . وكذلك قوله : (وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) وإقامة الصلاة من أعظم التمسك بالكتاب. وكذلك قوله : (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا) ودعاؤهم رغبا ورهبا من الخيرات ، وأمثال ذلك فى القرآن كثير .

وهـذا الباب يكون تارة مع كون أحدهما بعض الآخر ، فيعطف عليه تخصيصاً له بالذكر لكـونه مطلوبا بالمعنى العام ، والمعنى الخاص ، وتارة تـكون دلالة الاسم تتنوع بحال الانفراد والاقتران ، فإذا أفرد عم ، وإذا قرن بغيره خص ، كاسم « الفقير » و « المسـكين » لما

أفرد أحدهما في مثل قوله : (لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ)
وقوله : (إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ) دخل فيه الآخر ، ولما قرن بينهما
في قوله : (إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ) صارا نوعين .

وقد قيل : إن الخاص المعطوف على العام لا يدخل في العام حال الاقتران ؛ بل يكون من هذا الباب . والتحقيق أن هذا ليس لازما
قال تعالى : (مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ)
وقال تعالى : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ)

وذكر الخاص مع العام يكون لأسباب متنوعة : تارة لكونه له خاصية ليست لسائر أفراد العام ؛ كما في نوح وإبراهيم وموسى وعيسى . وتارة لكون العام فيه إطلاق قد لا يفهم منه العموم ، كما في قوله :
(هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ) فقوله : يؤمنون بالغيب ؛ يتناول الغيب الذي يجب الإيمان به ؛ لكن فيه إجمال فليس فيه دلالة على أن من الغيب ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك . وقد يكون المقصود أنهم يؤمنون بالمخبر به وهو الغيب ، وبالإخبار بالغيب وهو ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ) وقوله : (وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ) و « تلاوة الكتاب » هي اتباعه ، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى (ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ) قال يحلون حلاله ويحرمون حرامه ، ويؤمنون بمتشابهه ويعملون بمحكمه ، فاتباع الكتاب يتناول الصلاة وغيرها ، لكن خصها بالذكر لمزيتها ، وكذلك قوله لموسى : (إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ) وإقامة الصلاة لذكره من أجل عبادته ، وكذلك قوله تعالى : (ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا) وقوله (ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ) وقوله : (ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ) فإن هذه الأمور هي أيضاً من تمام تقوى الله ، وكذلك قوله : (فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) فإن التوكل والاستعانة هي من عبادة الله ؛ لكن خصت بالذكر ليقصدها المتعبد بخصوصها ؛ فإنها هي العون على سائر أنواع العبادة إذ هو سبحانه لا يعبد إلا بمعونته .

إذا تبين هذا فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله ، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ، ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه . أو أن الخروج عنها أكمل فهو من أجهل الخلق وأضلهم . قال تعالى : (وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ)

إلى قوله : (وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ) وقال تعالى : (وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا) إلى قوله : (إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا) وقال تعالى فى المسيح :

(إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ)

وقال تعالى : (وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) وقال تعالى : (لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا) إلى قوله (وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) وقال تعالى : (وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) وقال تعالى : (وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ) وقال تعالى : (وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً) إلى قوله : (إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ) .

وهذا ونحوه مما فيه وصف أكابر المخلوقات بالعبادة وذم من خرج عن ذلك متعدد فى القرآن ، وقد أخبر أنه أرسل جميع الرسل بذلك .

فقال تعالى : (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ) وقال : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ) وقال تعالى لبنى إسرائيل : (يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ) (وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ) وقال (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) وقال : (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) وقال تعالى : (قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى * فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ) .

وكل رسول من الرسل افتتح دعوته بالدعاء إلى عبادة الله كقول نوح ومن بعده عليهم السلام : (ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ) وفى المسند عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لاشريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحي ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري » .

وقد بين أن عباده هم الذين ينجون من السيئات قال الشيطان : (رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ) قال تعالى : (إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ

ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ) وقال : (فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ) وقال فى حق يوسف : (كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ) وقال : (سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ) وقال : (إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ) وبها نعت كل من اصطفى من خلقــه كقوله : (وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ * إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ) وقوله : (وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ) وقال عن سليمان : (نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ) وعن أيوب : (نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ) وقال : (وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ) وقال عن نوح عليه السلام : (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) وقال : (سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا) وقال : (وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ) وقال : (وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا) وقال (فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ) وقال : (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ) وقال : (وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا) ومثل هــذا كثير متعدد فى القرآن .

فصـــــل

إذا تبين ذلك : فمعلوم أن هذا الباب يتفاضلون فيـه تفاضلا عظيما ، وهو تفاضلهم في حقيقة الإيمان ، وهم ينقسمون فيه : إلى عام ، وخاص ، ولهذا كانت ربوبية الرب لهم فيها عموم وخصوص . ولهـذا كان الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل . وفى الصحيح عن النبى صـلى الله عليه وسلم أنه قال : « تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش ، إن أعطى رضي وإن منع سخط » .

فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الدرهم ، وعبـد الدينار ، وعبـد القطيفة ، وعبد الخميصة . وذكر ما فيه دعاء وخبر ، وهو قوله : « تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش » والنقش إخراج الشوكة من الرجل والمنقاش ما يخرج به الشوكة ، وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح لكونه تعس وانتكس ، فلا نال المطلوب ولا خلص من المكروه وهذه حال من عبد المال ، وقد وصف ذلك بأنـه « إذا أعطى رضى ، وإذا منع سخط » كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ

مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ) فرضاهم لغير الله وسخطهم لغير الله ، وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو بصورة ونحو ذلك من أهواء نفسه إن حصل له رضي ، وإن لم يحصل له سخط ، فهذا عبد ما يهواه من ذلك ، وهو رقيق له ، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته ، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده . ولهذا يقال :

العبد حر ماقنع والحر عبد ما طمع

وقال القائل

أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أنى قنعت لكنت حراً

ويقال : الطمع غل فى العنق قيد فى الرجل ، فإذا زال الغل من العنق زال القيد من الرجل . ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : الطمع فقر ، واليأس غنى ، وإن أحدكم إذا يئس من شيء استغنى عنه . وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه ؛ فإن الأمر الذى ييأس منه لايطلبه ولا يطمع به ، ولا يبقى قلبه فقيراً إليه ، ولا إلى من يفعله ، وأما إذا طمع فى أمر من الأمور ورجاه تعلق قلبه به ، فصار فقيراً إلى حصوله ؛ وإلى من يظن أنه سبب فى حصوله ، وهذا فى المال والجاه والصور وغير ذلك . قال الخليل صلى الله عليه وسلم : (فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) .

فالعبد لابـد له من رزق ، وهو محتاج إلى ذلك ، فإذا طلب رزقـه من الله صار عبداً لله ، فقيراً إليه ، وإن طلبه من مخلوق صار عبـداً لذلك المخلوق فقيراً إليه .

ولهذا كانت « مسألة المخلوق » محرمة فى الأصل ، وإنما أبيحت للضرورة وفى النهي عنها أحاديث كثيرة فى الصحاح والسنن والمسانيد . كقوله صلى الله عليه وسلم« لا تزال المسألة بأحدكم حتى يأتي يوم القيامـة وليس فى وجهـه مزعة لحم » وقوله : « من سأل الناس وله مايغنيه جاءت مسألتـه يـوم القيامة خدوشاً أو خموشاً أو كدوحا فى وجهه » وقوله : « لاتحل المسألة إلا لذى غرم مفظع ، أو دمع موجع ، أو فقر مدقع » هذا المعنى فى الصحيح . وفيه أيضاً « لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » وقال : « ما أتاك من هـذا المال وأنت غير سائل ولا مشرف فخذه ، ومالا فـلا تتبعه نفسك » فكره أخذه من سؤال اللسان واستشراف القلب ، وقال في الحديث الصحيح : « من يستغن يغنه الله ؛ ومن يستعفف يعفـه الله ؛ ومن يتصبر يصـبره الله ؛ وما أعطى أحد عطاء خـيراً وأوسع من الصبر » وأوصى خواص أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئاً وفى المسند « إن أبا بكر كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد ناولـني إياه ؛ ويقول : إن خليـلي أمرنى أن لا أسأل الناس شيئاً » وفى صحيح مسلم وغـيره عن عوف بن مالك « أن

النبي صلى الله عليه وسلم بايعه في طائفة وأسر إليهم كلمة خفية : أن لا تسألوا الناس شيئاً ، فكان بعض أولئك النفر يسقط السوط من يد أحدهم ؛ ولا يقول لأحد ناولني إياه » .

وقد دلت النصوص على الأمر بمسألة الخالق والنهي عن مسألة المخلوق ؛ فى غير موضع . كقوله تعالى : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ) وقول النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس : « إذا سألت فاسأل الله ؛ وإذا استعنت فاستعن بالله » ومنه قول الخليل : (فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ) ولم يقل فابتغوا الرزق عند الله ؛ لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر ؛ كأنه قال لاتبتغوا الرزق إلا عند الله . وقد قال تعالى : (وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ) والإنسان لابد له من حصول ما يحتاج إليه من الرزق ونحوه ؛ ودفع ما يضره ؛ وكلا الأمرين شرع له أن يكون دعاؤه لله ؛ فله أن يسأل الله وإليه يشتكي ؛ كما قال يعقوب عليه السلام : (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ) .

والله تعالى ذكر فى القرآن « الهجر الجميل » و « الصفح الجميل » و « الصبر الجميل » .

وقد قيل : إن « الهجر الجميل » هو هجر بلا أذى . والصفح الجميل صفح بلا معاتبة . والصبر الجميل صبر بغير شكوى إلى المخلوق ؛ ولهذا قرئ على أحمد بن حنبل فى مرضه أن طاوساً كان يكره أنين

المريض ويقول : إنه شكوى فما أن أحمد حتى مات .

وأما الشكوى إلى الخالق فلا تنافى الصبر الجميل ؛ فإن يعقوب قال : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) وقال : (إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ) ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ فى الفجر بسورة (يونس) و (يوسف) و (النحل) فمر بهذه الآية فى قراءته فبكى حتى سمع نشيجه من آخر الصفوف ، ومن دعاء موسى : « اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث ، وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بك » . وفى الدعاء الذي دعا به النبي صلى الله عليه وسلم لما فعل به أهل الطائف ما فعلوا : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ؛ وقلة حيلتى ؛ وهوانى على الناس ؛ أنت رب المستضعفين وأنت ربي . اللهم إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمري ؛ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ؛ غير أن عافيتك أوسع لي ؛ أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ؛ وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن ينزل بي سخطك ؛ أو يحل علي غضبك ؛ لك العتبى حتى ترضى ؛ فلا حول ولا قوة إلا بك – وفى بعض الروايات – ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وكلما قوى طمع العبد فى فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له وحريته مما سواه ؛ فكما أن طمعه فى

المخلوق يوجب عبوديته له فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه . كما قيل :
استغن عمن شئت تكن نظيره ، وأفضل على من شئت تكن أميره ؛
واحتج إلى من شئت تكن أسيره . فكذلك طمع العبد فى ربه ورجاؤه
له يوجب عبوديته له ؛ وإعراض قلبه عن الطلب من غير الله
والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله : لاسيما من
كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق ؛ بحيث يكون قلبه معتمداً إما
على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه ؛ وإما على أهله وأصدقائه ؛
وإما على أمواله وذخائره ؛ وإما على ساداته وكبرائه ؛ كمالكه وملكه ؛
وشيخه ومخدومه وغيرهم ؛ ممن هو قد مات أو يموت . قال تعالى :
(وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا) .

وكل من علق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه
خضع قلبه لهم ؛ وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك ؛ وإن كان
فى الظاهر أميراً لهم مدبراً لهم متصرفاً بهم ؛ فالعاقل ينظر إلى الحقائق
لا إلى الظواهر ؛ فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقى
قلبه أسيراً لها تحكم فيه وتتصرف بما تريد ؛ وهو فى الظاهر سيدها
لأنه زوجها . وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها لا سيما إذا درت بفقره
إليها ؛ وعشقه لها ؛ وأنه لا يعتاض عنها بغيرها ؛ فإنها حينئذ تحكم فيه
بحكم السيد القاهر الظالم فى عبده المقهور ؛ الذي لايستطيع الخلاص

منه ، بل أعظم ، فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن ، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن ، فإن من استعبد بدنه واسترق لايبالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً ، بل يمكنه الاحتيال فى الخلاص . وأما إذا كان القلب الذي هو الملك رقيقاً مستعبداً متيما لغير الله فهذا هو الذل والأسر المحض ، والعبودية لما استعبد القلب .

وعبودية القلب وأسره هي التى يترتب عليها الثواب والعقاب ؛ فإن المسلم لو أسره كافر ؛ أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك إذا كان قائماً بما يقدر عليه من الواجبات ، ومن استعبد بحق إذا أدى حق الله وحق مواليه له أجران ، ولو أكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك ، وأما من استعبد قلبه فصار عبداً لغير الله فهذا يضره ذلك ، ولو كان فى الظاهر ملك الناس .

فالحرية حرية القلب ، والعبودية عبودية القلب ، كما أن الغنى غنى النفس قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، وإنما الغنى غنى النفس » وهذا لعمري إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة ، فأما من استعبد قلبه صورة محرمة : امرأة أو صبى ، فهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه . وهؤلاء من أعظم الناس عذابا وأقلهم ثوابا ، فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقاً بها ، مستعبداً لها اجتمع له من

أنواع الشر والفساد مالا يحصيه إلا رب العباد ، ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى ، فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضرراً عليه ، ممن يفعل ذنباً ثم يتوب منه ويزول أثره من قلبه ، وهؤلاء يشبهون بالسكارى والمجانين . كما قيل :

سكران : سكر هوى ، وسكر مدامة

ومتى إفاقة من به سكران

وقيل :

قالو : جننت بمن تهوى ، فقلت لهم

العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه

وإنما يصرع المجنون فى الحين

ومن أعظم أسباب هذا البلاء إعراض القلب عن الله ، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك ، ولا ألذ ولا أطيب ، والإنسان لا يترك محبوبا إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه أو خوفا من مكروه ، فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح ؛ أو بالخوف من الضرر .

قال تعالى في حق يوسف : (كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ) . فالله يصرف عن عبده ما يسوءه من الميل إلى الصور والتعلق بها ، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله .

ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له تغلبه نفسه على اتباع هواها ، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوى فى قلبه انقهر له هواه بلا علاج . قال تعالى : (إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ) ، فإن الصلاة فيها دفع للمكروه وهو الفحشاء والمنكر ، وفيها تحصيل المحبوب وهو ذكر الله ، وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع المكروه ، فإن ذكر الله عبادة لله ، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها . وأما اندفاع الشر عنه فهو مقصود لغيره على سبيل التبع .

والقلب خلق يحب الحق ويريده ويطلبه . فلما عرضت له إرادة الشر طلب دفع ذلك ، فإنه يفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل ، ولهذا قال تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا) وقال تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ) وقال : (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ) وقال تعالى : (وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا) فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو أزكى للنفس ، وبين أن ترك

الفواحش مـن زكاة النفوس ، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور من الفواحش والظـلم والشرك والكذب وغير ذلك .

وكذلك طالب الرئاسة والعلو فى الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها ولو كان فى الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم ، فهو فى الحقيقة يرجوهم ويخافهم فيبذل لهم الأموال والولايات ويعفو عنهـم ليطيعوه ، ويعينوه ، فهو فى الظاهر رئيس مطاع ، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم ، والتحقيق أن كلاهما فيه عبودية للآخر ، وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله ، وإذا كان تعاونهما على العلو في الأرض بغير الحق كانا بمنزلة المتعاونين عـلى الفاحشة أو قطـع الطريق ، فكل واحد مـن الشخصين لهـواه الذي استعبده واسترقه يستعبده الآخر .

وهكذا أيضـاً طالب المال فإن ذلك يستعبده ويسترقه ، وهـذه الأمور نوعان :

(منها) ما يحتاج العبد إليه كما يحتاج إليه من طعامه وشرابه ومسكنه ومنكحه ، ونحو ذلك . فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه ، فيكون المال عنده يستعمله فى حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه ، وبساطه الذي يجلس عليه ؛ بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته من غير أن يستعبده ، فيكون هلوعا

إذا مسه الشر جزوعا ؛ وإذا مسه الخير منوعا .

و (منها) ما لا يحتاج العبد إليه ، فهذه لا ينبغي له أن يعلق قلبه بها ؛ فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها ؛ وربما صار معتمداً على غير الله فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله ، ولا حقيقة التوكل عليه ؛ بل فيه شعبة من العبادة لغير الله ، وشعبة من التوكل على غير الله ، وهذا من أحق الناس بقوله صلى الله عليه وسلم : « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ؛ تعس عبد القطيفة ؛ تعس عبد الخميصة » وهذا هو عبد هذه الأمور ، فلو طلبها من الله فإن الله إذا أعطاه إياها رضي ؛ وإذا منعه إياها سخط ، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضى الله ؛ ويسخطه ما يسخط الله ؛ ويحب ما أحبه الله ورسوله ويبغض ما أبغضه الله ورسوله ؛ ويوالي أولياء الله ويعادي أعداء الله تعالى وهذا هو الذي استكمل الإيمان . كما فى الحديث « من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان » وقال : « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله ؛ والبغض فى الله » .

وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار » فهذا وافق ربه فيما يحبه وما

يكرهه فكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأحب المخلوق لله لا لغرض آخر ، فكان هذا من تمام حبه لله ، فإن محبة محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب ؛ فإذا أحب أنبياء الله وأولياء الله لأجل قيامهم بمحبوبات الحق لا لشيء آخر فقد أحبهم لله لا لغيره . وقد قال تعالى : (فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ) .

ولهذا قال تعالى : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ) فإن الرسول يأمر بما يحب الله وينهى عما يبغضه الله ويفعل ما يحبه الله ويخبر بما يحب الله التصديق به ؛ فمن كان محباً لله لزم ان يتبع الرسول فيصدقه فيما أخبر ويطيعه فيما أمر ويتأسى به فيما فعل ، ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله ؛ فيحبه الله ؛ فجعل الله لأهل محبته علامتين : اتباع الرسول ؛ والجهاد فى سبيله .

وذلك لأن الجهاد حقيقته الاجتهاد فى حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح ؛ ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان . وقد قال تعالى : (قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ — إلى قوله : — حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ) فتوعد من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله والجهاد فى سبيله بهذا الوعيد . بل قد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال : « والذي نفسي بيده لا يؤمن

أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » . وفى الصحيح أن عمر بن الخطاب « قــال له : يا رسول الله ! والله لأنت أحب إلي مــن كل شيء إلا مــن نفسي ؛ فقــال : لا يا عمر ! حتى أكون أحب إليك من نفسك ؛ فقال : فوالله ! لأنت أحب إلي من نفسي فقال الآن يا عمر » .

فحقيقة المحبــة لا تتم إلا بموالاة المحبوب ، وهو موافقتــه فى حب ما يحب ،وبغض ما يبغض ، والله يحب الإيمان والتقوى، ويبغض الكفر والفسوق والعصيان . ومعلوم أن الحب يحرك ارادة القلب،فكلما قويت المحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات ، فإذا كانت المحبة تامة استلزمت إرادة جازمة فى حصول المحبوبات . فإذا كان العبد قادراً عليها حصلها . وإن كان عاجزاً عنها ففعل ما يقدر عليه من ذلك كان له كأجر الفاعل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من دعا إلى هدى كان له مــن الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ؛ ومن دعا إلى ضلالة كان عليــه من الوزر مثل أوزار من اتبعه من غــير أن ينقص من أوزارهم شيئاً » . وقــال « إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم . قالوا : وهم بالمدينة . قال : وهم بالمدينة حبسهم العذر » .

و « الجهاد » هو بذل الوسع،وهو القدرة فى حصول محبوب الحق

ودفع ما يكرهه الحق ، فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد كان دليلاً على ضعف محبة الله ورسوله فى قلبه ، ومعلوم أن المحبوبات لا تنال غالباً إلا باحتمال المكروهات ، سواء كانت محبة صالحة أو فاسدة ، فالمحبون للمال والرئاسة والصور لا ينالون مطالبهم إلا بضرر يلحقهم فى الدنيا مع مايصيبهم من الضرر فى الدنيا والآخرة ، فالمحب لله ورسوله إذا لم يحتمل ما يرى ذو الرأي من المحبين لغير الله مما يحتملون فى حصول محبوبهم دل ذلك على ضعف محبتهم لله إذا كان ما يسلكه أولئك هو الطريق الذي يشير به العقل .

ومن المعلوم أن المؤمن أشد حباً لله . كما قال تعالى : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ) .

نعم ! قد يسلك المحب لضعف عقله،وفساد تصوره طريقاً لا يحصل بها المطلوب ، فمثل هذه الطريق لا تحمد إذا كانت المحبة صالحة محمودة ، فكيف إذا كانت المحبة فاسدة،والطريق غير موصل ! كما يفعله المتهورون فى طلب المال والرئاسة والصور في حب أمور توجب لهم ضرراً،ولا تحصل لهم مطلوباً ، وإنما المقصود الطرق التى يسلكها العقل لحصول مطلوبه .

وإذا تبين هذا . فكلما ازداد القلب حباً لله ازداد له عبودية ، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حباً وحرية عما سواه ، والقلب فقير بالذات

إلى الله من «وجهين» : من جهة العبادة ، وهي العلة الغائية . ومن جهة الاستعانة والتوكل ، وهي العلة الفاعلية ، فالقلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا يلتذ ولا يسر، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه ، وحبه والإنابة إليه ، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه ، ومن حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه ، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة .

وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له، لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله ، فهو دائماً مفتقر إلى حقيقة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فإنه لو أعين على حصول ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده، ولم يحصل له عبادته لله بحيث يكون هو غاية مراده ونهاية مقصوده وهو المحبوب له بالقصد الأول ، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله لا يحب شيئاً لذاته إلا الله ، فمتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة « لا إله إلا الله » ، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة، وكان فيه من النقص والعيب بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك .

ولو سعى فى هذا المطلوب ولم يكن مستعيناً بالله متوكلا عليه مفتقراً إليه فى حصوله لم يحصل له ، فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن ، فهو مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود ، ومن

حيث هو المسؤول المستعان به المتوكل عليه ، فهو إلهه لا إله له غيره ، وهو ربه لا رب له سواه .

ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين ، فمتى كان يحب غـير الله لذاته أو يلتفت إلى غير الله أنه يعينه كان عبداً لما أحبه،وعبداً لما رجاه بحسب حبه له ورجائه إياه . وإذا لم يحب لذاته إلا الله ، وكلما أحب سواه فإنما أحبه له ، ولم يرج قط شيئاً إلا الله،وإذا فعل ما فعل من الأسباب أو حصل ما حصل منها كان مشاهداً أن الله هو الذي خلقها وقدرها ، وأن كل ما فى السموات والأرض فالله ربه ومليكه وخالقه،وهو مفتقر إليه كان قد حصل له من تمام عبوديته لله بحسب ما قسم له من ذلك .

والناس فى هذا على درجات متفاوتة لا يحصى طرفيها إلا الله .

فأ كمل الخلق وأفضلهم وأعلاهم وأقربهم الى الله وأقواهم وأهداهم أتمهم عبودية لله من هذا الوجه .

وهذا هو حقيقة دين الإسلام الذي أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه وهو أن يستسلم العبد لله لا لغيره ، فالمستسلم له ولغيره مشرك ، والممتنع عن الاستسلام له مستكبر ، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن الجنة لا يدخلها من فى قلبه مثقال ذرة من كـبر كما أن

النار لا يدخلها من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » فجعل الكبر مقابلاً للإيمان ، فإن الكبر ينافى حقيقة العبودية ، كما ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله العظمة إزارى والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما عذبته » فالعظمة والكبرياء من خصائص الربوبية ، والكبرياء أعلى من العظمة ؛ ولهذا جعلها بمنزلة الرداء ، كما جعل العظمة بمنزلة الإزار .

ولهذا كان شعار الصلوات والأذان والأعياد هو التكبير ، وكان مستحباً فى الأمكنة العالية كالصفا والمروة ، وإذا علا الإنسان شرفاً أو ركب دابة ونحو ذلك ، وبه يطفأ الحريق وإن عظم ، وعند الأذان يهرب الشيطان . قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

وكل من استكبر عن عبادة الله لا بد أن يعبد غيره ، فإن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة . وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أصدق الأسماء حارث وهمام » فالحارث الكاسب الفاعل ، والهمام فعال من الهم ، والهم أول الإرادة ، فالإنسان له إرادة دائماً ، وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه ، فلا بد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته ، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته بل استكبر عن ذلك فلا بد أن يكون له مراد محبوب

يستعبده غير الله ، فيكون عبداً لذلك المراد المحبوب : إما المال وإما الجاه، وإما الصور،وإما ما يتخذه إلهاً من دون الله كالشمس والقمر والكواكب،والأوثان،وقبور الأنبياء والصالحين ، أو من الملائكة والأنبياء الذين يتخذهم أرباباً ، أو غير ذلك مما عبد من دون الله .

وإذا كان عبداً لغير الله يكون مشركا ، وكل مستكبر فهو مشرك ولهذا كان فرعون من أعظم الخلق استكباراً عن عبادة الله ، وكان مشركا . قال تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) إلى قوله : (وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ — إلى قوله : — كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) وقال تعالى : (وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ) وقال تعالى : (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) .

ومثل هذا فى القرآن كثير .

وقد وصف فرعون بالشرك فى قوله : (وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ).

بل الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكباراً عن عبادة الله كان أعظم إشرا كا بالله ؛ لأنه كلما استكبر عن عبادة الله ازداد فقره وحاجته إلى المراد المحبوب الذي هو المقصود : مقصود القلب بالقصد الأول ، فيكون مشركا بما استعبده من ذلك .

ولن يستغنى القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه ، ولا يستعين إلا به ، ولا يتوكل إلا عليه ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه ، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه ، ولا يوالي إلا من والاه الله ، ولا يعادي إلا من عاداه الله ، ولا يحب إلا الله ، ولا يبغض شيئاً إلا لله ، ولا يعطي إلا لله ، ولا يمنع إلا لله . فكلما قوى إخلاص دينه لله كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات ، وبكمال عبوديته لله يبرئه من الكبر والشرك .

والشرك غالب على النصارى ، والكبر غالب على اليهود . قال تعالى فى النصارى : (ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ) وقال فى اليهود : (أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ) . وقال تعالى : (سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ

لَا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا) .

ولما كان الكبر مستلزماً للشرك ، والشرك ضد الإسلام ، وهو الذنب الذي لا يغفره الله ـــ قال تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا)

وقال : (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا) ـــ كان الأنبياء جميعهم مبعوثين بدين الإسلام ، فهو الدين الذي لا يقبل الله غيره ، لا من الأولين ولا من الآخرين . قال نوح : (فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ) وقال في حق إبراهيم : (وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) إلى قوله : (فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)

وقال يوسف : (تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ) وقال موسى : (يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ * فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا)

وقال تعالى : (إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟) وقالت بلقيس (رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) وقال :

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ)
وقال : (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) وقال : (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ) .

وقال تعالى : (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا) فذكر إسلام الكائنات طوعا وكرهاً ، لأن المخلوقات جميعها متعبدة له التعبد العام ، سواء أقر المقر بذلك أو أنكره ، وهم مدينون مدبرون ؛ فهم مسلمون له طوعا وكرهاً ، ليس لأحد من المخلوقات خروج عما شاءه وقدره وقضاه ، ولا حول ولا قوة إلا به ، وهو رب العالمين ، ومليكهم يصرفهم كيف يشاء ، وهو خالقهم كلهم وبارئهم ومصورهم ، وكل ما سواه فهو مربوب ، مصنوع ، مفطور ، فقير ، محتاج ، معبد ، مقهور ، وهو الواحد القهار الخالق البارىء المصور .

وهو وإن كان قد خلق ما خلقه بأسباب ، فهو خالق السبب والمقدر له ، وهو مفتقر إليه كافتقار هذا ، وليس فى المخلوقات سبب مستقل بفعل ولا دفع ضرر بل كل ما هو سبب فهو محتاج إلى سبب آخر يعاونه وإلى ما يدفع عنه الضد الذي يعارضه ويمانعه .

وهو سبحانه وحده الغنى عن كل ما سواه ، ليس له شريك يعاونه ولا ضد يناوئه ويعارضه . قال تعالى : (قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ

إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ) وقال تعالى : (وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) وقال تعالى عن الخليل : (قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا) إلى قوله تعالى : (ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)

وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه « أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : يارسول الله ! أينا لم يلبس إيمانه بظلم ، فقال : إنما هو الشرك ، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح : (إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) »

وإبراهيم الخليل إمام الحنفاء المخلصين ، حيث بعث وقد طبق الأرض دين المشركين ، قال الله تعالى : (وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ) فبين أن عهده بالإمامة لا يتناول الظالم، فلم يأمر الله سبحانه أن يكون الظالم إماماً ، وأعظم الظلم الشرك .

وقال تعالى : (إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)
و « الأمة » هو معلم الخير الذي يؤتم به ، كما أن « القدوة » الذي يقتدى به .

والله تعالى جعل فى ذريته النبوة والكتاب ، وإنما بعث الأنبياء بعده بملته قال تعالى : (ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) وقال تعالى : (إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ) وقال تعالى : (مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) وقال تعالى : (وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ — إلى قوله — وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ)

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن إبراهيم خير البرية» فهو أفضل الأنبياء بعد النبي صلى الله عليه وسلم وهو خليل الله تعالى . وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم من غير وجه أنه قال : « إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا » وقال : « لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله » — يعنى نفسه — وقال : « لا يبقين

فى المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبى بكر » وقال : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإنى أنهاكم عن ذلك » وكل هذا فى الصحيح . وفيه أنه قال : ذلك قبل موته بأيام ، وذلك من تمام رسالته .

فإن في ذلك تحقيق تمام مخالته لله التى أصلها محبة الله تعالى للعبد ، ومحبة العبد لله خلافا للجهمية .

وفي ذلك تحقيق توحيد الله، وأن لا يعبدوا إلا إياه ، ورد على أشباه المشركين .

وفيه رد على الرافضة الذين يبخسون الصديق حقه ، وهم أعظم المنتسبين إلى القبلة إشراكا بالبشر .

و « الخلة » هي كمال المحبة المستلزمة من العبد كمال العبودية لله ، ومن الرب سبحانه كمال الربوبية لعباده الذين يحبهم ويحبونه ، ولفظ العبودية يتضمن كمال الذل ، وكمال الحب ، فإنهم يقولون : قلب متيم إذا كان متعبداً للمحبوب ، والمتيم المتعبد ، وتيم الله عبده ، وهذا على الكمال حصل لإبراهيم، ومحمد صلى الله عليهما وسلم ؛ ولهذا لم يكن له من أهل الأرض خليل ؛ إذ الخلة لا تحتمل الشركة فإنه كما قيل فى المعنى .

قد تخللت مسلك الروح منى   وبـذا سُمى الخليلُ خليلا

بخلاف أصل الحب فإنه صلى الله عليه وسلم قد قال فى الحديث الصحيح فى الحسن وأسامة : « اللهم إنى أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما » وسأله عمرو بن العاص « أي الناس أحب إليك ؟ قال : عائشة قال فمن الرجال ؟ قال أبوها » وقال لعلي رضي الله عنه : « لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله » وأمثال ذلك كثير .

وقد أخبر تعالى أنه يحب المتقين ، ويحب المحسنين ، ويحب المقسطين ، ويحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، ويحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، وقال : (فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) فقد أخبر بمحبته لعباده المؤمنين ، ومحبة المؤمنين له ، حتى قال : (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ)

وأما الخلة فخاصة . وقول بعض الناس : إن محمداً حبيب الله ، وإبراهيم خليل الله ، وظنه أن المحبة فوق الخلة قول ضعيف ، فإن محمداً أيضاً خليل الله كما ثبت ذلك فى الأحاديث الصحيحة المستفيضة . وما يروى «أن العباس يحشر بين حبيب وخليل» وأمثال ذلك ، فأحاديث موضوعة لا تصلح أن يعتمد عليها .

وقد قدمنا أن من محبة الله تعالى محبة ما أحب ، كما فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما،ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله،ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ؛ لأن وَجْدَ الحلاوة بالشيء يتبع المحبة له ؛ فمن أحب شيئاً أو اشتهاه إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك ، واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتهى .

ومن قال إن اللذة إدراك الملائم كما يقوله من يقوله من المتفلسفة والأطباء ، فقد غلط فى ذلك غلطاً بيناً ؛ فإن الإدراك يتوسط بين المحبة واللذة ، فإن الإنسان مثلا يشتهى الطعام فإذا أكله حصل له عقيب ذلك اللذة ، فاللذة تتبع النظر إلى الشيء ، فإذا نظر إليه التذ ، فاللذة تتبع النظر ليست نفس النظر ، وليست هي رؤية الشيء ؛ بل تحصل عقيب رؤيته ، وقال تعالى : (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ) وهكذا جميع ما يحصل للنفس من اللذات ، والآلام من فرح وحزن ونحو ذلك يحصل بالشعور بالمحبوب ، أو الشعور بالمكروه ، وليس نفس الشعور هو الفرح ولا الحزن . فحلاوة الإيمان المتضمنة من اللذة به

والفرح ما يجده المؤمن الواجد من حلاوة الإيمان تتبع كمال محبة العبد لله ، وذلك بثلاثة أمور .

تـكميل هذه المحبة ، وتفريعها ، ودفع ضدها .

« فتكميلها » أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ؛ فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيهـا بأصل الحب ، بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما كما تقدم .

و « تفريعها » أن يحب المرء لا يحبه إلا لله .

و « دفع ضدها » أن يكره ضد الإيمان أعظم من كراهته الالقاء فى النار ، فإذا كانت محبة الرسول والمؤمنين من محبة الله ، وكان رسول الله صلى الله عليـه وسـلم يحب المؤمنين الذين يحبهم الله ؛ لأنـه أكمل الناس محبة لله ، وأحقهم بأن يحب ما يحبه الله ، ويبغض ما يبغضه الله ، و « الخلة » ليس لغير الله فيها نصيب ، بل قال : « لو كنت متخـذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا » علم مزيد مرتبـة الخلة على مطلق المحبة .

و (المقصود) هو أن « الخلة » و « المحبـة لله » تحقيق عبوديتـه ؛ وإنما يغلط من يغلط فى هذه من حيث يتوهمون أن العبوديـة مجرد ذل

وخضوع فقط ، لا محبة معه ، أو أن المحبة فيهـا انبساط فى الأهواء أو إذلال لا تحتمله الربوبية ، ولهذا يذكر عن « ذي النون » أنهم تـكلموا عنده فى مسألة المحبة . فقال : أمسكوا عن هذه المسألة لا تسمعها النفوس فتدعيها . وكره من كره من أهل المعرفة والعلم مجالسة أقوام يكـثرون الـكلام فى المحبة بلا خشية ؛ وقال من قال من السلف : من عبـد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبـده بالرجاء وحـده فهو مرجئ ، ومن عبـده بالخوف وحده فهو حروري ، ومن عبـده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد . ولهذا وجد في المستأخرين من انبسط فى دعوى المحبة حتى أخرجه ذلك إلى نوع من الرعونة ، والدعوى التى تنافى العبودية وتدخل العبد في نوع من الربوبية التى لا تصلح إلا لله ؛ ويدعى أحدهم دعاوى تتجاوز حدود الأنبياء والمرسلين ، أو يطلبون من الله مالا يصلح ــ بكل وجه ــ إلا لله لا يصلح للأنبياء والمرسلين .

وهذا باب وقع فيه كثير من الشيوخ .

وسببه ضعف تحقيق العبودية الـتى بينتها الرسل وحررها الأمر والنهي الذي جاءوا به ، بل ضعف العقل الذي به يعرف العبـد حقيقته ، وإذا ضعف العقل ، وقل العلم بالدين وفى النفس محبة انبسطت النفس بحمقها فى ذلك ، كما ينبسط الإنسان فى محبة الإنسان مع حمقه وجهله ، ويقول : أنا محب فلا أؤاخذ بما أفعله من أنواع يكون فيهـا عدوان وجهل ، فهـذا

عين الضلال ، وهو شبيه بقول اليهود والنصارى : (نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ) قال الله تعالى : (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ) فإن تعذيبه لهم بذنوبهم يقتضي أنهم غير محبوبين ولا منسوبين إليه بنسبة البنوة ، بل يقتضى أنهم مربوبون مخلوقون .

فمن كان الله يحبه استعمله فيما يحبه محبوبه ، لا يفعل ما يبغضه الحق ويسخطه من الكفر والفسوق والعصيان ، ومن فعل الكبائر وأصر عليها، ولم يتب منها فإن الله يبغض منه ذلك ؛ كما يحب منه ما يفعله من الخير ؛ إذ حبه للعبد بحسب إيمانه وتقواه ، ومن ظن أن الذنوب لا تضره لكون الله يحبه مع إصراره عليها كان بمنزلة من زعم أن تناول السم لا يضره مع مداومته عليه، وعدم تداويه منه بصحة مزاجه .

ولو تدبر الأحمق ما قص الله فى كتابه من قصص أنبيائه ؛ وما جرى لهم من التوبة والاستغفار ؛ وما أصيبوا به من أنواع البلاء الذي فيه تمحيص لهم وتطهير بحسب أحوالهم ؛ علم بعض ضرر الذنوب بأصحابها ولو كان أرفع الناس مقاما ؛ فإن المحب للمخلوق إذا لم يكن عارفاً بمصلحته ولا مريداً لها ؛ بل يعمل بمقتضى الحب ــ وإن كان جهلا وظلماً ــ كان ذلك سبباً لبغض المحبوب له ونفوره عنه ؛ بل لعقوبته .

وكثير من السالكين سلكوا فى دعوى حب الله أنواعا من أمور الجهل بالدين ؛ إما من تَعَدِّى حدود الله ؛ وإما من تضييع حقوق الله، وإما من ادعاء الدعاوي الباطلة التى لاحقيقة لها ، كقول بعضهم : أي مريد لي ترك فى النار أحداً فأنا منه بريء ؛ فقال الآخر : أي مريد لي ترك أحداً من المؤمنين يدخل النار فأنا منه بريء . فالأول جعل مريده يخرج كل من في النار ؛ والثانى جعل مريده يمنع أهل الكبائر من دخول النار . ويقول بعضهم : إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتى على جهنم حتى لايدخلها أحد . وأمثال ذلك من الأقوال التى تؤثر عن بعض المشايخ المشهورين ؛ وهي إما كذب عليهم ، وإما غلط منهم ؛ ومثل هذا قد يصدر فى حال سكر وغلبة وفناء يسقط فيها تمييز الإنسان ؛ أو يضعف حتى لا يدري ماقال ، و «السكر» هو لذة مع عدم تميز . ولهذا كان بين هؤلاء من إذا صحا استغفر من ذلك الكلام .

والذين توسعوا من الشيوخ في سماع القصائد المتضمنة للحب والشوق واللوم والعذل والغرام كان هذا أصل مقصدهم ؛ ولهذا أنزل الله للمحبة محنة يمتحن بها المحب فقال : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ) فلا يكون محباً لله إلا من يتبع رسوله ، وطاعة الرسول ومتابعته تحقيق العبودية .

وكثير ممن يدعي المحبة يخرج عن شريعته وسنته ، ويدعي من

الخيالات مالا يتسع هذا الموضع لذكره . حتى قد يظن أحدهم سقوط الأمر وتحليل الحرام له وغير ذلك مما فيه مخالفة شريعة الرسول وسنته وطاعته ، بل قد جعل محبة الله ومحبة رسوله الجهاد فى سبيله . و « الجهاد » يتضمن كمال محبة ما أمر الله به ، وكمال بغض ما نهى الله عنه ، ولهذا قال فى صفة من يحبهم ويحبونه : (أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ) .

ولهذا كانت محبة هذه الأمة لله أكمل من محبة من قبلها ، وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم . وأكمل هذه الأمة في ذلك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن كان بهم أشبه كان ذلك فيه أكمل ، فأين هذا من قوم يدعون المحبة ؟! .

و [فى] كلام بعض الشيوخ : المحبة نار تحرق فى القلب ما سوى مراد المحبوب . وأرادوا أن الكون كله قد أراد الله وجوده ، فظنوا أن كمال المحبة أن يحب العبد كل شيء ، حتى الكفر والفسوق والعصيان ، ولا يمكن أحد أن يحب كل موجود بل يحب مايلائمه وينفعه ويبغض ما ينافيه ويضره ، ولكن استفادوا بهذا الضلال اتباع أهوائهم ، فهم يحبون ما يهوونه كالصور والرئاسة وفضول المال ، والبدع المضلة ، زاعمين أن هذا من محبة الله ، ومن محبة الله بغض ما يبغضه الله ورسوله ، وجهاد أهله بالنفس والمال .

وأصل ضلالهم أن هذا القائل الذي قال : « إن المحبة نار تحرق ماسوى مراد المحبوب » قصد بمراد الله تعالى الإرادة الدينية الشرعية التى هي بمعنى محبته ورضاه ، فكأنه قال تحرق من القلب ما سوى المحبوب لله ، وهذا معنى صحيح . فإن من تمام الحب أن لا يحب إلا ما يحبه الله ، فإذا أحببت مالا يحب كانت المحبة ناقصة ، وأما قضاؤه وقدره فهو يبغضه ويكرهه ويسخطه وينهى عنه ، فإن لم أوافقه فى بغضه وكراهته وسخطه لم أكن محباً له ، بل محباً لما يبغضه . فاتباع الشريعة ، والقيام بالجهاد من أعظم الفروق بين أهل محبة الله وأوليائه الذين يحبهم ويحبونه وبين من يدعي محبة الله ناظراً إلى عموم ربوبيته ، أو متبعاً لبعض البدع المخالفة لشريعته ، فإن دعوى هذه المحبة لله من جنس دعوى اليهود والنصارى المحبة لله ، بل قد تكون دعوى هؤلاء شراً من دعوى اليهود والنصارى لما فيهم من النفاق الذين هم به فى الدرك الأسفل من النار ، كما قد تكون دعوى اليهود والنصارى شراً من دعواهم إذا لم يصلوا إلى مثل كفرهم ، وفى التوراة والإنجيل من محبة الله ماهم متفقون عليه ، حتى إن ذلك عندهم أعظم وصايا الناموس .

ففي الإنجيل أن المسيح قال : « أعظم وصايا المسيح أن تحب الله بكل قلبك وعقلك ونفسك » ، والنصارى يدعون قيامهم بهذه المحبة ، وأن ماهم فيه من الزهد والعبادة هو من ذلك ، وهم برآء من محبة الله إذ لم

يتبعوا ما أحبه ، بل اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ، والله يبغض الكافرين ويمقتهم ، ويلعنهم . وهو سبحانه يحب من يحبه ؛ لايمكن أن يكون العبد محباً لله والله تعالى غير محب له ؛ بل بقدر محبة العبد لربه يكون حب الله له ؛ وإن كان جزاء الله لعبده أعظم . كما فى الحديث الصحيح الإلهي عن الله تعالى أنه قال : « من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعا ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا ومن أتانى يمشي أتيته هرولة » .

وقد أخبر سبحانه أنه يحب المتقين ، والمحسنين والصابرين ، ويحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، بل هو يحب من فعل ما أمر به من واجب ومستحب ، كما فى الحديث الصحيح : « لايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به » الحديث .

وكثير من المخطئين الذين اتبعوا أشياخا فى « الزهد والعبادة » وقعوا فى بعض ما وقع فيه النصارى : من دعوى المحبة لله مع مخالفة شريعته ، وترك المجاهدة فى سبيله ونحو ذلك ، ويتمسكون فى الدين الذي يتقربون به إلى الله بنحو ماتمسك به النصارى من الكلام المتشابه ، والحكايات التى لايعرف صدق قائلها ، ولو صدق لم يكن قائلها معصوما ، فيجعلون متبوعيهم شارعين لهم دينا ، كما جعل النصارى قسيسيهم ورهبانهم شارعين

لهم ديناً ، ثم إنهم ينتقصون العبودية ويدعون أن الخاصة يتعدونها كما يدعي النصارى فى المسيح ، ويثبتون للخاصة من المشاركة فى الله من جنس ماتثبته النصارى فى المسيح وأمه . إلى أنواع أخر يطول شرحها فى هذا الموضع .

وإنما دين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه ، وهو تحقيق محبة الله بكل درجة وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه ، وتكمل محبة الرب لعبده ، وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا ؛ وكلما كان فى القلب حب لغير الله كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك ، وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك ، وكل محبة لا تكون لله فهي باطلة ، وكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل . فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله ، ولا يكون لله إلا ما أحبه الله ورسوله ، وهو المشروع . فكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله ، وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله ، بل لا يكون لله إلا ما جمع الوصفين : أن يكون لله ، وأن يكون موافقاً لمحبة الله ورسوله ، وهو الواجب والمستحب . كما قال : (فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا)

فلا بد من العمل الصالح ، وهو الواجب والمستحب ، ولا بد أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى ، كما قال تعالى : (بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) . وقال

النبي صلى الله عليـه وسلم : « من عمل عملا ليس عليـه أمرنا فهو رد »
وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات وإنمـا لـكل امرئ
ما نوى ؛ فمن كانت هجرتـه إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ،
ومـن كانت هجرته لدنيـا يصيبهـا أو امرأة يتزوجهـا فهجرتـه الى
ما هاجر إليه » .

وهذا الأصل هو أصل الدين ، وبحسب تحقيقه يكون تحقيق الدين
وبه أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتب ، وإليه دعا الرسول ، وعليـه
جاهـد ؛ وبـه أمر ، وفيـه رَغَّب ؛ وهو قطب الدين الذي تـدور
عليـه رحاه .

والشرك غالب على النفوس . وهو كما جاء فى الحديث . « وهو فى هذه
الأمة أخفى من دبيب النمل » وفى حديث آخر « قال أبو بكر : يارسول
الله . كيف ننجو منه ، وهو أخفى من دبيب النمل ؟ فقـال النبي صلى الله
عليه وسلم لأبي بكر : ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من دقه وجله ؟ قل :
اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم » . وكان
عمر يقول فى دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصـاً ،
ولا تجعل لأحد فيه شيئاً .

وكثيراً ما يخـالط النفوس من الشهوات الخفية ما يفسد عليهـا تحقيق

محبتها لله وعبوديتها له . وإخلاص دينها له ، كما قال شداد بن أوس : يا بقايا العرب إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية . قيل لأبي داود السجستاني : وما الشهوة الخفية ؟ قال : حب الرئاسة ، وعن كعب بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما ذئبان جائعان أرسلا فى زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » قال الترمذي حديث حسن صحيح .

فبين صلى الله عليه وسلم أن الحرص على المال والشرف فى فساد الدين لا ينقص عن فساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم ، وذلك بين ؛ فإن الدين السليم لايكون فيه هذا الحرص ، وذلك أن القلب إذا ذاق حلاوة عبوديته لله ومحبته له لم يكن شيء أحب إليه من ذلك حتى يقدمه عليه ، وبذلك يصرف عن أهل الإخلاص لله السوء والفحشاء ، كما قال تعالى : (كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ)

فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه عن عبوديته لغيره ، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره ، إذ ليس عند القلب لا أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا ألين ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ، ومحبته له ، وإخلاصه الدين له ، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله فيصير القلب منيباً إلى الله خائفاً منه راغباً راهباً ، كما قال تعالى : (مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ) إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه وحصول

مرغوبه ، فلا يكون عبد الله ومحبه إلا بين خوف ورجاء ؛ قال تعالى :
﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾

وإذا كان العبد مخلصاً له اجتباه ربه فيحيي قلبه ، واجتذبه إليه فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء ، ويخاف من حصول ضد ذلك ؛ بخلاف القلب الذي لم يخلص لله ، فإنه في طلب وإرادة وحب مطلق ، فيهوى ما يسنح له ويتشبث بما يهواه ، كالغصن أي نسيم مر بعطفه أماله . فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة ؛ فيبقى أسيراً عبداً لمن لو اتخذه هو عبداً له لكان ذلك عيباً ونقصاً وذماً . وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة ، فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة ويستعبده من يثنى عليه ولو بالباطل ، ويعادى من يذمه ولو بالحق . وتارة يستعبده الدرهم والدينار ، وأمثال ذلك من الأمور التى تستعبد القلوب ، والقلوب تهواها فيتخذ إلهه هواه ويتبع هواه بغير هدى من الله .

ومن لم يكن خالصاً لله عبداً له قد صار قلبه معبداً لربه وحده لاشريك له ، بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه ، ويكون ذليلا له خاضعاً وإلا استعبدته الكائنات ، واستولت على قلبه الشياطين ، وكان من الغاوين إخوان الشياطين ، وصار فيه من السوء والفحشاء مالا يعلمه إلا الله ، وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه ؛ فالقلب إن لم يكن حنيفاً مقبلا على الله معرضاً عما

سواه وإلا كان مشركا . قال تعالى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) إلى قوله : (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

وقد جعل الله سبحانه إبراهيم و آل إبراهيم أئمة لهؤلاء الحنفاء المخلصين أهل محبة الله وعبادته وإخلاص الدين له ؛ كما جعل فرعون وآل فرعون أئمة المشركين المتبعين أهواءهم . قال تعالى فى إبراهيم : (وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ * وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ) وقال فى فرعون وقومه : (وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ)

ولهذا يصير أتباع فرعون أولاً إلى أن لا يميزوا بين ما يحبه الله ويرضاه . وبين ما قدر الله وقضاه ؛ بل ينظرون إلى المشيئة المطلقة الشاملة . ثم فى آخر الأمر لا يميزون بين الخالق والمخلوق ، بل يجعلون وجود هذا وجود هذا ، ويقول محققوهم الشريعة فيها طاعة ومعصية . والحقيقة فيها معصية بلا طاعة ؛ والتحقيق ليس فيه طاعة ولا معصية ، وهذا تحقيق مذهب فرعون وقومه الذين أنكروا الخالق وأنكروا تكليمه لعبده موسى وما أرسله به من الأمر والنهي .

وأما إبراهيم وآل إبراهيم الحنفاء والأنبياء فهم يعلمون أنه لا بد من الفرق بين الخالق والمخلوق ، ولا بد من الفرق بين الطاعة والمعصية . وأن العبد كلما ازداد تحقيقاً ازدادت محبته لله وعبوديته له وطاعته له وإعراضه عن عبادة غيره ومحبة غيره وطاعة غيره . وهؤلاء المشركون الضالون يسوون بين الله وبين خلقه . والخليل يقول : (أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ) ويتمسكون بالمتشابه من كلام المشايخ كما فعلت النصارى .

مثال ذلك اسم « الفناء » فإن « الفناء ثلاثة أنواع » : نوع للكاملين من الأنبياء والأولياء ؛ ونوع للقاصدين من الأولياء والصالحين ؛ ونوع للمنافقين الملحدين المشبهين .

(فأما الأول) فهو « الفناء عن إرادة ما سوى الله » بحيث لا يحب إلا الله . ولا يعبد إلا إياه ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يطلب غيره ؛ وهو المعنى الذي يجب أن يقصد بقول الشيخ أبي يزيد حيث قال : أريد أن لا أريد إلا ما يريد . أي المراد المحبوب المرضي ؛ وهو المراد بالإرادة الدينية وكمال العبد أن لا يريد ولا يحب ولا يرضى إلا ما أراده الله ورضيه وأحبه ، وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب ؛ ولا يحب إلا ما يحبه الله كالملائكة والأنبياء والصالحين . وهذا معنى قولهم فى قوله : (إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) قالوا : هو السليم مما سوى الله ، أو مما سوى عبادة الله . أو مما سوى

إرادة الله . أو مما سوى محبة الله ، فالمعنى واحد وهذا المعنى إن سمى فنـاء أو لم يسم هو أول الإسلام وآخره . وباطن الدين وظاهره .

(وأما النوع الثاني) فهو « الفناء عن شهود السوى » . وهـذا يحصل لكثير من السالكين ؛ فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته وضعف قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد وترى غير ما تقصد؛ لا يخطر بقلوبهم غير الله ؛ بل ولا يشعرون ؛ كما قيل في قوله : (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا) قالوا : فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى . وهذا كثير يعرض لمن فقمه أمر مـن الأمور إمـا حب وإما خوف . وإما رجاء يبقى قلبه منصرفاً عن كل شيء إلا عما قـد أحبه أو خافه أو طلبه ؛ بحيث يكون عند استغراقه في ذلك لا يشعر بغيره .

فإذا قوى على صاحب الفناء هـذا فإنه يغيب بموجوده عن وجوده ، وبمشهوده عن شهوده ، وبمذكوره عن ذكره ، وبمعروفه عن معرفتـه ، حتى يفنى من لم يكن وهي المخلوقات المعبدة ممـن سواه ، ويبقى من لم يزل وهو الرب تعالى . والمراد فناؤها في شهود العبد وذكره ، وفناؤه عن أن يدركها أو يشهدها . وإذا قوى هـذا ضعف المحب حتى اضطرب في تمييزه فقد يظن أنه هو محبوبه ، كما يذكر : أن رجـلاً ألقى نفسه في اليم فألقى محبه نفسه خلفه ، فقـال : أنا وقعت فما أوقعك خلفي قال : غبت بك عني ، فظننت أنك أنا .

و « هذا الموضع » زل فيه أقوام وظنوا أنه اتحاد ، وأن المحب يتحد بالمحبوب حتى لا يكون بينهما فرق فى نفس وجودهما ، وهذا غلط ؛ فإن الخالق لا يتحد به شيء أصلا ، بل لا يتحد شيء بشيء إلا إذا استحالا وفسدا وحصل من اتحادهما أمر ثالث لا هو هذا ولا هذا ، كما إذا اتحد الماء واللبن ، والماء والخمر ، ونحو ذلك . ولكن يتحد المراد والمحبوب والمكروه ويتفقان فى نوع الإرادة والكراهة ، فيحب هذا ما يحب هذا . ويبغض هذا ما يبغض هذا ، ويرضى ما يرضى ويسخط ما يسخط ويكره ما يكره ، ويوالي من يوالي ويعادي من يعادي وهذا الفناء كله فيه نقص .

وأكابر الأولياء كأبي بكر وعمر والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار : لم يقعوا فى هذا الفناء ، فضلا عمن هو فوقهم من الأنبياء وإنما وقع شيء من هذا بعد الصحابة . وكذلك كل ما كان من هذا النمط مما فيه غيبة العقل والتمييز لما يرد على القلب من أحوال الإيمان ؛ فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا أكمل وأقوى وأثبت فى الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم . أو يحصل لهم غشى أو صعق أو سكر أو فناء أو وله أو جنون . وإنما كان مبادىء هذه الأمور فى التابعين من عباد البصرة ، فإنه كان فيهم من يغشى عليه إذا سمع القرآن . ومنهم من يموت : كأبي جهير الضرير . وزرارة بن أوفى قاضي البصرة .

وكذلك صار فى شيوخ الصوفية من يعرض له من الفناء والسكر ما

يضعف معه تمييزه ، حتى يقول فى تلك الحال من الأقوال ما إذا صحا عرف أنه غالط فيه ، كما يحكى نحو ذلك عن مثل أبى يزيد ، وأبى الحسن النورى ، وأبي بكر الشبلي وأمثالهم .

بخلاف أبى سليمان الدارانى ، ومعروف الكرخي ، والفضيل بن عياض بل وبخلاف الجنيد وأمثالهم ممن كانت عقولهم وتمييزهم يصحبهم فى أحوالهم فلا يقعون فى مثل هذا الفناء والسكر ونحوه ، بل الكمل تكون قلوبهم ليس فيها سوى محبة الله وإرادته وعبادته ، وعندهم من سعة العلم والتمييز ما يشهدون الأمور على ماهي عليه ، بل يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله مدبرة بمشيئته بل مستجيبة له قانتة له ، فيكون لهم فيها تبصرة وذكرى ، ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيداً وممداً لما فى قلوبهم من إخلاص الدين ، وتجريد التوحيد له ، والعبادة له وحده لا شريك له .

وهذه « الحقيقة » التى دعا إليها القرآن ، وقام بها أهل تحقيق الإيمان ، والكمل من أهل العرفان . ونبينا صلى الله عليه وسلم إمام هؤلاء وأكملهم ؛ ولهذا لما عرج به إلى السموات وعاين ما هنالك من الآيات وأوحى إليه ما أوحى من أنواع المناجاة أصبح فيهم وهو لم يتغير حاله ، ولا ظهر عليه ذلك ، بخلاف ما كان يظهر على موسى من التغشي — صلى الله عليهم وسلم أجمعين .

(وأما النوع الثالث) مما قد يسمى فناء : فهو أن يشهد أن لا موجود إلا الله ، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق ، فلا فرق بين الرب والعبد فهذا فناء أهل الضلال والإلحاد الواقعين فى الحلول والاتحاد .

والمشايخ المستقيمون إذا قال أحدهم : ما أرى غير الله ، أولا أنظر إلى غير الله ، ونحو ذلك فمرادهم بذلك ما أرى ربا غيره ، ولا خالقاً غيره ولا مدبراً غيره ، ولا إلها غيره ولا أنظر إلى غيره محبة له أو خوفا منه أو رجاء له ؛ فإن العين تنظر إلى ما يتعلق به القلب ، فمن أحب شيئاً أو رجاه أو خافه التفت إليه ، وإذا لم يكن فى القلب محبة له ولا رجاء له ولا خوف منه ولا بغض له ولا غير ذلك من تعلق القلب له لم يقصد القلب أن يلتفت إليه ولا أن ينظر إليه ولا أن يراه وإن رآه اتفاقا رؤية مجردة كان كما لو رأى حائطا ونحوه مما ليس في قلبه تعلق به .

والمشايخ الصالحون ــ رحمهم الله ــ يذكرون شيئاً من تجريد التوحيد وتحقيق إخلاص الدين كله بحيث لا يكون العبد ملتفتاً إلى غير الله ولا ناظراً إلى ما سواه : لا حباً له ، ولا خوفا منه ، ولا رجاء له بل يكون القلب فارغا من المخلوقات خالياً منها لا ينظر إليها إلا بنور الله ، فبالحق يسمع وبالحق يبصر وبالحق يبطش وبالحق يمشي ، فيحب منها ما يحبه الله ، ويبغض منها ما يبغضه الله ، ويوالي منها ما والاه الله ، ويعادي منها ما عاداه

الله ، ويخاف الله فيها ولا يخافها في الله ، ويرجو الله فيها ولا يرجوها فى الله ، فهذا هو القلب السليم الحنيف الموحد المسلم المؤمن العارف المحقق الموحد بمعرفة الأنبياء والمرسلين ، وبحقيقتهم وتوحيدهم .

(وأما النوع الثالث) وهو الفناء في الموجود : فهو تحقيق آل فرعون ومعرفتهم وتوحيدهم كالقرامطة وأمثالهم .

وهذا النوع الذي عليه أتباع الأنبياء هو « الفناء المحمود » الذي يكون صاحبه به ممن أثنى الله عليهم من أوليائه المتقين ، وحزبه المفلحين ، وجنده الغالبين .

وليس مراد المشايخ والصالحين بهذا القول أن الذي أراه بعيني من المخلوقات هو رب الأرض والسموات ، فان هذا لايقوله إلا من هو في غاية الضلال والفساد إما فساد العقل ؛ وإما فساد الاعتقاد . فهو متردد بين الجنون والإلحاد .

وكل المشايخ الذين يقتدى بهم فى الدين متفقون على ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها من أن الخالق سبحانه مباين للمخلوقات ، وليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا فى ذاته شيء من مخلوقاته ، وأنه يجب إفراد القديم عن الحادث ؛ وتمييز الخالق عن المخلوق . وهذا فى كلامهم

أكثر من أن يمكن ذكره هنا . وهم قد تكلموا على ما يعرض للقلوب من الأمراض والشبهات ؛ وأن بعض الناس قد يشهد وجود المخلوقات فيظنه خالق الأرض والسموات لعدم التمييز والفرقان فى قلبه ؛ بمنزلة من رأى شعاع الشمس فظن أن ذلك هو الشمس التى فى السماء .

وهم قد يتكلمون فى « الفرق ، والجمع » ويدخل فى ذلك من العبارات الملفتة نظير ما دخل فى الفناء فإن العبد إذا شهد التفرقة والكثرة فى المخلوقات يبقى قلبه متعلقاً بها ، متشتتاً ناظراً إليها متعلقا بها : إما محبة وإما خوفا وإما رجاء ؛ فإذا انتقل إلى الجمع اجتمع قلبه على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له فالتفت قلبه إلى الله بعد التفاته إلى المخلوقين فصارت محبته لربه وخوفه من ربه ورجاؤه لربه واستعانته بربه ، وهو فى هذا الحال قد لا يسع قلبه النظر إلى المخلوق ليفرق بين الخالق والمخلوق . فقد يكون مجتمعاً على الحق معرضاً عن الخلق نظراً وقصداً وهو نظير النوع الثاني من الفناء .

ولكن بعد ذلك « الفرق الثاني » وهو : أن يشهد أن المخلوقات قائمة بالله مدبرة بأمره ويشهد كثرتها معدومة بوحدانية الله سبحانه وتعالى وأنه سبحانه رب المصنوعات وإلهها وخالقها ومالكها فيكون مع اجتماع قلبه على الله — إخلاصا له ومحبة وخوفا ورجاء واستعانة وتوكلا على الله وموالاة فيه ومعاداة فيه وأمثال ذلك — ناظراً إلى الفرق بين الخالق والمخلوق مميزاً

بين هذا وهذا يشهد تفرق المخلوقات وكثرتها مع شهادته أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه وأنه هو الله لا إله إلا هو وهـذا هو الشهود الصحيح المستقيم وذلك واجب في علم القلب وشهادته وذكره ومعرفته : فى حال القلب وعبادته وقصده وإرادته ومحبته وموالاته وطاعته .

وذلك تحقيق « شهادة أن لا إله إلا الله » فإنــه ينفي عن قلبه ألوهية مـا سوى الحق ويثبت فى قلبه ألوهية الحق فيكون نافياً لألوهية كل شــيء من المخلوقات مثبتاً لألوهية رب العالمــين رب الأرض والسموات ، وذلك يتضمن اجتماع القلب على الله وعلى مفارقة ما سواه ، فيكون مفرقا : فى علمه وقصده فى شهادته وإرادته في معرفته ومحبته بين الخالق والمخلوق، بحيث يكون عالماً بالله تعالى ذاكراً له عارفاً به ، وهو مع ذلك عالم بمباينتــه لخلقه وانفراده عنهم وتوحده دونهم ، ويكون محباً لله معظما له عابداً له راجياً له خائفاً منه مواليا فيه معادياً فيه مستعيناً به متوكلا عليه ، ممتنعاً عن عبادة غيره والتوكل عليه والاستعانة به والخوف منه والرجاء له والموالاة فيه والمعاداة فيه والطاعة لأمره وأمثال ذلك مما هو من خصائص إلهية الله سبحانه وتعالى .

وإقراره بألوهية الله تعالى دون ما سواه يتضمن إقراره بربوبيته ، وهو أنه رب كل شيء ومليكه وخالقه ومدبره ، فحينئذ يكون موحداً لله .

ويبين ذلك أن أفضل الذكر « لا إله إلا الله » كما رواه الترمذي وابن أبي

الدنيا وغيرهما مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » وفى الموطأ وغيره عن طلحة بن عبد الله بن كثير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » .

ومن زعم أن هذا ذكر العامة ، وأن ذكر الخاصة هو الاسم المفرد ، وذكر خاصة الخاصة هو الاسم المضمر ، فهم ضالون غالطون . واحتجاج بعضهم على ذلك بقوله : (قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) من أبين غلط هؤلاء ، فإن الاسم هو مذكور فى الأمر بجواب الاستفهام . وهو قوله : (قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ) إلى قوله (قُلِ ٱللَّهُ) ، أي الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ، فالاسم مبتدأ وخبره قد دل عليه الاستفهام ، كما فى نظائر ذلك تقول : من جاره فيقول زيد .

وأما الاسم المفرد مظهراً أو مضمراً فليس بكلام تام ، ولا جملة مفيدة ولا يتعلق به إيمان ولا كفر ولا أمر ولا نهي ، ولم يذكر ذلك أحد من سلف الأمة ، ولا شرع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يعطي القلب بنفسه معرفة مفيدة ولا حالاً نافعا ، وإنما يعطيه تصوراً مطلقاً لا يحكم عليه بنفي ولا إثبات ، فإن لم يقترن به من معرفة القلب وحاله مايفيد بنفسه ،

وإلا لم يكن فيه فائدة . والشريعة إنما تشرع من الأذكار ما يفيد بنفسه لا ما تكون الفائدة حاصلة بغيره .

وقد وقع بعض من واظب على هذا الذكر في فنون من الإلحاد وأنواع من الاتحاد . كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

وما يذكر عن بعض الشيوخ من أنه قال : أخاف أن أموت بين النفي والإثبات . حال لا يقتدى فيها بصاحبها ، فإن فى ذلك من الغلط مالا خفاء به ؛ إذ لو مات العبد في هذه الحال لم يمت إلا على ما قصده ونواه ، إذ الأعمال بالنيات ، وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتلقين الميت لا إله إلا الله ، وقال : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » ولو كان ماذكره محذوراً لم يلقن الميت كلمة يخاف أن يموت فى أثنائها موتا غير محمود . بل كان يلقن ما اختاره من ذكر الاسم المفرد .

والذكر بالاسم المضمر المفرد أبعد عن السنة ، وأدخل فى البدعة وأقرب إلى إضلال الشيطان ، فإن من قال : ياهو ياهو ، أو : هو هو . ونحو ذلك لم يكن الضمير عائداً إلا إلى ما يصوره قلبه ، والقلب قد يهتدي وقد يضل ، وقد صنف صاحب « الفصوص » كتابا سماه « كتاب الهو » وزعم بعضهم أن قوله : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ) معناه وما يعلم تأويل هذا الاسم الذي هو « الهو » . وقيل هذا وان كان مما اتفق المسلمون بل

العقلاء على أنه من أبين الباطل ، فقد يظن ذلك من يظنه من هؤلاء ، حتى قلت مرة لبعض من قال شيئا من ذلك لو كان هذا كما قلته لكتبت (وما يعلم تأويل هو) منفصلة .

ثم كثيراً ما يذكر بعض الشيوخ أنه يحتج على قول القائل : « الله » بقوله : (قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ) ويظن أن الله أمر نبيه بأن يقول الاسم المفرد ، وهذا غلط باتفاق أهل العلم ، فإن قوله : (قُلِ ٱللَّهُ) معناه الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى . وهو جواب لقوله : (قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُ) أي الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى . رد بذلك قول من قال : ما أنزل الله على بشر من شيء ، فقال : (مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ) ثم قال : (قُلِ ٱللَّهُ) أنزله (ثُمَّ ذَرۡ) هؤلاء المكذبين (فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ) .

ومما يبين ما تقدم : ماذكره سيبويه وغيره من أئمة النحو أن العرب يحكون بالقول ما كان كلاما ، لا يحكون به ما كان قولاً ، فالقول لا يحكى به إلا كلام تام ، أو جملة اسمية أو فعلية ، ولهذا يكسرون إن إذا جاءت بعد القول ، فالقول لا يحكى به اسم ، والله تعالى لا يأمر أحداً بذكر اسم مفرد ، ولا شرع للمسلمين اسماً مفرداً مجرداً ، والاسم المجرد لا يفيد الإيمان

باتفاق أهل الإسلام ، ولا يؤمر به فى شيء من العبادات ، ولا فى شيء من المخاطبات .

ونظير من اقتصر على الاسم المفرد مايذكر أن بعض الأعراب مر بمؤذن يقول : « أشهد أن محمداً رسول الله » بالنصب فقال : ماذا يقول هذا ؟ هذا الاسم فأين الخبر عنه الذي يتم به الكلام ؟ .

وما فى القرآن من قوله : (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا) وقوله : (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) وقوله : (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) وقوله : (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) ونحو ذلك لا يقتضي ذكره مفرداً بل فى السنن أنه لما نزل قوله : (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) قال «اجعلوها فى ركوعكم ولما نزل قوله : (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) قال اجعلوها فى سجودكم » فشرع لهم أن يقولوا فى الركوع سبحان ربى العظيم ، وفى السجود سبحان ربى الأعلى . وفي الصحيح « أنه كان يقول فى ركوعه: سبحان ربى العظيم ، وفى سجوده : سبحان ربى الأعلى» وهذا هو معنى قوله : « اجعلوها فى ركوعكم » و « سجودكم » باتفاق المسلمين .

فتسبيح اسم ربه الأعلى وذكر اسم ربه ونحو ذلك هو بالكلام التام المفيد ، كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أفضل الكلام بعد القرآن أربع — وهن من القرآن — سبحان

الله ، والحمد لله، ولا إله إلا الله . والله أكبر » . وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » . وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال فى يومه مائة مرة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، كتب الله له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي . ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل قال مثل ما قال،أو زاد عليه . ومن قال فى يومه مائة مرة : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر » . وفى الموطأ وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » . وفى سنن ابن ماجة وغيره عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » .

ومثل هذه الأحاديث كثيرة فى أنواع ما يقال من الذكر والدعاء .

وكذلك ما فى القرآن من قوله تعالى : (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ) وقوله : (فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ) إنما هو قوله : بسم الله . وهذا جملة تامة إما اسمية على أظهر

قولي النحاة ؛ أو فعلية ؛ والتقدير ذبحي باسم الله ، أو أذبح باسم الله ، وكذلك قول القارىء (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) فتقديره : قراءتي بسم الله ؛ أو أقرأ بسم الله .

ومن الناس من يضمر في مثل هذا ابتدائي بسم الله ؛ أو ابتدأت بسم الله . والأول أحسن ؛ لأن الفعل كله مفعول بسم الله ، ليس مجرد ابتدائه كما أظهر المضمر في قوله (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ) وفي قوله : (بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ) وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من كان ذبح قبل الصلاة فليذبح مكانها أخرى . ومن لم يكن ذبح فليذبح بسم الله » . ومن هذا الباب قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح لربيبه عمر بن أبي سلمة : « سم الله وكل بيمينك ؛ وكل مما يليك » فالمراد أن يقول بسم الله . ليس المراد أن يذكر الاسم مجرداً . وكذلك قوله في الحديث الصحيح لعدي بن حاتم « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل » وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « إذا دخل الرجل منزله فذكر اسم الله عند دخوله ؛ وعند خروجه . وعند طعامه . قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء » وأمثال ذلك كثير .

وكذلك ما شرع للمسلمين في صلاتهم وأذانهم وحجهم وأعيادهم من ذكر الله تعالى إنما هو بالجملة التامة . كقول المؤذن : الله أكبر . الله

أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله : أشهد أن محمداً رسول الله . وقول المصلي : الله أكبر . سبحان ربى العظيم . سبحان ربى الأعلى . سمع الله لمن حمده . ربنا ولك الحمد . التحيات لله . وقول الملبى : لبيك اللهم لبيك . وأمثال ذلك . فجميع ما شرعه الله من الذكر إنما هو كلام تام . لا اسم مفرد لا مظهر ولا مضمر . وهذا هو الذي يسمى فى اللغة كلمة ، كقوله : « كلمتان خفيفتان على اللسان . ثقيلتان فى الميزان . حبيبتان إلى الرحمن ؛ سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » وقوله « أفضل كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » ومنه قوله تعالى : (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) الآية وقوله : (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) وأمثال ذلك مما استعمل فيه لفظ الكلمة فى الكتاب والسنة ، بل وسائر كلام العرب فإنما يراد به الجملة التامة ، كما كانوا يستعملون الحرف فى الاسم ، فيقولون : هذا حرف غريب . أي لفظ الاسم غريب .

وقسم سيبويه الكلام إلى اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ، ليس باسم وفعل . وكل من هذه الأقسام يسمى حرفاً لكن خاصة الثالث أنه حرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل ؛ وسمى حروف الهجاء باسم الحرف وهي أسماء ، ولفظ الحرف يتناول هذه الأسماء وغيرها ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف

عشر حسنات: أما أني لا أقول: (ألم) حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » وقد سأل الخليل أصحابه عن النطق بحرف الزاي من زيد فقالوا: زاي، فقال: جئتم بالاسم، وإنما الحرف « ز ».

ثم إن النحاة اصطلحوا على أن هذا المسمى فى اللغة بالحرف يسمى كلمة، وأن لفظ الحرف يخص لما جاء لمعنى، ليس باسم ولا فعل. كحروف الجر ونحوها، وأما ألفاظ حروف الهجاء فيعبر تارة بالحرف عن نفس الحرف من اللفظ. وتارة باسم ذلك الحرف، ولما غلب هذا الاصطلاح صار يتوهم من اعتاده أنه هكذا في لغة العرب، ومنهم من يجعل لفظ الكلمة فى اللغة لفظاً مشتركا بين الاسم مثلا وبين الجملة، ولا يعرف فى صريح اللغة من لفظ الكلمة إلا الجملة التامة.

والمقصود هنا أن المشروع فى ذكر الله سبحانه هو ذكره « بجملة تامة » وهو المسمى بالكلام، والواحد منه بالكلمة، وهو الذي ينفع القلوب، ويحصل به الثواب والأجر، والقرب إلى الله ومعرفته ومحبته وخشيته، وغير ذلك من المطالب العالية، والمقاصد السامية. وأما الاقتصار على « الاسم المفرد » مظهراً أو مضمراً فلا أصل له. فضلا عن أن يكون من ذكر الخاصة والعارفين. بل هو وسيلة إلى أنواع من البدع والضلالات وذريعة إلى تصورات أحوال فاسدة من أحوال أهل الإلحاد، وأهل الاتحاد، كما قد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع.

وجماع الدين « أصلان » ألا نعبد إلا الله ، ولا نعبده إلا بما شرع ، لا نعبده بالبدع ، كما قال تعالى : (فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا) . وذلك تحقيق « الشهادتين » : شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله . ففي الأولى أن لا نعبد إلا إياه ، وفى الثانية أن محمداً هو رسوله المبلغ عنه . فعلينا أن نصدق خبره ونطيع أمره ، وقد بين لنا ما نعبد الله به ، ونهانا عن محدثات الأمور ، وأخبر أنها ضلالة . قال تعالى : (بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

كما أنا مأمورون ألا نخاف إلا الله ولا نتوكل إلا على الله ، ولا نرغب إلا إلى الله ، ولا نستعين إلا بالله ، و ألا تكون عبادتنا إلا لله ، فكذلك نحن مأمورون أن نتبع الرسول ونطيعه ونتأسى به ، فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه ، قال تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ) فجعل الإيتاء لله والرسول ، كما قال : (وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ) وجعل التوكل على الله وحده بقوله : (وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ) ولم يقل ورسوله ، كما قال فى (الآية الأخرى) (ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ) ومثله قوله : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) أي

حسبك وحسب المؤمنين كما قال : (أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ) .

ثم قال : (سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ) فجعل الإيتاء لله والرسول ، وقدم ذكر الفضل ؛ لأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وله الفضل على رسوله وعلى المؤمنين ، وقال : (إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ) فجعل الرغبة إلى الله وحده كما في قوله : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب) وقال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس : « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » . والقرآن يدل على مثل هذا في غير موضع .

فجعل العبادة والخشية والتقوى لله ، وجعل الطاعة والمحبة لله ورسوله ، كما في قول نوح عليه السلام : (أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ) وقوله :
(وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ)
وأمثال ذلك .

فالرسل أمروا بعبادته وحده والرغبة إليه والتوكل عليه ، والطاعة لهم . فأضل الشيطان النصارى وأشباههم فأشركوا بالله وعصوا الرسول ف(ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ) فجعلوا يرغبون إليهم ويتوكلون عليهم ويسألونهم ، مع معصيتهم لأمرهم ومخالفاتهم لسنتهم ، وهدى الله المؤمنين المخلصين لله أهل الصراط المستقيم ، الذين عرفوا الحق واتبعوه

فلم يكونوا من المغضوب عليهم ولا الضالين ، فأخلصوا دينهم لله ، وأسلموا وجوههم لله ، وأنابوا إلى ربهم ، وأحبوه ورجوه وخافوه وسألوه ورغبوا إليه وفوضوا أمورهم إليه وتوكلوا عليه ، وأطاعوا رسله وعزروهم ووقروهم وأحبوهم ووالوهم واتبعوهم ، واقتفوا آثارهم واهتدوا بمنارهم .

وذلك هو دين الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد دينا إلا إياه ، وهو حقيقة العبادة لرب العالمين .

فنسأل الله العظيم أن يثبتنا عليه ، ويكمله لنا ويميتنا عليه وسائر إخواننا المسلمين .

والحمد لله وحده . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

سئل شيخ الإسلام

ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ عن قول النبي صلى الله عليه وسلم :
« دعوة أخي ذي النون » : (لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ) .
ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربته » ما معنى هذه الدعوة ؟ ولم كانت كاشفة للكرب ؟ وهل لها شروط باطنة عند النطق بلفظها ؟ وكيف مطابقة اعتقاد القلب لمعناها . حتى يوجب كشف ضره ؟ وما مناسبة ذكره : (إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ) مع أن التوحيد . يوجب كشف الضر ؟ وهل يكفيه اعترافه . أم لا بد من التوبة والعزم فى المستقبل ؟ وما هو السر فى أن كشف الضر وزواله يكون عند انقطاع الرجاء عن الخلق والتعلق بهم ؟ وما الحيلة في انصراف القلب عن الرجاء للمخلوقين والتعلق بهم بالكلية وتعلقه بالله تعالى ورجائه وانصرافه إليه بالكلية ، وما السبب المعين على ذلك؟؟ .

﴿ فأجاب ﴾ الحمد لله رب العالمين .

لفظ « الدعاء والدعوة » فى القرآن يتناول معنيين .

دعاء العبادة .

ودعاء المسألة .

قال الله تعالى : (فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ)
وقال تعالى : (وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ) وقال تعالى : (وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ)
وقال : (وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا) وقال (إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا) وقال تعالى : (لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ)
وقال تعالى : (وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ) وقال في آخر السورة : (قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ) .

قيل : لولا دعاؤكم إياه ، وقيل لولا دعاؤه إياكم . فإن المصدر يضاف إلى الفاعل تارة ، وإلى المفعول تارة ، ولكن إضافته إلى الفاعل أقوى ؛ لأنه لا بد له من فاعل ، فلهذا كان هذا أقوى القولين ؟ أي ما يعبأ بكم لولا أنكم تدعونه فتعبدونه وتسألونه : (فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا) أي عذاب لازم للمكذبين .

ولفظ « الصلاة في اللغة » أصله الدعاء ، وسميت الصلاة دعاء لتضمنها معنى الدعاء ، وهو العبادة والمسألة .

وقد فسر قوله تعالى : (ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ) بالوجهين ، قيل : اعبدوني وامتثلوا أمري أستجب لكم كما قال تعالى : (وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ) : أي يستجيب لهم ، وهو معروف في اللغة ، يقال : استجابه واستجاب له كما قال الشاعر :

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى ... فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وقيل : سلوني أعطكم .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له » فذكر أولاً لفظ الدعاء ، ثم ذكر السؤال والاستغفار . والمستغفر سائل كما أن السائل داع ؛ لكن ذكر السائل لدفع الشر بعد السائل الطالب للخير ، وذكرهما جميعاً بعد ذكر الداعي الذي يتناولهما وغيرهما فهو من باب عطف الخاص على العام .

وقال تعالى : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) .

وكل سائل راغب راهب ، فهو عابد للمسؤول ، وكل عابد له

فهو أيضاً راغب وراهب يرجو رحمته ويخاف عذابه ، فكل عابد سائل وكل سائل عابد . فأحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه، ولكن إذا جمع بينهما : فإنه يراد بالسائل الذي يطلب جلب المنفعة ودفع المضرة بصيغ السؤال والطلب . ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامتثال الأمر وإن لم يكن فى ذلك صيغ سؤال .

والعابد الذي يريد وجه الله،والنظر إليه هو أيضاً راج خائف راغب راهب : يرغب فى حصول مراده ، ويرهب من فواته . قال تعالى : (إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا) وقال تعالى : (تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا) ولا يتصور أن يخلو داع لله ــ دعاء عبادة أو دعاء مسألة ــ من الرغب والرهب من الخوف والطمع .

وما يذكر عن بعض الشيوخ أنه جعل الخوف والرجاء من مقامات العامة ، فهذا قد يفسر مراده بأن المقربين يريدون وجه الله فيقصدون التلذذ بالنظر إليه ، وإن لم يكن هناك مخلوق يتلذذون به ، وهؤلاء يرجون حصول هذا المطلوب، ويخافون حرمانه، فلم يخلوا عن الخوف والرجاء لكن مرجوهم ومخوفهم بحسب مطلوبهم .

ومن قال من هؤلاء : لم أعبدك شوقا إلى جنتك، ولا خوفا من نارك ،

فهو يظن أن الجنة اسم لما يتمتع فيه بالمخلوقات ، والنار اسم لما لا عذاب فيه إلا ألم المخلوقات ، وهذا قصور وتقصير منهم عن فهم مسمى الجنة ، بل كل ما أعده الله لأوليائه فهو من الجنة، والنظر إليه هو من الجنة، ولهذا كان أفضل الخلق يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار ، ولما سأل بعض أصحابه عما يقول في صلاته « قال : إنى أسأل الله الجنة، وأعوذ بالله من النار ، أما إنى لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ فقال : حولها ندندن »

وقد أنكر على من قال هذا الكلام يعنى أسألك لذة النظر إلى وجهك فريق من أهل الكلام ، ظنوا أن الله لا يتلذذ بالنظر إليه ، وأنه لا نعيم إلا بمخلوق . فغلط هؤلاء فى معنى الجنة كما غلط أولئك ، لكن أولئك طلبوا ما يستحق أن يطلب ، وهؤلاء أنكروا ذلك .

وأما التألم بالنار فهو أمر ضروري ، ومن قال : لو أدخلنى النار لكنت راضياً ، فهو عزم منه على الرضا . والعزائم قد تنفسخ عند وجود الحقائق ، ومثل هذا يقع فى كلام طائفة مثل سمنون الذي قال :

وليس لي فى سواك حظ فكيفما ماشئت فامتحني

فابتلى بعسر البول فجعل يطوف على صبيان المكاتب ويقول : ادعوا لعمكم الكذاب . قال تعالى : (وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ) .

وبعض من تكلم فى علل المقامات جعل الحب والرضا والخوف والرجاء من مقامات العامة بناء على مشاهدة القدر ، وأن من شهد القدر [1] فشهد توحيد الأفعال حتى فني من لم يكن وبقي من لم يزل ، يخرج عن هذه الأمور ، وهذا كلام مستدرك حقيقة وشرعا.

أما الحقيقة فإن الحي لا يتصور أن لايكون حساساً محباً لما يلائمه مبغضاً لما ينافره ، ومن قال إن الحي يستوى عنده جميع المقدورات فهو أحد رجلين : إما أنه لا يتصور ما يقول بل هو جاهل ، وإما أنه مكابر معاند ولو قدر أن الإنسان حصل له حال أزال عقله — سواء سمي اصطلاما أو محوا أو فناء أو غشياً أو ضعفاً — فهذا لم يسقط إحساس نفسه بالكلية ، بل له إحساس بما يلائمه وما ينافره ، وإن سقط إحساسه ببعض الأشياء فإنه لم يسقط بجميعها .

فمن زعم أن المشاهد لتوحيد الربوبية يدخل إلى مقام الجمع والفناء فلا يشهد فرقاً فإنه غالط ، بل لا بد من الفرق فإنه أمر ضروري .

لكن إذا خرج عن الفرق الشرعي بقي فى الفرق الطبعي ، فيبقى متبعاً لهواه لا مطيعاً لمولاه .

---

(1) كذا فى نسختين وفي نسخة وأما من نظر إلى القدر الخ

ولهذا لما وقعت « هذه المسألة » بين الجنيد وأصحابه ذكر لهم « الفرق الثاني » وهو : أن يفرق بين المأمور والمحظور ، وبين ما يحبه الله وما يكرهه مع شهوده للقدر الجامع ، فيشهد الفرق فى القدر الجامع . ومن لم يفرق بين المأمور والمحظور خرج عن دين الإسلام .

وهؤلاء الذين يتكلمون فى الجمع لا يخرجون عن الفرق الشرعي بالكلية وإن خرجوا عنه كانوا كفاراً من شر الكفار ، وهم الذين يخرجون إلى التسوية بين الرسل وغيرهم ، ثم يخرجون إلى القول بوحدة الوجود ، فلا يفرقون بين الخالق والمخلوق ؛ ولكن ليس كل هؤلاء ينتهون إلى هذا الإلحاد ، بل يفرقون من وجه دون وجه فيطيعون الله ورسوله تارة ، ويعصون الله ورسوله تارة ، كالعصاة من أهل القبلة . وهذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أن لفظ « الدعوة والدعاء » يتناول هذا وهذا ، قال الله تعالى : ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وفى الحديث : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » رواه ابن ماجه وابن أبي الدنيا . وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره : « دعوة أخي ذي النون ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربته » سماها « دعوة » لأنها تتضمن نوعي الدعاء . فقوله لا إله إلا أنت اعتراف بتوحيد الإلهية .

وتوحيد الإلهية يتضمن أحد نوعي الدعاء ، فإن الإله هو المستحق لأن يدعى دعاء عبادة ودعاء مسألة ، وهو الله لا إله إلا هو .

وقوله : (إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ). اعتراف بالذنب، وهو يتضمن طلب المغفرة ، فإن الطالب السائل تارة يسأل بصيغة الطلب ، وتارة يسأل بصيغة الخبر ، إما بوصف حاله ، وإما بوصف حال المسؤول ، وإما بوصف الحالين . كقول نوح عليه السلام : (رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ) فهذا ليس صيغة طلب ، وإنما هو إخبار عن الله أنه إن لم يغفر له ويرحمه خسر .

ولكن هذا الخبر يتضمن سؤال المغفرة ، وكذلك قول آدم عليه السلام (رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ) هو من هذا الباب ، ومن ذلك قول موسى عليه السلام : (رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ) فإن هذا وصف لحاله بأنه فقير إلى ما أنزل الله إليه من الخير ، وهو متضمن لسؤال الله إنزال الخير إليه .

وقد روى الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من شغله قراءة القرآن عن ذكري ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين » رواه الترمذي وقال حديث ، حسن ورواه مالك بن الحويرث

وقال : « من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين »
وأظن البيهقي رواه مرفوعا بهذا اللفظ .

وقد سئل سفيان بن عيينة عن قوله : « أفضل الدعاء يوم عرفة
لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير »
فذكر هذا الحديث وأنشد قول أمية بن أبي الصلت يمدح ابن جدعان .

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حباؤك إن شيمتك الحباء

إذا أثنى عليك المرء يوما كفاه من تعرضه الثناء

قال : فهذا مخلوق يخاطب مخلوقا فكيف بالخالق تعالى .

ومن هذا الباب الدعاء المأثور عن موسى عليه السلام : « اللهم لك
الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث ، وعليك
التكلان » فهذا خبر يتضمن السؤال .

ومن هذا الباب قول أيوب عليه السلام : (أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ
أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ) فوصف نفسه ووصف ربه بوصف يتضمن سؤال رحمته
بكشف ضره وهي صيغة خبر تضمنت السؤال . وهذا من باب حسن الأدب
في السؤال والدعاء ، فقول القائل لمن يعظمه ويرغب إليه : أنا جائع ، أنا

مريض ، حسن أدب فى السؤال . وإن كان فى قوله أطعمنى وداونى ونحو ذلك مما هو بصيغة الطلب طلب جازم من المسؤول ، فذاك فيه إظهار حاله وإخباره على وجه الذل والافتقار المتضمن لسؤال الحال ، وهذا فيه الرغبة التامة والسؤال المحض بصيغة الطلب .

وهذه الصيغة « صيغة الطلب والاستدعاء » إذا كانت لمن يحتاج إليه الطالب أو ممن يقدر على قهر المطلوب منه ونحو ذلك ، فإنها تقال على وجه الأمر : إما لما فى ذلك من حاجة الطالب ، وإما لما فيه من نفع المطلوب ، فأما إذا كانت من الفقير من كل وجه للغنى من كل وجه فإنها سؤال محض بتذلل وافتقار وإظهار الحال .

ووصف الحاجة والافتقار هو سؤال بالحال ، وهو أبلغ من جهة العلم والبيان .

وذلك أظهر من جهة القصد والإرادة ، فلهذا كان غالب الدعاء من القسم الثاني ؛ لأن الطالب السائل يتصور مقصوده ومراده فيطلبه ويسأله فهو سؤال بالمطابقة والقصد الأول ، وتصريح به باللفظ ، وإن لم يكن فيه وصف لحال السائل والمسؤول ، فإن تضمن وصف حالهما كان أكمل من النوعين ، فإنه يتضمن الخبر والعلم المقتضى للسؤال والإجابة ؛ ويتضمن القصد والطلب الذي هو نفس السؤال ، فيتضمن السؤال والمقتضى له والإجابة

كقول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه « لما قال : له علمني دعاء أدعو به في صلاتي ، فقال : « قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عنـدك ، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم » . أخرجاه في الصحيحين .

فهذا فيه وصف العبد لحال نفسه المقتضى حاجته إلى المغفرة ، وفيه وصف ربه الذي يوجب أنه لا يقدر على هـذا المطلوب غـيره ، وفيه التصريح بسؤال العبد لمطلوبه ، وفيه بيان المقتضى للإجابة وهـو وصف الرب بالمغفرة والرحمة ، فهذا ونحوه أكمل أنواع الطلب .

وكثير من الأدعية يتضمن بعض ذلك . كقول موسى عليـه السلام : ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴾ فهذا طلب ووصف للمولى بما يقتضى الإجابة . وقوله : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى ﴾ فيه وصف حال النفس والطلب . وقوله : ﴿ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ فيـه الوصف المتضمن للسؤال بالحـال ، فهـذه أنواع لـكل نوع منهـا خاصة .

يبقى أن يقـال فصاحب الحوت ومن أشبهه لماذا ناسب حالهـم صيغة الوصف والخبر دون صيغة الطلب ؟ .

فيقال : لأن المقام مقام اعتراف بأن ما أصابني من الشركان بذنبي ، فأصل الشر هو الذنب ، والمقصود دفع الضر والاستغفار جاء بالقصد الثاني ، فلم يذكر صيغة طلب كشف الضر لاستشعاره أنه مسيء ظالم ، وهو الذي أدخل الضر على نفسه ، فناسب حاله أن يذكر ما يرفع سببه من الاعتراف بظلمه ، ولم يذكر صيغة طلب المغفرة ؛ لأنه مقصود للعبد المكروب بالقصد الثاني ؛ بخلاف كشف الكرب فإنه مقصود له فى حال وجوده بالقصد الأول ، إذ النفس بطبعها تطلب ماهي محتاجة إليه من زوال الضرر الحاصل من الحال قبل طلبها زوال ما تخاف وجوده من الضرر فى المستقبل بالقصد الثاني ، والمقصود الأول فى هذا المقام هو المغفرة ، وطلب كشف الضر ، فهذا مقدم فى قصده وإرادته ، وأبلغ ما ينال به رفع سببه فجاء بما يحصل مقصوده .

وهذا يتبين بالكلام على قوله : (سُبْحَانَكَ) فإن هذا اللفظ يتضمن تعظيم الرب وتنزيهه ، والمقام يقتضي تنزيهه عن الظلم والعقوبة بغير ذنب ، يقول : أنت مقدس ومنزه عن ظلمي وعقوبتي بغير ذنب ؛ بل أنا الظالم الذي ظلمت نفسي . قال تعالى : (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) وقال تعالى : (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ) وقال : (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) وقال آدم عليه السلام : (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا) .

وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح الذي فى مسلم فى دعاء الاستفتاح « اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي واعترفت بذنبى ، فاغفر لي ذنوبى جميعا فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت » وفى صحيح البخاري « سيد الإستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبى فاغفر لي فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت ، من قالها إذا أصبح موقنا بها فمات من يومه دخل الجنة ، ومن قالها إذا أمسى موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة » .

فالعبد عليه أن يعترف بعدل الله وإحسانه فإنه لايظلم الناس شيئاً فلا يعاقب أحداً إلا بذنبه ، وهو يحسن إليهم فكل نقمة منه عدل وكل نعمة منه فضل .

فقوله : (لا إله إلا أنت) فيه إثبات انفراده بالإلهية ، والإلهية تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته ، ففيها إثبات إحسانه إلى العباد فإن « الإله » هو المألوه ، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد ، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التى تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب ، المخضوع له غاية الخضوع ؛ والعبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل .

وقوله : (سبحانك) يتضمن تعظيمه وتنزيهه عن الظلم وغيره من النقائص ؛ فإن التسبيح وإن كان يقال : يتضمن نفي النقائص ، وقد روى فى حديث مرسل من مراسيل موسى بن طلحة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول العبد : سبحان الله : « إنها براءة الله من السوء » فالنفي لا يكون مدحا إلا إذا تضمن ثبوتا وإلا فالنفى المحض لا مدح فيه ، ونفى السوء والنقص عنه يستلزم إثبات محاسنه وكماله ، ولله الأسماء الحسنى .

وهكذا عامة ما يأتى به القرآن فى نفى السوء والنقص عنه يتضمن إثبات محاسنه وكماله . كقوله تعالى : (ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ) فنفى أخذ السنة والنوم له يتضمن كمال حياته وقيوميته وقوله : (وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ) يتضمن كمال قدرته ، ونحو ذلك . فالتسبيح المتضمن تنزيهه عن السوء ، ونفي النقص عنه يتضمن تعظيمه . ففي قوله : (سُبۡحَٰنَكَ) تبرئته من الظلم ، وإثبات العظمة الموجبة له براءته من الظلم ، فإن الظالم إنما يظلم لحاجته إلى الظلم أو لجهله ، والله غني عن كل شيء ، عليم بكل شيء ، وهو غني بنفسه ، وكل ما سواه فقير إليه ، وهذا كمال العظمة .

وأيضاً في هذا الدعاء التهليل والتسبيح فقوله : (لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ) تهليل . وقوله : (سُبۡحَٰنَكَ) تسبيح . وقد ثبت فى الصحيح عن

النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أفضل الكلام بعد القرآن أربع . وهن من القرآن . سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » .

والتحميد مقرون بالتسبيح وتابع له ، والتكبير مقرون بالتهليل وتابع له ، وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل أي الكلام أفضل؟ قال : « ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده » وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » وفى القرآن (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) وقالت الملائكة : (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ) .

وهاتان الكلمتان إحداهما مقرونة بالتحميد ، والأخرى بالتعظيم ، فإنا قد ذكرنا أن التسبيح فيه نفي السوء والنقائص المتضمن إثبات المحاسن والكمال ، والحمد إنما يكون على المحاسن . وقرن بين الحمد والتعظيم كما قرن بين الجلال والإكرام ، إذ ليس كل معظم محبوبا محموداً ، ولا كل محبوب محموداً معظما ، وقد تقدم أن العبادة تتضمن كمال الحب المتضمن معنى الحمد ، وتتضمن كمال الذل المتضمن معنى التعظيم ، ففي العبادة حبه وحمده على المحاسن ، وفيها الذل له الناشيء عن عظمته وكبريائه . ففيها إجلاله وإكرامه . وهو سبحانه المستحق للجلال والإكرام ، فهو مستحق غاية الإجلال وغاية الإكرام .

ومن الناس من يحسب أن « الجلال » هو الصفات السلبية و « الإكرام » الصفات الثبوتيــة ، كما ذكر ذلك الرازي ونحوه والتحقيق أن كليهما صفات ثبوتية ، وإثبات الـكمال يستلزم نــفي النقائص ، لكن ذكر نوعي الثبوت وهو ما يستحق أن يحب وما يستحق أن يعظـم : كقولـه : (إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ) وقول سليمان عليــه السلام : (فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) وكذلك قوله : (لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ) فإن كثيراً ممن يكون له الملك والغنى لا يكون محموداً بل مذموما ، إذ الحمــد يتضمن الإخبار عن المحمود بمحاسنه المحبوبــة ، فيتضمن إخباراً بمحاسن المحبوب محبة له .

وكثير ممن له نصيب من الحمد والمحبة يكون فيــه عجز وضعف وذل ينافى العظمة والغنى والملك . فالأول يهاب ويخاف ولا يحب . وهذا يحب ويحمد ، ولا يهاب ولا يخــاف . والـكمال اجتماع الوصفــين . كما ورد فى الأثر « إن المؤمن رزق حلاوة ومهابة » وفى نعت النبي صـــلى الله عليه وســلم « كان من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفــة أحبه » .

فقرن التسبيح بالتحميد ، وقرن التهليل بالتكبير ؛ كما فى كلمات الأذان . ثم إن كل واحــد من النوعــين يتضمن الآخر إذا أفرد : فإن التسبيح والتحميد يتضمن التعظيم ؛ ويتضمن إثبات ما يحمد عليه وذلك يستلزم الإلهية فإن الإلهية تتضمن كونه محبوبا ؛ بل تتضمن أنــه لا يستحق كمال الحب إلا هو . والحمــد هو الإخبــار عن المحمود بالصفات الــتى يستحق أن يحب فالإلهية

تتضمن كمال الحمد ؛ ولهذا كان «الحمدلله» مفتاح الخطاب ؛ وكل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم «وسبحان الله» فيها إثبات عظمته كما قدمناه ؛ ولهذا قال : (فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ) وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اجعلوها فى ركوعكم » رواه أهل السنن وقال ، « أما الركوع فعظموا فيه الرب وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فقمن أن يستجاب لكم » رواه مسلم . فجعل التعظيم فى الركوع أخص منه بالسجود والتسبيح يتضمن التعظيم .

ففي قوله « سبحان الله وبحمده » إثبات تنزيهه وتعظيمه وإلهيته وحمده . وأما قوله : «لا إله إلا الله والله أكبر» ففي لا إله إلا الله [إثبات] محامده فإنها كلها داخلة فى إثبات إلهيته وفى قوله : « الله أكبر » إثبات عظمته فإن الكبرياء تتضمن العظمة،ولكن الكبرياء أكمل .

ولهذا جاءت الألفاظ المشروعة فى الصلاة والأذان بقول : « الله أكبر » فإن ذلك أكمل من قول الله أعظم ، كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما عذبته » فجعل العظمة كالإزار ، والكبرياء كالرداء ، ومعلوم أن الرداء أشرف ، فلما كان التكبير أبلغ من التعظيم صرح بلفظه . وتضمن ذلك التعظيم ، وفي قوله : سبحان الله ، صرح فيها بالتنزيه من السوء المتضمن للتعظيم ، فصار كل من الكلمتين

متضمنا معنى الكلمتين الأخريين إذا أفردتا ، وعند الاقتران تعطى كل كلمة خاصيتها .

وهذا كما أن كل اسم من أسماء الله فإنه يستلزم معنى الآخر ؛ فإنه يدل على الذات ، والذات تستلزم معنى الاسم الآخر ، لكن هذا باللزوم . وأما دلالة كل اسم على خاصيته، وعلى الذات بمجموعهما فبالمطابقة ، ودلالتها على أحدهما بالتضمن .

فقول الداعي : (لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ) يتضمن معنى الكلمات الأربع اللاتى هن أفضل الكلام بعد القرآن . وهذه الكلمات تتضن معانى أسماء الله الحسنى وصفاته العليا ففيها كمال المدح .

وقوله : (إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ) فيه اعتراف بحقيقة حاله ، وليس لأحد من العباد أن يبرئ نفسه عن هذا الوصف ، لاسيما فى مقام مناجاته لربه . وقد ثبت في الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى» . وقال : « من قال : أنا خير من يونس ابن متى فقد كذب، فمن ظن أنه خير من يونس بحيث يعلم أنه ليس عليه أن يعترف بظلم نفسه فهو كاذب ، ولهذا كان سادات الخلائق لا يفضلون أنفسهم على يونس فى هذا المقام ، بل يقولون : كما قال أبوهم آدم وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم .

فصـــــل

وأما قول السائل : لم كانت موجبــة لكشف الضر ؟ فذلك لأن الضر لا يكشفه إلا الله . كما قال تعالى : (وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ) والذنوب سبب للضر ، والاستغفار يزيل أسبابه كما قال تعالى : (وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) فأخــبر أنه سبحـانه لا يعذب مستغفراً . وفى الحديث : « من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب » وقـال تعالى : (وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ) .

فقوله: (إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ) اعتراف بالذنب وهو استغفار ، فإن هذا الاعتراف متضمن طلب المغفرة .

وقوله : (لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ) تحقيق لتوحيــد الإلهية ، فإن الخــير لا موجب له إلا مشيئة الله ، فما شـاء كان ومالم يشأ لم يكن ، والمعوق له

من العبـــد هو ذنوبه ، وما كان خارجاً عن قدرة العبد فهو من الله ، وإن كانت أفعال العباد بقدر الله تعالى ، لكن الله جعل فعــل المــأمور وترك المحظور سبباً للنجاة ، والسعادة، فشهادة التوحيد تفتح باب الخير ، والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر .

ولهذا ينبغي للعبد أن لا يعلق رجاءه إلا بالله ، ولا يخـاف من الله أن يظلمه : فإن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن النــاس أنفسهم يظلمون ؛ بل يخاف أن يجزيه بذنوبه . وهذا معنى ماروى عن علي رضي الله عنه أنه قال : لا يرجونَّ عبد إلا ربه، ولا يخافنَّ إلا ذنبه .

وفى الحديث المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم « أنه دخل على مريض فقال : كيف تجدك ؟ فقـــال أرجو الله وأخاف ذنوبى ، فقال ما اجتمعا في قلب عبـد فى مثل هــذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآ منه مما يخــاف » .

فالرجاء ينبغي أن يتعلق بالله ، ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبـد ولا عمله ، فإن تعليق الرجاء بغير الله إشراك ، وإن كان الله قد جعل لهـا أسبابا فالسبب لا يستقل بنفســه ، بل لا بــد له ، من معــاون ، ولا بــد أن يمنــع المعــارض المعــوق له وهو لا يحصــل ويبقى إلا بمشيئة الله تعـالى .

ولهذا قيل : الالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص فى العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع . ولهذا قال الله تعالى : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب) فأمر بأن تكون الرغبة إليه وحده ، وقال : (وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) فالقلب لا يتوكل إلا على من يرجوه ، فمن رجا قوته أو عمله أو علمه أو حاله أو صديقه أو قرابته أو شيخه أو ملكه أو ماله غير ناظر إلى الله كان فيه نوع توكل على ذلك السبب ، وما رجا أحد مخلوقاً ،أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه فإنه مشرك : (وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ) .

وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ، ويرجوهم ، فيحصل له رعب كما قال تعالى : (سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا) والخالص من الشرك يحصل له الأمن كما قال تعالى : (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ) وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الظلم هنا بالشرك . ففي الصحيح عن ابن مسعود « أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنما هذا الشرك، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح : (إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

وقال تعالى : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ) وقال تعالى : (قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) ولهذا يذكر الله الأسباب ، ويأمر بألا يعتمد عليها ، ولا يرجى إلا الله ، قال تعالى لما أنزل الملائكة : (وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ) وقال : (إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ)

وقد قدمنا أن الدعاء نوعان :

دعاء عبادة ، ودعاء مسألة .

وكلاهما لا يصلح إلا لله ، فمن جعل مع الله إلهاً آخر قعد مذموماً مخذولاً ، والراجي سائل طالب فلا يصلح أن يرجو إلا الله ، ولا يسأل

غيره : ولهـذا قال النبي صلى الله عليه وسـلم في الحديث الصحيح : « ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مشرف فخذه ، ومالا فلا تتبعه نفسك » . فالمشرف الذي يستشرف بقلبه ، والسائل الذي يسأل بلسـانه ، وفى الحديث الذي فى الصحيحين عن أبى سعيد الخـدري « قال : أصابتنا فاقة فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأسأله فوجدته يخطب الناس وهو يقول : « أيها الناس والله ! مهما يكن عندنا من خير فلن ندخره عنكم ، وإنه من يستغن يغنه الله ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر »

و « الاستغنـاء » أن لا يرجو بقلبـه أحـداً فيستشرف إليـه و « الاستعفاف » ألاَّ يسأل بلسانه أحداً ؛ ولهذا لما سئل أحمد بن حنبل عن التوكل فقال : قطع الاستشراف إلى الخلق ؛ أي لا يكون فى قلبك أن أحداً يأتيك بشيء فقيل له : فما الحجـة في ذلك ؟ فقـال : قول الخليـل لما قال له جبرائيل هـل لك من حاجة ؟ فقـال : « أمـا إليك فلا » .

فهذا وما يشبهه مما يبين أن العبد فى طلب ما ينفعـه ودفـع ما يضره لا يوجه قلبه إلا إلى الله ؛ فلهذا قال المـكروب : (لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ) . ومثل هذا ما في الصحيحين عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : عند الـكرب « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ،

لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم » فإن هذه الكلمات فيها تحقيق التوحيد ، وتأله العبد ربه ، وتعلق رجائه به وحده لا شريك له ، وهي لفظ خبر يتضمن الطلب .

والناس وإن كانوا يقولون بألسنتهم : لا إله إلا الله ، فقول العبد لها مخلصاً من قلبه له حقيقة أخرى ، وبحسب تحقيق التوحيد تكمل طاعة الله . قال تعالى : (أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) فمن جعل ما يأله هو ما يهواه فقد اتخذ إلهه هواه ، أي جعل معبوده هو ما يهواه ، وهذا حال المشركين الذين يعبد أحدهم ما يستحسنه فهم يتخذون أنداداً من دون الله يحبونهم كحب الله ، ولهذا قال الخليل : (لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ) .

فإن قومه لم يكونوا منكرين للصانع ، ولكن كان أحدهم يعبد ما يستحسنه ويظنه نافعاً له كالشمس والقمر والكواكب ، والخليل بين أن الآفل يغيب عن عابده وتحجبه عنه الحواجب فلا يرى عابده ولا يسمع كلامه ولا يعلم حاله ولا ينفعه ولا يضره بسبب ولا غيره ، فأي وجه لعبادة من يأفل ؟! .

وكلما حقق العبد الإخلاص في قول : لا إله إلا الله خرج من قلبه

تأله ما يهواه، وتصرف عنه المعاصي والذنوب، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ . فعلل صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من عباد الله المخلصين ، وهؤلاء هم الذين قال فيهم : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ وقال الشيطان : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ . وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه حرمه الله على النار » .

فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار ؛ فمن دخل النار من القائلين لا إله إلا الله لم يحقق إخلاصها المحرم له على النار ؛ بل كان فى قلبه نوع من الشرك الذي أوقعه فيما أدخله النار ، والشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل ؛ ولهذا كان العبد مأموراً فى كل صلاة أن يقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . والشيطان يأمر بالشرك والنفس تطيعه فى ذلك ، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله . إما خوفاً منه . وإما رجاء له ، فلا يزال العبد مفتقراً إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك . وفى الحديث الذي رواه ابن أبي عاصم وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الشيطان : أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يستغفرون ؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » .

فصاحب الهوى الذي اتبع هواه بغير هدى من الله له نصيب ممن اتخذ إلهه هواه ، فصار فيه شرك منعه من الاستغفار وأما من حقق التوحيد والاستغفار فلا بد أن يرفع عنه الشر ؛ فلهذا قال ذو النون : (لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ) .

ولهذا يقرن الله بين التوحيد والاستغفار في غير موضع . كقوله تعالى : (فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ) وقوله : (أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ) وقوله : (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ) إلى قوله : (وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ) وقوله : (فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ) .

وخاتمة المجلس : « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » إن كان مجلس رحمة كانت كالطابع عليه، وإن كان مجلس لغو كانت كفارة له ، وقد روى أيضاً أنها تقال فى آخر الوضوء بعد أن يقال : « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين » .

وهذا الذكر يتضمن التوحيد والاستغفار ؛ فإن صدره الشهادتان

اللتان هما أصلا الدين وجماعه ؛ فإن جميع الدين داخل فى « الشهادتين » إذ مضمونهما ألاَّ نعبد إلا الله ، وأن نطيع رسوله ، و « الدين » كله داخل فى هذا في عبادة الله بطاعة الله وطاعة رسوله ، وكل ما يجب أو يستحب داخل فى طاعة الله ورسوله .

وقد روى أنه يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت ، استغفرك وأتوب إليك » وهذا كفارة المجلس ، فقد شرع فى آخر المجلس وفى آخر الوضوء ، وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يختم الصلاة كما فى الحديث الصحيح أنه كان يقول فى آخر صلاته : « اللهم أغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني ؛ أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت » وهنا قدم الدعاء وختمه بالتوحيد ؛ لأن الدعاء مأمور به في آخر الصلاة ، وختم بالتوحيد ليختم الصلاة بأفضل الأمرين وهو التوحيد ، بخلاف ما لم يقصد فيه هذا فإن تقديم التوحيد أفضل .

فان جنس الدعاء الذي هو ثناء وعبادة أفضل من جنس الدعاء الذي هو سؤال وطلب ، وإن كان المفضول قد يفضل على الفاضل فى موضعه الخاص ، بسبب وبأشياء أخر ، كما أن الصلاة أفضل من القراءة ، والقراءة أفضل من الذكر الذي هو ثناء ، والذكر أفضل من الدعاء الذي هو سؤال ، ومع هذا فالمفضول له أمكنة وأزمنة

وأحوال يكون فيها أفضل من الفاضل ، لكن أول الدين وآخره وظاهره وباطنه هو التوحيد ، وإخلاص الدين كله لله هو تحقيق قول لا إله إلا الله .

فإن المسلمين وإن اشتركوا في الإقرار بها ، فهم متفاضلون فى تحقيقها تفاضلاً لا نقدر أن نضبطه ، حتى إن كثيراً منهم يظنون أن التوحيد المفروض هو الإقرار والتصديق بأن الله خالق كل شيء وربه ، ولا يميزون بين الإقرار بتوحيد الربوبية الذي أقر به مشركو العرب ، وبين توحيد الإلهية الذي دعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يجمعون بين التوحيد القولي والعملي .

فإن المشركين ما كانوا يقولون : إن العالم خلقه اثنان ، ولا إن مع الله رباً ينفرد دونه بخلق شيء ؛ بل كانوا كما قال الله عنهم : (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) وقال تعالى : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ) وقال تعالى : (قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ)

وكانوا مع إقرارهم بأن الله هو الخالق وحده يجعلون معه آلهة

أخرى ، يجعلونهم شفعاء لهم إليه . ويقولون : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . ويحبونهم كحب الله .

والإشراك فى الحب والعبادة والدعاء والسؤال غير الإشراك فى الاعتقاد والإقرار ، كما قال تعالى : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) فمن أحب مخلوقاً كما يحب الخالق فهو مشرك به ، قد اتخذ من دون الله أنداداً يحبهم كحب الله . وإن كان مقراً بأن الله خالقه .

ولهذا فرق الله ورسوله بين من أحب مخلوقاً لله ، وبين من أحب مخلوقاً مع الله ، فالأول يكون الله هو محبوبه ومعبوده الذي هو منتهى حبه وعبادته لا يحب معه غيره ؛ لكنه لما علم أن الله يحب أنبياءه وعباده الصالحين أحبهم لأجله ، وكذلك لما علم أن الله يحب فعل المأمور وترك المحظور أحب ذلك . فكان حبه لما يحبه تابعاً لمحبة الله وفرعاً عليه وداخلاً فيه .

بخلاف من أحب مع الله فجعله نداً لله يرجوه ويخافه ، أو يطيعه من غير أن يعلم أن طاعته طاعة لله ، ويتخذه شفيعاً له من غير أن يعلم أن الله يأذن له أن يشفع فيه قال تعالى : (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ)

وقال تعالى : (ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ) وقد قال عدي بن حاتم للنبي صلى الله عليه وسلم : « ما عبدوهم ، قال : أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم ، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم ، فكانت تلك عبادتهم إياهم » قال تعالى : (أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ) وقال تعالى : (وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا) .

فالرسول وجبت طاعته ؛ لأنه من يطع الرسول فقد أطاع الله ، فالحلال ما حلله ، والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه ، ومن سوى الرسول من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك إنما تجب طاعتهم إذا كانت طاعتهم طاعة لله ، وهم إذا أمر الله ورسوله بطاعتهم فطاعتهم داخلة في طاعة الرسول ، قال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ) .

فلم يقل وأطيعوا الرسول وأطيعوا أولى الأمر منكم ؛ بل جعل طاعة أولى الأمر داخلة في طاعة الرسول ؛ وطاعة الرسول طاعة لله ، وأعاد الفعل في طاعة الرسول دون طاعة أولى الأمر ؛ فإنه من يطع الرسول

فقد أطاع الله ؛ فليس لأحد إذا أمره الرسول بأمر أن ينظر هل أمر الله به أم لا ، بخلاف أولي الأمر فإنهم قد يأمرون بمعصية الله ، فليس كل من أطاعهم مطيعاً لله ، بل لا بد فيما يأمرون به أن يعلم أنه ليس معصية لله ، وينظر هل أمر الله به أم لا ، سواء كان أولى الأمر من العلماء أو الأمراء ، ويدخل فى هذا تقليد العلماء وطاعة أمراء السرايا وغير ذلك ، وبهذا يكون الدين كله لله قال تعالى : (وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ) وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لما قيل له : يا رسول الله ! الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء . فأي ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو فى سبيل الله » .

ثم إن كثيراً من الناس يحب خليفة أو عالما أو شيخاً أو أميراً فيجعله نداً لله ، وإن كان قد يقول : إنه يحبه لله .

فمن جعل غير الرسول تجب طاعته فى كل ما يأمر به وينهى عنه وإن خالف أمر الله ورسوله فقد جعله نداً ، وربما صنع به كما تصنع النصارى بالمسيح ، ويدعوه ويستغيث به ، ويوالي أولياءه ، ويعادي أعداءه مع إيجابه طاعته فى كل ما يأمر به وينهى عنه ويحلله ويحرمه ، ويقيمه مقام الله ورسوله فهذا من الشرك الذي يدخل أصحابه فى قوله تعالى : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) .

فالتوحيد والإشراك يكون في أقوال القلب ، ويكون فى أعمال القلب ولهذا قال الجنيد : التوحيد قول القلب ، والتوكل عمل القلب أراد بذلك التوحيد الذي هو التصديق ، فإنه لما قرنه بالتوكل جعله أصله ، وإذا أفرد لفظ التوحيد فهو يتضمن قول القلب وعمله ، والتوكل من تمام التوحيد .

وهذا كلفظ « الإيمان » فإنه إذا أفرد دخلت فيه الأعمال الباطنة والظاهرة ، وقيل الإيمان قول وعمل ، أي قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه : « الإيمان بضع وستون شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » . ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ .

و « الإيمان المطلق » يدخل فيه الإسلام كما فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لوفد عبد القيس : « آمركم بالإيمان بالله أتدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله

وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم ، ولهذا قال من قال من السلف : كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً .

وأما إذا قرن لفظ الإيمان بالعمل أو بالإسلام فإنه يفرق بينهما كما في قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) وهو فى القرآن كثير ، وكما فى قول النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح لما سأله جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان فقال : « الإسلام : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت. قال : فما الإيمان ؟ قال أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : فما الإحسان؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . ففرق فى هذا النص بين الإسلام والإيمان لما قرن بين الاسمين وفى ذلك النص أدخل الإسلام في الإيمان لما أفرده بالذكر .

وكذلك لفظ « العمل » فإن الإسلام المذكور هو من العمل والعمل الظاهر هو موجب إيمان القلب ومقتضاه ، فإذا حصل إيمان القلب حصل إيمان الجوارح ضرورة ، وإيمان القلب لا بد فيه من تصديق القلب وانقياده ، وإلا فلو صدق قلبه بأن محمداً رسول الله وهو يبغضه ويحسده ويستكبر عن متابعته لم يكن قد آمن قلبه .

و « الإيمان » وإن تضمن التصديق فليس هو مرادفاً له ، فلا يقال

لكل مصدق بشيء : أنه مؤمن به . فلو قال : أنا أصدق بأن الواحد نصف الاثنين ، وأن السماء فوقنا والأرض تحتنا ، ونحو ذلك مما يشاهده الناس ويعلمونه لم يقل لهذا : إنه مؤمن بذلك ؛ بل لا يستعمل إلا فيمن أخبر بشيء من الأمور الغائبة كقول إخوة يوسف : (وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا) فإنهم أخبروه بما غاب عنه وهم يفرقون بين من آمن له وآمن به فالأول يقال للمخبر ، والثاني يقال للمخبر به كما قال إخوة يوسف (وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا) وقال تعالى : (فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ) .

وقال تعالى : (وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ) ففرق بين إيمانه بالله وإيمانه للمؤمنين ؛ لأن المراد يصدق المؤمنين إذا أخبروه وأما إيمانه بالله فهو من باب الإقرار به .

ومنه قوله تعالى عن فرعون وملئه : (أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا) أي نقر لهما ونصدقهما . ومنه قوله : (أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

ومنه قوله تعالى : (فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ) .

ومن المعنى الآخر قوله تعالى : (يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ) وقوله : (ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ) وقوله : (وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ

ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ) أي أقر بذلك ومثل هذا فى القرآن كثير .

و (المقصود هنا) أن لفظ « الإيمان » إنما يستعمل فى بعض الأخبار ، وهو مأخوذ من الأمن ، كما أن الإقرار مأخوذ من قر ، فالمؤمن صاحب أمن ، كما أن المقر صاحب إقرار ، فلا بد فى ذلك من عمل القلب بموجب تصديقه ، فإذا كان عالماً بأن محمداً رسول الله ولم يقترن بذلك حبه وتعظيمه بل كان يبغضه ويحسده ويستكبر عن اتباعه فإن هذا ليس بمؤمن به بل كافر به .

ومن هذا الباب كفر إبليس وفرعون وأهل الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وغير هؤلاء . فإن إبليس لم يكذب خبراً ولا مخبراً بل استكبر عن أمر ربه . وفرعون وقومه قال الله فيهم : (وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) وقال له موسى : (لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ) وقال تعالى : (ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ)

فمجرد علم القلب بالحق إن لم يقترن به عمل القلب بموجب علمه مثل محبة القلب له واتباع القلب له لم ينفع صاحبه ، بل أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم

يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ونفس لاتشبع ، ودعاء لا يسمع ، وقلب لا يخشع »

ولكن الجهمية ظنوا أن مجرد علم القلب وتصديقه هو الإيمان ، وأن من دل الشرع على أنه ليس بمؤمن فإن ذلك يدل على عدم علم قلبه ، وهـذا من أعظم الجهل شرعا وعقلا . وحقيقتـه توجب التسوية بين المؤمن والـكافر ؛ ولهذا أطلق وكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة كفرهم بذلك ، فإنه من المعلوم أن الإنسان يـكون عالماً بالحق ويبغضه لغرض آخر ، فليس كل من كان مستكبراً عن الحق يكون غير عالم به ، وحينئذ فالإيمان لا بـد فيه من تصديق القلب وعمله ، وهذا معنى قول السلف : الإيمان قول وعمل .

ثم إنه إذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للإرادة لزم وجود الأفعـال الظاهرة ، فإن الإرادة الجازمة إذا اقترنت بهـا القدرة التامـة لزم وجود المراد قطعاً ، وإنمـا ينتفى وجود الفعل لعدم كمال القدرة ، أو لعـدم كمال الإرادة ، وإلا فمع كمالهـا يجب وجود الفعل الاختياري ، فإذا أقر القلب إقراراً تاماً بأن محمداً رسول الله وأحبـه محبة تامة امتنع مع ذلك أن لا يتـكلم بالشهادتين مع قدرته على ذلك ، لكـن إن كان عاجزاً لخرس ونحوه أو لخوف ونحوه لم يـكن قادراً على النطق بهما .

و « أبو طالب » وإن كان عالماً بأن محمداً رسول الله وهو محب له فلم تكن محبته له لمحبته لله ، بل كان يحبه لأنه ابن أخيه فيحبه للقرابة، وإذا أحب ظهوره فلما يحصل له بذلك من الشرف والرئاسة . فأصل محبوبه هو الرئاسة ؛ فلهذا لما عرض عليه الشهادتين عند الموت رأى أن بالإقرار بهما زوال دينه الذي يحبه ، فكان دينه أحب إليه من ابن أخيه فلم يقر بهما — فلو كان يحبه لأنه رسول الله كما كان يحبه أبو بكر الذي قال الله فيه : (وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ) وكما كان يحبه سائر المؤمنين به ، كعمر وعثمان وعلي وغيرهم لنطق بالشهادتين قطعاً — فكان حبه حباً مع الله لا حباً لله ، ولهذا لم يقبل الله ما فعله من نصر الرسول وموازرته لأنه لم يعمله لله ، والله لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه ، بخلاف الذي فعل ما فعل ابتغاء وجه ربه الأعلى .

وهذا مما يحقق أن « الإيمان ، والتوحيد » لا بد فيهما من عمل القلب ، كحب القلب ، فلا بد من إخلاص الدين لله ، والدين لا يكون ديناً إلا بعمل ؛ فإن الدين يتضمن الطاعة والعبادة ؛ وقد أنزل الله عز وجل سورتي الإخلاص : (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ) و (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) . إحداهما في توحيد القول والعلم . والثانية في توحيد العمل

والإرادة ؛ فقال فى الأول : (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ) فأمره أن يقول هذا التوحيد وقال فى الثانى : (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ) فأمره أن يقول ما يوجب البراءة من عبادة غير الله وإخلاص العبادة لله .

و « العبادة » أصلها القصد والإرادة . والعبادة إذا أفردت دخل فيها التوكل ونحوه ، وإذا قرنت بالتوكل صار التوكل قسيما لها ، كما ذكرناه فى لفظ الإيمان . قال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) وقال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ) فهذا ونحوه يدخل فيه فعل المأمورات وترك المحظورات ؛ والتوكل من ذلك ، وقد قال فى موضع آخر : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وقال : (فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

ومثل هذا كثيراً ما يجيء فى القرآن : تتنوع دلالة اللفظ فى عمومه وخصوصه بحسب الإفراد والاقتران ؛ كلفظ « المعروف والمنكر » فإنه قد قال : (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ) وقال (وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ) وقال : (يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ

ٱلْمُنكَرِ) فالمنكر يدخل فيه ما كرهه الله ؛ كما يدخل فى المعروف ما يحبه الله .

وقد قال فى موضع آخر : (إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ) فعطف المنكر على الفحشاء، ودخل في المنكر هنا البغي . وقال فى موضع آخر: (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ) فقرن بالمنكر الفحشاء والبغي .

ومن هذا الباب لفظ « الفقراء ، والمساكين » إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر ، وإذا قرن أحدهما بالآخر صار بينهما فرق ؛ لكن هناك أحد الاسمين أعم من الآخر، وهنا بينهما عموم وخصوص . فمحبة الله وحده والتوكل عليه وحده وخشية الله وحده ونحو هذا كل هذا يدخل فى توحيد الله تعالى ، قال تعالى فى المحبة : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) وقال تعالى : (قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ) وقال تعالى : (وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ) فجعل الطاعة لله والرسول وجعل الخشية والتقوى لله وحده وقال تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ

وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ) وقال تعالى : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب) فجعل التحسب والرغبة إلى الله وحده .

وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع .

و (المقصود هنا) أن قول القائل : (لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ) فيه إفراد الإلهية لله وحده وذلك يتضمن التصديق لله قولاً وعملا ، فالمشركون كانوا يقرون بأن الله رب كل شيء ؛ لكن كانوا يجعلون معه آلهة أخرى ، فلا يخصونه بالإلهية . وتخصيصه بالإلهية يوجب ألا يعبد إلا إياه ، وأن لا يسأل غيره ، كما فى قوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فإن الإنسان قد يقصد سؤال الله وحده والتوكل عليه ، لكن فى أمور لا يحبها الله ؛ بل يكرهها وينهى عنها ، فهذا وإن كان مخلصا له في سؤاله والتوكل عليه ، لكن ليس هو مخلصا في عبادته وطاعته ، وهذا حال كثير من أهل التوجهات الفاسدة أصحاب الكشوفات والتصرفات المخالفة لأمر الله ورسوله ، فإنهم يعانون على هذه الأمور .

وكثير منهم يستعين الله عليها لكن لما لم تكن موافقة لأمر الله ورسوله حصل لهم نصيب من العاجلة ، وكانت عاقبتهم عاقبة سيئة ، قال تعالى : (وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا) وقال تعالى : (وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ

أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ) .

وطائفة أخرى قد يقصدون طاعة الله ورسوله ، لكن لا يحققون التوكل عليه والاستعانة به . فهؤلاء يثابون على حسن نيتهم ، وعلى طاعتهم ، لكنهم مخذولون فيما يقصدونه ، إذ لم يحققوا الاستعانة بالله والتوكل عليه ؛ ولهذا يبتلى الواحد من هؤلاء بالضعف والجزع تارة ، وبالإعجاب أخرى ، فإن لم يحصل مراده من الخير كان لضعفه ، وربما حصل له جزع ، فإن حصل مراده نظر إلى نفسه وقوته فحصل له إعجاب ، وقد يعجب بحاله فيظن حصول مراده فيخذل . قال تعالى : (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ) إلى قوله: (ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) .

وكثيراً ما يقرن الناس بين الرياء والعجب ، فالرياء من باب الإشراك بالخلق ، والعجب من باب الإشراك بالنفس وهذا حال المستكبر ، فالمرائي لا يحقق قوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) والمعجب لا يحقق قوله : (إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فمن حقق قوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) خرج عن الرياء ومن حقق قوله ، (إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) خرج عن الإعجاب ، وفى الحديث المعروف : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

وشر من هؤلاء وهؤلاء من لا تكون عبادتـه لله ولا استعانته بالله بل يعبد غيره ويستعين غيره وهؤلاء المشركون من الوجهين .

ومن هؤلاء من يكون شركه بالشياطين كأصحاب الأحوال الشيطانيـة فيفعلون ما تحبه الشياطين من الكذب والفجور ويدعونه بأدعية تحبها الشياطين ويعزمون بالعزائم التى تطيعها الشياطـين مما فيها إشراك بالله . كما قد بسط الـكلام عليهم فى مواضع أخر . وهؤلاء قد يحصل لهـم من الخوارق ما يظن أنه من كرامات الأولياء . وإنما هو من أحوال السحرة والـكهان ؛ ولهذا يجب الفرق بـين الأحوال الإيمانية القرآنية والأحوال النفسانية والأحوال الشيطانية .

وأما القسم الرابع فهم أهل التوحيد الذين أخلصوا دينهم لله فلم يعبدوا إلا إياه ولم يتوكلوا إلا عليه .

وقول المـكروب : (لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ) قـد يستحضر فى ذلك أحـد النوعين دون الآخر فمن أتم الله عليه النعمة استحضر التوحيد فى النوعـين ، فإن المـكروب همته منصرفة إلى دفع ضره وجلب نفعه ، فقد يقول « لا إله الا الله » مستشعراً أنه لا يكشف الضر غيرك ، ولا يأتي بالنعمة إلا أنت فهذا مستحضر توحيد الربوبية ، ومستحضر توحيـد السؤال والطلب ، والتوكل عليه ، معرض عن توحيد الإلهية الذي يحبه الله ويرضاه ويأمر

به وهو ألا يعبد إلا إياه ولا يعبده إلا بطاعته وطاعة رسوله فمن استشعر هذا في قوله : (لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ) كان عابداً لله متوكلا عليه وكان ممتثلا قوله : (فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) وقوله : (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) وقوله : (وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا) .

ثم إن كان مطلوبه محرما أثم وإن قضيت حاجته . وإن كان طالباً مباحاً لغير قصد الاستعانة به على طاعة الله وعبادته لم يكن آثما ولا مثابا . وإن كان طالباً ما يعينه على طاعة الله وعبادته لقصد الاستعانة به على ذلك كان مثابا مأجوراً .

وهذا مما يفرق به بين العبد الرسول وخلفائه ، وبين النبي الملك ، فإن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم خير بين أن يكون نبيا ملكا أو عبداً رسولاً ، فاختار أن يكون عبداً رسولاً ؛ فإن العبد الرسول هو الذي لايفعل إلا ما أمر به ، ففعله كله عبادة لله ، فهو عبد محض منفذ أمر مرسله ، كما ثبت عنه في صحيح البخاري أنه قال : « إني والله لا أعطي أحداً ولا أمنع أحداً وإنما أنا قاسم أضع حيث أمرت » وهو لم يرد بقوله « لا أعطي أحداً ولا أمنع » إفراد الله بذلك قدراً وكونا ، فإن جميع المخلوقين يشاركونه في هذا فلا يعطي أحداً ولا يمنع إلا بقضاء الله وقدره ؛ وإنما أراد إفراد الله بذلك شرعا وديناً . أي لا أعطي إلا من أمرت

بإعطائه ، ولا أمنع إلا من أمرت بمنعه ، فأنا مطيع لله فى إعطائي ومنعي فهو يقسم الصدقة والفيء والغنائم كما يقسم المواريث بين أهلها ؛ لأن الله أمره بهذه القسمة .

ولهذا كان المال حيث أضيف إلى الله ورسوله فالمراد به ما يجب أن يصرف فى طاعة الله ورسوله ، ليس المراد به أنه ملك للرسول ، كما ظنه طائفة من الفقهاء ، ولا المراد به كونه مملوكا لله خلقاً وقدراً ؛ فإن جميع الأموال بهذه المثابة . وهذا كقوله : (قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ) وقوله : (وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ) الآية وقوله : (وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ) إلى قوله : (مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ) الآية . فذكر فى الفيء ما ذكر في الخمس .

فظن طائفة من الفقهاء أن الإضافة إلى الرسول تقتضي أنه يملكه ، كما يملك الناس أملاكهم . ثم قال بعضهم : إن غنائم بدر كانت ملكا للرسول . وقال بعضهم : إن الفيء وأربعة أخماسه كان ملكا للرسول . وقال بعضهم: إن الرسول إنما كان يستحق من الخمس خمسه. وقال بعض هؤلاء: وكذلك كان يستحق من خمس الفيء خمسه ، وهذه الأقوال توجد فى كلام طوائف من أصحاب الشافعي وأحمد وأبي حنيفة وغيرهم ، وهذا غلط من وجوه :

(منها) أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يملك هـذه الأموال كما يملك الناس أموالهم ، ولا كما يتصرف الملوك فى ملكهم ، فإن هؤلاء وهؤلاء لهم أن يصرفوا أموالهـم فى المباحات ، فإما أن يكون مالـكا له فيصرفـه فى أغراضه الخاصـة ، وإما أن يكون ملـكا له فيصرفه فى مصلحة ملكه ، وهذه حال النبي الملك كداود وسليمان . قال تعالى : (فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) أي أعط من شئت وأحرم من شئت لا حساب عليك ، ونبينا كان عبداً رسولاً لا يعطي إلا من أمر بإعطائـه ، ولا يمنـع إلا من أمر بمنعه ، فلم يكن يصرف الأموال إلا في عبادة الله وطاعة له .

(ومنها) أن النبي لا يورث ولو كان ملـكا ، فإن الأنبياء لا يورثون فإذا كان ملوك الأنبياء لم يكونوا ملاكا كما يملك الناس أموالهم ، فكيف يكون صفوة الرسل الذي هو عبد رسول مالـكا .

(ومنها) أن النبي صـلى الله عليه وسلم كان ينفق على نفسه وعياله قدر الحاجة ، ويصرف سائر المال فى طاعة الله لا يستفضله ، وليست هـذه حال الملاك ، بل المال الذي يتصرف فيه كله هو مال الله ورسوله ، بمعنى أن الله أمر رسوله أن يصرف ذلك المال في طاعته ، فتجب طاعته فى قسمه ، كما تجب طاعته في سائر ما يأمر به ؛ فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله ، وهو فى ذلك مبلغ عن الله .

والأموال التى كان يقسمها النبي صلى الله عليه وسلم على وجهين :

(منها) : ما تعين مستحقه ومصرفه كالمواريث .

(ومنها) ما يحتاج إلى اجتهاده ونظره ورأيه ، فإن ما أمر الله به منه ماهو محدود بالشرع : كالصلوات الخمس ، وطواف الاسبوع بالبيت ، ومنه ما يرجع في قدره إلى اجتهاد المأمور فيزيده وينقصه بحسب المصلحة التى يحبها الله .

فمن هذا ما اتفق عليه الناس ، ومنه ما تنازعوا فيه : كتنازع الفقهاء فيما يجب للزوجات من النفقات : هل هي مقدرة بالشرع ؟ أم يرجع فيها إلى العرف ، فتختلف في قدرها وصفتها باختلاف أحوال الناس ؟ . وجمهور الفقهاء على القول الثانى ، وهو الصواب لقول النبي صلى الله عليه وسلم لهند : « خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف » وقال أيضاً : فى خطبته المعروفة « للنساء كسوتهن ونفقتهن بالمعروف » .

وكذلك تنازعوا أيضاً فيما يجب من الكفارات : هل هو مقدر بالشرع أو بالعرف ؟ .

فما أضيف إلى الله والرسل من الأموال كان المرجع فى قسمته إلى أمر

النبي صلى الله عليه وسلم ؛ بخلاف ما سمي مستحقوه كالمواريث ، ولهـذا قال النبي صلى لله عليه وسلم عام حنين « ليس لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم » أي ليس له بحكم القسم الذي يرجع فيه إلى اجتهاده ونظره الخاص إلا الخمس ، ولهذا قال : « وهو مردود عليكم » بخلاف أربعة أخماس الغنيمة فإنه لمن شهد الوقعة .

ولهذا كانت الغنائم يقسمها الأمراء بين الغانمين ، والخمس يرفع إلى الخلفاء الراشدين المهديين الذين خلفوا رسول الله صلى لله عليه وسلم فى أمته فيقسمونها بأمرهم ، فأما أربعة الأخماس فإنما يرجعون فيها ليعلم حكم الله ورسوله كما يستفتى المستفتى ، وكما كانوا فى الحدود لمعرفة الأمر الشرعي ، والنبي صلى الله عليه وسلم أعطى المؤلفة قلوبهم من غنائم حنين ما أعطاهم ؛ فقيل : إن ذلك كان من الخمس ؛ وقيل : إنه كان من أصل الغنيمة ؛ وعلى هـذا القول فهو فعل ذلك لطيب نفوس المؤمنين بذلك ؛ ولهذا أجاب من عتب من الأنصار بما أزال عتبه وأراد تعويضهم عن ذلك .

ومن الناس من يقول الغنيمة قبل القسمة لم يملكها الغانمون ؛ وإن للإمام أن يتصرف فيها باجتهاده كما هو مذكور فى غير هذا الموضع .

فإن المقصود هنا بيان حال العبد المحض لله الذي يعبده ويستعينه ، فيعمل له ويستعينه ويحقق قوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) :

توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية ؛ وإن كانت الإلهية تتضمن الربوبية ؛ والربوبية تستلزم الإلهية ؛ فإن أحدهما إذا تضمن الآخر عند الانفراد لم يمنع أن يختص بمعناه عند الاقتران . كما في قوله : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ) وفى قوله : (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ) فجمع بين الاسمين : اسم الإله واسم الرب . فإن « الإله » هو المعبود الذي يستحق أن يعبد . و«الرب» هو الذي يرب عبده فيدبره .

ولهذا كانت العبادة متعلقة باسمه الله ، والسؤال متعلقاً باسمه الرب ؛ فإن العبادة هي الغاية التى لها خلق الخلق . والإلهية هي الغاية ؛ والربوبية تتضمن خلق الخلق وإنشاءهم،فهو متضمن ابتداء حالهم ؛ والمصلي إذا قال : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فبدأ بالمقصود الذي هو الغاية على الوسيلة التى هي البداية ؛ فالعبادة غاية مقصودة ؛ والاستعانة وسيلة إليها : تلك حكمة وهذا سبب ؛ والفرق بين العلة الغائية والعلة الفاعلية معروف؛ ولهذا يقال : أول الفكرة آخر العمل،وأول البغية آخر الدرك . فالعلة الغائية متقدمة فى التصور والإرادة،وهي متأخرة في الوجود . فالمؤمن يقصد عبادة الله ابتداء،وهو يعلم أن ذلك لا يحصل إلا بإعانته فيقول : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) .

ولما كانت العبادة متعلقة باسمه الله تعالى جاءت الأذكار المشروعة بهذا الاسم مثل كلمات الأذان : الله أكبر ، الله أكبر . ومثل الشهادتين :

أشهد أن لا إله إلا الله ، [أشهد أن محمداً رسول الله] ومثل التشهد : التحيات لله ، ومثل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر .

وأما السؤال فكثيراً ما يجيء باسم الرب كقول آدم وحواء : (رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ) وقول نوح : (رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ) وقول موسى : (رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى) وقول الخليل : (رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ) الآية وقوله مع إسماعيل : (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ) وكذلك قول الذين قالوا : (رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ) ومثل هذا كثير .

وقد نقل عن مالك أنه قال : أكره للرجل أن يقول فى دعائه: يا سيدي ! يا سيدي ! يا حنان ! ولكن يدعو بما دعت به الأنبياء ؛ ربنا ! ربنا ! نقله عنه العتبي فى العتبية . وقال تعالى : عن أولى الألباب : (ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ) الآيات .

فإذا سبق إلى قلب العبد قصد السؤال ناسب أن يسأله باسمه الرب . وإن سأله باسمه الله لتضمنه اسم الرب كان حسناً ، وأما إذا سبق إلى قلبه قصد العبادة فاسم الله أولى بذلك . إذا بدأ بالثناء ذكر اسم الله ، واذا قصد الدعاء دعا باسم الرب ، ولهذا قال يونس : (لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ) وقال آدم : (رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ) فإن يونس عليه السلام ذهب مغاضباً ، وقال تعالى : (فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ) وقال تعالى : (فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ) ففعل ما يلام عليه فكان المناسب لحاله أن يبدأ بالثناء على ربه ، والاعتراف بأنه لا إله إلا هو فهو الذي يستحق أن يعبد دون غيره فلا يطاع الهوى ، فإن اتباع الهوى يضعف عبادة الله وحده ، وقد روى أن يونس عليه السلام ندم على ارتفاع العذاب عن قومه بعد أن أظلهم وخاف أن ينسبوه إلى الكذب فغاضب . وفعل ما اقتضى الكلام الذي ذكره الله تعالى وأن يقال : (لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ) وهذا الكلام يتضمن براءة ما سوى الله من الإلهية ، سواء صدر ذلك [عن] هوى النفس أو طاعة الخلق أو غير ذلك . ولهذا قال : (سُبْحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ) .

والعبد يقول مثل هذا الكلام فيما يظنه وهو غير مطابق ، وفيما يريده وهو غير حسن .

وأما آدم عليه السلام فإنه اعترف أولاً بذنبه فقال : (ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا) ولم يكن عند آدم من ينازعه الإرادة لما أمر الله به ، مما يزاحم الإلهية بل ظن صدق الشيطان الذي (قَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ * فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ) فالشيطان غرهما وأظهر نصحهما فكانا فى قبول غروره وما أظهر من نصحه حالهما مناسباً لقولهما : (رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا) لما حصل من التفريط ، لا لأجل هوى وحظ يزاحم الإلهية وكانا محتاجين إلى أن يربهما ربوبية تكمل علمهما وقصدهما . حتى لا يغترا بمثل ذلك ، فهما يشهدان حاجتهما إلى الله ربهما الذي لا يقضي حاجتهما غيره .

وذو النون شهد ما حصل من التقصير فى حق الإلهية بما حصل من المغاضبة وكراهة إنجاء أولئك ، ففي ذلك من المعارضة في الفعل لحب شيء آخر ما يوجب تجريد محبته لله وتألهه له وأن يقول : (لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ) فإن قول العبد : لا إله إلا أنت ، يمحو أن يتخذ إلهه هواه . وقد روي « ما تحت أديم السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع » فكمل يونس صلوات الله عليه تحقيق إلهيته لله ، ومحو الهوى الذي يتخذ إلهاً من دونه ، فلم يبق له صلوات الله عليه وسلامه عند تحقيق قوله لا إله إلا أنت إرادة تزاحم إلهية الحق ، بل كان مخلصاً لله الدين إذ كان من أفضل عباد الله المخلصين .

و (أيضاً) فمثل هذه الحال تعرض لمن تعرض له ، فيبقى فيه

نوع مغاضبة للقدر ومعارضة له في خلقه وأمره ، ووساوس فى حكمته ورحمته ، فيحتاج العبد أن ينفي عنـه شيئين : الآراء الفاسدة والأهواء الفاسدة ، فيعـلم أن الحكمة والعدل فيما اقتضاه علمـه وحكمته لا فيما اقتضاه عـلم العبد وحكمته ، ويكـون هواه تبعاً لما أمر الله به ، فلا يكون له مع أمر الله وحكمه هوى يخالف ذلك . قال الله تعالى : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعـاً لما جئت به » رواه أبو حاتم فى صحيحه . وفى الصحيـح « أن عمر قال له : يا رســول الله ! والله لأنت أحب إلي من نفسي . قال : الآن يا عمر » . وفى الصحيـح عنه صلى الله عليه وسلم أنـه قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعـين » وقال تعالى : (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ) .

فإذا كان الإيمان لا يحصل حتى يحكم العبد رسوله ويسلم له ويكون هواه تبعاً لما جاء به ، ويكون الرسول والجهاد فى سبيله مقدماً على حب الإنسان نفسه وماله وأهله ، فكيف فى تحكيمه الله تعالى والتسليم له ؟!

فمن رأى قوماً يستحقون العذاب في ظنه . وقد غفر الله لهم ورحمهم ، وكره هو ذلك ، فهذا إما أن يكون عن إرادة تخالف حكم الله وإما عن ظن يخالف علم الله ، والله عليم حكيم . وإذا علمت أنه عليم ، وأنه حكيم لم يبق لكراهية ما فعله وجه ، وهذا يكون فيما أمر به وفيما خلقه ولم يأمرنا أن نكرهه ونغضب عليه .

فأما ما أمرنا بكراهته من الموجودات : كالكفر والفسوق والعصيان فعلينا أن نطيعه فى أمره بخلاف توبته على عباده وإنجائه إيام من العذاب فإن هذا من مفعولاته التى لم يأمرنا أن نكرهها ، بل هي مما يحبها فإنه يحب التوابين ويحب المتطهرين . فكراهة هذا من نوع اتباع الإرادة المزاحمة للإلهية . فعلى صاحبها أن يحقق توحيد الإلهية فيقول : لا إله إلا أنت .

فعلينا أن نحب ما يحب ونرضى ما يرضى ونأمر بما يأمر وننهى عما ينهى . فإذا كان (يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ) و (يُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ) فعلينا أن نحبهم ؛ ولا نأله مراداتنا المخالفة لمحابه .

والكلام فى هذا المقام مبنى على « أصل » : وهو أن الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه ، وفى تبليغ رسالاته باتفاق الأمة ، ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه كما

قال تعالى : (قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ) وقال : (وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ) وقال : (ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ) .

بخلاف غير الأنبياء فإنهم ليسوا معصومين كما عصم الأنبياء ، ولو كانوا أولياء لله ، ولهذا من سب نبياً من الأنبياء قتل باتفاق الفقهاء ، ومن سب غيرهم لم يقتل .

وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة ؛ فإن « النبي » هو المنبأ عن الله ، و « الرسول » هو الذي أرسله الله تعالى ، وكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً ، والعصمة فيما يبلغونه عن الله ثابتة فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين .

ولكن هل يصدر ما يستدركه الله فينسخ ما يلقى الشيطان ويحكم الله آياته ؟ هذا فيه قولان . والمأثور عن السلف يوافق القرآن بذلك. والذين منعوا ذلك من المتأخرين طعنوا فيما ينقل من الزيادة فى سورة النجم بقوله : (تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى) وقالوا : إن هذا لم يثبت ، ومن علم أنه ثبت : قال هذا ألقاه الشيطان فى مسامعهم ولم يلفظ به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن السؤال وارد على هذا التقدير أيضاً . وقالوا فى قوله : (إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ) هو حديث النفس .

وأما الذين قرروا ما نقل عن السلف فقالوا هذا منقول نقلاً ثابتاً لا يمكن القدح فيه والقرآن يدل عليه بقوله (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) فقالوا الآثار فى تفسير هذه الآية معروفة ثابتة فى كتب التفسير والحديث ، والقرآن يوافق ذلك فإن نسخ الله لما يلقى الشيطان وإحكامه آياته إنما يكون لرفع ما وقع فى آياته ، وتمييز الحق من الباطل حتى لا تختلط آياته

بغيرها . وجعل ما ألقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض ، والقاسية قلوبهم إنما يكون إذا كان ذلك ظاهراً يسمعه الناس لا باطناً فى النفس والفتنة التى تحصل بهذا النوع من النسخ من جنس الفتنة التى تحصل بالنوع الآخر من النسخ .

وهذا النوع أدل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وبعده عن الهوى من ذلك النوع ، فإنه إذا كان يأمر بأمر ثم يأمر بخلافه وكلاهما من عند الله وهو مصدق في ذلك ، فإذا قال عن نفسه إن الثانى هو الذي من عند الله وهو الناسخ وإن ذلك المرفوع الذي نسخه الله ليس كذلك كان أدل على اعتماده للصدق وقوله الحق ، وهذا كما قالت عائشة رضي الله عنها : لو كان محمد كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية : (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ) ألا ترى أن الذي يعظم نفسه بالباطل يريد أن ينصر كل ما قاله ولو كان خطأ ، فبيان الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أحكم آياته ونسخ ما ألقاه الشيطان هو أدل على تحريه للصدق وبراءته من الكذب ، وهذا هو المقصود بالرسالة فإنه الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم تسليما ، ولهذا كان تكذيبه كفراً محضاً بلا ريب .

وأما العصمة فى غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة فللناس فيه نزاع ، هل هو ثابت بالعقل أو بالسمع ؟ ومتنازعون فى العصمة من الكبائر والصغائر أو من

بعضها ، أم هل العصمة إنما هي فى الإقرار عليها لا فى فعلها ؟ أم لا يجب القول بالعصمــة إلا فى التبليغ فقط ؟ وهل تجب العصمة من الكفر والذنوب قبل المبعث أم لا ؟ والـكلام على هذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

والقول الذي عليــه جمهور النــاس ، وهو الموافق للآثار المنقولة عن السلف إثبات العصمة من الإقرار على الذنوب مطلقاً ، والرد على من يقول إنــه يجوز إقرارهم عليهــا ، وحجـج القــائلين بالعصمة إذا حررت إنمـا تدل على هذا القول .

وحجج النفاة لا تدل على وقوع ذنب أقر عليه الأنبيـاء ، فإن القائلين بالعصمــة احتجوا بأن التأسي بهم مشروع ، وذلك لا يجوز إلا مـع تجويز كون الأفعال ذنوباً ، ومعلوم أن التأسي بهم إنمـا هو مشروع فيما أقروا عليه دون ما نهوا عنه ورجعوا عنه ، كما أن الأمر والنهي إنمـا تجب طاعتهم فيما لم ينسخ منــه ، فأما ما نسخ من الأمر والنهي فلا يجوز جعله مأموراً به ولا منهياً عنه ، فضلا عن وجوب اتباعه والطاعة فيه .

وكذلك ما احتجوا بــه من أن الذنوب تنــافى الـكمال ، أو أنهــا ممن عظمت عليه النعمة أقبح . أو أنها توجب التنفير ، أو نحو ذلك من الحجج العقلية ، فهذا إنما يكون مع البقاء على ذلك وعدم الرجوع ، وإلا فالتوبة النصوح التى يقبلهــا الله يرفع بها صاحبهــا إلى أعظم مما كان عليه ، كما قال

بعض السلف : كان داود عليه السلام بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة ، وقال آخر : لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه ، لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه ، وقد ثبت فى الصحاح حديث التوبة « لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلاً » الخ .

وقد قال تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ) وقال تعالى : (إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ) وقد ثبت فى الصحيح حديث الذي يعرض الله صغار ذنوبه ويخبأ عنه كبارها وهو مشفق من كبارها أن تظهر ، فيقول الله له : « إني قد غفرتها لك وأبدلتك مكان كل سيئة حسنة فيقول : أي رب ! إن لي سيئآت لم أرها » إذا رأى تبديل السيئآت بالحسنات طلب رؤية الذنوب الكبار التى كان مشفقاً منها أن تظهر ، ومعلوم أن حاله هذه مع هذا التبديل أعظم من حاله لو لم تقع السيئات ولا التبديل .

وقال طائفة من السلف منهم سعيد بن جبير : إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار ، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة ، يعمل الحسنة فيعجب بها ويفتخر بها حتى تدخله النار ، ويعمل السيئة فلا يزال خوفه منها وتوبته منها حتى تدخله الجنة ، وقد قال تعالى : (وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ

وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) فغاية كل إنسان أن يكون من المؤمنين والمؤمنات الذين تاب الله عليهم .

وفى الكتاب والسنة الصحيحة والكتب التى أنزلت قبل القرآن مما يوافق هذا القول ما يتعذر إحصاؤه .

والرادون لذلك تأولوا ذلك بمثل تأويلات الجهمية والقدرية والدهرية لنصوص « الأسماء والصفات » ونصوص « القدر » ونصوص « المعاد » وهي من جنس تأويلات القرامطة الباطنية التى يعلم بالاضطرار أنها باطلة ، وأنها من باب تحريف الكلم عن مواضعه ، وهؤلاء يقصد أحدهم تعظيم الأنبياء فيقع فى تكذيبهم ، ويريد الإيمان بهم فيقع فى الكفر بهم .

ثم إن العصمة المعلومة بدليل الشرع والعقل والإجماع ، وهي « العصمة فى التبليغ » لم ينتفعوا بها إذ كانوا لا يقرون بموجب ما بلغته الأنبياء ، وإنما يقرون بلفظ حرفوا معناه أو كانوا فيه كالأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني ، والعصمة التى كانوا ادعوها لو كانت ثابتة لم ينتفعوا بها ولا حاجة بهم إليها عندهم ، فإنها متعلقة بغيرهم لا بما أمروا بالإيمان به ، فيتكلم أحدهم فيها على الأنبياء بغير سلطان من الله ، ويدع ما يجب عليه من تصديق الأنبياء وطاعتهم، وهو الذي تحصل به السعادة وبضده تحصل الشقاوة قال تعالى : (فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ) الآية .

والله تعالى لم يذكر فى القرآن شيئاً من ذلك عن نبي من الأنبيـاء إلا مقروناً بالتوبة والاستغفار ، كقول آدم وزوجته : (رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ) وقول نوح : (رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ) وقول الخليل عليه السلام : (رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ) وقوله : (وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ) وقول موسى : (أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ * وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ) وقوله : (رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى) وقوله : (فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ) وقوله تعالى عن داود : (فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ) وقوله تعالى عن سليمان : (رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ) .

وأما يوسف الصديق فلم يذكر الله عنه ذنبـاً فلهذا لم يذكر الله عنه ما يناسب الذنب من الاستغفار ، بل قال : (كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ) فأخبر أنه صرف عنـه السوء والفحشاء ، وهذا يدل على أنه لم يصدر منه سوء ولا فحشاء .

وأما قوله : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ)

فالهم اسم جنس تحتــه « نوعان » كما قال الإمام أحمــد الهم همان : هم خطرات ، وهم إصرار ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن العبد إذا هم بسيئة لم تكتب عليه ، وإذا تركها لله كتبت له حسنة وإن عملها كتبت له سيئة واحدة » وإن تركها من غير أن يتركها لله لم تكتب له حسنة ولا تكتب عليــه سيئة ويوسف صلى الله عليه وسلم هم هما تركه لله ، ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه ، وذلك إنما يكون إذا قام المقتضى للذنب وهو الهم ، وعارضه الإخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله .

فيوسف عليــه السلام لم يصدر منــه إلا حسنة يثاب عليها ، وقال تعــالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ)

وأما ما ينقل : من أنــه حل سراويله ، وجلس مجلس الرجل من المرأة ، وأنه رأى صورة يعقوب عاضاً على يده ، وأمثال ذلك ، فكله مما لم يخبر الله به ولا رسوله ، وما لم يكن كذلك فإنما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذبا على الأنبياء وقدحاً فيهم ، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقــله ؛ لم ينقل من ذلك أحــد عن نبينــا صلى الله عليــه وسلم حرفا واحداً .

وقوله : (وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ)

فمن كلام امرأة العزيز ، كما يدل القرآن على ذلك دلالة بينة ، لا يرتاب فيها من تدبر القرآن ، حيث قال تعالى : (وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ * قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ * وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ)

فهـذا كله كلام امرأة العزيز ، ويوسف إذ ذاك فى السجن ، لم يحضر بعد إلى الملك ، ولا سمع كلامه ولا رآه ؛ ولكن لما ظهرت براءته فى غيبته ـ كما قالت امرأة العزيز : (ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ) أي لم أخنه فى حال مغيبه عني وإن كنت فى حال شهوده راودته ـ فحينئذ : (وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ) وقد قال كثير من المفسرين إن هذا من كلام يوسف ، ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول ، وهو قول فى غاية الفساد ، ولا دليل عليه ؛ بل الأدلة تدل على نقيضه ، وقد

بسط الكلام على هذه الأمور فى غير هذا الموضع .

و (المقصود هنا) أن ما تضمنته « قصة ذي النون » مما يلام عليه كله مغفور بدله الله به حسنات ؛ ورفع درجاته ، وكان بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع ، قال تعالى: (فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ)
وهذا بخلاف حال التقام الحوت فإنه قال: (فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ) فأخبر أنه فى تلك الحال مليم ، و « المليم» الذي فعل ما يلام عليه ، فالملام فى تلك الحال لا فى حال نبذه بالعراء وهو سقيم ، فكانت حاله بعد قوله : (لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ) أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان ، والاعتبار بكمال النهاية لا بما جرى فى البداية ، والأعمال بخواتيمها ،

والله تعالى خلق الإنسان وأخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً ثم علمه فنقله من حال النقص إلى حال الكمال ، فلا يجوز أن يعتبر قدر الإنسان بما وقع منه قبل حال الكمال ، بل الاعتبار بحال كماله ، ويونس صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء فى حال النهاية حالهم أكمل الأحوال .

ومن هنا غلط من غلط فى تفضيل الملائكة على الأنبياء والصالحين فإنهم اعتبروا كمال الملائكة مع بداية الصالحين ونقصهم فغلطوا ولو اعتبروا حال الأنبياء والصالحين بعد دخول الجنان، ورضى الرحمن، وزوال كل ما فيه نقص وملام، وحصول كل ما فيه رحمة وسلام، حتى استقر بهم القرار (وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ) فإذا اعتبرت تلك الحال ظهر فضلها على حال غيرهم من المخلوقين وإلا فهل يجوز لعاقل أن يعتبر حال أحدهم قبل الكمال فى مقام المدح والتفضيل والبراءة من النقائص والعيوب.

ولو اعتبر ذلك لاعتبر أحدهم وهو نطفة ثم علقة، ثم مضغة، ثم حين نفخت فيه الروح، ثم هو وليد، ثم رضيع ثم فطيم، إلى أحوال أخر فعلم أن الواحد فى هذه الحال لم تقم به صفات الكمال التى يستحق بها كمال المدح والتفضيل، وتفضيله بها على كل صنف وجيل؛ وإنما فضله باعتبار المآل، عند حصول الكمال.

وما يظنه بعض الناس أنه من ولد على الإسلام فلم يكفر قط أفضل ممن كان كافراً فأسلم ليس بصواب؛ بل الاعتبار بالعاقبة وأيهما كان أتقى لله فى عاقبته كان أفضل. فإنه من المعلوم أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين آمنوا بالله ورسوله بعد كفرهم هم أفضل ممن ولد على الإسلام من أولادهم وغير أولادهم؛ بل من عرف الشر وذاقه ثم عرف الخير وذاقه

فقد تكون معرفته بالخير ومحبته له ومعرفته بالشر وبغضه له أكمل ممن لم يعرف الخير والشر ويذقهما كما ذاقهما ؛ بل من لم يعرف إلا الخير فقد يأتيه الشر فلا يعرف أنه شر ، فإما أن يقع فيه ، وإما أن لا ينكره كما أنكره الذي عرفه .

ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية . وهو كما قال عمر ؛ فإن كمال الإسلام هو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتمام ذلك بالجهاد في سبيل الله، ومن نشأ في المعروف لم يعرف غيره فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عند مَنْ عَلِمَه ، ولا يكون عنده من الجهاد لأهله ما عند الخبير بهم ؛ ولهذا يوجد الخبير بالشر وأسبابه إذا كان حسن القصد عنده من الاحتراز عنه ومنع أهله والجهاد لهم ما ليس عند غيره .

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم أعظم إيمانا وجهاداً ممن بعدهم ، لكمال معرفتهم بالخير والشر ، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر ، لما علموه من حسن حال الإسلام والإيمان والعمل الصالح ، وقبح حال الكفر والمعاصي ، ولهذا يوجد من ذاق الفقر والمرض والخوف أحرص على الغني والصحة والأمن ممن لم يذق ذلك . ولهذا يقال :

والضد يظهر حسنه الضد .

ويقال :

وبضدها تتبين الأشياء .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : لست بخب ولا يخدعني الخب . فالقلب السليم المحمود هو الذي يريد الخير لا الشر ، وكمال ذلك بأن يعرف الخير والشر ، فأما من لا يعرف الشر فذاك نقص فيه لا يمدح به .

وليس المراد أن كل من ذاق طعم الكفر والمعاصي يكون أعلم بذلك وأكره له ممن لم يذقه مطلقاً ؛ فإن هذا ليس بمطرد ، بل قد يكون الطبيب أعلم بالأمراض من المرضى ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أطباء الأديان فهم أعلم الناس بما يصلح القلوب ويفسدها ، وإن كان أحدهم لم يذق من الشر ما ذاقه الناس .

ولكن المراد أن من الناس من يحصل له بذوقه الشر من المعرفة به ، والنفور عنه ، والمحبة للخير إذا ذاقه مالا يحصل لبعض الناس ، مثل من كان مشركا أو يهوديا أو نصرانياً ، وقد عرف مافى الكفر من الشبهات والأقوال الفاسدة والظلمة والشر ، ثم شرح الله صدره للإسلام ، وعرفه محاسن الإسلام ؛ فإنه قد يكون أرغب فيه ، وأكره للكفر من بعض من لم يعرف حقيقة الكفر والإسلام ؛ بل هو معرض عن بعض حقيقة هذا وحقيقة هذا ، أو مقلد فى مدح هذا وذم هذا .

ومثال ذلك من ذاق طعم الجوع ثم ذاق طعم الشبع بعده ، أو ذاق المرض ثم ذاق طعم العافية بعده ، أو ذاق الخوف ثم ذاق الأمن بعده ، فإن محبة هذا ورغبته فى العافية والأمن والشبع ونفوره عن الجوع والخوف والمرض أعظم ممن لم يبتل بذلك ولم يعرف حقيقته .

وكذلك من دخل مع أهل البدع والفجور ، ثم بين الله له الحق وتاب عليه توبة نصوحا ، ورزقه الجهاد فى سبيل الله ، فقد يكون بيانه لحالهم ، وهجره لمساويهم ؛ وجهاده لهم أعظم من غيره ، قال نعيم بن حماد الخزاعي — وكان شديداً على الجهمية — أنا شديد عليهم ؛ لأنى كنت منهم . وقد قال الله تعالى: (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) نزلت هذه الآية فى طائفة من الصحابة كان المشركون فتنوهم عن دينهم ثم تاب الله عليهم ، فهاجروا إلى الله ورسوله ؛ وجاهدوا وصبروا .

وكان عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما من أشد الناس على الإسلام فلما أسلما تقدما على من سبقهما إلى الإسلام ؛ وكان [بعض من سبقهما] دونهما فى الإيمان والعمل الصالح بما كان عندهما من كمال الجهاد للكفار والنصر لله ورسوله ؛ وكان عمر لكونه أكمل إيمانا وإخلاصاً وصدقا ومعرفة وفراسة ونوراً أبعد عن هوى النفس وأعلى همة

في إقامة دين الله ، مقدما على سائر المسلمين ، غير أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين .

وهذا وغيره مما يبين أن الاعتبار بكمال النهاية لابنقص البداية .

وما يذكر فى الإسرائيليات : « أن الله قال لداود : أما الذنب فقد غفرناه ؛ وأما الود فلا يعود » فهذا لو عرفت صحته لم يكن شرعا لنا وليس لنا أن نبني ديننا على هذا ؛ فإن دين محمد صلى الله عليه وسلم فى التوبة جاء بما لم يجئ به شرع من قبله ؛ ولهذا قال : « أنا نبي الرحمة ؛ وأنا نبي التوبة » وقد رفع به من الآصار والأغلال ما كان على من قبلنا .

وقد قال تعالى فى كتابه : (إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ) وأخبر أنه تعالى يفرح بتوبة عبده التائب أعظم من فرح الفاقد لما يحتاج إليه من الطعام والشراب والمركب إذا وجده بعد اليأس . فإذا كان هذا فرح الرب بتوبة التائب وتلك محبته ؛ كيف يقال : إنه لا يعود لمودته (وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ * ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) ولكن وده وحبه بحسب ما يتقرب إليه العبد بعد التوبة ؛ فإن كان ما يأتي به من محبوبات الحق بعد التوبة أفضل مما كان يأتى به قبل ذلك كانت مودته له بعد التوبة أعظم من مودته له قبل التوبة ؛ وإن كان أنقص

كان الأمر أنقص ؛ فإن الجزاء من جنس العمل ؛ وما ربك بظلام للعبيد .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله تعالى : من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ؛ وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها : فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ؛ ولئن سألني لأعطينه ؛ ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » . ومعلوم أن أفضل الأولياء بعد الأنبياء هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ؛ وكانت محبة الرب لهم ومودته لهم بعد توبتهم من الكفر والفسوق والعصيان أعظم محبة ومودة ، وكلما تقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض أحبهم وودهم .

وقد قال تعالى : (عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) . نزلت في المشركين الذين عادوا الله ورسوله مثل « أهل الأحزاب » كأبي سفيان بن حرب ، وأبي سفيان بن الحارث ، والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة ابن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، وغيرهم . فإنهم بعد معاداتهم لله ورسوله

جعل الله بينهم وبين الرسل والمؤمنين مودة ، وكانوا فى ذلك متفاضلين وكان عكرمة وسهيل والحارث بن هشام أعظم مودة من أبى سفيان بن حرب ونحوه . وقد ثبت فى الصحيح « أن هند امرأة أبى سفيان أم معاوية قالت : والله يارسول الله ! ما كان على وجه الأرض أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خبائك ، وقد أصبحت وما على وجه الأرض أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من أهل خبائك فذكر النبي صلى الله عليه وسلم لها نحو ذلك » .

ومعلوم أن المحبة والمودة التى بين المؤمنين إنما تكون تابعة لحبهم لله تعالى ، فإن أوثق عرى الإيمان الحب في الله ، والبغض فى الله . فالحب لله من كمال التوحيد ؛ والحب مع الله شرك . قال تعالى :
(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) فتلك المودة التى صارت بين الرسول والمؤمنين وبين الذين عادوهم من المشركين إنما كانت مودة لله ومحبة لله ومن أحب الله أحبه الله ، ومن ود الله وده الله ، فعلم أن الله أحبهم وودهم بعد التوبة ، كما أحبوه وودوه ، فكيف يقال : إن التائب إنما تحصل له المغفرة دون المودة ؟! .

وإن قال قائل : أولئك كانوا كفاراً ، لم يعرفوا أن ما فعلوه محرم ؛ بل كانوا جهالا ، بخلاف من علم أن الفعل محرم وأتاه .

قيل : الجواب من وجهين :

(أحدهما) أنه ليس الأمر كذلك ؛ بل كان كثير من الكفار يعلمون أن محمداً رسول الله ، ويعادونه حسداً وكبراً وأبو سفيان قد سمع من أخبار نبوة النبي صلى الله عليه وسلم مالم يسمع غيره ، كما سمع من أمية بن أبي الصلت ، وما سمعه من هرقل ملك الروم ، وقد أخبر عن نفسه أنه لم يزل موقناً أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم سيظهر حتى أدخل الله عليه الإسلام ، وهو كاره له ، وقد سمع منه عام اليرموك وغيره مادل على حسن إسلامه ومحبته لله ورسوله بعد تلك العداوة العظيمة .

وقد قال تعالى : (وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ) فإذا كان الله يبدل سيئاتهم حسنات فالحسنات توجب مودة الله لهم ، وتبديل السيئات حسنات ليس مختصاً بمن كان كافراً ، وقد قال تعالى : (إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) قال أبو العالية : سألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقالوا لي : كل من عصى الله فهو

جاهل ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب .

(الوجه الثانى) : أن ما ذكر من الفرق بين تائب وتائب فى محبة الله تعالى للتائبين فرق لا أصل له ؛ بل الكتاب والسنة يدل على أن الله يحب التوابين ، ويفرح بتوبة التائبين ، سواء كانوا عالمين بأن ما أتوه ذنباً أو لم يكونوا عالمين بذلك .

ومن علم أن ما أتاه ذنباً ثم تاب فلا بد أن يبدل وصفه المذموم بالمحمود ؛ فإذا كان يبغض الحق فلا بد أن يحبه ، وإذا كان يحب الباطل فلا بد أن يبغضه . فما يأتى به التائب من معرفة الحق ومحبته والعمل به ، ومن بغض الباطل واجتنابه هو من الأمور التى يحبها الله تعالى ويرضاها ، ومحبة الله كذلك بحسب ما يأتى به العبد من محابه ، فكل من كان أعظم فعلا لمحبوب الحق كان الحق أعظم محبة له ، وانتقاله من مكروه الحق إلى محبوبه مع قوة بغض ما كان عليه من الباطل ، وقوة حب ما انتقل إليه من حب الحق ؛ فوجب زيادة محبة الحق له ومودته إياه ؛ بل يبدل الله سيئاته حسنات لأنه بدل صفاته المذمومة بالمحمودة فيبدل الله سيئاته حسنات ، فإن الجزاء من جنس العمل . وحينئذ فإذا كان إتيان التائب بما يحبه الحق أعظم من إتيان غيره كانت محبة الحق له أعظم وإذا كان فعله لما يوده الله منه أعظم من فعله له قبل التوبة كانت

مودة الله له بعد التوبة أعظم من مودته له قبل التوبـة ، فكيف يقال الود لا يعود .

وبهذا يظهر جواب شبهة من يقول : إن الله لا يبعث نبياً إلا من كان معصوماً قبل النبوة ، كما يقول ذلك طائفة من الرافضة وغيرهم ، وكذلك من قال: إنه لا يبعث نبياً إلا من كان مؤمناً قبل النبوة ، فإن هؤلاء توهموا أن الذنوب تكون نقصاً وإن تاب التائب منهـا ، وهـذا منشأ غلطهم فمـن ظن أن صاحب الذنوب مـع التوبة النصوح يكون ناقصاً فهو غالط غلطاً عظيماً ، فإن الذم والعقاب الذي يلحق أهـل الذنوب لا يلحق التائب منه شيء أصلاً ؛ لكن إن قدم التوبة لم يلحقه شيء ، وإن أخر التوبة فقد يلحقه ما بين الذنوب والتوبة من الذم والعقاب ما يناسب حاله .

والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه كانوا لا يؤخرون التوبة ؛ بـل يسارعون إليها ، ويسابقون إليها ؛ لا يؤخرون ولا يصرون على الذنب بل هم معصومون من ذلك ، ومن أخر ذلك زمناً قليلاً كفر الله ذلك بما يبتليه به كما فعل بذي النون صلى الله عليه وسلم هـذا عـلى المشهور أن إلقاءه كان بعد النبوة ؛ وأما من قال إن إلقاءه كان قبل النبوة فلا يحتاج إلى هذا .

والتائب من الكفر والذنوب قد يكون أفضل ممن لم يقع فى الكفر والذنوب ؛ وإذا كان قد يكون أفضل ، فالأفضل أحق بالنبوة ممن ليس مثله فى الفضيلة ، وقد أخبر الله عن إخوة يوسف بما أخبر من ذنوبهم وهم الأسباط الذين نبأهم الله تعالى وقد قال تعـالى : (فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ) . فآمن لوط لإبراهيم عليه السلام ثم أرسله الله تعالى إلى قوم لوط وقد قال تعـالى فى قصة شعيب : (قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ * قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ)

وقال تعالى : (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ) .

وإذا عرف أن الاعتبار بكمال النهاية ، وهذا الـكمال إنما يحصـل بالتوبة والاستغفار ، ولا بد لـكل عبد مـن التوبة وهي واجبة عـلى الأولين والآخرين . كما قال تعالى : (لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا) .

وقد أخبر الله سبحانه بتوبة آدم ونوح ومن بعدهما إلى خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، وآخر ما نزل عليه ـــ أو من آخر ما نزل عليه ـــ قوله تعالى : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا). وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي » يتأول القرآن .

وقد أنزل الله عليه قبل ذلك : (لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) . وفى صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فوالذي نفسي بيده إنى لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » . وفى صحيح مسلم عن الأغر المزنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنه ليغان على قلبي وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » . وفى السنن عن ابن عمر أنه قال : كنا نعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس الواحد يقول : « رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور » مائة مرة .

وفى الصحيحين عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان

يقول : « اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي فى أمري وما أنت أعلم به مني ؛ اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي ، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني . أنت المقدم وأنت المؤخر ، وأنت على كل شيء قدير » . وفى الصحيحين عن أبي هريرة أنه قال : « يا رسول الله ! أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ماذا تقول ؟ قال : أقول : اللهم ! باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم ! نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والبرد والماء البارد » .

وفى صحيح مسلم وغيره أنه كان يقول : نحو هذا إذا رفع رأسه من الركوع ، وفى صحيح مسلم عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول فى دعاء الاستفتاح : « اللهم ! أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت » . وفى صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول فى سجوده : « اللهم ! اغفر لي ذنبي كله دقه وجله ، علانيته وسره ، أوله وآخره » .

وفى السنن عن على « أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بدابة ليركبها وأنه حمد الله وقال ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ ثم كبره وحمده ثم قال : سبحانك ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، ثم ضحك ! وقال إن الرب يعجب من عبده إذا قال اغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، يقول علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب إلا أنا » .

وقد قال تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ وثبت في الصحيحين فى حديث الشفاعة « أن المسيح يقول : اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » . وفى الصحيح « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم حتى ترم قدماه ، فيقال له : أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال أفلا أكون عبداً شكوراً » .

ونصوص الكتاب والسنة فى هذا الباب كثيرة متظاهرة والآثار فى ذلك عن الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين كثيرة .

لكن المنازعون يتأولون هذه النصوص من جنس تأويلات الجهمية والباطنية كما فعل ذلك من صنف فى هذا الباب . وتأويلاتهم تبين لمن

تدبرها إنها فاسدة من باب تحريف الكلم عن مواضعه . كتأويلهم قوله (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) المتقدم ذنب آدم والمتأخر ذنب أمته وهذا معلوم البطلان ويدل على ذلك وجوه :

(أحدها) أن آدم قد تاب الله عليه قبل أن ينزل إلى الأرض فضلاً عن عام الحديبية الذي أنزل الله فيه هذه السورة قال تعالى : (وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ) وقال : (فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ) وقد ذكر أنه قال : (رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ) .

و (الثاني) أن يقال : فآدم عندكم من جملة موارد النزاع ولا يحتاج أن يغفر له ذنبه عند المنازع فإنه نبي أيضاً ، ومن قال : إنه لم يصدر من الأنبياء ذنب يقول ذلك عن آدم ومحمد وغيرهما .

الوجه (الثالث) أن الله لا يجعل الذنب ذنباً لمن لم يفعله فإنه هو القائل : (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) . فمن الممتنع أن يضاف إلى محمد صلى الله عليه وسلم ذنب آدم صلى الله عليه وسلم أو أمته أو غيرهما . وقد قال تعالى : (فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ) وقال تعالى : (فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ) ولو جاز هذا لجاز

أن يضاف إلى محمد ذنوب الأنبياء كلهم ، ويقال : إن قوله (لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) المراد ذنوب الأنبيــاء وأممهم قبلك ، فإنه يوم القيامة يشفع للخلائق كلهم ، وهو سيد ولد آدم ، وقال : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر وآدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيــامة . أنا خطيب الأنبياء إذا وفدوا ، وإمامهم إذا اجتمعوا » وحينئذ فلا يختص آدم بإضافة ذنبه إلى محمد ، بل تجعل ذنوب الأولين والآخرين على قول هؤلاء ذنوباً له . فإن قال : إن الله لم يغفر ذنوب جميــع الأمم ، قيل : وهو أيضاً لم يغفر ذنوب جميع أمته .

(الوجه الرابــع) أنه قد ميز بــين ذنبه وذنوب المؤمنــين بقوله (وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ) فكيف يكون ذنب المؤمنين ذنباً له .

(الوجه الخامس) أنه ثبت فى الصحيــح أن هذه الآية لما نزلت قال الصحابة يا رسول الله ! هذا لك فما لنا فأنزل الله (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ) فدل ذلك على أن الرسول والمؤمنين علموا أن قوله (لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) مختص به دون أمته .

(الوجه السادس) أن الله لم يغفر ذنوب جميع أمته بل قد ثبت

أن من أمته من يعاقب بذنوبه إما فى الدنيا وإما فى الآخرة ، وهــذا مما تواتر به النقــل وأخبر به الصــادق المصدوق واتفق عليه سلف الأمــة وأئمتها ، وشوهد فى الدنيا من ذلك ما لا يحصيه إلا الله ، وقــد قال الله تعالى : (لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ) والاستغفار والتوبة قد يـكونان من ترك الأفضل . فمن نقــل إلى حال أفضل مما كان عليه قد يتوب من الحال الأول ؛ لكن الذم والوعيد لا يكون إلا على ذنب .

فصــــــل

وأما قول السائل : هل الاعتراف بالخطيئــة بمجرده مع التوحيد موجب لغفرانهــا وكـشف الكـربة الصادرة عنهــا ؛ أم يحتــاج إلى شيء آخر ؟ ؟

فجوابه : أن الموجب للغفران مع التوحيد هو التوبة المأمور بها ؛ فإن الشرك لا يغفره الله إلا بتوبة ؛ كما قال تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ) فى موضعين من القرآن وما دون الشرك فهو مع التوبة مغفور ؛ وبدون التوبة معلق بالمشيئة . كما قال تعالى : (قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ

إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا) فهذا فى حق التائبين ، ولهـذا
عمم وأطلق ، وحتم أنـه يغفر الذنوب جميعـاً ، وقال في تلك الآيـة :
(وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ) فخص مادون الشرك وعلقـه بالمشيئة
فإذا كان الشرك لا يغفر إلا بتوبة ؛ وأما ما دونه فيغفره الله للتائب ؛
وقد يغفره بدون التوبة لمن يشاء :

فالاعـتراف بالخطيئـة مع التوحيـد إن كان متضمنـاً للتوبـة
أوجب المغفرة ؛ وإذا غفر الذنب زالت عقوبتـه ؛ فـإن المغفرة هي
وقاية شر الذنب .

ومن النـاس من يقول الغفر الستر ، ويقول : إنمـا سمى المغفرة
والغفار لما فيه من معنى الستر ، وتفسير اسم الله الغفار بأنه الستار ،
وهذا تقصير فى معنى الغفر ؛ فإن المغفرة معناها وقاية شر الذنب بحيث
لا يعاقب عـلى الذنب فمن غفر ذنبـه لم يعاقب عليـه . وأما مجرد
ستره فقد يعاقب عليه فى الباطن ، ومن عوقب على الذنب باطناً أو
ظاهراً فلم يغفر له ، وإنمـا يكون غفران الذنب إذا لم يعـاقب عليـه
العقوبة المستحقة بالذنب .

وأمـا إذا ابتلى مع ذلك بما يكون سبباً فى حقه لزيادة أجره فهذا
لا ينافى المغفرة .

وكذلك إذا كان من تمام التوبة أن يأتى بحسنات يفعلها ، فإن من يشترط فى التوبة من تمام التوبة ؛ وقد يظن الظان أنه تائب ولا يكون تائباً بل يكون تاركا ، والتارك غير التائب ، فإنه قد يعرض عن الذنب لعدم خطوره بباله أو المقتضى لعجزه عنه ، أو تنتفى إرادته له بسبب غير ديني ، وهذا ليس بتوبة ، بل لا بد من أن يعتقد أنه سيئة ويكره فعله لنهى الله عنه ويدعه لله تعالى ؛ لا لرغبة مخلوق ولا لرهبة مخلوق ؛ فإن التوبة من أعظم الحسنات ؛ والحسنات كلها يشترط فيها الإخلاص لله وموافقة أمره ، كما قال الفضيل بن عياض فى قوله : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) قال أخلصه وأصوبه ، قالوا : يا أبا علي ! ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصاً لم يقبل ؛ حتى يكون خالصاً صوابا . والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول فى دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً .

وبسط الكلام فى التوبة له موضع آخر .

وأما الاعتراف بالذنب على وجه الخضوع لله من غير إقلاع عنه فهذا فى نفس الاستغفار المجرد الذي لا توبة معه ، وهو كالذي يسأل

الله تعـالى أن يغفر له الذنب مع كونه لم يتب منه ، وهـذا يأس من رحمة الله ، ولا يقطع بالمغفرة له فإنه داع دعوة مجردة . وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليـه وسلم أنه قـال : « ما من داع يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعـة رحم إلا كان بـين إحدى ثـلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخر له من الجزاء مثلهـا ؛ وإمـا أن يصرف عنه من الشر مثلهـا . قالوا : يارسول الله : إذاً نكثر قـال الله أكثر » فمثل هذا الدعاء قـد تحصل معه المغفرة وإذا لم تحصل فلا بد أن يحصل معـه صرف شر آخر أو حصول خير آخر ، فهو نافع كما ينفع كل دعاء .

وقول من قال من العلماء : الاستغفار مع الإصرار توبة الكذابين ، فهذا إذا كان المستغفر يقوله على وجـه التوبة أو يدعى أن استغفـاره توبة ، وأنه تائب بهذا الاستغفار فلا ريب أنه مع الإصرار لا يـكون تائبـاً ، فإن التوبة والإصرار ضـدان : الإصرار يضـاد التوبة ، لكن لا يضاد الاستغفار بدون التوبة .

وقول القائل : هل الاعتراف بالذنب المعين يوجب دفع ما حصل بذنوب متعددة أم لا بد من استحضار جميع الذنوب ؟

فجواب هذا مبنى على أصول :

(أحدهما) أن التوبة تصح من ذنب مع الإصرار على ذنب آخر إذا كان المقتضي للتوبة من أحدهما أقوى من المقتضى للتوبة من الآخر ، أو كان المانع من أحدهما أشد ، وهذا هو القول المعروف عند السلف والخلف .

وذهب طائفة من أهل الكلام كأبى هاشم إلى أن التوبة لا تصح من قبيح مع الإصرار على الآخر ، قالوا : لأن الباعث على التوبة إن لم يكن من خشية الله لم يكن توبة صحيحة ، والخشية مانعة من جميع الذنوب لا من بعضها ، وحكى القاضي أبو يعلى وابن عقيل هذا رواية عن أحمد ، لأن المروذي نقل عنه أنه سئل عمن تاب من الفاحشة وقال : لو مرضت لم أعد لكن لا يدع النظر ، فقال أحمد : أي توبة ذه ؟! قال جرير بن عبد الله سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة فقال : « اصرف بصرك »

والمعروف عن أحمد وسائر الأئمة هو القول بصحة التوبة ، وأحمد فى هذه المسألة إنما أراد أن هذه ليست توبة عامة يحصل بسببها من التائبين توبة مطلقاً ، لم يرد أن ذنب هذا كذنب المصر على الكبائر ، فإن نصوصه المتواترة عنه وأقواله الثابتة تنافى ذلك ، وحمل كلام الإمام على ما يصدق بعضه بعضاً أولى من حمله على التناقض ، لاسيما إذا كان القول الآخر مبتدعا لم يعرف عن أحد من السلف ، وأحمد يقول :

إياك أن تتكلم فى مسألة ليس لك فيها إمام ، وكان فى المحنة يقول : كيف أقول مالم يقل ؟ واتباع أحمد للسنة والآثار وقوة رغبته فى ذلك ، وكراهته لخلافه من الأمور المتواترة عنه يعرفها من يعرف حاله من الخاصة والعامة .

وما ذكروه من أن الخشية توجب العموم .

فجوابه أنه قد يعلم قبح أحد الذنبين دون الآخر ، وإنما يتوب مما يعلم قبحه .

و (أيضاً) فقد يعلم قبحها ولكن هواه يغلبه فى أحدهما دون الآخر فيتوب من هذا دون ذاك ، كمن أدى بعض الواجبات دون بعض ؛ فإن ذلك يقبل منه .

ولكن المعتزلة لهم أصل فاسد وافقوا فيه الخوارج فى الحكم وإن خالفوهم في الاسم ، فقالوا : إن أصحاب الكبائر يخلدون فى النار ولا يخرجون منها بشفاعة ولا غيرها ، وعندهم يمتنع أن يكون الرجل الواحد ممن يعاقبه الله ثم يثيبه ؛ ولهذا يقولون : بحبوط جميع الحسنات بالكبيرة .

وأما الصحابة وأهل السنة والجماعة فعلى أن أهل الكبائر يخرجون

من النار ويشفع فيهم ، وأن الكبيرة الواحدة لا تحبط جميع الحسنات ؛ ولكن قد يحبط مايقابلها عند أكثر أهل السنة ، ولا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر ، كما لا يحبط جميع السيئات إلا التوبة ، فصاحب الكبيرة إذا أتى بحسنات يبتغي بها رضا الله أثابه الله على ذلك ، وإن كان مستحقا للعقوبة على كبيرته .

وكتاب الله عز وجل يفرق بين حكم السارق والزاني وقتال المؤمنين بعضهم بعضاً ، وبين حكم الكفار فى « الأسماء ، والأحكام » . والسنة المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم وإجماع الصحابة يدل على ذلك ، كما هو مبسوط فى غير هذا الموضع .

وعلى هذا تنازع الناس فى قوله : (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ) فعلى قول الخوارج والمعتزلة لاتقبل حسنة إلا ممن اتقاه مطلقاً فلم يأت كبيرة ، وعند المرجئة إنما يتقبل ممن اتقى الشرك ، فجعلوا أهل الكبائر داخلين في اسم « المتقين » وعند أهل السنة والجماعة يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه فعمله خالصاً لله موافقاً لأمر الله ، فمن اتقاه في عمل تقبله منه ، وإن كان عاصياً فى غيره . ومن لم يتقه فيه لم يتقبله منه وإن كان مطيعاً في غيره .

والتوبة من بعض الذنوب دون بعض كفعل بعض الحسنات المأمور

بها دون بعض إذا لم يكن المتروك شرطاً في صحة المفعول كالإيمان المشروط في غيره من الأعمال ، كما قال الله تعالى : (وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا) وقال تعالى : (وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ) وقال : (وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ).

(الأصل الثانى) أن من له ذنوب فتاب من بعضها دون بعض فإن التوبة إنما تقتضي مغفرة ماتاب منه أما مالم يتب منه فهو باق فيه على حكم من لم يتب ، لا على حكم من تاب ، وما علمت فى هذا نزاعا إلا فى الكافر إذا أسلم ، فإن إسلامه يتضمن التوبة من الكفر فيغفر له بالإسلام الكفر الذي تاب منه ، وهل تغفر له الذنوب التى فعلها فى حال الكفر ولم يتب منها في الإسلام ؟ هذا فيه قولان معروفان .

(أحدهما) يغفر له الجميع ، لإطلاق قوله صلى الله عليه وسلم : « الإسلام يهدم ما كان قبله » رواه مسلم . مع قوله تعالى (قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ) .

(والقول الثانى) أنه لا يستحق أن يغفر له بالإسلام إلا ما تاب منه ؛

فإذا أسلم وهو مصر على كبائر دون الكفر فحكمه فى ذلك حكم أمثاله من أهل الكبائر ، وهذا القول هو الذي تدل عليه الأصول والنصوص ؛ فإن فى الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم : « قال له حكيم بن حزام : يا رسول الله ! أنؤاخذ بما عملنا فى الجاهلية ؟ فقال : من أحسن منكم فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر » فقد دل هذا النص على أنه إنما ترفع المؤاخذة بالأعمال التى فعلت فى حال الجاهلية عمن أحسن لاعمن لا يحسن ؛ وإن لم يحسن أخذ بالأول والآخر ، ومن لم يتب منها فلم يحسن .

وقوله تعالى : (قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ) يدل على أن المنتهى عن شيء يغفر له ما قد سلف منه ، لا يدل على أن المنتهي عن شيء يغفر له ما سلف من غيره ؛ وذلك لأن قول القائل لغيره : إن انتهيت غفرت لك ما تقدم ، ونحو ذلك يفهم منه عند الإطلاق أنك إن انتهيت عن هذا الأمر غفر لك ما تقدم منه ، وإذا انتهيت عن شيء غفر لك ما تقدم منه ، كما يفهم مثل ذلك فى قوله : « إن تبت » ، لا يفهم منه أنك بالانتهاء عن ذنب يغفر لك ما تقدم من غيره .

وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم : « الإسلام يهدم ما قبله » وفى رواية « يجب ما كان قبله » فهذا قاله لما أسلم عمرو بن العاص وطلب

أن يغفر له ما تقدم من ذنبه فقال له : « يا عمرو أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن التوبة تهدم ما كان قبلها ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها » ومعلوم أن التوبة إنما توجب مغفرة ما تاب منه ، لا توجب التوبة غفران جميع الذنوب .

(الأصل الثالث) أن الإنسان قد يستحضر ذنوبا فيتوب منها وقد يتوب توبة مطلقة لا يستحضر معها ذنوبه ، لكن إذا كانت نيته التوبة العامة فهي تتناول كل ما يراه ذنباً ؛ لأن التوبة العامة تتضمن عزماً عاماً بفعل المأمور وترك المحظور ، وكذلك تتضمن ندماً عاماً على كل محظور .

و « الندم » سواء قيل : إنه من باب الاعتقادات ، أو من باب الإرادات ، أو قيل : إنه من باب الآلام التى تلحق النفس بسبب فعل ما يضرها ؛ فإذا استشعر القلب أنه فعل ما يضره ، حصل له معرفة بأن الذي فعله كان من السيئات ، وهذا من باب الاعتقادات ، وكراهية لما كان فعله ، وهو من جنس الإرادات ؛ وحصل له أذى وغم لما كان فعله ؛ وهذا من باب الآلام ، كالغموم والأحزان ، كما أن الفرح والسرور هو من باب اللذات ليس هو من باب الاعتقادات والإرادات .

ومن قال من المتفلسفة ومن اتبعهم : إن اللذة هى إدراك الملائم

من حيث هو ملائم ، وأن الألم هو إدراك المنافر من حيث هو منافر فقد غلط فى ذلك . فإن اللذة والألم حالان يتعقبان إدراك الملائم والمنافر فإن الحب لما يلائمه ، كالطعام المشتهى مثلا له ثلاثة أحوال :

(أحدها) الحب ، كالشهوة للطعام .

و (الثانى) إدراك المحبوب ، كأكل الطعام .

و (الثالث) : اللذة الحاصلة بذلك ، واللذة أمر مغاير للشهوة ولذوق المشتهى ؛ بل هي حاصلة لذوق المشتهي ؛ ليست نفس ذوق المشتهى .

وكذلك « المكروه » كالضرب مثلا . فإن كراهته شيء ، وحصوله شيء آخر ، والألم الحاصل به ثالث .

وكذلك ما للعارفين أهل محبة الله من النعيم والسرور بذلك ؛ فإن حبهم لله شيء ، ثم ما يحصل من ذكر المحبوب شيء ، ثم اللذة الحاصلة بذلك أمر ثالث ، ولا ريب أن الحب مشروط بشعور المحبوب ، كما أن الشهوة مشروطة بشعور المشتهى ؛ لكن الشعور المشروط فى اللذة غير الشعور المشروط فى المحبة ، فهذا الثاني يسمى إدراكا وذوقا ونيلاً ووجداً ووصالاً ، ونحو ذلك مما يعبر به عن إدراك المحبوب ،

سواء كان بالباطن أو الظاهر ، ثم هـذا الذوق يستلزم اللذة ، واللذة أمر يحسه الحي باطناً وظاهراً .

وقـد قال النبي صلى الله عليـه وسلم فى الحديث الصحيح « ذاق طعمَ الإيمـان من رضي بالله رباً ، وبالإسلام دينـاً ، وبمحمد صلى الله عليه وسـلم نبياً » وفى الصحيحين عنه صلى الله عليـه وسلم أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمـان : من كان الله ورسوله أحب إليه من سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبـه إلا لله ، ومن كان يـكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منـه كما يـكره أن يلقى فى النـار »

فبين صلى الله عليه وسـلم أن ذوق طعم الإيمان لمن رضي بالله ربّـاً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، وإن وجد حلاوة الإيمـان حاصل لمن كان حبه لله ورسوله أشد من حبه لغيرهما ، ومن كان يحب شخصـاً لله لا لغيره ، ومن كان يـكره ضد الإيمان ، كما يـكره أن يلقى فى النار ؛ فهذا الحب للإيمان . والكراهية للـكفر استلزم حلاوة الإيمـان ، كما استلزم الرضى المتقدم ذوق طعم الإيمـان ، وهذا هو اللذة ؛ وليس هو نفس التصديق والمعرفة الحاصلة فى القلب ، ولا نفس الحب الحاصل فى القلب ؛ بل هذا نتيجة ذاك وثمرته ولازم له ، وهي أمور متلازمة ، فلا توجد اللذة إلا بحب وذوق ، وإلا فمن أحب شيئاً ولم يذق منه

شيئاً لم يجد لذة ، كالذي يشتهي الطعام ولم يذق منه شيئاً ، ولو ذاق ما لا يحبه لم يجد لذة ، كمن ذاق مالا يريده ، فإذا اجتمع حب الشيء وذوقه حصلت اللذة بعد ذلك .

وإن حصل بغضه وذوق البغيض حصل الألم ، فالذي يبغض الذنب ولا يفعله لا يندم ، والذي لا يبغضه لا يندم على فعله ، فإذا فعله وعرف أن هذا مما يبغضه وبضره ندم على فعله إياه . وفي المسند عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الندم توبة » .

إذا تبين هذا . فمن تاب توبة عامة كانت هذه التوبة مقتضية لغفران الذنوب كلها ، وإن لم يستحضر أعيان الذنوب إلا أن يعارض هذا العام معارض يوجب التخصيص ، مثل أن يكون بعض الذنوب لو استحضره لم يتب منه ؛ لقوة إرادته إياه أو لاعتقاده أنه حسن ليس بقبيح ، فما كان لو استحضره لم يتب منه لم يدخل في التوبة ، وأما ما كان لو حضر بعينه لكان مما يتوب منه فإن التوبة العامة شاملته .

وأما « التوبة المطلقة » : وهي أن يتوب توبة مجملة ، ولا تستلزم التوبة من كل ذنب ، فهذه لا توجب دخول كل فرد من أفراد الذنوب فيها ولا تمنع دخوله كاللفظ المطلق ؛ لكن هذه تصلح أن تكون سبباً لغفران المعين . كما تصلح أن تكون سبباً لغفران الجميع ؛ بخلاف

العامة فإنها مقتضية للغفران العام ، كما تناولت الذنوب تناولاً عاماً .

وكثير من الناس لا يستحضر عند التوبة إلا بعض المتصفات بالفاحشة أو مقدماتها أو بعض الظلم باللسان أو اليد ، وقد يكون ما تركه من المأمور الذي يجب لله عليه في باطنه وظاهره من شعب الإيمان وحقائقه أعظم ضرراً عليه مما فعله من بعض الفواحش ، فإن ما أمر الله به من حقائق الإيمان التى بها يصير العبد من المؤمنين حقاً أعظم نفعاً من نفع ترك بعض الذنوب الظاهرة ، كحب الله ورسوله ؛ فإن هذا أعظم الحسنات الفعلية حتى ثبت فى الصحيح « أنه كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم رجل يدعى حماراً ، وكان يشرب الخمر ، وكان كلما أتي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم جلده الحد ، فلما كثر ذلك منه أتى به مرة فأمر بجلده فلعنه رجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله » .

فنهى عن لعنه مع إصراره على الشرب لكونه يحب الله ورسوله ، مع أنه صلى الله عليه وسلم لعن فى الخمر عشرة : «لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيها وحاملها والمحمولة إليه، وبائعها ومبتاعها وآكل ثمنها» .

ولكن لعن المطلق لا يستلزم لعن المعين الذي قام به ما يمنع لحوق اللعنة له .

وكذلك « التكفير المطلق » و « الوعيد المطلق ». ولهذا كان الوعيد المطلق فى الكتاب والسنة مشروطاً بثبوت شروط وانتفاء موانع، فلا يلحق التائب من الذنب باتفاق المسلمين، ولا يلحق من له حسنات تمحو سيئاته، ولا يلحق المشفوع له، والمغفور له؛ فإن الذنوب تزول عقوبتها التى هي جهنم بأسباب التوبة والحسنات الماحية والمصائب المكفرة — لكنها من عقوبات الدنيا — وكذلك ما يحصل فى البرزخ من الشدة، وكذلك ما يحصل فى عرصات القيامة، وتزول أيضاً بدعاء المؤمنين: كالصلاة عليه وشفاعة الشفيع المطاع، كمن يشفع فيه سيد الشفعاء محمد صلى الله عليه وسلم تسليماً.

وحينئذ فأي ذنب تاب منه ارتفع موجبه، وما لم يتب منه فله حكم الذنوب التى لم يتب منها. فالشدة إذا حصلت بذنوب وتاب من بعضها خفف منه بقدر ما تاب منه، بخلاف ما لم يتب منه؛ بخلاف صاحب التوبة العامة.

والناس فى غالب أحوالهم لا يتوبون توبة عامة مع حاجتهم إلى ذلك فإن التوبة واجبة على كل عبد فى كل حال؛ لأنه دائماً يظهر له ما فرط فيه من ترك مأمور أو ما اعتدى فيه من فعل محظور، فعليه أن يتوب دائماً. والله أعلم.

وأما قول السائل : ما السبب فى أن الفرج يأتى عند انقطاع الرجاء عن الخلق ؟ وما الحيلة فى صرف القلب عن التعلق بهم وتعلقه بالله ؟

فيقال : سبب هذا تحقيق التوحيد : « توحيد الربوبية » ، و « توحيد الإلهية » .

« فتوحيد الربوبية » أنه لا خالق إلا الله ، فلا يستقل شيء سواه بإحداث أمر من الأمور ؛ بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ؛ فكل ما سواه إذا قدر سبباً فلا بد له من شريك معاون وضد معوق ، فإذا طلب مما سواه إحداث أمر من الأمور طلب منه ما لا يستقل به ولا يقدر وحده عليه ، حتى ما يطلب من العبد من الأفعال الاختيارية لايفعلها إلا بإعانة الله له ، كأن يجعله فاعلاً لها بما يخلقه فيه من الإرادة الجازمة ويخلقه له من القدرة التامة ، وعند وجود القدرة التامة والإرادة الجازمة يجب وجود المقدور .

فمشيئة الله وحده مستلزمة لكل ما يريده ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وما سواه لا تستلزم إرادته شيئاً ؛ بل ما أراده لا يكون إلا بأمور خارجة عن مقدوره إن لم يعنه الرب بها لم يحصل مراده ، ونفس إرادته لا تحصل إلا بمشيئة الله تعالى . كما قال تعالى : (لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ) وقال

تعالى : (فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) وقال : (فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ) .

والراجي لمخلوق طالب بقلبه لما يريده من ذلك المخلوق وذلك المخلوق عاجز عنه ، ثم هذا من الشرك الذي لا يغفره الله ، فمن كمال نعمته وإحسانه إلى عباده المؤمنين أن يمنع حصول مطالبهم بالشرك حتى يصرف قلوبهم إلى التوحيد ، ثم إن وحده العبد توحيد الإلهية حصلت له سعادة الدنيا والآخرة .

وإن كان ممن قيل فيه : (وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) وفي قوله : (وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا) كان ما حصل له من وحدانيته حجة عليه .

كما احتج سبحانه على المشركين الذين يقرون بأنه خالق كل شيء ثم يشركون ولا يعبدونه وحده لا شريك له ، قال تعالى : (قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ

* قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ) وقال تعالى: (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ)

وهذا قد ذكر فى القرآن فى غير موضع .

فمن تمام نعمة الله على عباده المؤمنين أن ينزل بهم الشدة والضر وما يلجئهم إلى توحيده فيدعونه مخلصين له الدين ويرجونه لا يرجون أحداً سواه ، وتتعلق قلوبهم به لا بغيره ، فيحصل لهم من التوكل عليه والإنابة إليه ، وحلاوة الإيمان وذوق طعمه ، والبراءة من الشرك ما هو أعظم نعمة عليهم من زوال المرض والخوف، أو الجدب ، أو حصول اليسر وزوال العسر فى المعيشة ، فإن ذلك لذات بدنية ونعم دنيوية قد يحصل للكافر منها أعظم مما يحصل للمؤمن .

وأما ما يحصل لأهل التوحيد المخلصين لله الدين فأعظم من أن يعبر عن كنهه مقال ، أو يستحضر تفصيله بال ، ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر إيمانه ، ولهذا قال بعض السلف : يا ابن آدم ! لقد بورك لك فى حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك . وقال بعض الشيوخ : إنه ليكون لي إلى الله حاجة فأدعوه فيفتح لي من لذيذ معرفته وحلاوة مناجاته ما لا أحب معه أن يعجل قضاء حاجتى خشية أن تنصرف نفسي

عن ذلك ؛ لأن النفس لا تريد إلا حظها فإذا قضى انصرفت . وفى بعض الإسرائيليات يا ابن آدم ! البلاء يجمع بينى وبينك والعافية تجمع بينك وبين نفسك .

وهذا المعنى كثير ، وهو موجود مذوق محسوس بالحس الباطن للمؤمن ، وما من مؤمن إلا وقد وجد من ذلك ما يعرف به ما ذكرناه ، فإن ذلك من باب الذوق والحس لا يعرفه إلا من كان له ذوق وحس بذلك .

ولفظ « الذوق » وإن كان قد يظن أنه فى الأصل مختص بذوق اللسان فاستعماله فى الكتاب والسنة يدل على أنه أعم من ذلك مستعمل فى الإحساس بالملائم والمنافر ، كما أن لفظ « الإحساس » فى عرف الاستعمال عام فيما يحس بالحواس الخمس ، بل وبالباطن .

وأما فى اللغة فأصله « الرؤية » كما قال : (هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ) .

و (المقصود) لفظ « الذوق » قال تعالى : (فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ) فجعل الخوف والجوع مذوقاً ؛ وأضاف إليهما اللباس ليشعر أنه لبس الجائع والخائف فشمله وأحاط به إحاطة اللباس باللابس ؛

بخلاف من كان الألم لا يستوعب مشاعره بل يختص ببعض المواضـع ، وقال تعالى : (فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ) وقال تعالى : (ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ) وقال تعالى : (ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ) وقال : (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ) وقال تعالى : (لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا) وقال : (وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ) وقد قال النبي صلى الله عليـه وسلم « ذاق طعمَ الإيمـان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً » .

فاستعمال لفظ « الذوق » في إدراك الملائم والمنافر كثير . وقـال النبي صلى الله عليه وسـلم : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان » كما تقدم ذكر الحديث . فوجود المؤمن حلاوة الإيمان فى قلبه وذوق طعم الإيمان أمر يعرفه من حصل له هذا الوجد .

وهذا الذوق ، أصحابه فيه يتفاوتون ، فالذي يحصل لأهل الإيمان عند تجريد توحيد قلوبهم إلى الله وإقبالهـم عليه دون ما سواه بحيث يكونون حنفاء له مخلصـين له الدين ، لا يحبون شيئـاً إلا له ، ولا يتوكلون إلا عليه ، ولا يوالون إلا فيه ، ولا يعادون إلا له ولا يسألون إلا إياه ، ولا يرجون إلا إياه ، ولا يخافون إلا إياه ، يعبدونه ويستعينون له وبه ، بحيث يكونون عند الحق بلا خلق ، وعند الخلق بلا هوى ؛ قد فنيت عنهم إرادة ما سواه بإرادته ، ومحبة ما سواه بمحبته ، وخوف

ما سواه بخوفه ، ورجاء ما سواه برجائه ، ودعاء ما سواه بدعائه ، هو أمر لا يعرفه بالذوق والوجد إلا من له نصيب ، وما من مؤمن إلا له منه نصيب .

وهذا هو حقيقة الإسلام الذي بعث الله به الرسل ، وأنزل به الكتب وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه . والله سبحانه أعلم .

قال شيخ الإسلام

رحمه الله تعالى

فصل

« الفناء » الذي يوجد فى كلام الصوفية يفسر بثلاثة أمور .

(أحدها) : فناء القلب عن إرادة ماسوى الرب ، والتوكل عليه وعبادته ، وما يتبع ذلك ، فهذا حق صحيح وهو محض التوحيد والإخلاص ، وهو فى « الحقيقة » عبادة القلب ، وتوكله ، واستعانته ، وتألهه وإنابته ، وتوجهه إلى الله وحده لاشريك له ، وما يتبع ذلك من المعارف والأحوال . وليس لأحد خروج عن هذا .

وهذا هو « القلب السليم » الذي قال الله فيه : (إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) وهو سلامة القلب عن الاعتقادات الفاسدة . والإرادات الفاسدة ، وما يتبع ذلك .

وهذا « الفناء » لا ينافيه البقاء ؛ بل يجتمع هو والبقاء فيكون العبد فانياً عن إرادة ما سواه ، وإن كان شاعراً بالله وبالسوى ، وترجمته قول لا إله إلا الله ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة ، وله الفضل ، وله الثناء الحسن » وهذا فى « الجملة » هو أول الدين وآخره .

(الأمر الثانى) : فناء القلب عن شهود ماسوى الرب ، فذاك فناء عن الإرادة ، وهذا فناء عن الشهادة . ذاك فناء عن عبادة الغير والتوكل عليه ، وهذا فناء عن العلم بالغير والنظر إليه ، فهذا الفناء فيه نقص ؛ فإن شهود الحقائق على ما هي عليه ، وهو شهود الرب مدبراً لعباده ، آمراً بشرائعه ، أكمل من شهود وجوده ، أو صفة من صفاته ، أو اسم من أسمائه ، والفناء بذلك عن شهود ما سوى ذلك .

ولهذا كان الصحابة أكمل شهوداً من أن ينقصهم شهود للحق مجملاً عن شهوده مفصلا ، ولكن عرض كثير من هذا لكثير من المتأخرين من هذه الأمة . كما عرض لهم عند تجلى بعض الحقائق : الموت والغشي والصياح والاضطراب ، وذلك لضعف القلب عن شهود الحقائق على ماهي عليه ، وعن شهود التفرقة فى الجمع ، والكثرة فى الوحدة ، حتى اختلفوا فى إمكان ذلك ، وكثير منهم يرى أنه لا يمكن سوى ذلك لما رأى أنه إذا ذكر الخلق أو الأمر اشتغل عن الخالق الآمر . وإذا عورض بالنبى

صلى الله عليــه وسـلم وخلفائه ادعى الاختصاص ، أو أعرض عن الجواب أو تحير في الأمر .

وسبب ذلك أنه قاس جميع الخلق على ما وجده من نفسه ؛ ولهذا يقول بعض هؤلاء : إنه لا يمكن حين تجلي الحق سماع كلامه ، ويحكى عن ابن عربي أنه لما ذكر له عن الشيخ شهاب الدين السهروردي أنــه جوز اجتماع الأمرين . قال : نحن نقول له عن شهود الذات وهو يخبرنا عن شهود الصفات ، والصواب مع شهاب الدين . فإنه كان صحيح الاعتقاد فى امتياز الرب عن العبد . وإنما بنى ابن عربى عــلى أصله الكفرى فى أن الحق هو الوجود الفائض على الممكنات ، ومعــلوم أن شهود هـذا لا يقع فيه خطاب ، وإنما الخطاب فى مقام العقل [١] .

وفي هذا الفناء قد يقول : أنا الحق ، أو سبحانى ، أو ما في الجبة إلا الله ، إذا فني بمشهوده عن شهوده ، وبموجوده عن وجوده . وبمذكوره عن ذكره ، وبمعروفه عن عرفانـه . كما يحكون أن رجلا كان مستغرقا في محبة آخر ، فوقع المحبوب فى اليم فألقى الآخر نفسه خلفه ، فقال ما الذي أوقعك خلفي ؟ فقال : غبت بك عني فظننت أنك أنى .

وفى مثل هــذا المقام يقع السكر الذي يسقط التميز مـع وجود

---

(١) هذه الـكلمة غير متضحة في خط المؤلف لخرم الأصل

حلاوة الإيمان ، كما يحصل بسكر الخمر ، وسكر عشيق الصور . وكذلك قـد يحصل الفناء بحـال خوف أو رجاء ، كما يحصل بحال حب فيغيب القلب عن شهود بعض الحقائق ويصدر منـه قول أو عمل من جنس أمـور السكارى وهي شطحات بعض المشايخ : كقـول بعضهم : أنصب خيمتي على جهنم ، ونحو ذلك من الأقوال والأعمال المخالفة للشرع ؛ وقد يكون صاحبها غير مأثوم ، وإن لم يكن فيشبه هذا الباب أمر خفراء العدو ومن يعين كافراً أو ظالماً بحال ويزعم أنه مغلوب عليه . ويحكم [على] هؤلاء أن أحدهم إذا زال عقله بسبب غير محرم فلا جناح عليهم فيما يصدر عنهـم من الأقوال والأفعال المحرمـة بخلاف ما إذا كان سبب زوال العقل والغلبة أمراً محرما .

وهذا كما قلنا فى عقلاء المجانين والمولهين ، الذين صار ذلك لهـم مقاما دائماً كما أنه يعرض لهؤلاء فى بعض الأوقات ، كما قال بعض العلماء ذلك فى من زال عقـله حتى ترك شيئاً من الواجبات . إن كان زواله بسبب غير محرم مثل الإغماء بالمرض أو أسقى مكرها شيئاً يزيل عقله فلا إثم عليه ، وإن زال بشرب الخمر ونحو ذلك من الأحوال المحرمة أثم بترك الواجب ، وكذلك الأمر فى فعل المحرم .

وكما أنه لا جناح عليهـم فلا يجوز الاقتداء بهم ولا حمـل كلامهم وفعالهم على الصحـة بل هم في الخاصة مثل الغافل والمجنون فى التـكاليف

الظاهرة ؛ وقال فيهم بعض العلماء هؤلاء قوم أعطاهم الله عقولاً وأحوالاً فسلب عقولهم وترك أحوالهم وأسقط مافرض بما سلب .

ولهذا اتفق العارفون على أن حال البقاء أفضل من ذلك ، وهو شهود الحقائق بإشهاد الحق ، كما قال الله تعالى فيما روى عنه رسوله : « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه . فبي يسمع وبي يبصر ، وبي يبطش وبي يمشي » وفي رواية « وبى ينطق ، وبى يعقل » فإذا سمع بالحق ورأى به سمع الأمر على ماهو عليه وشهد الحق على ما هو عليه .

وعامة ما تجده فى كتب أصحاء الصوفية مثل شيخ الإسلام ومن قبله من الفناء هو هذا ، مع أنه قد يغلط بعضهم فى بعض أحكامه كما تكلمت عليه في غير هذا الموضع .

وفى الجملة فهذا الفناء صحيح وهو فى عيسوية المحمدية ، وهو شبيه بالصعق والصياح الذي حدث فى التابعين . ولهذا يقع كثير من هؤلاء فى نوع ضلال ؛ لأن الفناء عن شهود الحقائق مرجعه إلى عدم العلم والشهود . وهو وصف نقص لا وصف كمال ، وإنما يمدح من جهة

عدم إرادة ما سواه ؛ لأن ذكر المخلوق قد يدعو إلى إرادته والفتنة به

ولهذا غالب عباد « العيسوية » فى عدم العلم بالسوى ، وإرادته والفتنة به ، ويوصفون بسلامة القلوب . وغالب علماء « الموسوية » في العلم بالسوى وإرادته والفتنة به ، ويوصفون بالعلم ؛ لكن الأولون موصفون بالجهل والعدل . والآخرون موصفون بالظلم (١) وكلاهما صحيح .

فأما العلم بالحق والخالق ، وإرادة الله وحده لاشريك له فهذا نعت المحمدية الكاملون فى العلم والإرادة ، وسلامة القلب المحمودة ، هي سلامة (١) إذ الجهل لا يكون بنفسه صفة مدح . إلا أنه قد يمدح لسلامته به عن الشرور ؛ فإن أكثر النفوس إذا عرفت الشر الذي تهواه اتبعته أو فزعت منه أو فتنها .

(الثالث) : فناء عن وجود السوى : بمعنى أنه يرى أن الله هو الوجود ، وأنه لا وجود لسواه ، لا به ولا بغيره ، وهذا القول والحال للاتحادية الزنادقة من المتأخرين كالبليانى والتلمساني والقونوني ونحوهم الذين يجعلون الحقيقة أنه عين الموجودات وحقيقة الكائنات ، وأنه

---

(١) خرم فى الأصل .

لا وجود لغيره ؛ لا بمعنى أن قيـام الأشياء به ووجودهـا به ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم [أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد]

ألا كل شيء ما خـلا الله باطل .

وكما قيل فى قوله : (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) فإنهم لو أرادوا ذلك لـكان ذلك هو الشهود الصحيح ؛ لكنهم يريدون أنه هو عين الموجودات ، فهذا كفر وضلال ربما تمسك أصحابه بألفاظ متشابهة توجد فى كلام بعض المشايخ . كما تمسك النصارى بألفاظ متشابهة تروى عن المسيح . ويرجعون إلى وجد فاسد أو قياس فاسد . فتدبر هذا التقسيم فإنه بيان الصراط المستقيم .

وقال شيخ الإسلام

قدس الله روحه

فصل[1]

« الأمر والنهي » الذي يسميه بعض العلماء « التكليف الشرعي » هو مشروط بالممكن من العلم والقدرة ، فلا تجب الشريعة على من لا يمكنه العلم كالمجنون والطفل ، ولا تجب على من يعجز كالأعمى والأعرج والمريض فى الجهاد ؛ وكما لا تجب الطهارة بالماء ، والصلاة قائماً والصوم ، وغير ذلك على من يعجز عنه .

سواء قيل : يجوز تكليف ما لا يطاق أو لم يجز ؛ فإنه لا خلاف أن تكليف العاجز الذي لا قدرة له على الفعل بحال غير واقع في

---

(١) يقول المؤلف : « هذا الفصل يتعلق بما قبله ، ويتعلق بما كتبته [أى في المسودة] في حال الفناء قبل هـذا .

الشريعة ، بل قد تسقط الشريعة التكليف عمن لم تكمل فيه أداة العلم والقدرة تخفيفاً عنه ، وضبطاً لمناط التكليف ، وإن كان تكليفه ممكناً كما رفع القلم عن الصبي حتى يحتلم ، وإن كان له فهم وتمييز ؛ لكن ذاك لأنه لم يتم فهمه ؛ ولأن العقل يظهر فى الناس شيئاً فشيئاً ؛ وهم يختلفون فيه ، فلما كانت الحكمة خفية ومنتشرة قيدت بالبلوغ .

وكما لا يجب الحج إلا على من ملك زاداً وراحلة عند جمهور العلماء ؛ مع إمكان المشي لما فيه من المشقة ، وكما لا يجب الصوم على المسافر مع إمكانه منه تخفيفاً عليه ، وكما تسقط الواجبات بالمرض الذي يخاف معه زيادة المرض وتأخر البرء ، وإن كان فعلها ممكناً .

لكن هذه المواضع هي مما تختلف فيها الشرائع ؛ فقد يوجب الله فى شريعة ما يشق ، ويحرم ما يشق تحريمه : كالآصار والأغلال التى كانت على بني اسرائيل ، وقد يخفف فى شريعة أخرى كما قال المؤمنون: (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا) وكما قال الله تعالى : (يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ) وقال (مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ) وقال : (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) وقال : (يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه فى قصة الأعرابي : « إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » وقال لمعاذ وأبي موسى : « يسرا ولا تعسرا » وقال : « إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » وقال : « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم فإن أقواماً شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات ، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » وقال : « لا رهبانية فى الإسلام » وقال « لكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتزوج النساء وآكل اللحم ، فمن رغب عن سنتى فليس مني » وقال : « إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته » وروى عنه أنه قال : « بعثت بالحنيفية السمحة » .

وأما كون الإنسان مريداً لما أمر به أو كارهاً له فهذا لا تلتفت إليه الشرائع ، بل ولا أمر عاقل ، بل الإنسان مأمور بمخالفة هواه .

و « الإرادة » هي الفارقة بين أهل الجنة وأهل النار ، كما قال تعالى : (مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا) وقال تعالى : (تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا) وقال تعالى : (مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا) الآية

وقال تعالى : (وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ) ونظائره كثيرة .

فإن هذه الأصول ممهدة فى الكتاب والسنة ، وكلام العلماء والعارفين ، وليس الغرض هنا تقريرها .

وإنما الغرض شيء آخر ، وهو أنه إذا كان التكليف مشروطاً بالتمكن من العلم الذي أصله العقل ، وبالقدرة على الفعل فنقول : كل من هذين قد يزول بأسباب محظورة ، وبأسباب غير محظورة ، فإذا أزال عقله بشرب الخمر أو البنج ونحوهما لم يزل عنه بذلك إثم بما يتركه من الواجبات ويفعله من المحرمات ، إذا كان السكر يقتضي ذلك ؛ بخلاف ما إذا زال بسبب غير محرم ، كالإغماء لمرض أو خوف أو سكر بشرب غير محرم ، مثل أن يجرع الخمر مكرهاً ، فإن هذا لا إثم عليه .

وأما قضاء الصلاة عليه عند أحمد وعند من يقول : يقضى صلاة يوم وليلة ، فذاك نظير وجوب قضائها على النائم والناسي ، ولا إثم عليها ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس في النوم تفريط وإنما التفريط فى اليقظة » وقال : « من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها فإن ذلك وقتها لا كفارة لها إلا ذلك »

وكذلك « قدرة العبد » فإنه لو فرط بعد وجوب الحج عليه حتى ضيع ماله بقي الحج فى ذمته ، وكذلك في استحلال المحرمات قال الله تعالى : (فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ) . فالضرورة بسبب محظور لا تستباح بها المحرمات ؛ بخلاف الضرورة التى هي بسبب غير محظور .

وقد اختلف العلماء فى العاصي بسفره هل يترخص ترخص المسافر؟ ومذهب الشافعي وأحمد أنه لا يترخص .

فالأحوال التى ترد على العباد وأهل المعرفة والزهاد ونحوهم مما توجب زوال عقل أحدهم وعلمه ، حتى تجعله كالمجنون والموله والسكران والنائم ، أو زوال قدرته حتى تجعله كالعاجز ، أو تجعله كالمضطر الذي يصدر عنه القول والفعل بغير إرادته واختياره ، فإن زوال العقل والقدرة قد يوجب عجزه عن أداء واجبات ، وقد يوجب وقوعه فى محرمات .

فهؤلاء يقال فيهم : إن كان زوال ذلك بسبب غير محرم فلا حرج عليهم فيما يتركونه من الواجبات ، ويفعلونه من المحرمات ، ولا يجوز أيضاً اتباعهم فيما هو خارج عن الشريعة من أقوالهم وأفعالهم ، ولا ندمهم على ذلك ، بل قد يمدحون على ماوافقوا فيه الشريعة من

الأقوال والأعمال ، ويرفع عنهم اللوم فيما عذرهم فيه الشارع ، كما يقال في المجتهد المخطيء سواء ، بل المجتهد المخطئ نوع من هذا الجنس حيث سقط عنه اللوم لعجزه عن العلم .

وإن كان زوال ذلك بسبب محرم استحقوا الذم والعقاب على ما يتركونه من واجب ويفعلونه من محرم .

مثال « الأول » من يسمع القرآن على الوجه المشروع ؛ فهاج له وجد يحبه ، أو مخافة أو رجاء ، فضعف عن حمله حتى مات أو صعق أو صاح صياحاً عظيما ، أو اضطرب اضطرابا كثيراً ، فتولد عن ذلك ترك صلاة واجبة ، أو تعدى على بعض الناس ، فإن هذا معذور فى ذلك ؛ فإن هذا في هذه الحال بمنزلة عقلاء المجانين المولهين الذين حصل لهم الجنون ؛ مع أنهم من الصالحين وأهل المعرفة ، إما لقوة الوارد الذي ورد عليهم ؛ وإما لضعف قلوبهم عن حمله ؛ وإما لانحراف أمزجتهم وقوة الخلط ؛ وإما لعارض من الجن ؛ فإن هؤلاء كما بلغنا عن الإمام أبى محمد المقدسي حيث سئل عنهم فقال : هؤلاء قوم أعطاهم الله عقولاً وأحوالاً ؛ فسلب عقولهم وأبقى أحوالهم ، وأسقط ما فرض بما سلب .

ولهذا كان هذا الصنف والذي قبله موجوداً فى التابعين ومن

بعدهم ؛ لا سيما في عباد البصريين ، فإن فيهم من مات من سماع القرآن كزرارة بن أوفى ، وأبي جهير الضرير وغيرهما ،

وأما الصحابة فإن حالهم كان أكمل من أن يكون فيهم مجنون أو مصعوق ؛ ومن هؤلاء أيضاً من غلب عليه الذكر لله والتوحيد له والمحبة حتى غاب بالمذكور المشهود المحبوب المعبود عما سواه ؛ كما يحصل لبعض العاشقين في غيبته بمعشوقه عما سواه ، فيقول أحدهم فى هذه الحال : أنا الحق ، أو سبحانى ، أو ما في الجبة إلا الله . ومنهم من غلب عليه حال الرجاء والرحمة حتى قال : أبسط سجادتى على جهنم . فمن قال هذا فى حال زوال عقله بحيث يكون كالسكران أو المولـه ، وكان السبب الذي أوجب ذلك غير منهى عنه شرعاً فلا إثم عليه .

ومثال « الثانى » : ما قد يحصل عند سماع المكاء والتصدية لكثير من أهل السماع ، فإنه قد ينشد أشعاراً فيها ما يخالف الشرع بأصوات مخالفة للشرع ، ويكون الإنسان فيه استعداد فيوجب ذلك اختلاطاً وزوال عقل ، حتى يقتل بعضهم بعضاً ، إما ظاهراً وإما باطناً بالهمة والقلوب ، ويوجب أيضاً من ترك واجبات الشريعة ، ومن الاعتداء على المؤمنين فى الدين والدنيا ما الله به عليم .

وكذلك قد يسلك أحدهم عبادات غير شرعية فى الاعتقادات والأعمال فتورثه تلك العبادات والأعمال أحوالاً قوية قاهرة يترك بها الواجبات ويفعل بها المحرمات أعظم مما يفعله الملك الجبار ، إذا سكر بشرب الخمر بالنفوس والأموال .

وإذا خوطب أحدهم فى حال صحوه وعقله قال : كنت مغلوباً ، وورد علي وارد فعل بى هذا ، والحكم للوارد . وهذه حال كثير من خفراء العدو وكثير ممن يعين الكفرة والظلمة ، ويعتدي على المسلمين والمؤمنين من أهل الأحوال ، ويقول : إنه مغلوب فى ذلك، وأنه ورد عليه وارد أوجب ذلك ، وأنه خوطب بذلك الفعل .

فيقال : أما زوال عقلك حتى صرت لا تفهم أمر الله ونهيه وزوال قدرتك حتى صرت مضطراً إلى تلك الأفعال ، وإن كنت صادقا فى ذلك فسببه تفريطك وعدوانك أولاً حتى صرت فى حال المجانين والسكارى ، فأنت بمنزلة شارب الخمر الذي سكر منها ، والمتعرض للعشق حتى يعشق فيفعل فيه العشق الأفاعيل ، إذ لافرق بين سكر الأصوات والصور والشراب ؛ فإن هذا سكر الأجسام وهذا سكر النفوس وهذا سكر الأرواح ، فإذا كان السبب محظورا لم يكن السكران معذوراً فى دين الإسلام .

ولهذا إنما تقع هذه الأحوال ممن فيه نصرانية يميل بسببها إلى السكر كما يفعله النصارى فى الشراب والأصوات والصور ، ولهذا كان هؤلاء فى عالم الضلال .

وأما قولك : إنك خوطبت بذلك وأمرت فمن أي الجهتين ؟ أمن جهة الكلمات الدينية ؟ أم من جهة الكلمات الكونية ؟ .

فالأولى مثل قوله : (إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ) وقوله : (هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ) وقوله : (لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ) .

والثانية مثل قوله : (أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا) وقوله : (بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ) وقوله : (أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ) فإن ذكرت أنه من الجهة « الأولى » فباطل بخلاف الكتاب والسنة .

وإن أقررت أنه من « الثانية » فصحيح ، لكن هذا حال الكفار والمنافقين مثل إبليس وفرعون ونمرود ، وسائر من أطاع الأوامر الكونية ، وتبع الإرادة القدرية وأعرض عن الأوامر الشرعية ، ولم يقف عند الإرادة الدينية .

فتدبر هذا الأصل فإنه عظيم نافع جداً ، فتنكشف به الأحوال المخالفة للشرع . وانقسام أهلها إلى معذور وموزور ، كانقسامها إلى

مسطور على صاحبه ومغفور بمنزلة الأحوال الصادرة عن غير أهل العبادات والزهادات من العقل والصحو ، ومن الإغماء والسكر والجنون ومن الاضطرار والاختيار ، فإن أحوال الملوك والأمراء وأحوال الهداة والعلماء ، وأحوال المشايخ والفقراء تشترك فى هذه القاعدة الشريفة ، وتحكم الشريعة فيها بالفرقان .

وإذا ضم إلى ذلك أن مايصدر عن ذوي الأحوال من كشف علمي أو تأثير قدري ليس بمستلزم لولاية الله ، بل ولا للصلاح ، بل ولا للإيمان ، إذ قد يكون هذا الجنس فى كافر ومنافق وفاسق وعاص ، وإنما أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون .

ففرق بين ولاية الله وبين الأحوال ، كما فرق بين خلافة النبوة وبين جنس الملك ، وفرق بين العلم الذي ورثته الأنبياء ، وبين جنس الكلام ، فبين هذين النوعين خصوص وعموم ، فقد يكون الرجل ولياً لله له حال تأثير وكشف ، وقد يكون ولياً ليس له تلك الحال بكما لها ، وقد يكون له شيء من هذه الأحوال وليس ولياً لله ، كما قد يكون خليفة نبي مطاعا وقد يكون خليفة نبي مستضعفاً ، وقد يكون جباراً مطاعا ليس من النبوة في شيء ، وقد يكون عالماً ليس متكلما ، بما يخالف كلام الأنبياء ، وقد يكون عالماً متكلما بكلام الأنبياء .

فصـــــــل

واعلم أن عامة البدع المتعلقة بالعلوم والعبادات فى هذا القدر وغيره إنما وقع فى الأمـة فى أواخر خلافـة الخلفاء الراشدين ، كما أخـــبر به النبي صلى الله عليـه وسـلم حيث قال : « من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثـيراً ، فعليـكم بسنتى ، وسنة الخلفـــاء الراشدين المهديين من بعدي » .

ومعلوم أنـه إذا استقام « ولاة الأمور » الذين يحكمون في النفوس والأموال استقام عامة الناس، كما قال أبو بكر الصديق فيما رواه البخاري فى صحيحه للمرأة الأحمسية لما سألته فقالت : « ما بقاؤنا على هــذا الأمر الصالح » ؟ قال : « ما استقامت لـكم أئمتـكم » وفى الأثر « صنفان إذا صلحوا صلح الناس : العلماء و الأمراء » : أهل الكتاب وأهل الحديد ، كما دل عليه قوله : (لَقَدْ أَرْسَلْنَا) الآية .

وهم « أولو الأمر » فى قـوله : (أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ) .

وكذلك من جهتهم يقع الفساد كما جاء فى الحديث مرفوعا ، وعن جماعة من الصحابة « أن أخوف ماأخاف عليكم زلة عالم ، وجدال منافق بالقرآن وأئمة مضلون » فالأئمة المضلون هم الأمراء . والعالم والمجادل هم العلماء ، لكن (أحدهما) صحيح الاعتقاد يزل ، وهو العالم كما يقع من أئمة الفقهاء أهل السنة والجماعة .

و (الثاني) كالمتفلسفة والمتكلمين الذين يجادلون بشبهات القرآن مع أنهم فى الحقيقة منسلخون من آيات الله ، وإنما احتجاجهم بــه دفعاً للخصم ، لا اهتداء به واعتماداً عليه ؛ ولهــذا قال : « جــدال منافق بالقرآن » فإن السنة والإجماع تدفع شبهته .

والدين القائم بالقلب من الإيمــان علماً وحالاً هــو « الأصل » ، والأعمال الظاهرة هي « الفروع » وهي كمال الإيمان .

فالدين أول ما يبنى من أصوله ويكمل بفروعــه ، كما أنزل الله بمكة أصوله من التوحيد والأمثال التى هي المقاييس العقلية ، والقصص والوعد والوعيد ، ثم أنزل بالمدينــة ــــ لما صار له قوة ــــ فروعــه الظاهرة من الجمعة والجماعة ، والأذان والإقامة والجهــاد والصيام وتحريم الخمر والزنا ، والميسر وغير ذلك من واجباته ومحرماته .

فأصوله تمد فروعه وتثبتها ، وفروعه تكمل أصوله وتحفظهـا ، فإذا وقع فيه نقص ظاهر فإنما يقع ابتداء من جهـة فروعه ، ولهـذا قال صلى الله عليه وسلم « أول ماتفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة » وروى عنه أنه قال : « أول مايرفع الحكم بالأمانة » و « الحكم » هو عمل الأمراء وولاة الأمور ، كما قال تعالى :

(إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ) .

وأما « الصلاة » فهي أول فرض ، وهي من أصول الدين والإيمان ، مقرونة بالشهادتين ، فلا تذهب إلا فى الآخر ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء » فأخبر أن عوده كبدئه .

فلما ذهبت دولة الخلفاء الراشدين ، وصار ملكا ظهر النقص في الأمراء ، فلا بد أن يظهر أيضاً فى أهل العلم والدين فحدث في آخر خلافة علي بدعتا الخوارج والرافضة ، إذ هي متعلقة بالإمامة والخلافة ، وتوابع ذلك من الأعمال والأحكام الشرعية .

وكان ملك « معاوية » ملكا ورحمة ، فلما ذهب معاوية — رحمة الله عليه — وجاءت إمارة « يزيد » وجرت فيها فتنة قتل « الحسين » بالعراق ، وفتنة أهل « الحرة » بالمدينة ، وحصروا مكة ، لما قام عبد الله بن الزبير .

ثم مات يزيد وتفرقت الأمة : ابن الزبير بالحجاز ، وبنو الحكم بالشام ، ووثب المختار بن أبي عبيد وغيره بالعراق . وذلك فى أواخر عصر الصحابة ، وقد بقى فيهم مثل عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدري وغيرهم ، حدثت « بدعة القدرية والمرجئة » فردها بقايا الصحابة كابن عباس وابن عمر وجابر وواثلة بن الأسقع وغيرهم — رضي الله عنهم — مع ما كانوا يردونه هم وغيرهم من بدعة الخوارج والروافض .

وعامة ما كانت القدرية إذ ذاك يتكلمون فيه : أعمال العباد ، كما يتكلم فيها المرجئة ، فصار كلامهم فى الطاعة والمعصية ، والمؤمن والفاسق ونحو ذلك من مسائل « الأسماء والأحكام » ، و « الوعد » و « الوعيد » ولم يتكلموا بعد فى ربهم ولا فى صفاته إلا [في] أواخر عصر صغار التابعين ، من حين أواخر « الدولة الأموية » حين شرع « القرن الثالث » — تابعو التابعين — ، ينقرض أكثرهم — فإن الاعتبار فى القرون الثلاثة بجمهور أهل القرن وهم وسطه ، وجمهور الصحابة انقرضوا بانقراض خلافة الخلفاء الأربعة ، حتى أنه لم يكن بقى من أهل بدر إلا نفر قليل ، وجمهور التابعين بإحسان . انقرضوا فى أواخر عصر أصاغر الصحابة فى إمارة ابن الزبير وعبد الملك ، وجمهور تابعي التابعين انقرضوا فى أواخر الدولة الأموية ؛ وأوائل الدولة العباسية — وصار

فى ولاة الأمور كثير من الأعاجم ، وخرج كثير من الأمر عن ولاية العرب وعربت بعض الكتب العجمية من كتب الفرس والهند والروم ، وظهر ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم : « ثم يفشو الكذب حتى يشهد الرجل ولا يستشهد ، ويحلف ولا يستحلف » — حدث ثلاثة أشياء .

« الرأي » و « الكلام » و « التصوف » .

وحدث « التجهم » وهو نفى الصفات . وبإزائه « التمثيل » .

فكان جمهور الرأي من الكوفة ؛ إذ هو غالب على أهلها مع ما كان فيهم من التشيع الفاحش . وكثرة الكذب فى الرواية ، مع أن فى خيار أهلها من العلم والصدق والسنة والفقه والعبادة أمر عظيم ؛ لكن الغرض أن فيها نشأ كثرة الكذب فى الرواية . وكثرة الآراء في الفقه والتشيع فى الأصول ، وكان جمهور الكلام والتصوف فى البصرة .

فإنه بعد موت الحسن وابن سيرين بقليل ظهر عمرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء ؛ ومن اتبعهما من أهل الكلام والاعتزال .

وظهر أحمد بن علي الهجيمي[1] الذي صحب عبد الواحد بن زيد ،

(١) فى ميزان الاعتدال: أحمد بن عطاء الهجيمي البصرى الزاهد .

وعبد الواحد صحب الحسن البصرى ومن اتبعه من المتصوفة ، وبنى دويرة للصوفية ؛ هي أول ما بنى فى الإسلام ، وكان عبد الرحمن ابن مهدي وغيره يسمونهم « الفقرية » وكانوا يجتمعون في دويرة لهم.

وصار لهؤلاء من الكلام المحدث طريق يتدينون به ، مع تمسكهم بغالب الدين.

ولهؤلاء من التعبد المحدث طريق يتمسكون به مع تمسكهم بغالب التعبد المشروع ، وصار لهؤلاء حال من السماع والصوت حتى إن أحدهم يموت أو يغشى عليه .

ولهؤلاء حال في الكلام والحروف حتى خرجوا به إلى تفكير أوقعهم فى تحير .

وهؤلاء أصل أمرهم « الكلام » .

وهؤلاء أصل أمرهم « الإرادة » .

وهؤلاء يقصدون « بالكلام » التوحيد ؛ ويسمون نفوسهم الموحدين .

وهؤلاء يقصدون « بالإرادة » التوحيد ويسمون نفوسهم أهل

التوحيد والتجريد .

وقد كتبت قبل هذا في « القواعد » ما فى طريقي أهـل الكلام والنظر وأهل الإرادة والعمـل من الانحـراف ، إذا لم يقترن بمتابعـة الرسول . كما بينت فى « قاعدة كبـيرة » أن أصـل العلم والهـدى والدين هـو الإيمـان بالله ورسوله ، واستصحـاب ذلـك فى جميـع الأقوال والأحوال .

وكان « أهل المدينة » أقرب من هؤلاء وهؤلاء فى القول والعمل إذ لم ينحرفوا انحراف الطائفتين من الكوفيين والبصريين : هوى ورواية ورأيا وكلامـاً وسماعا ، وإن كان فى بعضهـم نوع انحـراف لكـن هم أقرب .

وأما « الشاميون » فـكان غالبهم مجاهدين ، وأهل أعمـال قلبية ، أقرب إلى الحال المشروع من صوفية البصريين إذ ذاك .

ولهذا تجد كتب « الـكلام ؛ والتصوف » إنما خرجت فى الأصل من البصرة . فمتـكلمة المعتزلة أئمتهم بصريون : مثل أبى الهذيل العلاف وأبى علي الجبائى وابنه أبى هاشم وأبى عبـد الله [1] ، وأبى الحسين

---

(١) بالأصل كلمة غير متضحة .

البصري . وكذلك متكلمة الكلابية والأشعرية : كعبد الله بن سعيد ابن كلاب ؛ وأبى الحسن الأشعري وصاحبه أبى الحسن الباهلى والقاضي أبى بكر بن الباقلانى وغيرهم .

وكذلك كتب « المتصوفة ومن خلط التصوف بالحديث والكلام » ككتب الحارث بن أسد المحاسبي ، وأبى الحسن بن سالم ، وأبى سعيد الأعرابى وأبى طالب المكي .

وقد شرك هؤلاء من البغداديين والخراسانيين والشاميين خلق .

لكن الغرض أن الأصول من ثم .

كما أن « علم النبوة » من الإيمان والقرآن ؛ وما يتبع ذلك من الفقه والحديث وأعمال القلوب إنما خرجت من الأمصار التى يسكنها جمهور أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهي الحرمان والعراقان والشام : المدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام . وسائر الأمصار تبع .

فالقراء السبعة من هذه الأمصار ؛ وكذلك أئمة أهل الحديث وأثبتهم أهل المدينة وأهل البصرة كالزهري ومالك ، وكقتادة وشعبة ويحيى ابن سعيد وعبد الرحمن بن مهدي .

وأهل الكوفة فيهم الصادق والكاذب .

وأهل الشام لم يكن فيهم كثير كاذب ، ولا أئمة كبار فى القراءة والحديث ، وكذلك أئمة الفقهاء ، فمالك عالم أهل المدينة . والثوري وأبو حنيفة وغيرهما من أهل الكوفة . وابن جريج وغيره من أهل مكة ؛ وحماد بن سلمة وحماد بن زيد من أهل البصرة ، والأوزاعي وطبقته بالشام ، وقد قيل إن مالكا إنما احتذى موطأه على كتاب حماد بن سلمة ، وقيل : إن كتاب ابن جريج قبل ذلك .

ثم الشافعي وإن كان أصله مكياً فإنه تفقه على طريقة أهل الحديث غير متقيد بمصره .

وكذلك الإمام أحمد : وإن كان أجداده بصريين فإنه تفقه على طريقة أهل الحديث غير متقيد بالبصريين ، ولا غيرهم . كما أن عبد الله ابن المبارك ، وإسحاق بن إبراهيم ، ومحمد بن إسماعيل البخاري ، وغيرهم من الخراسانيين ، وكذلك أئمة الزهاد والعباد من هذه الأمصار ، كما ذكره أبو الفرج بن الجوزي فى « صفوة الصفوة » .

فالعلم المشروع والنسك المشروع مأخوذ عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما ما جاء عمن بعدهم فلا ينبغي أن يجعل

أصلاً ، وإن كان صاحبه معذوراً ، بل مأجوراً لاجتهاد أو تقليد .

فمن بنى الكلام فى العلم : الأصول والفروع على الكتاب والسنة والآثار المأثورة عن السابقين فقد أصاب طريق النبوة ، وكذلك من بنى الإرادة والعبادة والعمل والسماع المتعلق بأصول الأعمال وفروعها من الأحوال القلبية والأعمال البدنية على الإيمان والسنة والهدى الذي كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقد أصاب طريق النبوة، وهذه طريق أئمة الهدى .

تجد « الإمام أحمد » إذا ذكر أصول السنة قال : هي التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكتب كتب التفسير المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين . وكتب الحديث والآثار المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، وعلى ذلك يعتمد فى أصوله العلمية وفروعه ، حتى قال فى رسالته إلى خليفة وقته « المتوكل » : لا أحب الكلام فى شيء من ذلك إلا ما كان فى كتاب الله ، أو في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . أو الصحابة أو التابعين ، فأما غير ذلك فالكلام فيه غير محمود .

وكذلك فى « الزهد » و « الرقاق » و « الأحوال » ، فإنه اعتمد فى « كتاب الزهد » على المأثور عن الأنبياء صلوات الله عليهم من آدم إلى محمد ، ثم على طريق الصحابة والتابعين ، ولم يذكر من بعدهم ، وكذلك وصفه لآخذ العلم أن يكتب ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم عن الصحابة ، ثم عن التابعين . — وفى رواية أخرى — ثم أنت في التابعين مخير .

وله كلام فى « الكلام الكلامي » . و « الرأي الفقهي » وفي « الكتب الصوفية » ، و « السماع الصوفى » ليس هذا موضعه . يحتاج تحريره إلى تفصيل ، وتبيين كيفية استعماله فى حال دون حال .

فإنه ينبني على الأصل الذي قدمناه من أنه قد يقترن بالحسنات سيئات إما مغفورة ، أو غير مغفورة ، وقد يتعذر أو يتعسر على السالك سلوك الطريق المشروعة المحضة إلا بنوع من المحدث لعدم القائم بالطريق المشروعة علماً وعملاً . فإذا لم يحصل النور الصافى ، بأن لم يوجد إلا النور الذي ليس بصاف . وإلا بقي الإنسان فى الظلمة ، فلا ينبغي أن يعيب الرجل وينهى عن نور فيه ظلمة . إلا إذا حصل نور لا ظلمة فيه ، وإلا فكم ممن عدل عن ذلك يخرج عن النور بالكلية ، إذا خرج غيره عن ذلك؛ لما رآه فى طرق الناس من الظلمة .

وإنما قررت هذه « القاعدة » ليحمل ذم السلف والعلماء للشيء على موضعه ، ويعرف أن العدول عن كمال خلافة النبوة المأمور به شرعا : تارة يكون لتقصير بترك الحسنات علماً وعملا ، وتارة بعدوان بفعل السيئات علماً وعملا ، وكل من الأمرين قد يكون عن غلبة ، وقد يكون مع قدرة .

« فالأول » قد يكون لعجز وقصور ، وقد يكون مع قدرة وإمكان .

و « الثاني » : قد يكون مع حاجة وضرورة ، وقد يكون مع غنى وسعة ، وكل واحد من العاجز عن كمال الحسنات ، والمضطر إلى بعض السيئات معذور ، فإن الله يقول : (فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ) وقال : (لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) — في البقرة والطلاق — وقال : (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » وقال سبحانه : (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) وقال : (مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ) وقال : (يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ) وقال : (فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ) وقال : (وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ) .

وهـذا (أصل عظيم) وهو : أن تعرف الحسنة فى نفسها علمـاً وعملا ، سواء كانت واجبة أو مستحبة . وتعرف السيئة فى نفسها علماً وقولاً وعمـلا ، محظورة كانت أو غـير محظورة ـــ إن سميت غير المحظورة سيئـة ـــ وإن الدين تحصيل الحسنات والمصالح ، وتعطيل السيئات والمفاسد .

وإنه كثيراً ما يجتمع في الفعل الواحـد ، أو فى الشخص الواحـد الأمران ، فالذم والنهي والعقاب قد يتوجه إلى ما تضمنه أحـدهما ، فلا يغفل عما فيه من النوع الآخر ، كما يتوجـه المدح والأمر والثواب إلى ما تضمنه أحدهما فلا يغفل عمـا فيه من النوع الآخر ، وقـد يمدح الرجل بترك بعض السيئات البدعية والفجورية ، لكن قد يسلب مع ذلك ما حمد به غيره على فعل بعض الحسنات السنية البرية .

فهـذا طريق الموازنة والمعـادلة ، ومن سلـكه كان قائماً بالقسط الذي أنزل الله له الكتاب والميزان .

فصـــــل

ثم المتقـدمون الذين وضعـوا طرق « الرأي » و « الـكلام » و « التصوف » وغير ذلك : كانوا يخلطون ذلـك بأصول من الكتـاب

والسنة والآثار ، إذ العهد قريب . وأنوار الآثار النبوية بعد فيها ظهور ، ولها برهان عظيم ، وإن كان عند بعض الناس قد اختلط نورها بظلمة غيرها .

فأما المتأخرون فكثير منهم جرد ماوضعه المتقدمون . مثل من صنف فى « الكلام » من المتأخرين فلم يذكر إلا الأصول المبتدعة وأعرض عن الكتاب والسنة ، وجعلها إما فرعين ، أو آمن بهما مجملا ، أو خرج به الأمر إلى نوع من الزندقة ، ومتقدموا المتكلمين خير من متأخريهم .

وكذلك من صنف فى « الرأي » فلم يذكر إلا رأى متبوعه وأصحابه ، وأعرض عن الكتاب والسنة ، ووزن ما جاء به الكتاب والسنة على رأى متبوعه ككثير من اتباع أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم .

وكذلك من صنف فى « التصوف » و « الزهد » جعل الأصل ماروى عن متأخري الزهاد ــ وأعرض عن طريق الصحابة والتابعين ، كما فعل صاحب « الرسالة » أبو القاسم القشيري ، وأبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي ، وابن خميس الموصلي في « مناقب الأبرار » ؛ وأبو عبد الرحمن السلمى فى تاريخ الصوفية ، لكن أبو عبد الرحمن صنف أيضاً « سير السلف » من الأولياء والصالحين . وسير الصالحين من السلف ، كما صنف فى سير الصالحين من الخلف ونحوهم من ذكرهم لأخبار أهل

« الزهد والأحوال » من بعد القرون الثلاثة ، من عند إبراهيم بن أدهم ، والفضيل بن عياض ، وأبي سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي ، ومن بعدهم ، وإعراضهم عن حال الصحابة والتابعين الذين نطق الكتاب والسنة بمدحهم ، والثناء عليهم ، والرضوان عنهم .

وكان أحسن من هذا أن يفعلوا كما فعله أبو نعيم الأصبهاني فى « الحلية » من ذكره للمتقدمين والمتأخرين. وكذلك أبو الفرج بن الجوزي فى « صفوة الصفوة » وكذلك أبو القاسم التيمي فى « سير السلف » وكذلك[1] ابن أسد بن موسى ، إن لم يصعدوا إلى طريقة عبد الله بن المبارك . وأحمد بن حنبل . وهنا دبن السرى وغيرهم فى كتبهم فى الزهد ، فهذا هذا . والله أعلم وأحكم .

فإن معرفة أصول الأشياء ومبادئها . ومعرفة الدين وأصله ، وأصل ما تولد فيه من أعظم العلوم نفعاً . إذ المرء ما لم يحط علماً بحقائق الأشياء التى يحتاج إليها يبقى فى قلبه حسكة .

وكان « للزهاد » عدة أسماء يسمون بالشام « الجوعية » ويسمون بالبصرة « الفقرية » و « الفكرية » ويسمون بخراسان « المغاربة » ويسمون أيضاً « الصوفية والفقراء » .

---

(١) بياض قدر كلمة .

والنسبة فى « الصوفية » إلى الصوف ؛ لأنه غالب لباس الزهاد ؛ وقد قيل هو نسبة إلى « صوفة » بن مراد بن أد بن طـابخة قبيلة من العرب كانوا يجاورون حول البيت . وأما من قال : هم نسبة إلى « الصفة » فقد قيل : كان حقه أن يقال : صفية ، وكذلك من قال : نسبة إلى الصفا ؛ قيل له : كان حقه أن يقال : صفائية . ولو كان مقصوراً لقيل صفوية ؛ وإن نسب إلى الصفوة قيل : صفوية . ومن قال : نسبة إلى الصف المقـدم بين يدي الله . قيل له : كان حقه أن يقال : صفية، ولا ريب أن هذا يوجب النسبة والإضافة ؛ إذا أعطى الاسم حقه من جهة العربية .

لـكن « التحقيق » أن هـذه النسب إنما أطلقت على طريق الاشتقـاق الأكبر والأوسط ، دون الاشتقاق الأصغر ؛ كما قال أبو جعفر « العـامة » اسم مشتق من العمى ؛ فراعوا الاشتراك فى الحروف دون الترتيب ، وهو الاشتقاق الأوسط ، أو الاشتراك فى جنس الحروف دون أعيانها وهو الأكبر .

وعلى الأوسط قول نحاة الكوفيين « الاسم » مشتق من السمة .

وكـذلك إذا قيل الصوفي من « الصفـا » وأمـا إذا قيل هو من « الصفة » أو « الصف » فهو على الأكبر .

وقد تكلم بهذا الاسم قوم من الأئمة : كأحمد بن حنبل ، وغيره

وقد تكلم به أبو سليمان الداراني وغيره ، وأما الشافعي فالمنقول عنه ذم الصوفية ، وكذلك مالك ـ فيما أظن ـ وقد خاطب به أحمد لأبي حمزة الخراساني ، وليوسف بن الحسين الرازي ، ولبدر بن أبي بدر المغازلي ، وقد ذم طريقهم طائفة من أهل العلم ، ومن العباد أيضاً من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وأبى حنيفة وأهل الحديث والعباد ، ومدحه آخرون .

و « التحقيق » فيه : أنه مشتمل على الممدوح والمذموم ، كغيره من الطريق ، وأن المذموم منه قد يكون اجتهاديا ، وقد لا يكون ، وأنهم فى ذلك بمنزلة الفقهاء في « الرأي » فإنه قد ذم الرأي من العلماء والعباد طوائف كثيرة ، و « القاعدة » التى قدمتها تجمع ذلك كله ، وفى المتسمين بذلك من أولياء الله وصفوته وخيار عباده مالا يحصى عده . كما فى أهل « الرأي » من أهل العلم والإيمان من لايحصى عدده إلا الله . والله سبحانه أعلم .

وبهذا يتبين لك أن البدعة فى الدين وإن كانت فى الأصل مذمومة كما دل عليه الكتاب والسنة ، سواء فى ذلك البدع القولية والفعلية . وقد كتبت فى غير هذا الموضع أن المحافظة على عموم قول النبي صلى الله عليه وسلم : « كل بدعة ضلالة » متعين ، وأنه يجب العمل بعمومه ، وأن من أخذ يصنف « البدع » إلى حسن وقبيح ، ويجعل ذلك

ذريعة إلى أن لا يحتج بالبدعة على النهي فقد أخطأ ، كما يفعل طائفة من المتفقهة ، والمتكلمة والمتصوفة ، والمتعبدة ؛ إذا نهوا عن « العبادات المبتدعة » و « الكلام في التدين المبتدع » ادعوا أن لا بدعة مكروهة إلا ما نهى عنه ، فيعود الحديث إلى أن يقال : « كل ما نهى عنه » أو « كل ما حرم » أو « كل ما خالف نص النبوة فهو ضلالة » وهذا أوضح من أن يحتاج إلى بيان ، بل كلما لم يشرع من الدين فهو ضلالة .

وما سمى « بدعة » وثبت حسنه بأدلة الشرع فأحد « الأمرين » فيه لازم :

إما أن يقال : ليس ببدعة فى الدين ، وإن كان يسمى بدعة من من حيث اللغة . كما قال عمر : « نعمت البدعة هذه »

وإما أن يقال : هذا عام خصت منه هذه الصورة لمعارض راجح ، كما يبقى فيما عداها على مقتضى العموم كسائر عمومات الكتاب والسنة وهذا قد قررته فى « اقتضاء الصراط المستقيم » وفى « قاعدة السنة والبدعة » وغيره .

وإنما « المقصود هنا » أن ما ثبت قبحه من البدع وغير البدع من المنهى عنه في الكتاب والسنة ، أو المخالف للكتاب والسنة إذا صدر عن شخص من الأشخاص فقد يكون على وجه يعذر فيه : إما

لاجتهاد أو تقليد يعذر فيه ، وإما لعدم قدرته كما قد قررته في غير هذا الموضع ، وقررته أيضاً فى أصل « التكفير والتفسيق » المبنى على أصل الوعيد .

فإن نصوص « الوعيد » التى فى الكتاب والسنة ، ونصوص الأئمة بالتكفير والتفسيق ونحو ذلك لا يستلزم ثبوت موجبها فى حق المعين ، إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع ، لا فرق في ذلك بين الأصول والفروع . هذا فى عذاب الآخرة فإن المستحق للوعيد من عذاب الله ولعنته وغضبه فى الدار الآخرة خالد فى النار ، أو غير خالد ، وأسماء هذا الضرب من الكفر والفسق ، يدخل فى هذه « القاعدة » سواء كان بسبب بدعة اعتقادية أو عبادية ، أو بسبب فجور فى الدنيا ، وهو الفسق بالأعمال .

فأما أحكام الدنيا فكذلك أيضاً ؛ فإن جهاد الكفار يجب أن يكون مسبوقاً بدعوتهم ؛ إذ لا عذاب إلا على من بلغته الرسالة ، وكذلك عقوبة الفساق لا تثبت إلا بعد قيام الحجة .

وهنا

قاعدة شريفة

ينبغي التفطن لها : وهو أن ما عاد من الذنوب بإضرار الغير فى دينه ودنياه فعقوبتنا له فى الدنيا أكبر ، وأما ما عاد من الذنوب بمضرة الإنسان فى نفسه فقد تكون عقوبته فى الآخرة أشد ، وإن كنا نحن لا نعاقبه فى الدنيا .

وإضرار العبد فى دينه ودنياه هو ظلم الناس ؛ فالظلم للغير يستحق صاحبه العقوبة فى الدنيا لا محالة لكف ظلم الناس بعضهم عن بعض ، ثم هو نوعان :

(أحدهما) : منع ما يجب لهم من الحقوق ، وهو التفريط .

و (الثاني) : فعل ما يضر به وهو العدوان . فالتفريط في حقوق العباد [1] .

---

(١) خروم في الاصل .

ولهذا يعاقب الداعية إلى البدع بما لا يعاقب به الساكت ، ويعاقب من أظهر المنكر بما لا يعاقب به من استخفى به ، ونمسك عن عقوبة المنافق في الدين وإن كان في الدرك الأسفل من النار .

وهذا لأن الأصل أن تكون العقوبة من فعل الله تعالى ، فإنه الذي يجزي الناس على أعمالهم في الآخرة ، وقد يجزيهم أيضاً في الدنيا . وأما نحن فعقوبتنا للعباد بقدر ما يحصل به أداء الواجبات وترك المحرمات بحسب إمكاننا ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » وقال تعالى : (وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ) وقال : (وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ) .

ولهذا من تاب من الكفار والمحاربين وسائر الفساق قبل القدرة عليه سقطت عنه العقوبة التي لحق الله ، فإذا أسلم الحربي قبل القدرة عليه عصم دمه وأهله وماله ، وكذلك قاطع الطريق والزاني والسارق ، والشارب إذا تابوا قبل القدرة عليهم لحصول المقصود بالتوبة وأما إذا تابوا بعد القدرة لم تسقط العقوبة كلها ؛ لأن ذلك يفضي إلى تعطيل الحدود وحصول الفساد ؛ ولأن هذه التوبة غير موثوق بها ؛ ولهذا إذا أسلم الحربي عند القتال صح إسلامه لأنه أسلم قبل القدرة عليه ،

بخلاف من أسلم بعد الأسر فإنه لايمنع استرقاقه وإن عصم دمه .

ويبنى على هذه « القاعدة » : أنه قد يقر من الكفار والمنافقين بلا عقوبة من يكون عذابه فى الآخرة أشد إذا لم يتعد ضرره إلى غيره : كالذين يؤتون الجزية عن يد وهم صاغرون ، والذين أظهروا الإسلام والتزموا شرائعه ظاهراً مع نفاقهم ؛ لأن هذين الصنفين كفوا ضررهم فى الدين والدنيا عن المسلمين ، ويعاقبون فى الآخرة على ما اكتسبوه من الكفر والنفاق ، وأما من أظهر مافيه مضرة فإنه تدفع مضرته ولو بعقابه وإن كان مسلماً فاسقاً أو عاصياً أو عدلاً مجتهداً مخطئاً ، بل صالحاً أو عالماً ، سواء فى ذلك المقدور عليه والممتنع .

مثال المقدور عليه إنما يعاقب من أظهر الزنا والسرقة وشرب الخمر وشهادة الزور ، وقطع الطريق وغير ذلك لما فيه من العدوان على النفوس والأموال والأبضاع ، وإن كان [مع] هذا حال الفاسق فى الآخرة خيرا من حال أهل العهد الكفار ، ومن حال المنافقين ؛ إذ الفاسق خير من الكافر والمنافق بالكتاب والسنة والإجماع .

وكذلك يعاقب من دعا إلى بدعة تضر الناس فى دينهم ؛ وإن كان قد يكون معذوراً فيها فى نفس الأمر لاجتهاد أو تقليد .

وكذلك يجوز قتال « البغاة » : وهم الخارجون على الإمام أو غـير الإمام بتأويل سائغ مع كونهم عدولا . ومع كوننا تنفذ أحكام قضاتهم ونسوغ ما قبضوه من جزية أو خراج أو غير ذلك. إذ الصحابة لاخلاف فى بقائهم على العدالة ، وذلك أن التفسيق انتفى للتأويل السائغ . وأما القتال : فليؤدوا ما تركوه من الواجب ، وينتهوا عما ارتكبوه من المحرم وإن كانوا متأولين .

وكذلك نقيم الحد على من شرب النبيذ المختلف فيـه ، وإن كانوا قوما صالحين ، فتدبر كيف عوقب أقوام فى الدنيـا على ترك واجب أو فعل محرم بين فى الدين أو الدنيا ، وإن كانوا معذورين فيه لدفع ضرر فعلهم فى الدنيا ، كما يقام الحد على من تاب بعد رفعـه إلى الإمام وإن كان قد تاب توبة نصوحا ، وكما يغزو هذا البيت جيش من الناس فبينما هم ببيداء من الأرض إذ خسف بهم وفيهم المـكره فيحشرون على نياتهم وكما يقاتل جيوش الكفار وفيهم المـكره كأهل بدر لما كان فيهم العباس وغيره ، وكما لو تترس الكفار بمسلمين ولم يندفع ضرر الكفار إلا بقتالهم ، فالعقوبات المشروعة والمقدورة قـد تتناول فى الدنيـا من لا يستحقها فى الآخرة ، وتكون فى حقه من جملة المصائب كما قيل فى بعضهم : القاتـل مجاهد والمقتول شهيد .

وعلى هـذا فما أمر به آخر أهـل السنة من أن داعية أهل البدع

يهجر فلا يستشهد ولا يروى عنه ، ولا يستفتى ولا يصلى خلفه ، قد يكون من هذا الباب ؛ فإن هجره تعزير له وعقوبة له جزاء لمنع الناس من ذلك الذنب الذي هو بدعة أو غيرها ، وإن كان فى نفس الأمر تائباً أو معذوراً ؛ إذ الهجرة مقصودها أحد شيئين : إما ترك الذنوب المهجورة وأصحابها ، وإما عقوبة فاعلها ونكاله . فأما هجره بترك [١] فى غير هذا الموضع .

ومن هذا الباب هجر الإمام أحمد للذين أجابوا فى المحنة قبل القيد ولمن تاب بعد الإجابة ، ولمن فعل بدعة ما ؛ مع أن فيهم أئمة في الحديث والفقه والتصوف والعبادة ؛ فإن هجره لهم والمسلمين معه لا يمنع معرفة قدر فضلهم ، كما أن الثلاثة الذين خلفوا لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بهجرهم لم يمنع ذلك ما كان لهم من السوابق . حتى قد قيل إن اثنين منهما شهدا بدراً ، وقد قال الله لأهل بدر : « اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » وأحدهم كعب بن مالك شاعر النبي صلى الله عليه وسلم وأحد أهل العقبة ، فهذا « أصل عظيم » أن عقوبة الدنيا المشروعة من الهجران إلى القتل لايمنع أن يكون المعاقب عدلا أو رجلا صالحاً كما بينت من الفرق بين عقوبة الدنيا المشروعة والمقدورة ؛ وبين عقوبة الآخرة ، والله سبحانه أعلم .

---

(١) خرم في الاصل مقدار نصف سطر .

فصــــــل

ومما يناسب « هذا الباب » قولهم : فلان يسلم إليه حاله أو لا يسلم إليه حاله ؛ فإن هذا كثيراً ما يقع فيه النزاع فيما قد يصدر عن بعض المشايخ والفقراء والصوفية من أمور يقال : إنها تخالف الشريعة ، فمن يرى أنها منكرة وأن إنكار المنكر من الدين ، ينكر تلك الأمور ، وينكر على ذلك الرجل ، وعلى من أحسن به الظن ويبغضه ويذمه ويعاقبه ، ومن رأى ما فى ذلك الرجل من صلاح وعبادة : كزهد وأحوال وورع وعلم لا ينكرها بل يراها سائغة أو حسنة أو يعرض عن ذلك .

وقد يغلو كل واحد من هذين : حتى يخرج « بالأول » إنكاره إلى التكفير والتفسيق في مواطن الاجتهاد ، متبعاً لظاهر من أدلة الشريعة ، ويخرج « بالثاني » إقراره إلى الإقرار بما يخالف دين الإسلام مما يعلم بالاضطرار أن الرسول جاء بخلافه ، اتباعاً في زعمه لما يشبه قصة موسى والخضر ، و « الأول » يكثر فى الموسوية ومن انحرف منهم إلى يهودية و « الثاني » يكثر فى العيسوية ومن انحرف منهم إلى نصرانية .

و (الأول) كثيراً ما يقع فى ذوي العلم لكن مقروناً بقسوة وهوى .

و (الثاني) : كثيراً ما يقع في ذوي الرحمة لكن مقروناً بضلال وجهل .

فأما « الأمة الوسط » : فلهم العلم والرحمة ، كما أخبر عن نفسه بقوله : (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا) وقال تعالى : (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) وقال : (إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) وكذلك وصف العبد الذي لقيه موسى حيث قال : (ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا) .

والعدل في « هذا الباب » قولاً وفعلاً أن تسليم الحال له معنيان :

(أحدهما) : رفع اللوم عنه بحيث لا يكون مذموماً ولا مأثوماً (١) .

(والثاني) : تصويبه على ما فعل بحيث يكون محموداً مأجوراً . « فالأول » عدم الذم والعقاب . و « الثاني » : وجود الحمد والثواب . « الأول » : عدم سخط الله وعقابه ، و « الثاني » : وجود رضاه وثوابه . ولهذا

(١) خرم في الأصل .

تجد المنكرين غالباً فى إثبات السخط والذم والعقاب ، والمقرين فى إثبات الرضا والحمد والثواب ، وكلاهما قد يكون مخطئاً ويكون الصواب في « أمر ثالث وسط » ، وهو أنه لا حمد ولا ذم ولا ثواب ولا عقاب .

وبيان ذلك : أن ذلك الأمر الصادر عنه سواء كان قولاً أوفعلاً ، إذا علم أنه مخالف للكتاب والسنة ، بحيث يكون قولاً باطلاً أو عملاً محرماً فإنه يعذر فى موضعين :

(أحدهما) : عدم تمكنه من العلم به .

و (الثانى) عدم قدرته على الحق المشروع .

مثال (الأول) : أن يكون صاحب الحال مولها مجنوناً قد سقط عنه القلم ، فهذا إذا قيل فيه : يسلم له حاله ، بمعنى أنه لا يذم ولا يعاقب ؛ لا بمعنى تصويبه فيه ؛ كما يقال فى سائر المجانين فهو صحيح .

وإن عنى به أن ذلك القول صواب فهذا خطأ .

وكذلك إذا كان ذلك الحال صادراً عنه باجتهاد ،كمسائل الاجتهاد المتنازع فيها بين أهل العلم والدين . فإن هذا إذا قيل : يسلم إليه حاله ، كما يقال : يقر على اجتهاده ، بمعنى أنه لا يذم ولا يعاقب فهو صحيح .

وأما إذا قيل ذلك بمعنى أنه صواب أو صحيح فلا بد من دليل على تصويبه . وإلا فمجرد القول ، أو الفعل الصادر من غير الرسول ليس حجة على تصويب القائل أو الفاعل ، فإذا علم أن ذلك الاجتهاد خطأ كان تسليم حاله بمعنى رفع الذم عنه لا بمعنى إصابته . وكذلك إذا أريد بتسليم حاله وإقراره أنه يقر على حكمه فلا ينقض ، أو على فتياه فلا تنكر ، أو على جواز اتباعه لمن هو من أهل تقليده واتباعه ، بأن للقاصرين أن يقلدوا ويتبعوا من يسوغ تقليده واتباعه من العلماء والمشايخ فيما لم يظهر لهم أنه خطأ ، لكن بعض هذا يدخل في القسم الثاني الذى لم يعلم مخالفته للشريعة .

وتسليم الحال في مثل هذا إذا عرف أنه معذور ، أو عرف أنه صادق فى طريقه ، وأن هذا الأمر قد يكون اجتهاداً منه ، فهذه « ثلاثة مواضع » يسلم إليه فيها حاله لعدم تمكنه من العلم ، وخفاء الحق عليه فيها على وجه يعذر به .

ومثال (الثانى) : عدم قدرته ــ أن يرد عليه من الأحوال ما يضطره إلى أن يخرق ثيابه ، أو يلطم وجهه ، أو يصيح صياحاً منكراً ، أو يضطرب اضطراباً شديداً . فهذا إذا عرف أن سبب ذلك لم يكن محرماً ، وأنه مغلوب عليه سلم إليه حاله ، وإن شك هل هو مغلوب أو متصنع فإن عرف منه الصدق قيل هذا يسلم إليه حاله ،

وإن عرف كذبه أنكر عليه ، وان شك فيه توقف فى التسليم والإنكار حتى يتبين أمره ، كما يفعل بمن شهد شهادة ، أو اتهم بسرقة . فإن ظهر صدقه وعدله قبلت الشهادة ودفعت إليهم ، وإن ظهر كذبه وخيانته ردت الشهادة ، وعوقب على السرقة . وإن اشتبه الأمر توقف فيه ؛ فإن المؤمن وقاف متبين ، هكذا قال الحسن البصري .

وكذلك إذا ترك الواجبات مظهراً أنه مغلوب لا يقدر على فعلها : مثل أن يترك الصلاة مظهراً انه بمنزلة المغمى عليه ، والنائم الذي لا يتمكن من فعلها . كما قد يعترى بعض المصعوقين من وارد خوف الله أو محبته ، أو نحو ذلك بحيث يسقط تمييزه فلا يمكنه الصلاة ، فهو فيما يتركه من الواجبات نظير ما يرتكبه من المحرمات ، فتسليم الحال بمعنى عدم اللوم قد يراد به الحكم بأنه معذور ، وقد يراد به ترك الحكم بأنه ملوم .

هذا فيما يعلم من الأقوال والأفعال أنه مخالف للشرع بلا ريب ، كالشطحات المأثورة عن بعض المشايخ ، كقول ابن هود : إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتي على جهنم ، وكون الشبلي كان يحلق لحيته ويمزق ثيابه حتى ادخلوه المارستان مرتين ، وما يحكى عن بعضهم أنه قال : إذا كانت لك حاجة فتعال إلى قبري واستغث به وكترك آخر صلاة الجمعة خلف إمام صالح لكونه دعا لسلطان وقته وسماه العادل ، وترك آخر الصلاة خلف امام لما كوشف به من حديث نفسه ، وما يحكى عن عقلاء

المجانين الذين قيل فيهم : إن الله أعطاهم عقولا وأحوالا فسلب عقولهم وترك أحوالهم ، وأسقط ما فرض بما سلب .

فجماع هذا أن هذه الأمور تعطى حقها من الكتاب والسنة ، فما جاء به الكتاب والسنة من الخبر والأمر والنهي وجب اتباعه ، ولم يلتفت إلى من خالفه كائناً من كان ، ولم يجز اتباع أحد فى خلاف ذلك كائناً من كان ، كما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع الأمة من اتباع الرسول وطاعته وأن الرجل الذي صدر عنه ذلك يعطى عذره حيث عذرته الشريعة بأن يكون مسلوب العقل ، أو ساقط التمييز أو مجتهداً مخطئاً اجتهاداً قولياً أو عملياً ، أو مغلوباً على ذلك الفعل أو الترك بحيث لا يمكنه رد ما صدر عنه من الفعل المنكر بلا ذنب فعله ولا يمكنه أداء ذلك الواجب بلا ذنب فعله ويكون هذا الباب نوعه محفوظاً بحيث لايتبع ماخالف الكتاب والسنة ولا يجعل ذلك شرعة ولا منهاجا ؛ بل لا سبيل إلى الله ولا شرعة إلا ما جاء به محمد رسول لله صلى الله عليه وسلم .

وأما الأشخاص الذين خالفوا بعض ذلك على الوجوه المتقدمة فيعذرون ، ولا يذمون ، ولا يعاقبون . فإن كل أحد من الناس قد يؤخذ من قوله وأفعاله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وما من الأئمة إلا من له أقوال وأفعال لا يتبع عليها ، مع أنه لا يذم عليها ، وأما الأقوال والأفعال التى لم يعلم قطعاً مخالفتها للكتاب والسنة ، بل

هي من موارد الاجتهاد التى تنازع فيها أهل العلم والإيمان ؛ فهذه الأمور قد تكون قطعية عند بعض من بين الله له الحق فيها ؛ لكنه لايمكنه أن يلزم الناس بما بان له ولم يبن لهم ، فيلتحق من وجه بالقسم الأول . ومن وجه بالقسم الثانى .

وقد تكون اجتهادية عنده أيضاً فهذه تسلم لكل مجتهد ، ومن قلده طريقهم تسليما نوعياً بحيث لا ينكر ذلك عليهم ، كما سلم فى القسم الأول تسليما شخصياً .

وأما الذي لا يسلم إليه حاله : فمثل أن يعرف منه أنه عاقل يتوله ليسقط عنه اللوم ككثير من المنتسبة إلى الشيخ أحمد بن الرفاعى ، و « اليونسية » فيما يأتونه من المحرمات ، ويتركونه من الواجبات ، أو يعرف منه أنه يتواجد ويتساكر فى وجده ليظن به خيراً ، ويرفع عنه الملام فيما يقع من الأمور المنكرة ، أو يعرف منه أن الحق قد تبين له ، وأنه متبع لهواه ، أو يعرف منه تجويز الانحراف عن موجب الشريعة المحمدية ، وأنه قد يتفوه بما يخالفها ، وأن من الرجال من قد يستغنى عن الرسول أو له أن يخالفه ، أو أن يجري مع القدر المحض المخالف للدين كما يحكى بعض الكذابين الضالين : أن أهل الصفة قاتلوا النبى صلى الله عليه وسلم مع الكفار لما انهزم أصحابه وقالوا : نحن مع الله ، من غلب كنا معه ، وأنه صبيحة الإسراء سمع منه ما جرى بينه وبين ربه من المناجاة

وأنه تواجد فى السماء حتى وقع الرداء عنـه ، وأن السر الذي أوصى إليه أو دعه فى أرض نبت فيها اليراع فصار فى الشبابة بمعنى ذلك السر ، أو يسوغ لأحد بعد محمـد الخروج عن شريعته ، كما ساغ للخضر الخروج عن أمر موسى ، فإنه لم يكن مبعوثاً إليه كما بعث محمد إلى الناس كافـة . فهؤلاء ونحوهم ممن يخالف الشريعة ويبين له الحق فيعرض عنـه يجب الإنكار عليهم بحسب ما جاءت به الشريعة من اليد واللسان والقلب .

وكذلك أيضا ينكر على من اتبع الأولـين المعذورين فى اقوالهـم وأفعالهم المخالفة للشرع ، فإن العذر الذي قام بهم منتف فى حقه فلا وجه لمتابعته فيه .

ومن اشتبه أمره من أي القسمين هو : توقف فيـه ، فإن الإمام إن يخطئ فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبـة ، لكن لايتوقف في رد ما خالف الكتاب والسنة ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » . فـلا يسوغ الخروج عن موجب العموم والإطلاق فى الكتاب والسنة بالشبهات ، ولا يسوغ الذم والعقوبة بالشبهات ، ولا يسوغ جعل الشيء حقا أو باطـلا أو صـوابا أو خطأ بالشبهات ، والله يهدينا الصراط المستقيم : صراط الذين أنعـم عليهـم من النبيين والصديقـين والشهداء والصالحـين ؛ غـير المغضوب عليهـم ولا الضالين .

وبقيت هنا « المسألة » التى تشتبه غالباً ، وهو أن يظهر من بعض الرجال المجهول الحال أمر مخالف للشرع فى الظاهر ، ويجوز أن يكون معذوراً فيه عذراً شرعياً . مثل وجد خرج فيه عن الشرع لا يدري أهو صادق فيه أم متصنع ، وأخذ مال بغير إذن صاحبه فى الظاهر ، مع تجويز أن يكون علم طيب قلب صاحبه به ، فهذا إن قيل : ينكر عليه جاز أن يكون معذوراً ، وإن قيل : لا ينكر عليه لزم إقرار المجهولين على مخالفة الشرع فى الظاهر ، فالواجب فى مثل هذا أن يخاطب صاحبه أولا برفق ، ويقال له : هذا فى الظاهر منكر ، وأما فى الباطن فأنت أمين الله على نفسك ، فأخبرنا بحالك فيه أولا تظهره حيث يكون إظهاره فتنة ، وتسلك فى ذلك طريقة لا تفضي إلى إقرار المنكرات ، ولا لوم البرآء .

والضابط أن من عرف من عادته الصدق والأمانة أقر على ما لم يعلم أنه كذب وحرام ، ومن عرف منه الكذب أو الخيانة لم يقر على المجهول ، وأما المجهول فيتوقف فيه .

وقال الشيخ الإمام العالم العلامة

شيخ الإسلام ، بقية السلف الكرام ، العالم الربانى ، المقذوف فى قلبه النور القرآنى ، أبو العباس أحمد بن تيمية الحرانى ، قدس الله روحه ، ونور ضريحه ، وأسكنه فسيح الجنان :

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً . فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الغمة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وعبد الله مخلصاً حتى أتاه اليقين من ربه . صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

فصـــــل

في « العبادات » و« الفرق بين شرعيها وبدعيها » .

فإن هذا باب كثر فيه الاضطراب كما كثر في باب الحلال والحرام . فإن أقواماً استحلوا بعض ما حرمه الله ، وأقواماً حرموا بعض ما أحل الله تعالى ، وكذلك أقواماً أحدثوا عبادات لم يشرعها الله بل نهى عنها .

و « أصــل الدين » أن الحلال ما أحــله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله ؛ ليس لأحد أن يخرج عن الصراط المستقيم الذي بعث الله به رسوله . قال الله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خط خطاً ، وخط خطوطاً عن يمينــه وشماله ، ثم قال : « هــذه سبيل الله ، وهــذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو

إليه » ثم قرأ : (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ) .

وقد ذكر الله تعالى فى سورة الأنعام والأعراف وغيرهما ماذم به المشركين حيث حرموا ما لم يحرمه الله تعالى ، كالبحيرة والسائبة ، واستحلوا ما حرمه الله كقتل أولادهم ، وشرعوا دينا لم يأذن به الله ، فقال تعالى : (أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ) ومنه أشياء هي محرمة جعلوها عبادات كالشرك والفواحش ، مثل الطواف بالبيت عراة وغير ذلك .

والكلام فى « الحلال والحرام » له مواضع أخر .

والمقصود هنا « العبادات » فنقول :

العبادات التى يتقرب بها إلى الله تعالى منها ما كان محبوبا لله ورسوله مرضياً لله ورسوله ، إما واجب وإما مستحب ، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : « ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشي بها

فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » .

ومعلوم أن الصلاة منها فرض ، وهي الصلوات الخمس ، ومنها نافلة كقيام الليل وكذلك الصيام فيه فرض ، وهو صوم شهر رمضان ومنه نافلة كصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وكذلك السفر إلى المسجد الحرام فرض وإلى المسجدين الآخرين : مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وبيت المقدس ـ مستحب .

وكذلك الصدقة منها ما هو فرض ومنها ما هو مستحب ، وهو العفو كما قال تعالى : (وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ) .

وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يا ابن آدم ! إنك إن تنفق الفضل خير لك ، وإن تمسكه شر لك ، ولا تلام على كفاف ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول » والفرق بين الواجب والمستحب له موضع آخر غير هذا ، والمقصود هنا الفرق بين ما هو مشروع سواء كان واجباً أو مستحباً وما ليس بمشروع .

فالمشروع هو الذي يتقرب به إلى الله تعالى ، وهو سبيل الله ،

وهو البر والطاعة والحسنات والخير والمعروف ، وهو طريق السالكين ومنهاج القاصدين والعابدين ، وهو الذي يسلكه كل من أراد الله هدايتـه وسلك طريق الزهد والعبادة ، وما يسمى بالفقر والتصوف ونحو ذلك .

ولا ريب أن هذا يدخل فيه الصلوات المشروعة واجبها ومستحبها ، ويدخل فى ذلك قيام الليل المشروع وقراءة القرآن على الوجه المشروع ، والاذكار والدعوات الشرعية . وما كان من ذلك موقتاً بوقت كطرفي النهار ، وما كان متعلقاً بسبب كتحية المسجد ، وسجود التلاوة ، وصلاة الكسوف ، وصلاة الاستخارة ، وما ورد من الأذكار والأدعية الشرعية فى ذلك . وهذا يدخل فيه أمور كثيرة ، وفى ذلك من الصفات ما يطول وصفه ، وكذلك يدخل فيه الصيام الشرعي كصيام نصف الدهر وثلثه أو ثلثيه أو عشره ، وهو صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، ويدخل فيه السفر الشرعي ، كالسفر إلى مكة وإلى المسجدين الآخرين ، ويدخل فيه الجهاد على اختلاف أنواعه ، وأكثر الأحاديث النبوية فى الصلاة والجهاد ، ويدخل فيه قراءة القرآن على الوجه المشروع .

و « العبادات الدينية » أصولها : الصلاة والصيام والقراءة التى جاء ذكرها فى الصحيحين فى حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، لما أتاه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « ألم أحدث أنك قلت لأصومن

النهار ، ولأقومن الليل ، ولأقرأن القرآن فى ثلاث ؟ قال : بلى ! قال : فلا تفعل : فإنك إذا فعلت ذلك هجمت له العين ، ونفهت له النفس ثم أمره بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، فقال إني أطيق أكثر من ذلك ، فانتهى به إلى صوم يوم وفطر يوم فقال : إني أطيق أكثر من ذلك فقال : لا أفضل من ذلك وقال : أفضل الصيام صيام داود عليه السلام ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفر إذا لاقى . وأفضل القيام قيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وأمره أن يقرأ القرآن فى سبع » .

ولما كانت هذه العبادات هي المعروفة قال فى حديث الخوارج الذي فى الصحيحين : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » فذكر اجتهادهم بالصلاة والصيام والقراءة ، وأنهم يغلون فى ذلك حتى تحقر الصحابة عبادتهم فى جنب عبادة هؤلاء .

وهؤلاء غلوا في العبادات بلا فقه فآل الأمر بهم إلى البدعة فقال : « يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية . أينما وجدتموهم فاقتلوهم ، فإن فى قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة » . فإنهم قد استحلوا دماء المسلمين ، وكفروا من خالفهم . وجاءت فيهم الأحاديث

الصحيحة ، قال الامام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : صح فيهم الحديث من عشرة أوجه ، وقد أخرجها مسلم فى صحيحه وأخرج البخاري قطعة منها .

ثم هذه الأجناس الثلاثة مشروعة ؛ ولكن يبقى الكلام فى القدر المشروع منها ، وله صنف « كتاب الاقتصاد فى العبادة » . وقال أبي بن كعب وغيره : اقتصاد فى سنة ، خير من اجتهاد فى بدعة .

والكلام فى سرد الصوم وصيام الدهر سوى يومي العيدين وأيام التشريق وقيام جميع الليل ، هل هو مستحب ؟ كما ذهب إلى ذلك طائفة من الفقهاء والصوفية والعباد ، أو هو مكروه — كما دلت عليه السنة وإن كان جائزاً ؟ لكن صوم يوم وفطر يوم أفضل ، وقيام ثلث الليل أفضل ، ولبسطه موضع آخر .

إذ المقصود هنا الكلام فى أجناس عبادات غير مشروعة حدثت فى المتأخرين كالخلوات فإنها تشتبه بالاعتكاف الشرعي . والاعتكاف الشرعي فى المساجد كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعله هو وأصحابه من العبادات الشرعية .

وأما الخلوات فبعضهم يحتج فيها بتحنثه بغار حراء قبل الوحي ، وهذا خطأ ؛

فإن ما فعله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة إن كان قد شرعه بعد النبوة فنحن مأمورون باتباعه فيه وإلا فلا . وهو من حين نبأه الله تعالى لم يصعد بعد ذلك إلى غار حراء ولا خلفاؤه الراشدون . وقد أقام صلوات الله عليه بمكة قبل الهجرة بضع عشرة سنة ، ودخل مكة فى عمرة القضاء ، وعام الفتح أقام بها قريباً من عشرين ليلة ، وأتاها في حجة الوداع ؛ وأقام بها أربع ليال ، وغار حراء قريب منه ولم يقصده .

وذلك أن هذا كانوا يأتونه فى الجاهلية ويقال : إن عبد المطلب هو سن لهم إتيانه لأنه لم تكن لهم هذه العبادات الشرعية التى جاء بها بعد النبوة صلوات الله عليه ، كالصلاة والاعتكاف فى المساجد فهذه تغني عن إتيان حراء بخلاف ما كانوا عليه قبل نزول الوحي ، فإنه لم يكن يقرأ بل قال له الملك عليه السلام : (اقرأ) قال صلوات الله عليه وسلامه « فقلت لست بقاريء » ولا كانوا يعرفون هذه الصلاة ؛ ولهذا لما صلاها النبي صلى الله عليه وسلم نهاه عنها من نهاه من المشركين كأبي جهل قال الله تعالى : (أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ * أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ * أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ * أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ * كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ * سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب) .

و « طائفة » يجعلون الخلوة أربعين يوما ويعظمون أمر الأربعينية ،

ويحتجون فيها بأن الله تعالى واعد موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر ، وقد روى أن موسى عليه السلام صامها وصام المسيح أيضاً أربعين لله تعالى وخوطب بعدها . فيقولون يحصل بعدها الخطاب والتنزل ، كما يقولون فى غار حراء حصل بعده نزول الوحي .

وهذا أيضاً غلط فإن هذه ليست من شريعة محمد صلى الله عليه وسلم بل شرعت لموسى عليه السلام كما شرع له السبت والمسلمون لا يسبتون ، وكما حرم فى شرعه أشياء لم تحرم فى شرع محمد صلى الله عليه وسلم . فهذا تمسك بشرع منسوخ ، وذاك تمسك بما كان قبل النبوة .

وقد جرب أن من سلك هذه العبادات البدعية أتته الشياطين ، وحصل له تنزل شيطاني ، وخطاب شيطانى ، وبعضهم يطير به شيطانه ، وأعرف من هؤلاء عدداً طلبوا أن يحصل لهم من جنس ما حصل للأنبياء من التنزل فنزلت عليهم الشياطين ؛ لأنهم خرجوا عن شريعة النبي صلى الله عليه وسلم التى أمروا بها . قال تعالى : (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ) .

وكثير منهم لا يحد للخلوة مكانا ولا زمانا بل يأمر الإنسان أن يخلو فى الجملة .

ثم صار أصحاب الخلوات فيهم من يتمسك بجنس العبادات الشرعية : الصلاة والصيام والقراءة والذكر . وأكثرهم يخرجون إلى أجناس غير مشروعة ، فمن ذلك طريقة أبي حامد ومن تبعه ، وهؤلاء يأمرون صاحب الخلوة أن لا يزيد على الفرض ، لا قراءة ولا نظراً فى حديث نبوي ولا غير ذلك ، بل قد يأمرونه بالذكر ، ثم قد يقولون ما يقوله أبو حامد : ذكر العامة : « لا إله إلا الله » وذكر الخاصة : « الله ، الله » وذكر خاصة الخاصة : « هو » « هو » .

والذكر بالاسم المفرد مظهراً ومضمراً بدعة فى الشرع وخطأ فى القول واللغة ، فإن الاسم المجرد ليس هو كلاما لا إيمانا ولا كفراً .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ولا إله إلا الله ، والله أكبر » وفي حديث آخر : « أفضل الذكر لا إله إلا الله» وقال : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » . والأحاديث فى فضل هذه الكلمات كثيرة صحيحة .

وأما ذكر الاسم المفرد فبدعة لم يشرع وليس هو بكلام يعقل ولا فيه إيمان ؛ ولهذا صار بعض من يأمر به من المتأخرين يبين أنه ليس

قصدنا ذكر الله تعالى ، ولكن جمع القلب على شيء معين حتى تستعد النفس لما يرد عليها ، فكان يأمر مريده بأن يقول هذا الاسم مرات ، فإذا اجتمع قلبه ألقى عليه حالاً شيطانيا فيلبسه الشيطان ، ويخيل إليه أنه قد صار فى الملأ الأعلى ، وأنه أعطي مالم يعطه محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ، ولا موسى عليه السلام يوم الطور ، وهذا وأشباهه وقع لبعض من كان فى زماننا .

وأبلغ من ذلك من يقول ليس مقصودنا إلا جمع النفس بأي شيء كان ، حتى يقول لافرق بين قولك : ياحي ! وقولك يا جحش ! . وهذا مما قاله لي شخص منهم وأنكرت ذلك عليه ، ومقصودهم بذلك أن تجتمع النفس حتى يتنزل عليها الشيطان .

ومنهم من يقول : إذا كان قصد وقاصد ومقصود فاجعل الجميع واحداً فيدخله فى أول الأمر فى وحدة الوجود .

وأما أبو حامد وأمثاله ممن أمروا بهذه الطريقة فلم يكونوا يظنون أنها تفضي إلى الكفر – لكن ينبغي أن يعرف أن البدع بريد الكفر – ولكن أمروا المريد أن يفرغ قلبه من كل شيء ، حتى قد يأمروه أن يقعد في مكان مظلم ويغطي رأسه ويقول : الله ، الله . وهم يعتقدون أنه إذا فرغ قلبه استعد بذلك فينزل على قلبه من المعرفة ما هو المطلوب ، بل

قد يقولون : إنه يحصل له من جنس ما يحصل للأنبياء .

ومنهم من يزعم أنه حصل له أكثر مما حصل للأنبياء ، وأبو حامد يكثر من مدح هذه الطريقة فى « الإحياء » وغيره كما أنه يبالغ فى مدح الزهد، وهذا من بقايا الفلسفة عليه . فإن المتفلسفة كابن سينا وأمثاله يزعمون أن كل ما يحصل فى القلوب من العلم للأنبياء وغيرهم فإنما هو من العقل الفعال ؛ ولهذا يقولون : النبوة مكتسبة ، فإذا تفرغ صفى قلبه — عندهم — وفاض على قلبه من جنس مافاض على الأنبياء . وعندهم أن موسى بن عمران صلى الله عليه وسلم كلم من سماء عقله ؛ لم يسمع الكلام من خارج ، فلهذا يقولون إنه يحصل لهم مثل ما حصل لموسى وأعظم مما حصل لموسى .

و « أبو حامد » يقول : إنه سمع الخطاب كما سمعه موسى عليه السلام ، وإن لم يقصد هو بالخطاب ، وهذا كله لنقص إيمانهم بالرسل وأنهم آمنوا ببعض ما جاءت به الرسل وكفروا ببعض ، وهذا الذي قالوه باطل من وجوه :

(أحدها) أن هذا الذي يسمونه « العقل الفعال » باطل لاحقيقة له كما قد بسط هذا فى موضع آخر .

(الثاني) أن ما يجعله الله فى القلوب يكون تارة بواسطة الملائكة

إن كان حقاً ، وتارة بواسطة الشياطين إذا كان باطلا والملائكة والشياطين أحياء ناطقون كما قد دلت على ذلك الدلائل الكثيرة من جهة الأنبياء ، وكما يدعي ذلك من باشره من أهل الحقائق . وهم يزعمون أن الملائكة والشياطين صفات لنفس الإنسان فقط . وهذا ضلال عظيم .

(الثالث) أن الأنبياء جاءتهم الملائكة من ربهم بالوحي ، ومنهم من كلمه الله تعالى فقربه وناداه ، كما كلم موسى عليه السلام لم يكن ما حصل لهم مجرد فيض كما يزعمه هؤلاء .

(الرابع) أن الإنسان إذا فرغ قلبه من كل خاطر ، فمن أين يعلم أن ما يحصل فيه حق ؟ هذا إما أن يعلم بعقل أو سمع وكلاهما لم يدل على ذلك .

(الخامس) أن الذي قد علم بالسمع والعقل أنه إذا فرغ قلبه من كل شيء حلت فيه الشياطين ، ثم تنزلت عليه الشياطين ، كما كانت تتنزل على الكهان ؛ فإن الشيطان إنما يمنعه من الدخول إلى قلب ابن آدم مافيه من ذكر الله الذي أرسل به رسله فإذا خلا من ذلك تولاه الشيطان قال الله تعالى : (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ) وقال الشيطان فيما أخبر الله عنه : (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ

ٱلْمُخْلَصِينَ) وقال تعـالى : (إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ) والمخلصون هم الذين يعبدونـه وحـده لا يشركـون به شيئاً ، وإنما يعبد الله بما أمر بـه على ألسنة رسله فمن لم يكن كذلك تولته الشياطين .

وهذا باب دخل فيه أمر عظيم على كثير من السالكـين ؛ واشتبهت عليهم الأحوال الرحمانية بالأحوال الشيطانية ، وحصل لهـم من جنس ما يحصل للـكهان والسحرة ، وظنوا أن ذلك من كرامات أولياء الله المتقين ، كما قد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع .

(السادس) أن هذه الطريقة لو كانت حقاً فإنمـا تـكون فى حق من لم يأته رسول فأما من أتاه رسول وأمر بسلوك طريق فمن خالفه ضل . وخاتم الرسل صـلى الله عليه وسـلم قد أمر أمته بعبادات شرعية من صلاة وذكر ودعاء وقراءة ، لم يأمرهم قط بتفريغ القلب مـن كل خاطر وانتظار ما ينزل .

فهذه الطريقة لو قدر أنها طريق لبعض الأنبياء لـكانت منسوخـة بشرع محمد صلى الله عليه وسلم ، فـكيف وهي طريقة جاهلية لا توجب الوصول إلى المطلوب إلا بطريق الاتفـاق ، بأن يقذف الله تعالى فى قلب

العبـد إلهاماً ينفعه ؟ وهذا قد يحصل لـكل أحد ليس هو من لوازم هذه الطريق .

ولكن التفريـغ والتخلية التى جاء بهـا الرسول أن يفرغ قلبه ممـا لا يحبه الله ويملؤه بما يحبه الله ، فيفرغه من عبادة غير الله ويملؤه بعبادة الله ، وكذلك يفرغه عن محبة غير الله ويملؤه بمحبة الله ، وكذلك يخرج عنه خوف غير الله ويدخل فيه خوف الله تعالى ، وينفي عنه التوكل على غير الله ويثبت فيه التوكل على الله . وهذا هو الإسلام المتضمن للإيمان الذي يمده القرآن ويقويه ، لا يناقضه وينافيه ، كما قال جندب وابن عمر : « تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً » .

وأما الاقتصار على الذكر المجرد الشرعي مثل قول : لا إله إلا الله ـــ فهذا قد ينتفع به الإنسان أحياناً ، لكن ليس هذا الذكر وحـده هو الطريق إلى الله تعالى دون ما عداه ، بل أفضل العبادات البدنيـة الصلاة ثم القراءة ثم الذكر ثم الدعاء ، والمفضول في وقته الذي شرع فيه أفضل من الفاضل كالتسبيح فى الركوع والسجود فإنه أفضل مـن القراءة ، وكذلك الدعاء في آخر الصلاة أفضل من القراءة ، ثم قد يفتح على الإنسان فى العمل المفضول ما لا يفتح عليه فى العمل الفاضـل . وقد ييسر عليه هذا دون هذا فيكون هذا أفضل فى حقه لعجزه عـن الأفضل ، كالجائع إذا وجد الخبز المفضول متيسراً عليه والفاضل متعسراً

عليـه فإنه ينتفـع بهـذا الخبز المفضول ، وشبعـه واغتـذاؤه بـه حينئذ أولى به .

(السابـع) أن أبا حامد يشبه ذلك بنقش [أهل] الصين والروم على تزويق الحائط ، وأولئك صقلوا حائطهم حتى تمثل فيه ما صقله هؤلاء ، وهذا قياس فاسد ؛ لأن هـذا الذي فرغ قلبه لم يكن هنـاك قلب آخر يحصل له به التحلية كما حصل لهـذا الحائط من هـذا الحائط . بل هو يقول إن العلم منقوش فى النفس الفلـكية ؛ ويسمى ذلك « اللوح المحفوظ » تبعاً لابن سينا .

وقد بينا فى غير هذا الموضع أن « اللوح المحفوظ » الذي ذكره الله ورسوله ليس هـو النفس الفلـكية ، وابن سينا ومن تبعـه أخذوا أسماء جاء بها الشرع فوضعوا لها مسميات مخالفة لمسميات صاحب الشرع ، ثم صاروا يتكلمون بتلك الأسماء فيظن الجاهل أنهم يقصدون بها ما قصده صاحب الشرع ، فأخذوا مخ الفلسفة وكسوه لحاء الشريعة .

وهذا كلفظ « الملك » و « الملـكوت » و « الجبروت » و « اللوح المحفوظ » و « الملك » و « الشيطان » و « الحدوث » و « القـدم » وغير ذلك .

وقد ذكرنا من ذلك طرفاً فى الرد على « الاتحادية » لما ذكرنا قول ابن سبعين وابن عربى وما يوجد فى كلام أبى حامد ونحوه من أصول هؤلاء الفلاسفة الملاحدة الذين يحرفون كلام الله ورسوله عن مواضعه، كما فعلت طائفة القرامطة الباطنية .

و (المقصود هنا) أنه لو كانت العلوم تنزل على القلوب من النفس الفلكية كما يزعم هؤلاء فلا فرق في ذلك بين الناظر والمستدل والمفرغ قلبه ، فتمثيل ذلك بنقش أهل الصين والروم تمثيل باطل .

ومن أهل هذه الخلوات من لهم أذكار معينة وقوت معين ، ولهم تنزلات معروفة . وقد بسط الكلام عليها ابن عربي الطائي ومن سلك سبيله كالتلمسانى . وهي تنزلات شيطانية قد عرفتها وخبرت ذلك من وجوه متعددة ، لكن ليس هذا موضع بسطها ، وإنما المقصود التنبيه على هذا الجنس .

ومما يأمرون به الجوع والسهر والصمت مع الخلوة بلا حدود شرعية ، بل سهر مطلق ، وجوع مطلق ، وصمت مطلق مع الخلوة ، كما ذكر ذلك ابن عربى وغيره ، وهي تولد لهم أحوالاً شيطانية . وأبو طالب قد ذكر بعض ذلك ؛ لكن أبو طالب أكثر اعتصاماً بالكتاب والسنة من هؤلاء . ولكن يذكر أحاديث كثيرة ضعيفة بل موضوعة ،

من جنس أحاديث المسبعات التى رواها عن الخضر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو كذب محض وإن كان ليس فيه إلا قراءة قرآن ، ويذكر أحياناً عبادات بدعية من جنس ما بالغ في مدح الجوع هو وأبو حامد وغيرهما ، وذكروا أنه يزن الخبز بخشب رطب ، كلما جف نقص الأكل .

وذكروا صلوات الأيام والليالي ، وكلها كذب موضوعة ؛ ولهذا قد يذكرون مع ذلك شيئاً من الخيالات الفاسدة وليس هذا موضع بسط ذلك .

وإنما الغرض التنبيه بهذا على جنس من العبادات البدعية وهي « الخلوات البدعية » سواء قدرت بزمان أو لم تقدر ، لما فيها من العبادات البدعية . إما التى جنسها مشروع ولكن غير مقدرة ، وإما ما كان جنسه غير مشروع ؛ فأما الخلوة والعزلة والانفراد المشروع فهو ما كان مأموراً به أمر إيجاب أو استحباب .

(فالأول) كاعتزال الأمور المحرمة ومجانبتها كما قال تعالى : (وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ)

ومنه قوله تعالى عن الخليل : (فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا) وقوله عن أهل

الكهف : (وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ) فإن أولئك لم يكونوا فى مكان فيه جمعة ولا جماعة ، ولا من يأمر بشرع نبي فلهذا أووا إلى الكهف وقد قال موسى : (وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ) .

وأما اعتزال الناس في فضول المباحات وما لا ينفع ، وذلك بالزهد فيه فهو مستحب ، وقد قال طاووس : نعم صومعة الرجل بيته يكف فيه بصره وسمعه .

وإذا أراد الإنسان تحقيق علم أو عمل فتخلى فى بعض الأماكن مع محافظته على الجمعة والجماعة ، فهذا حق كما فى الصحيحين « أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل : أي الناس أفضل ؟ قال : رجل آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها يتتبع الموت مظانه ، ورجل معتزل في شعب من الشعاب يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويدع الناس إلا من خير » وقوله : « يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة » دليل على أن له مالا يزكيه وهو ساكن مع ناس يؤذن بينهم وتقام الصلاة فيهم ، فقد قال صلوات الله عليه : « ما من ثلاثة فى قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة جماعة إلا وقد استحوذ عليهم الشيطان » وقال : « عليكم بالجماعة فإنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم » .

فصل

وهذه « الخلوات » قد يقصد أصحابها الأماكن التى ليس فيها أذان ولا إقامة ولا مسجد يصلى فيه الصلوات الخمس ، إما مساجد مهجورة وإما غير مساجد : مثل الكهوف والغيران التى في الجبال ، ومثل المقابر لاسيما قبر من يحسن به الظن ومثل المواضع التى يقال إن بها أثر نبي أو رجل صالح ، ولهذا يحصل لهم فى هذه المواضع أحوال شيطانية ، يظنون أنها كرامات رحمانية .

فمنهم من يرى أن صاحب القبر قد جاء إليه وقد مات من سنين كثيرة ويقول : أنا فلان ، وربما قال له : نحن إذا وضعنا فى القبر خرجنا كما جرى للتونسي مع نعمان السلامي .

والشياطين كثيراً ما يتصورون بصورة الإنس فى اليقظة والمنام ، وقد تأتي لمن لا يعرف فتقول : أنا الشيخ فلان أو العالم فلان ، وربما قالت : أنا أبو بكر وعمر وربما أتى في اليقظة دون المنام وقال : أنا المسيح ، أنا موسى ، أنا محمد ، وقد جرى مثل ذلك أنواع أعرفها

وثم من يصدق بأن الأنبيــاء يأتون فى اليقظة فى صورهم ، وثم شيوخ لهم زهد وعلم وورع ودين يصدقون بمثل هذا .

ومن هؤلاء من يظن أنه حين يأتي إلى قبر نبي أن النبي يخرج من قبره فى صورته فيكلمـه . ومن هؤلاء من رأى في دارة ذرى الـكعبة صورة شيخ قال : إنه إبراهيم الخليل ، ومنهم من يظن أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من الحجرة وكلمه . وجعلوا هذا من كراماته ، ومنهم من يعتقد أنه إذا سأل المقبور أجابه .

وبعضهم كان يحكي : أن ابن منده كان إذا أشـكل عليــه حديث جاء إلى الحجرة النبوية ودخل فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأجابه . وآخر من أهل المغرب حصل له مثل ذلك ، وجعل ذلك من كراماته ، حتى قال ابن عبـد البر لمن ظن ذلك : ويحك أترى هــذا أفضل من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصــار ؟ فهل فى هؤلاء من سأل النبي صلى الله عليه وســلم بعد الموت وأجابه ؟ وقــد تنازع الصحابة فى أشيــاء ، فهلا سألوا النبي صلى الله عليه وســلم فأجابهم ، وهذه ابنته فاطمة تنازع في ميراثه فهلا سألته فأجابها ؟

فصل

والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين قد أمرنا أن نؤمن بما أوتوه وأن نقتدي بهم وبهداهم . قال تعالى : (قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ)

وقال تعالى : (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ)

ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين لا نبي بعده ، وقد نسخ بشرعه ما نسخه من شرع غيره ، فلم يبق طريق إلى الله إلا باتباع محمد صلى الله عليه وسلم فما أمر به من العبادات أمر إيجاب أو استحباب فهو مشروع ، و [كذلك] ما رغب فيه وذكر ثوابه وفضله .

ولا يجوز أن يقال إن هذا مستحب أو مشروع إلا بدليل شرعي ولا يجوز أن يثبت شريعة بحديث ضعيف ، لكن إذا ثبت أن العمل مستحب بدليل شرعي ، وروي له فضائل بأسانيد ضعيفة جاز أن تروى إذا لم يعلم أنها كذب ، وذلك أن مقادير الثواب غير معلومة ، فإذا روي فى مقدار الثواب حديث لا يعرف أنه كذب لم يجز أن يكذب

به ، وهذا هو الذي كان الإمام أحمد بن حنبل وغيره يرخصون فيه وفى روايات أحاديث الفضائل . وأما أن يثبتوا أن هذا عمل مستحب مشروع بحديث ضعيف فحاشا لله ، كما أنهم إذا عرفوا أن الحديث كذب فإنهم لم يكونوا يستحلون روايته إلا أن يبينوا أنه كذب لقول النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « من روى عني حديثاً يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » .

وما فعله النبي صلى الله عليه وسلم على وجه التعبد فهو عبادة يشرع التأسي به فيه . فإذا خصص زمانا أو مكانا بعبادة كان تخصيصه بتلك العبادة سنة : كتخصيصه العشر الأواخر بالاعتكاف فيها وكتخصيصه مقام إبراهيم بالصلاة فيه ، فالتأسي به أن يفعل مثل مافعل ، على الوجه الذي فعل ؛ لأنه فعل .

وذلك إنما يكون بأن يقصد مثلما قصد ، فإذا سافر لحج أو عمرة أو جهاد وسافرنا كذلك كنا متبعين له ، وكذلك إذا ضرب لإقامة حد ؛ بخلاف من شاركه في السفر وكان قصده غير قصده ، أو شاركه في الضرب وكان قصده غير قصده ، فهذا ليس بمتابع له ، ولو فعل فعلا بحكم الاتفاق مثل نزوله فى السفر بمكان ، أو أن يفضل فى إداوته ماء فيصبه في أصل شجرة ، أو أن تمشي راحلته فى أحد جانبى الطريق ونحو ذلك ، فهل يستحب قصد متابعته في ذلك ؟ كان ابن عمر يحب أن

يفعل مثل ذلك . وأما الخلفاء الراشدون وجمهور الصحابة فلم يستحبوا ذلك ؛ لأن هذا ليس بمتابعة له ، إذ المتابعة لا بد فيها من القصد ، فإذا لم يقصد هو ذلك الفعل بل حصل له بحكم الاتفاق كان فى قصده غير متابع له وابن عمر رضي الله عنه يقول : وإن لم يقصده ؛ لكن نفس فعله حسن على أي وجه كان ، فأحب أن أفعل مثله ، إما لأن ذلك زيادة فى محبته وإما لبركة مشابهته له .

ومن هذا الباب إخراج التمر فى صدقة الفطر لمن ليس ذلك قوته وأحمد قد وافق ابن عمر على مثل ذلك ، ويرخص فى مثل ما فعله ابن عمر وكذلك رخص أحمد فى التمسح بمقعده من المنبر اتباعا لابن عمر . وعن أحمد فى التمسح بالمنبر روايتان :

أشهرهما أنه مكروه كقول الجمهور وأما مالك وغيره من العلماء فيكرهون هذه الأمور وإن فعلها ابن عمر ؛ فإن أكابر الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم لم يفعلها . فقد ثبت بالإسناد الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان فى السفر فرآهم ينتابون مكانا يصلون فيه فقال : ما هذا ؟ قالوا : مكان صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد ؟! إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، من أدركته فيه الصلاة فليصل فيه وإلا فليمض .

وهكذا للناس قولان فيما فعله من المباحات على غير وجـه القصد هل متابعته فيه مباحة فقط أو مستحبة ؟ على قولين في مذهب أحمد وغيره كما قد بسط ذلك في موضعـه، ولم يكن ابن عمر ولا غيره من الصحابة يقصدون الأماكن التى كان ينزل فيها ويبيت فيها مثل بيوت أزواجه ومثل مواضع نزوله فى مغازيه ، وإنما كان الـكلام فى مشابهته في صورة الفعل فقط ، وإن كان هو لم يقصد التعبد به ، فأما الأمكنة نفسها فالصحابة متفقون على أنه لا يعظم منها إلا ما عظمه الشارع .

فصـــــل

وأهل « العبادات البدعية » يزين لهم الشيطان تلك العبادات ويبغض إليهم السبل الشرعية حتى يبغضهم فى العلم والقرآن والحديث ، فلا يحبون سماع القرآن والحديث ولا ذكره ، وقد يبغض إليهم حتى الكتاب فلا يحبون كتابا ولا من معه كتاب ، ولو كان مصحفاً أو حديثاً ؛ كما حكى النصرباذي أنهم كانوا يقولون : يدع علم الخرق ويأخذ علم الورق، قال: وكنت أستر ألواحي منهم ، فلما كبرت احتاجوا إلى علمي .

وكذلك حكى السري السقطي : أن واحداً منهم دخل عليه فلما رأى عنده محبرة وقلما خرج ولم يقعد عنده ؛ ولهذا قال سهل بن عبد

الله التستري : يامعشر الصوفية لا تفارقوا السواد على البياض ، فما فارق أحد السواد على البياض إلا تزندق . وقال الجنيد : علمنا هذا مبني على الكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الشأن .

وكثير من هؤلاء ينفر ممن يذكر الشرع أو القرآن أو يكون معه كتاب أو يكتب ؛ وذلك لأنهم استشعروا أن هذا الجنس فيه ما يخالف طريقهم ، فصارت شياطينهم تهربهم من هذا ، كما يهرب اليهودي والنصراني ابنه أن يسمع كلام المسلمين حتى لا يتغير اعتقاده في دينه ، وكما كان قوم نوح يجعلون أصابعهم فى آذانهم ويستغشون ثيابهم لئلا يسمعوا كلامه ولا يروه . وقال الله تعالى عن المشركين : (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) وقال تعالى : (فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ) . وهم من أرغب الناس فى السماع البدعي سماع المعازف . ومن أزهدهم فى السماع الشرعي سماع آيات الله تعالى .

وكان مما زين لهم طريقهم أن وجدوا كثيراً من المشتغلين بالعلم والكتب معرضين عن عبادة الله تعالى وسلوك سبيله ، إما اشتغالا بالدنيا وإما بالمعاصي وإما جهلا وتكذيباً بما يحصل لأهل التأله والعبادة فصار وجود هؤلاء مما ينفرهم ، وصار بين الفريقين نوع تباغض يشبه

من بعض الوجوه ما بين أهل الملتين : هؤلاء يقولون ليس هؤلاء على شيء . وهؤلاء يقولون ليس هؤلاء على شيء ، وقد يظنون أنهم يحصل لهم بطريقهم أعظم مما يحصل فى الكتب .

فمنهم من يظن أنه يلقن القرآن بلا تلقين . ويحكون أن شخصاً حصل له ذلك ، وهذا كذب . نعم قد يكون سمع آيات الله فلما صفى نفسه تذكرها فتلاها . فإن الرياضة تصقل النفس فيذكر أشياء كان قد نسيها ، ويقول بعضهم أو يحكى أن بعضهم قال : أخذوا علمهم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت . وهذا يقع ، لكن منهم من يظن أنما يلقى إليه من خطاب أو خاطر هو من الله تعالى بلا واسطة ، وقد يكون من الشيطان وليس عندهم فرقان يفرق بين الرحماني والشيطاني ، فإن الفرق الذي لا يخطئ هو القرآن والسنة فما وافق الكتاب والسنة فهو حق وما خالف ذلك فهو خطأ .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾

وذكر الرحمن هو ما أنزله على رسوله قال تعالى : ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ وقال تعالى :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾

وقال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾

وقال تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

ثم إن هؤلاء لما ظنوا أن هذا يحصل لهم من الله بلا واسطة صاروا عند أنفسهم أعظم من اتباع الرسول . يقول أحدهم : فلان عطيته على يد محمد ، وأنا عطيتي من الله بلا واسطة . ويقول أيضاً : فلان يأخذ عن الكتاب ، وهذا الشيخ يأخذ عن الله ، ومثل هذا .

وقول القائل : « يأخذ عن الله ، وأعطاني الله » لفظ مجمل ، فإن

أراد به الإعطاء والأخذ العـام وهو « الكوني الخلقي » أي : بمشيئـة الله وقدرته حصل لي هذا ، فهو حق ، ولكن جميع الناس يشاركونه فى هذا ، وذلك الذي أخذ عن الكتاب هو أيضاً عن الله أخـذ بهـذا الاعتبار . والكفار من المشركين،وأهل الكتاب أيضاً هم كذلك ، وإن أراد أن هذا الذي حصل له هو مما يحبه الله ويرضاه ويقرب إليـه ، وهذا الخطاب الذي يلقى إليه هو كلام الله تعالى . فهنا طريقان :

(أحدهما) : أن يقال له من أين لك هذا؟إنما هو من الله لا من الشيطـان وإلقائه ووسوسته ؟ فإن الشياطين يوحون إلى أوليائهم وينزلون عليهم ، كما أخبر الله تعالى بذلك فى القرآن ، وهذا موجود كثيراً فى عباد المشركين،وأهل الكتاب وفى الكهان والسحرة ونحوهم وفى أهل البدع بحسب بدعتهم ، فإن هذه الأحوال قد تكون شيطانية وقد تكون رحمانية ، فلا بد من الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، والفرقان إنما هو الفرقان الذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم فهو : (ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا) وهو الذي فرق الله به بين الحق والبـاطل ، وبين الهدى والضلال ، وبين الرشاد والغي ، وبين طريق الجنة،وطريق النـار ، وبين سبيل أولياء الرحمن،وسبيل أولياء الشيطان . كما قد بسط الكلام على هـذا فى غير هذا الموضع .

و (المقصود هنا) أنه يقال لهم : إذا كان جنس هـذه الأحوال مشتركا بين أهل الحق وأهل الباطل فلا بد من دليل يبين أن ماحصل لـكم هو الحق .

(الطريق الثاني) أن يقال : بل هذا من الشيطان لأنه مخـالف لما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم؛ وذلك أنه ينظر فيما حصل له وإلى سببه وإلى غايته ، فإن كان السبب عبادة غير شرعية مثل أن يقال له ! : أسجد لهذا الصنم حتى يحصل لك المراد ، أو استشفع بصاحب هذه الصورة حتى يحصل لك المطلوب ، أو ادع هـذا المخلوق واستغث به مثل أن يدعو الـكواكب كما يذكرونه فى كتب دعوة الـكواكب ، أو أن يدعو مخلوقاً كما يدعو الخالق سواء كان المخلوق ملـكا أو نبيـاً أو شيخاً ، فإذا دعاه كما يدعو الخالق سبحانه إما دعاء عبادة وإما دعاء مسألة صار مشركا به ، فحينئذ ما حصل له بهذا السبب حصل بالشرك كما كان يحصل للمشركين .

وكانت الشياطين تتراءى لهم أحياناً ، وقد يخاطبونهم من الصنم ويخبرونهم ببعض الأمور الغـائبة . أو يقضون لهم بعض الحوائـج ، فكانوا يبذلون لهم هـذا النفع القليل بمـا اشتروه منهم من توحيدهم وإيمانهم الذي هلـكوا بزواله كالسحر قال الله تعالى : (وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ

وَزَوْجِهِۦۚ وَمَاهُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ) .

وكذلك قد يكون سببه سماع المعازف،وهـذا كما يذكر عن عثمان ابن عفان رضي الله عنه أنه قال : « اتقوا الخمر فإنها أم الخبائث ؛ وإن رجلا سأل امرأة فقالت : لا أفعل حتى تسجد لهذا الوثن ، فقال لا أشرك بالله ، فقالت : أو تقتل هذا الصبي ؟ فقال : لا أقتل النفس التى حرم الله ، فقالت : أو تشرب هذا القدح ؟ فقال هذا أهون ، فلما شرب الخمر قتل الصبي،وسجد للوثن وزنى بالمرأة » .

و « المعازف » هي خمر النفوس ، تفعل بالنفوس أعظم مما تفعل حميا الكؤوس ، فإذا سكروا بالأصوات حل فيهم الشرك ومالوا إلى الفواحش وإلى الظلم ، فيشركون ويقتلون النفس التى حرم الله ويزنون .

وهذه « الثلاثة » موجودة كثيراً فى أهل « سماع المعازف » : سماع المكاء والتصدية ، أما « الشرك » فغالب عليهم بأن يحبوا شيخهم، أو غيره مثل ما يحبون الله ويتواجدون على حبه .

وأما « الفواحش » فالغناء رقية الزنا ، وهو من أعظم الأسباب

لوقوع الفواحش ، ويكون الرجل والصبي والمرأة فى غاية العفة والحرية حتى يحضره ، فتنحل نفسه وتسهل عليه الفاحشة ويميل لها فاعلا أو مفعولا به أو كلاهما كما يحصل بين شاربي الخمر وأكثر..

وأما « القتل » فإن قتل بعضهم بعضاً فى السماع كثير يقولون : قتله بحاله ويعدون ذلك من قوته ، وذلك أن معهم شياطين تحضرهم فأيهم كانت شياطينه أقوى قتل الآخر ، كالذين يشربون الخمر ومعهم أعوان لهم فإذا شربوا عربدوا فأيهم كانت أعوانه أقوى قتل الآخر ، وقد جرى مثل هذا لكثير منهم ، ومنهم من يقتل إما شخصاً وإما فرساً أو غير ذلك بحاله ، ثم يقوم صاحب الثأر ويستغيث بشيخه فيقتل ذلك الشخص وجماعة معه : إما عشرة ، وإما أقل أو أكثر . كما جرى مثل هذا لغير واحد ، وكان الجهال يحسبون هذا من (باب الكرامات) .

فلما تبين لهم أن هذه أحوال شيطانية ، وأن هؤلاء معهم شياطين تعينهم على الإثم والعدوان عرف ذلك من بصره الله تعالى وانكشف التلبيس والغش الذي كان لهؤلاء .

وكنت فى أوائل عمري حضرت مع جماعة من أهل « الزهد والعبادة والإرادة » فكانوا من خيار أهل هذه الطبقة . فبتنا بمكان وأرادوا أن

يقيموا سماعا وأن أحضر معهم فامتنعت من ذلك فجعلوا لي مكانا منفرداً قعدت فيه ، فلما سمعوا وحصل الوجد والحال صار الشيخ الكبير يهتف بي فى حال وجده ويقول : يافلان قد جاءك نصيب عظيم تعال خذ نصيبك ، فقلت فى نفسي ثم أظهرته لهم لما اجتمعنا : أنتم فى حل من هذا النصيب فكل نصيب لا يأتي عن طريق محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فإني لا آكل منه شيئاً . وتبين لبعض من كان فيهم ممن له معرفة وعلم أنه كان معهم الشياطين ، وكان فيهم من هو سكران بالخمر .

والذي قلته معناه أن هذا النصيب وهذه العطية والموهبة والحال سببها غير شرعي ، ليس هو طاعة لله ورسوله ولا شرعها الرسول فهو مثل من يقول : تعال اشرب معنا الخمر ونحن نعطيك هذا المال ، أو عظم هذا الصنم ونحن نوليك هذه الولاية ونحو ذلك .

وقد يكون سببه نذراً لغير الله سبحانه وتعالى : مثل أن ينذر لصنم أو كنيسة ، أو قبر أو نجم ، أو شيخ ونحو ذلك من النذور التى فيها شرك ، فإذا أشرك بالنذر فقد يعطيه الشيطان بعض حوائجه كما تقدم فى السحر .

وهذا بخلاف النذر لله تعالى فإنه ثبت فى الصحيحين عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن النذر وقال : « إنه لا يأتى

بخير ، وإنما يستخرج به من البخيل » وفى الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه وفى رواية : « فإن النذر يلقي ابن آدم إلى القدر » فهذا المنهي عنه هو النذر الذي يجب الوفاء به منهي عن عقده ، ولكن إذا كان قد عقده فعليه الوفاء به كما فى صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه » .

وإنما نهى عنه صلى الله عليه وسلم لأنه لافائدة فيه إلا التزام ما التزمه وقد لايرضى به فيبقى آثماً . وإذا فعل تلك العبادات بلا نذر كان خيراً له ، والناس يقصدون بالنذر تحصيل مطالبهم ، فبين النبى صلى الله عليه وسلم أن النذر لا يأتى بخير ، فليس النذر سبباً فى حصول مطلوبهم ، وذلك أن الناذر إذا قال : لله علي إن حفظني الله القرآن أن أصوم مثلا ثلاثة أيام ، أو إن عافانى الله من هذا المرض ، أو إن دفع الله هذا العدو ، أو إن قضى عنى هذا الدين فعلت كذا ، فقد جعل العبادة التى التزمها عوضاً عن ذلك المطلوب . والله سبحانه لا يقضي تلك الحاجة بمجرد تلك العبادة المنذورة ، بل ينعم على عبده بذلك المطلوب ليبتليه أيشكر أم يكفر ؟ وشكره يكون بفعل ما أمره به وترك ما نهاه عنه .

وأما تلك العبادة المنذورة فلا تقوم بشكر تلك النعمة ولا ينعم الله تلك النعمة ليعبده العبد تلك العبادة المنذورة التى كانت مستحبة فصارت

واجبة ؛ لأنه سبحانه لم يوجب تلك العبادة ابتداء، بل هو يرضى من العبد بأن يؤدي الفرائض ويجتنب المحارم، لكن هذا الناذر يكون قد ضيع كثيراً من حقوق الله ثم بذل ذلك النذر لأجل تلك النعمة، وتلك النعمة أجل من أن ينعم الله بها لمجرد ذلك المبذول المحتقر.

وإن كان المبذول كثيراً والعبد مطيع لله : فهو أكرم على الله من أن يحوجه إلى ذلك المبذول الكثير ؛ فليس النذر سبباً لحصول مطلوبه كالدعاء، فإن الدعاء من أعظم الأسباب وكذلك الصدقة وغيرها من العبادات جعلها الله تعالى أسبابا لحصول الخير ودفع الشر إذا فعلها العبد ابتداء، وأما ما يفعله على وجه النذر فإنه لا يجلب منفعة ولا يدفع عنه مضرة، لكنه كان بخيلا فلما نذر لزمه ذلك، فالله تعالى يستخرج بالنذر من البخيل، فيعطي على النذر مالم يكن يعطيه بدونه والله أعلم .

سئل شيخ الإسلام

رحمه الله

ما عمل أهل الجنة ؟ وما عمل أهل النار ؟ .

فأجاب : الحمد لله رب العالمين .

« عمل أهل الجنة » الإيمان والتقوى ، وعمـل أهل النار الكفر والفسوق والعصيان ، فأعمـال أهل الجنـة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والإيمان بالقدر خيره وشره والشهادتان : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصـلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت . وأن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فإنه يراك .

ومن « أعمال أهل الجنة » : صدق الحديث ، وأداء الأمانة والوفاء بالعهد ، وبر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين والمملوك من الآدميين والبهائم .

ومن « أعمال أهل الجنة » الإخلاص لله والتوكل عليه ، والمحبة له ولرسوله ، وخشية الله ورجاء رحمته ، والإنابة إليه ، والصبر على حكمه والشكر لنعمه .

ومن « أعمال أهل الجنة » : قراءة القرآن وذكر الله ودعاؤه ومسألته والرغبة إليه .

ومن « أعمال أهل الجنة » : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله للكفار والمنافقين .

ومن « أعمال أهل الجنة » : أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك ؛ فإن الله أعد الجنة للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين .

ومن « أعمال أهل الجنة » : العدل فى جميع الأمور ، وعلى جميع الخلق حتى الكفار . وأمثال هذه الأعمال .

وأما « عمل أهل النار » : فمثل الإشراك بالله ، والتكذيب بالرسل والكفر والحسد ، والكذب والخيانة ، والظلم والفواحش ، والغدر وقطيعة ، الرحم والجبن عن الجهاد ، والبخل ، واختلاف السر والعلانية ، واليأس من

روح الله ، والأمن من مكر الله ، والجزع عند المصائب ، والفخر والبطر عند النعم ، وترك فرائض الله واعتداء حدوده ، وانتهاك حرماته ، وخوف المخلوق دون الخالق ، ورجاء المخلوق دون الخالق ، والتوكل على المخلوق دون الخالق ، والعمل رياء وسمعة ، ومخالفة الكتاب والسنة وطاعة المخلوق فى معصية الخالق ، والتعصب بالباطل ، والاستهزاء بآيات الله وجحد الحق ، والكتمان لما يجب إظهاره من علم وشهادة .

ومن « عمل أهل النار » السحر وعقوق الوالدين وقتل النفس التى حرم الله بغير الحق ، وأكل مال اليتيم وأكل الربا ، والفرار من الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

وتفصيل « الجملتين » لا يمكن ؛ لكن « أعمال أهل الجنة » كلها تدخل فى طاعة الله ورسوله ، و « أعمال أهل النار » كلها تدخل فى معصية الله ورسوله ، (وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ) والله أعلم .

وقال الشيخ رحمه الله

فصــــــل

وأما قوله : هل الأفضل للسالك العزلة أو الخلطة ؟

فهذه « المسألة » وإن كان الناس يتنازعون فيها ؟ إما نزاعاً كلياً وإما حالياً . فحقيقة الأمر : أن « الخلطة » تارة تكون واجبة أو مستحبة ، والشخص الواحد قد يكون مأموراً بالمخالطة تارة ، وبالانفراد تارة . وجماع ذلك : أن « المخالطة » إن كان فيها تعاون على البر والتقوى فهي مأمور بها ، وإن كان فيها تعاون على الإثم والعدوان فهي منهي عنها ، فالاختلاط بالمسلمين فى جنس العبادات :كالصلوات الخمس والجمعة والعيدين وصلاة الكسوف والاستسقاء ونحو ذلك هو مما أمر الله به ورسوله .

وكذلك الاختلاط بهم فى الحج وفى غزو الكفار والخوارج المارقين ، وإن كان أئمة ذلك فجاراً ، وإن كان فى تلك الجماعات فجار ،

وكذلك الاجتماع الذي يزداد العبد به إيماناً : إما لانتفاعه به ، وإما لنفعه له ، ونحو ذلك .

ولا بد للعبد من أوقات ينفرد بها بنفسه فى دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه ، وما يختص به من الأمور التى لا يشركه فيها غيره ، فهذه يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه ، إما فى بيته . كما قال طاووس : نعم صومعة الرجل بيته ، يكف فيها بصره ولسانه . وإما فى غير بيته .

فاختيار المخالطة مطلقاً خطأ ، واختيار الانفراد مطلقاً خطأ . وأما مقدار ما يحتاج إليه كل إنسان من هذا وهذا وما هو الأصلح له فى كل حال فهذا يحتاج إلى نظر خاص كما تقدم .

وكذلك « السبب وترك السبب » : فمن كان قادراً على السبب ، ولا يشغله عما هو أنفع له فى دينه فهو مأمور به ، مع التوكل على الله ، وهذا خير له من أن يأخذ من الناس ولو جاءه بغير سؤال ، وسبب مثل هذا عبادة الله ، وهو مأمور أن يعبد الله ويتوكل عليه ، فإن تسبب بغير نية صالحة ، أو لم يتوكل على الله ، فهو [غير][1] مطيع فى هذا وهذا ، وهذه [غير][2] طريق الأنبياء والصحابة .

وأما من كان من الفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون

---

(١) (٢) أضيفتا حسب مفهوم السياق

ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، فهذا إما أن يكون عاجزاً عن الكسب أو قادراً عليه بتفويت ما هو فيه أطوع لله من الكسب ، ففعل ما هو فيه أطوع هو المشروع فى حقه ، وهذا يتنوع بتنوع أحوال الناس .

وقد تقدم أن الأفضل يتنوع « تارة » بحسب أجناس العبادات ، كما أن جنس الصلاة أفضل من جنس القراءة ، وجنس القراءة أفضل من جنس الذكر ، وجنس الذكر أفضل من جنس الدعاء ، و « تارة » يختلف باختلاف الأوقات كما أن القراءة والذكر والدعاء بعد الفجر والعصر هو المشروع دون الصلاة .

و « تارة » باختلاف عمل الإنسان الظاهر ، كما أن الذكر والدعاء في الركوع والسجود هو المشروع دون القراءة ، وكذلك الذكر والدعاء فى الطواف مشروع بالاتفاق ، وأما القراءة في الطواف ففيها نزاع معروف .

و « تارة » باختلاف الأمكنة : كما أن المشروع بعرفة ومزدلفة وعند الجمار وعند الصفا والمروة هو الذكر والدعاء دون الصلاة ونحوها ، والطواف بالبيت للوارد أفضل من الصلاة ، والصلاة للمقيمين بمكة أفضل .

و « تارة » باختلاف مرتبة جنس العبادة : فالجهاد للرجال أفضل من الحج ، وأما النساء فجهادهن الحج ، والمرأة المتزوجة طاعتها لزوجها أفضل من طاعتها لأبويها ؛ بخلاف الأيمة فإنها مأمورة بطاعة أبويها .

و « تارة » يختلف باختلاف حال قدرة العبد وعجزه : فما يقدر عليه من العبادات أفضل فى حقه مما يعجز عنه ، وإن كان جنس المعجوز عنه أفضل ، وهذا باب واسع يغلو فيه كثير من الناس ، ويتبعون أهواءهم .

فإن من الناس من يرى أن العمل إذا كان أفضل في حقه لمناسبة له ولكونه أنفع لقلبه وأطوع لربه يريد أن يجعله أفضل لجميع الناس ، ويأمرهم بمثل ذلك .

والله بعث محمداً بالكتاب والحكمة ، وجعله رحمة للعباد وهدياً لهم يأمر كل إنسان بما هو أصلح له ، فعلى المسلم أن يكون ناصحاً للمسلمين يقصد لكل إنسان ما هو أصلح له .

وبهذا تبين لك أن من الناس من يكون تطوعه بالعلم أفضل له ، ومنهم من يكون تطوعه بالجهاد أفضل ، ومنهم من يكون تطوعه بالعبادات

البدنية ـــ كالصلاة والصيام ـــ أفضل له ، والأفضـــل المطلق ما كان أشبه بحـــال النبي صلى الله عليـــه وسلم باطنـــاً وظاهراً .

فإن خير الـكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم .

والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقال الشيخ[1]

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليما كثيراً .

أما بعد : اعلم أنه يجب على كل بالغ عاقل من الإنس والجن أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً . أرسله إلى جميع الخلق : إنسهم وجنهم، وعربهم وعجمهم ، وفرسهم وهندهم ،وبربرهم ورومهم ، وسائر أصناف العجم أسودهم وأبيضهم ، والمراد بالعجم من ليس بعربى على اختلاف ألسنتهم .

فمحمد صلى الله عليه وسلم أرسل إلى كل أحد من الإنس والجن كتابيهم وغير كتابيهم ، فى كل ما يتعلق بدينه من الأمور الباطنة والظاهرة ، فى عقائده وحقائقه ، وطرائقه وشرائعه ، فلا عقيدة إلا عقيدته ولا حقيقة إلا حقيقته ، ولا طريقة إلا طريقته ولا شريعة إلا شريعته ولا يصل أحد من الخلق إلى الله وإلى رضوانه وجنته وكرامته

---

(١) « مسألة فى اتباع الرسول بصريح المعقول » .

وولايته إلا بمتابعته باطنا وظاهراً فى الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة فى أقوال القلب وعقائده، وأحوال القلب وحقائقه، وأقوال اللسان وأعمال الجوارح.

وليس لله ولي إلا من اتبعه باطناً، وظاهراً، فصدقه فيما أخبر به من الغيوب، والتزم طاعته فيما فرض على الخلق من أداء الواجبات وترك المحرمات. فمن لم يكن له مصدقا فيما أخبر ملتزماً طاعته فيما أوجب، وأمر به فى الأمور الباطنة التى فى القلوب والأعمال الظاهرة التى على الأبدان لم يكن مؤمناً فضلا عن أن يكون ولياً لله ولو حصل له من خوارق العادات ماذا عسى أن يحصل فإنه لايكون مع تركه لفعل المأمور وترك المحظور من أداء الواجبات من الصلاة وغيرها بطهارتها وواجباتها إلا من أهل الأحوال الشيطانية، المبعدة لصاحبها عن الله، المقربة إلى سخطه وعذابه.

لكن من ليس بمكلف من الأطفال والمجانين قد رفع القلم عنهم، فلا يعاقبون وليس لهم من الإيمان بالله وتقواه باطناً وظاهراً مايكونون به من أولياء الله المتقين، وحزبه المفلحين وجنده الغالبين، لكن يدخلون فى الإسلام تبعاً لآبائهم كما قال تعالى: (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِىٕۭ۟ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ).

وهم مع عدم العقل لا يكونون ممن فى قلوبهم حقائق الإيمان ومعارف أهل ولاية الله وأحوال خواص الله ؛ لأن هذه الأمور كلهــا مشروطة بالعقل ؛ فالجنون مضاد العقل والتصديق والمعرفة واليقين والهدى والثناء ، وإنما يرفــع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات . فالمجنون وإن كان الله لا يعاقبه ويرحمه فى الآخرة فإنه لايكون من أولياء الله المقربين والمقتصدين الذين يرفع الله درجاتهم .

ومن ظن أن أحداً من هؤلاء الذين لايؤدون الواجبــات ، ولا يتركون المحرمات سواء كان عاقلا أو مجنوناً أو مولها أو متولهاً ، فمن اعتقد أن أحداً من هؤلاء من أولياء الله المتقين ، وحزبه المفلحين ، وعباده الصالحــين وجنده الغالبين ، السابقين ، المقربين والمقتصدين الذين يرفع الله درجاتهم بالعلم والإيمان مع كونه لايؤدي الواجبات ولا يترك المحرمات ، كان المعتقد لولاية مثل هذا كافراً مرتداً عن دين الإســلام ، غــير شاهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليــه وسلم ، بل هو مكذب لمحمد صلى الله عليــه وسلم فيما شهد به ؛ لأن محمداً أخــبر عن الله أن أوليــاء الله هم المتقون المؤمنون قال تعالى : (أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ) وقال تعــالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ) .

و « التقوى » أن يعمل الرجل بطاعة الله على نور من الله يرجو رحمة الله ، وأن يترك معصية الله على نور من الله يخاف عذاب الله ، ولا يتقــرب ولي الله إلا بأداء فرائضــه ، ثم بأداء نوافله . قال تعــالى : « وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليــه ، ولا يزال عبــدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبــه » كما جاء فى الحديث الصحيح الإلهي . الذي رواه البخاري .

فصـــــل

ومن أحب الأعمال إلى الله وأعظم الفرائض عنده الصلوات الخمس فى مواقيتها ، وهي أول ما يحاسب عليها العبد من عمله يوم القيامة ، وهي التى فرضها الله تعالى بنفسه ليلة المعراج لم يجعل فيها بينه وبين محمد واسطة ، وهي عمود الإسلام الذي لا يقوم إلا به ، وهي أهم أمر الدين كما كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يكتب إلى عماله : إن أهم أمركم عندي الصلاة ، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة » وقال : « العهــد الذي بيننا وبينهــم

الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » . فمن لم يعتقد وجوبها على كل عاقل بالغ غير حائض ونفساء فهو كافر مرتد باتفاق أئمة المسلمين ، وإن اعتقد أنها عمل صالح وأن الله يحبها ويثيب عليها وصلى مع ذلك وقام الليل وصام النهار وهو مع ذلك لا يعتقد وجوبها على كل بالغ فهو أيضاً كافر مرتد ، حتى يعتقدَ أنها فرض واجب على كل بالغ عاقل .

ومن اعتقد أنها تسقط عن بعض الشيوخ : العارفين والمكاشفين والواصلين ؛ أو أن لله خواصاً لا تجب عليهم الصلاة ؛ بل قد سقطت عنهم لوصولهم إلى حضرة القدس ، أو لاستغنائهم عنها بما هو أهم منها أو أولى . أو أن المقصود حضور القلب مع الرب ، أو أن الصلاة فيها تفرقة فإذا كان العبد فى جمعيته مع الله فلا يحتاج إلى الصلاة ؛ بل المقصود من الصلاة هي المعرفة ، فإذا حصلت لم يحتج إلى الصلاة، فإن المقصود أن يحصل لك خرق عادة كالطيران فى الهواء ، والمشي على الماء أو ملء الأوعية ماء من الهواء أو تغوير المياه واستخراج ما تحتها من الكنوز ، وقتل من يبغضه بالأحوال الشيطانية . فمتى حصل له ذلك استغنى عن الصلاة ونحو ذلك .

أو أن لله رجالاً خواصاً لا يحتاجون إلى متابعة محمد صلى الله عليه وسلم بل استغنوا عنه كما استغنى الخضر عن موسى . أو أن كل

مــن كاشف وطار في الهواء أو مشى على الماء فهو ولي سواء صــلى أو لم يصل .

أو اعتقد أن الصلاة تقبل من غير طهارة ، أو أن المولهين والمتولهين والمجانين الذين يكونون فى المقابر والمزابل والطهارات والخانات والقمامين وغير ذلك من البقاع وهم لا يتوضئون ولا يصلون الصلوات المفروضات. فمن اعتقد أن هؤلاء أولياء الله فهو كافر مرتد عن الإسلام باتفاق أئمـة الإسلام ، ولو كان فى نفسه زاهداً عابداً . فالرهبان أزهد وأعبد ،وقد آمنوا بكثير مما جاء به الرسول ، وجمهورهم يعظمون الرسول ويعظمون اتباعه ولكنهم لم يؤمنــوا بجميــع ما جاء به ، بل آمنــوا ببعض وكفروا ببعض ، فصاروا بذلك كافرين كما قال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا) .

ومن كان مسلوب العقل أو مجنوناً فغايته أن يكون القلم قد رفـع عنــه ، فليس عليه عقاب ، ولا يصح إيمانه ولا صلاته ولا صيـامه ولا شيء من أعماله ؛ فإن الأعمال كلها لا تقبل إلا مع العقل . فمن لا عقل

له لا يصح شيء من عباداته لا فرائضه ولا نوافله ، ومن لا فريضة له ولا نافلة ليس من أولياء الله ؛ ولهذا قال تعالى : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ) أي العقول وقال تعالى : (هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ) أي لذى عقل . وقال تعالى : (وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ) وقال : (إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ) وقال تعالى : (إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) .

فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل . فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط . بل قال تعالى عن أهل النار : (وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ) وقال تعالى : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ) وقال : (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) .

فمن لا عقل له لا يصح إيمانه ولا فرضه ولا نفله ، ومن كان يهودياً أو نصرانياً ثم جن وأسلم بعد جنونه لم يصح إسلامه لا باطناً ولا ظاهراً . ومن كان قد آمن ثم كفر وجن بعد ذلك فحكمه حكم الكفار . ومن كان مؤمناً ثم جن بعد ذلك أثيب على إيمانه الذي كان فى

حال عقله ، ومن ولد مجنوناً ثم استمر جنونه لم يصح منه إيمان ولا كفر . وحكم المجنون حكم الطفل إذا كان أبواه مسلمين كان مسلماً تبعاً لأبويه باتفاق المسلمين ، وكذلك إذا كانت أمه مسلمة عند جمهور العلماء كأبي حنيفة والشافعي وأحمد .

وكذلك من جن بعد إسلامه يثبت لهم حكم الإسلام تبعاً لآبائهم. وكذلك المجنون الذي ولد بين المسلمين يحكم له بالإسلام ظاهراً تبعاً لأبويه أو لأهل الدار كما يحكم بذلك للأطفال . لا لأجل إيمان قام به فأطفال المسلمين ومجانينهم يوم القيامة تبع لآبائهم ، وهذا الإسلام لا يوجب له مزية على غيره ، ولا أن يصير به من أولياء الله المتقين الذين يتقربون إليه بالفرائض والنوافل . وقد قال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟) فنهى الله عز وجل عن قربان الصلاة إذا كانوا سكارى حتى يعلموا ما يقولون .

وهذه الآية نزلت باتفاق العلماء قبل أن تحرم الخمر بالآية التى أنزلها الله فى « سورة المائدة » . وقد روى أنه كان سبب نزولها : أن بعض الصحابة صلى بأصحابه وقد شرب الخمر قبل أن تحرم فخلط فى القراءة ، فأنزل الله هذه الآية ؛ فإذا كان قد حرم الله الصلاة مع السكر والشرب الذي لم يحرم حتى يعلموا ما يقولون ، علم أن ذلك يوجب أن لا يصلي

أحد حتى يعلم ما يقول . فمن لم يعلم ما يقول لم تحل له الصلاة ، وإن كان عقله قد زال بسبب غير محرم ؛ ولهذا اتفق العلماء على أنه لا تصح صلاة من زال عقله بأي سبب زال ، فكيف بالمجنون ؟ !

وقد قال بعض المفسرين — وهو يروى عن الضحاك — لاتقربوها وأنتم سكارى من النوم . وهذا إذا قيل إن الآية دلت عليه بطريق الاعتبار أو شمول معنى اللفظ العام ، وإلا فلا ريب أن سبب نزول الآية كان السكر من الخمر . واللفظ صريح فى ذلك ؛ والمعنى الآخر صحيح أيضاً . وقد ثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا قام أحدكم يصلي بالليل فاستعجم القرآن على لسانه فليرقد ، فإنه لا يدري لعله يريد أن يستغفر فيسب نفسه — وفى لفظ — إذا قام يصلي فنعس فليرقد » .

فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة مع النعاس الذي يغلط معه الناعس . وقد احتج العلماء بهذا على أن النعاس لا ينقض الوضوء ؛ إذ لو نقض بذلك لبطلت الصلاة ، أو لوجب الخروج منها لتجديد الطهارة ، والنبي صلى الله عليه وسلم إنما علل ذلك بقوله « فإنه لا يدري لعله يريد أن يستغفر فيسب نفسه » فعلم أنه قصد النهي عن الصلاة لمن لا يدري ما يقول وإن كان ذلك بسبب النعاس . وطرد ذلك أنه ثبت عنه فى الصحيح أنه قال : « لا يصلي

أحدكم وهو يدافع الأخبثين ولا بحضرة طعام» لما فى ذلك من شغل القلب . وقال أبو الدرداء : من فقه الرجل أن يبدأ بحاجته فيقضيها ثم يقبل على صلاته وقلبه فارغ .

فإذا كانت الصلاة محرمة مع ما يزيل العقل ولو كان بسبب مباح حتى يعلم ما يقول كانت صلاة المجنون ومن يدخل فى مسمى المجنون وإن سمى مولها أو متولها أولى أن لا تجوز صلاته .

ومعلوم أن الصلاة « أفضل العبادات » كما فى الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال : « قلت : للنبي صلى الله عليه وسلم أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : الصلاة على وقتها . قلت : ثم أي ؟ قال : بر الوالدين . قلت : ثم أي ؟ قال : الجهاد . قال حدثني بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو استزدته لزادني » . وثبت أيضاً فى الصحيحين عنه أنه جعل أفضل الأعمال إيمان بالله ، وجهاد فى سبيله ، ثم الحج المبرور . ولا منافاة بينهما ؛ فإن الصلاة داخلة فى مسمى الإيمان بالله ، كما دخلت في قوله تعالى : (وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ) قال البراء ابن عازب وغيره من السلف : أي صلاتكم إلى بيت المقدس .

ولهذا كانت الصلاة كالإيمان لا تدخلها النيابة بحال فلا يصلى أحد عن أحد الفرض لا لعذر ولا لغير عذر . كما لا يؤمن أحد عنه ، ولا

تسقط بحال كما لا يسقط الإيمان ؛ بل عليه الصلاة ما دام عقله حاضراً وهو متمكن من فعل بعض أفعالها ، فإذا عجز عن جميع الأفعال ولم يقدر على الأقوال فهل يصلي بتحريك طرفه ويستحضر الأفعال بقلبه ؟ فيه قولان للعلماء ، وإن كان الأظهر أن هذا غير مشروع .

فإذا كان كذلك تبين أن من زال عقله فقد حرم ما يتقرب به إلى الله من فرض ونفل ، و « الولاية » هي الإيمان والتقوى المتضمنة للتقرب بالفرائض والنوافل ؛ فقد حرم ما به يتقرب أولياء الله إليه ؛ لكنه مع جنونه قد رفع القلم عنه فلا يعاقب ، كما لا يعاقب الأطفال والبهائم ؛ إذ لا تكليف عليهم فى هذه الحال . ثم إن كان مؤمناً قبل حدوث الجنون به وله أعمال صالحة وكان يتقرب إلى الله بالفرائض والنوافل قبل زوال عقله كان له من ثواب ذلك الإيمان والعمل الصالح ما تقدم ، وكان له من ولاية الله تعالى بحسب ما كان عليه من الإيمان والتقوى ، كما لا يسقط ذلك بالموت ؛ بخلاف ما لو ارتد عن الإسلام ؛ فإن الردة تحبط الأعمال ، وليس من السيئات ما يحبط الأعمال الصالحة إلا الردة . كما أنه ليس من الحسنات ما يحبط جميع السيئات إلا التوبة ، فلا يكتب للمجنون حال جنونه مثل ما كان يعمل في حال إفاقته ، كما لا يكون مثل ذلك لسيئاته فى زوال عقله بالأعمال المسكرة والنوم ؛ لأنه فى هذه الحال ليس له قصد صحيح ، ولكن في الحديث

الصحيح عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم » .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فى غزوة تبوك « إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ، قالوا : وهم بالمدينة ؟! قال : وهم بالمدينة حبسهم العذر » فهؤلاء كانوا قاصدين للعمل الذي كانوا يعملونه راغبين فيه لكن عجزوا فصاروا بمنزلة العامل ؛ بخلاف من زال عقله فإنه ليس له قصد صحيح ولا عبادة أصلا ، بخلاف أولئك فإن لهم قصداً صحيحاً يكتب لهم به الثواب .

وأما إن كان قبل جنونه كافراً أو فاسقاً أو مذنباً لم يكن حدوث الجنون به مزيلا لما ثبت من كفره وفسقه ، ولهذا كان من جن من اليهود والنصارى بعد تهوده وتنصره محشوراً معهم ، وكذلك من جن من المسلمين بعد إيمانه وتقواه محشوراً مع المؤمنين من المتقين . وزوال العقل بجنون أو غيره سواء سمى صاحبه مولهاً أو متولهاً لا يوجب مزيد حال صاحبه من الإيمان والتقوى ، ولا يكون زوال عقله سبباً لمزيد خيره ولا صلاحه ولا ذنبه ؛ ولكن الجنون يوجب زوال العقل ، فيبقى على ما كان عليه من خير وشر ، لا أنه يزيده ولا ينقصه ، لكن جنونه يحرمه الزيادة من الخير ، كما أنه يمنع عقوبته على الشر .

وأما إن كان زوال عقله بسبب محرم : كشرب الخمر ، وأكل الحشيشة ، أو كان يحضر السماع الملحن فيستمع حتى يغيب عقله ، أو الذي يتعبد بعبادات بدعية حتى يقترن به بعض الشياطين فيغيروا عقله أو يأكل بنجاً يزيل عقله ، فهؤلاء يستحقون الذم والعقاب على ما أزالوا به العقول . وكثير من هؤلاء يستجلب الحال الشيطانى بأن يفعل ما يحبه فيرقص رقصاً عظيما حتى يغيب عقله ، أو يغط ويخور حتى يجيئه الحال الشيطاني ، وكثير من هؤلاء يقصد التوله حتى يصير مولهاً . فهؤلاء كلهم من حزب الشيطان وهذا معروف عن غير واحد منهم .

واختلف العلماء هل هم « مكلفون » فى حال زوال عقلهم ؟ والأصل « مسألة السكران » والمنصوص عن الشافعي وأحمد وغيرهما أنه مكلف حال زوال عقله . وقال كثير من العلماء ليس مكلفاً ، وهو أحد القولين فى مذهب الشافعي وأحمد وإحدى الروايتين عن أحمد أن طلاق السكران لا يقع وهذا أظهر القولين . ولم يقل أحد من العلماء أن هؤلاء الذين زال عقلهم بمثل هذا يكونون من أولياء الله الموحدين المقربين وحزبه المفلحين . ومن ذكره العلماء من عقلاء المجانين الذين ذكروهم بخير فهم من القسم الأول الذين كان فيهم خير ثم زالت عقولهم .

ومن « علامة هؤلاء » أنهم إذا حصل لهم فى جنونهم نوع من الصحو

تكلموا بما كان فى قلوبهم من الإيمان ، لا بالكفر والبهتان بخلاف غيرهم ممن يتكلم إذا حصل له نوع إفاقة بالكفر والشرك ، ويهذى فى زوال عقله بالكفر فهذا إنما يكون كافراً لا مسلماً ، ومن كان يهذى بكلام لا يعقل بالفارسية أو التركية أو البربرية وغير ذلك مما يحصل لبعض من يحضر السماع ويحصل له وجد يغيب عقله حتى يهذي بكلام لا يعقل — أو بغير العربية — فهؤلاء إنما يتكلم على ألسنتهم الشيطان كما يتكلم على لسان المصروع .

ومن قال : إن هؤلاء أعطاهم الله عقولاً وأحوالاً فأبقى أحوالهم وأذهب عقولهم وأسقط ما فرض عليهم بما سلب .

قيل : قولك وهب الله لهم أحوالاً كلام مجمل ؛ فإن الأحوال تنقسم إلى : حال رحماني ، وحال شيطاني ، وما يكون لهؤلاء من خرق عادة بمكاشفة وتصرف عجيب ، « فتارة » يكون من جنس ما يكون للسحرة والكهان ، و « تارة » يكون من الرحمن من جنس ما يكون من أهل التقوى والإيمان : فإن كان هؤلاء فى حال عقولهم كانت لهم مواهب إيمانية ، وكانوا من المؤمنين المتقين فلا ريب أنه إذا زالت عقولهم سقطت عنهم الفرائض بما سلب من العقول ، وإن كان ما أعطوه من الأحوال الشيطانية — كما يعطاه المشركون وأهل الكتاب والمنافقون — فهؤلاء إذا زالت عقولهم لم يخرجوا بذلك مما كانوا عليه من الكفر والفسوق ، كما لم يخرج الأولون عما كانوا عليه من الإيمان

والتقوى كما أن نوم كل واحد من الطائفتين وموته وإغمـاءه لا يزيل حكم ما تقدم قبل زوال عقله من إيمانه وطاعته أو كفره وفسقه بزوال العقل ، غايته أن يسقط التكليف .

ورفع القلم لا يوجب حمداً ولا مدحاً ولا ثواباً ولا يحصل لصاحبه بسبب زوال عقله موهبة من مواهب أولياء الله ، ولا كرامة من كرامات الصالحين ، بل قد رفع القلم عنه كما قد يرفع القلم عن النائم والمغمى عليه والميت ولا مدح في ذلك ولا ذم ، بل النـائم أحسن حالاً من هؤلاء ؛ ولهذا كان الأنبياء عليهم السلام ينامون وليس فيهم مجنون ولا موله ، والنبي صلى الله عليه وسلم يجوز عليه النوم والإغماء ، ولا يجوز عليه الجنون ، وكان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم تنام عيناه ولا ينام قلبه وقد أغمي عليه في مرضه .

وأما « الجنون » فقد نزه الله أنبياءه عنه ؛ فإنه من أعظم نقائص الإنسان ؛ إذ كمـال الإنسان بالعقل ، ولهذا حرم الله إزالة العقل بـكل طريق ، وحرم ما يكون ذريعــة إلى إزالة العقل ، كشرب الخمر ؛ فحرم القطرة منها وإن لم تزل العقل ؛ لأنها ذريعـة إلى شرب الـكثير الذي يزيل العقل ، فـكيف يـكون مع هــذا زوال العقل سبباً أو شرطـاً أو مقربا إلى ولاية الله كمـا يظنه كثير من أهــل الضلال ؟! حتى قال قائلهم في هؤلاء :

هم معشر حلوا النظام وخرقوا السـ

ـياج فلا فرض لديهم ولا نفل

مجانين إلا أن سر جنونهم

عزيز على أبوابه يسجد العقل

فهذا كلام ضال ؛ بل كافر .. يظن أن للمجنون سراً يسجد العقل على بابه ؛ وذلك لما رآه من بعض المجانين من نوع مكاشفة أو تصرف عجيب خارق للعادة . ويكون ذلك بسبب ما اقترن به من الشياطين كما يكون للسحرة والكهان ، فيظن هذا الضال أن كل من كاشف أو خرق عادة كان وليا لله . ومن اعتقد هذا فهو كافر بإجماع المسلمين واليهود والنصارى ؛ فإن كثيراً من الكفار والمشركين فضلا عن أهل الكتاب يكون لهم من المكاشفات وخرق العادات بسبب شياطينهم أضعاف ما لهؤلاء ؛ لأنه كلما كان الرجل أضل وأكفر كان الشيطان إليه أقرب ؛ لكن لا بد فى جميع مكاشفة هؤلاء من الكذب والبهتان . ولا بد فى أعمالهم من فجور وطغيان ، كما يكون لإخوانهم من السحرة والكهان ، قال الله تعالى : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

فكل من تنزلت عليه الشياطين لا بد أن يكون فيه كذب

وفجور ، من أي قسم كان . والنبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر أن أولياء الله هم الذين يتقربون إليه بالفرائض ، وحزبه المفلحون ، وجنده الغالبون ، وعباده الصالحون . فمن اعتقد فيمن لا يفعل الفرائض ولا النوافل أنه من أولياء الله المتقين إما لعدم عقله أو جهله أو لغير ذلك فمن اعتقد فى مثل هؤلاء أنه من أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين فهو كافر مرتد عن دين رب العالمين ، وإذا قال : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله كان من الكاذبين الذين قيل فيهم : (إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ * ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ) .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من ترك ثلاث جمع تهاونا من غير عذر طبع الله على قلبه » فإذا كان طبع على قلب من ترك الجمع وإن صلى الظهر ، فكيف بمن لا يصلي ظهراً ولا جمعة ولا فريضة ولا نافلة ولا يتطهر للصلاة لا الطهارة الكبرى ولا الصغرى ؟! فهذا لو كان قبل مؤمناً ، وكان قد طبع على قلبه كان كافراً مرتداً بما تركه ولم يعتقد وجوبه من هذه الفرائض ، وإن اعتقد أنه مؤمن كان كافراً مرتداً ، فكيف يعتقد أنه من أولياء

الله المتقين . وقد قال تعالى فى صفة المنافقين : (ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ) اي : استولى ، يقال : حاذ الإبل حوذاً إذا استاقها ، فالذين استحوذ عليهم الشيطان فساقهم إلى خلاف ما أمر الله به ورسوله قال تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) أي تزعجهم إزعاجا ، فهؤلاء (ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ) .

وفى السنن عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « ما من ثلاثة فى قرية لا يؤذن ولا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان » . فأي ثلاثة كانوا من هؤلاء لا يؤذن ولا تقام فيهم الصلاة كانوا من حزب الشيطان الذين استحوذ عليهم لا من أولياء الرحمن الذين أكرمهم ؛ فإن كانوا عباداً زهاداً ولهم جوع وسهر وصمت وخلوة كرهبان الديارات والمقيمين فى الكهوف والمغارات كأهل جبل لبنان وأهل جبل الفتح الذي باسون ، وجبل ليسون ، ومغارة الدم بجبل قاسيون ، وغير ذلك من الجبال والبقاع التى يقصدها كثير من العباد الجهال الضلال ويفعلون فيها خلوات ورياضات من غير أن يؤذن ، وتقام فيهم الصلاة الخمس بل يتعبدون بعبادات لم يشرعها الله ورسوله بل يعبدونه بأذواقهم ومواجيدهم من غير اعتبار لأحوالهم بالكتاب والسنة

ولا قصد المتابعة لرسول الله الذي قال الله فيه : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) الآية ، فهؤلاء أهل البدع والضلالات من حزب الشيطان لا من أولياء الرحمن . فمن شهد لهم بولاية الله فهو شاهد زور كاذب وعن طريق الصواب ناكب .

ثم إن كان قد عرف أن هؤلاء مخالفون للرسول ، وشهد مع ذلك أنهم من أولياء الله فهو مرتد عن دين الاسلام إما مكذب للرسول ، وإما شاك فيما جاء به مرتاب وإما غير منقاد له بل مخالف له إما جحوداً أو عناداً أو اتباعا لهواه وكل من هؤلاء كافر .

وأما إن كان جاهلا بما جاء به الرسول ، وهو معتقد مع ذلك أنه رسول الله إلى كل أحد فى الأمور الباطنة والظاهرة وأنه لا طريق إلى الله إلا بمتابعته صلى الله عليه وسلم ، لكن ظن أن هذه العبادات البدعية والحقائق الشيطانية هي مما جاء بها الرسول ولم يعلم أنها من الشيطان ، لجهله بسنته وشريعته ومنهاجه وطريقته وحقيقته ؛ لا لقصد مخالفته ، ولا يرجو الهدى فى غير متابعته ، فهذا يبين له الصواب ويعرف ما به من السنة والكتاب ، فإن تاب وأناب وإلا ألحق بالقسم الذي قبله وكان كافراً مرتداً ، ولا تنجيه عبادته ولا زهادته من عذاب الله ، كما لم ينج من ذلك الرهبان وعباد الصلبان وعباد النيران وعباد الأوثان ، مع كثرة من فيهم ممن له خوارق شيطانية ، ومكاشفات شيطانية قال

تعالى : (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) .

قال سعد بن أبي وقاص وغيره من السلف نزلت في أصحاب الصوامع والديارات. وقد روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره أنهم كانوا يتأولونها فى الحرورية ونحوهم من أهل البدع والضلالات . وقال تعالى : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) فالأفاك هو الكذاب والأثيم الفاجر كما قال : (لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ) .

ومن تكلم فى الدين بلا علم كان كاذبا وإن كان لا يتعمد الكذب ، كما ثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم لما قالت له سبيعة الأسلمية وقد توفى عنها زوجها سعد بن خولة في حجة الوداع فكانت حاملا فوضعت بعد موت زوجها بليال قلائل ، فقال لها أبو السنابل بن بعكك : ما أنت بناكحة حتى يمضى عليك آخر الأجلين فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « كذب أبو السنابل ، بل حللت فانكحي » وكذلك لما قال سلمة بن الأكوع إنهم يقولون : أن عامراً قتل نفسه وحبط عمله فقال : « كذب من قالها ؛ إنه لجاهد مجاهد » وكان قائل ذلك لم يتعمد الكذب فإنه كان رجلا صالحاً ، وقد روى أنه كان أسيد بن الحضير ؛ لكنه لما تكلم بلا علم كذبه النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد قال أبو بكر وابن مسعود وغيرهما من الصحابة فيما يفتون فيه باجتهادهم : إن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فهو مني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه . فإذا كان خطأ المجتهد المغفور له هو من الشيطان فكيف بمن تكلم بلا اجتهاد يبيح له الكلام فى الدين ؟ فهذا خطؤه أيضاً من الشيطان مع أنه يعاقب عليه إذا لم يتب ، والمجتهد خطؤه من الشيطان وهو مغفور له ؛ كما أن الاحتلام والنسيان وغير ذلك من الشيطان وهو مغفور بخلاف من تكلم بلا اجتهاد يبيح له ذلك ، فهذا كاذب آثم فى ذلك ، وإن كانت له حسنات في غير ذلك فإن الشيطان ينزل على كل إنسان ويوحي إليه بحسب موافقته له ، ويطرد بحسب إخلاصه لله وطاعته له قال تعالى : (إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ) .

وعباده هم الذين عبدوه بما أمرت به رسله من أداء الواجبات المستحبات ، وأما من عبده بغير ذلك فإنه من عباد الشيطان ؛ لا من عباد الرحمن . قال تعالى : (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ) .

والذين يعبدون الشيطان أكثرهم لا يعرفون أنهم يعبدون الشيطان بل قد يظنون أنهم يعبدون الملائكة أو الصالحين ، كالذين يستغيثون بهم

ويسجدون لهم فهم في الحقيقة إنما عبدوا الشيطان وإن ظنوا أنهم يتوسلون ويستشفعون بعباد الله الصالحين . قال تعالى : (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ) .

ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها ؛ فإن الشيطان يقارنها حينئذ حتى يكون سجود عباد الشمس له ، وهم يظنون أنهم يسجدون للشمس وسجودهم للشيطان ، وكذلك أصحاب دعوات الكواكب الذين يدعون كوكباً من الكواكب ويسجدون له ويناجونه ويدعونه ويصنعون له من الطعام واللباس والبخور والتبركات(١) ما يناسبه ، كما ذكره صاحب « السر المكتوم » المشرقي ، وصاحب « الشعلة النورانية » البوني المغربي وغيرهما ؛ فإن هؤلاء تنزل عليهم أرواح تخاطبهم وتخبرهم ببعض الأمور وتقضي لهم بعض الحوائج ويسمون ذلك روحانية الكواكب .

ومنهم من يظن أنها ملائكة وإنما هي شياطين تنزل عليهم ، قال تعالى : (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ) وذكر الرحمن هو الذي أنزله وهو الكتاب والسنة اللذان قال الله فيهما (وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ)

---

(١) نسخة والتسبيحات .

وقال تعالى : (لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ)

وقال تعالى : (هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ) وهو الذكر الذي قال الله فيه : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ) فمن أعرض عن هـذا الذكر وهو الكتاب والسنة قيض له قرين من الشياطين فصار من أولياء الشيطان بحسب ما تابعه .

وإن كان موالياً للرحمن تارة وللشيطان أخرى كان فيه من الإيمان وولاية الله بحسب ما والى فيه الرحمن ، وكان فيه من عداوة الله والنفاق بحسب ما والى فيه الشيطان ، كما قال حذيفة بن اليمان القلوب « أربعة » قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن . وقلب أغلف فذلك قلب الكافر ــ و « الأغلف » الذي يلف عليه غلاف . كما قال تعالى عن اليهود : (وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ) وقد تقدم قوله صلى الله عليه وسلم « من ترك ثلاث جمع طبع الله على قلبه » ــ وقلب منكوس فذلك قلب المنافق . وقلب فيه مادتان : مادة تمده للإيمان ومادة تمده للنفاق فأيهما غلب كان الحكم له . وقد روى هذا فى « مسند الإمام أحمد » مرفوعا .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى

الله عليه وسلم أنه قال : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن القلب يكون فيه شعبة نفاق ، وشعبة إيمان . فإذا كان فيه شعبة نفاق كان فيه شعبة من ولايته وشعبة من عداوته ؛ ولهذا يكون بعض هؤلاء يجري على يديه خوارق من جهة إيمانه بالله وتقواه تكون من كرامات الأولياء ، وخوارق من جهة نفاقه وعداوته تكون من أحوال الشياطين ؛ ولهذا أمرنا الله تعالى : أن نقول كل صلاة : (ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ) .

و « المغضوب عليهم » هم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه ، و « الضالون » الذين يعبدون الله بغير علم . فمن اتبع هواه وذوقه ووجده ، مع علمه أنه مخالف للكتاب والسنة فهو من (ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) وان كان لا يعلم ذلك فهو من « الضالين » .

نسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً .

والحمد لله رب العالمين . والعاقبة للمتقين . وصلى الله على محمد .

وسئل عمن يقول

الطرق إلى الله عدد أنفاس الخلائق . هل قوله صحيح ؟ ؟ .

فأجاب : إن أراد بذلك الأعمال المشروعة الموافقة للكتاب والسنة: كالصلاة ، والصدقة ، والجهاد ، والذكر ، والقراءة وغير ذلك . فهذا صحيح .

وإن أراد إلى الله طريقاً مخالفاً للكتاب والسنة ؛ فهو باطل . والله أعلم .

قال شيخ الإسلام: علامة الزمان

أبو العباس أحمد بن تيمية — قدس الله روحه — ونور ضريحه.

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليما كثيراً.

قال الشيخ أبو محمد «عبد القادر» فى كتاب (فتوح الغيب) :

لا بد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء :

أمر يمتثله.

ونهي يجتنبه.

وقدر يرضى به.

فأقل حالة لا يخلو المؤمن فيها من أحد هـذه الأشياء الثلاثـة ، فينبغي له أن يلزم بهـا قلبه ، ويحدث بها نفسه ، ويأخذ بها الجوارح في كل أحواله » .

(قلت) : هذا كلام شريف ، جامع يحتاج إليه كل أحد ، وهو تفصيل لما يحتاج إليه العبد ، وهي مطابقة لقوله تعالى : (إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ) ولقوله تعالى : (وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا) ولقوله تعـالى : (وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ) ؛ فإن « التقوى » تتضمن : فعل المأمور ، وترك المحظور ، و « الصبر » يتضمن : الصبر على المقدور . « فالثلاثة » ترجع إلى هذين الأصلين ، والثلاثة فى الحقيقة ترجع إلى امتثال الأمر ، وهو طاعة الله ورسوله .

فحقيقة الأمر أن كل عبد فإنه محتاج فى كل وقت إلى طاعـة الله ورسوله ، وهو : أن يفعل فى ذلك الوقت ما أمر به فى ذلك الوقت وطاعة الله ورسوله هي عبادة الله التى خلق لهـا الجن والإنس . كما قال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) وقال تعـالى : (وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ) وقال تعـالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) .

والرسل كلهم أمروا قومهم أن يعبدوا الله ، ولا يشركوا به شيئاً ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ .

وإنما كانت « الثلاثة » ترجع إلى امتثال الأمر ؛ لأنه في الوقت الذي يؤمر فيه بفعل [شيء] من الفرائض : كالصلوات الخمس والحج ونحو ذلك يحتاج إلى فعل ذلك المأمور ، وفى الوقت الذي تحدث أسباب المعصية يحتاج إلى الامتناع والكراهة والإمساك عن ذلك ، وهذا فعل لما أمر به فى هذا الوقت ، وأما من لم تخطر له المعصية ببال فهذا لم يفعل شيئاً يؤجر عليه ، ولكن عدم ذنبه مستلزم لسلامته من عقوبة الذنب ، والعدم المحض المستمر لا يؤمر به ، وإنما يؤمر بأمر يقدر عليه العبد ، وذاك لا يكون إلا حادثاً : سواء كان إحداث إيجاد أمر ، أو إعدام أمر .

وأما « القدر الذي يرضى به » فإنه إذا ابتلى بالمرض أو الفقر أو الخوف فهو مأمور بالصبر أمر إيجاب ، ومأمور بالرضا ، إما أمر إيجاب وإما أمر استحباب ؛ وللعلماء من أصحابنا وغيرهم فى ذلك قولان ، ونفس الصبر والرضا بالمصائب هو طاعة لله ورسوله ، فهو من امتثال الأمر وهو عبادة لله .

لكن هذه « الثلاثة » وإن دخلت في امتثال الأمر عند الإطلاق فعند التفصيل والاقتران : إما أن تخص بالذكر وإما أن يقال يراد بهذا ما لا يراد بهذا ، كما فى قوله : (فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) وقوله : (فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ) فإن هذا داخل فى العبادة إذا أطلق اسم العبادة ، وعند « الاقتران » إما أن يقال : ذكره عموماً وخصوصاً ، وإما أن يقال ذكره خصوصاً يغني عن دخوله فى العام .

ومثل هذا قوله تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وقوله : (وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا * وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا) وقد يقال : لفظ « التبتيل » لا يتناول هذه الأمور المعطوفة كما يتناولها لفظ العبادة والطاعة .

و « بالجملة » فرق ما بين ما يؤمر به الإنسان ابتداء ، وبين ما يؤمر به عند حاجته إلى جلب المنفعة ودفع المضرة ، أو عند حب الشيء وبغضه .

وكلام الشيخ ــ قدس الله روحه ــ يدور على هذا القطب ، وهو أن يفعل المأمور ويترك المحظور ، ويخلو فيما سواهما عن إرادة ؛

لئلا يكون له مراد غير فعل ما أمر الله به ، وما لم يؤمر به العبد بل فعله الرب عز وجل بلا واسطة العبد ، أو فعله بالعبد بلا هوى من العبد . فهذا هو القدر الذي عليه أن يرضى به .

وسيأتي فى كلام الشيخ ما يبين مراده ، وأن العبد فى كل حال عليه أن يفعل ما أمر به ، ويترك ما نهي عنه . وأما إذا لم يكن هو أمر العبد بشيء من ذلك فما فعله الرب كان علينا التسليم فيما فعله ، وهذه هي « الحقيقة » في كلام الشيخ وأمثاله . وتفصيل الحقيقة الشرعية فى هذا المقام أن هذا « نوعان » :

(أحدهما) : أن يكون العبد مأموراً فيما فعله الرب . إما بحب له وإعانة عليه . وإما ببغض له ودفع له .

و (الثاني) : أن لا يكون العبد مأموراً بواحد منهما .

(فالأول) مثل البر والتقوى الذي يفعله غيره ، فهو مأمور بحبه وإعانته عليه : كإعانة المجاهدين في سبيل الله على الجهاد ، وإعانة سائر الفاعلين للحسنات على حسناتهم بحسب الإمكان ، وبمحبة ذلك والرضا به ، وكذلك هو مأمور عند مصيبة الغير : إما بنصر مظلوم ، وإما بتعزية مصاب ، وإما بإغناء فقير ونحو ذلك .

وأما ما هو مأمور ببغضه ودفعه فمثل : ما إذا أظهر الكفر والفسوق والعصيان ، فهو مأمور ببغض ذلك ودفعه ، وإنكاره بحسب الإمكان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه . فإن لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الإيمان » .

وأما ما لا يؤمر العبد فيه بواحد منهما : فمثل ما يظهر له من فعل الإنسان للمباحات التى لم يتبين له أنه يستعان بها على طاعة ولا معصية . فهذه لا يؤمر بحبها ، ولا ببغضها ، وكذلك مباحات نفسه المحضة التى لم يقصد الاستعانة بها على طاعة ولا معصية .

مع أن هذا نقص منه ، فإن الذي ينبغي أنه لا يفعل من المباحات إلا ما يستعين به على الطاعة ، ويقصد الاستعانة بها على الطاعة ، فهذا سبيل المقربين السابقين الذين تقربوا إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض ، ولم يزل أحدهم يتقرب إليه بذلك حتى أحبه ، فكان سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشي بها وأما من فعل المباحات مع الغفلة ، أو فعل فضول المباح التى لا يستعان بها على طاعة مع أداء الفرائض واجتناب المحارم باطناً وظاهراً ، فهذا من المقتصدين أصحاب اليمين .

و (بالجملة) الأفعال التى يمكن دخولها تحت الأمر والنهي لاتكون مستوية من كل وجه ، بل إن فعلت على الوجه المحبوب كان وجودها خيراً للعبد ؛ وإلا كان تركها خيراً له وإن لم يعاقب عليها ، ففضول المباح التى لا تعين على الطاعة عدمها خير من وجودها ، إذا كان مع عدمها يشتغل بطاعة الله ، فإنها تكون شاغلة له عن ذلك ، وأما إذا قدر أنها تشغله عما دونها فهي خير له مما دونها ، وإن شغلته عن معصية الله كانت رحمة فى حقه ، وإن كان اشتغاله بطاعة الله خيراً له من هذا وهذا .

وكذلك أفعال الغفلة والشهوة التى يمكن الاستعانة بها على الطاعة : كالنوم الذي يقصد به الاستعانة على العبادة ؛ والأكل والشرب واللباس والنكاح الذي يمكن الاستعانة به على العبادة ؛ إذا لم يقصد به ذلك كان ذلك نقصاً من العبد وفوات حسنة ؛ وخير يحبه الله . ففي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لسعد : « إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة ، حتى اللقمة تضعها في فى امرأتك » وقال فى الصحيح : « نفقة المسلم على أهله يحتسبها صدقة » .

فما لا يحتاج إليه من المباحات ، أو يحتاج إليه ولم يصحبه إيمان يجعله حسنة فعدمه خير من وجوده ، إذا كان مع عدمه يشتغل بما هو

خير منه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فى بضع أحدكم صدقة . قالوا : يارسول الله ! يأتى أحدنا شهوته ويكون له أجر . قال : أرأيتم لو وضعها فى الحرام أما كان عليه وزر ؟ قالوا : بلى ! قال : فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له بها أجر . فلم تعتدون بالحرام ولا تعتدون بالحلال » .

وذلك أن المؤمن عند شهوة النكاح يقصد أن يعدل عما حرمه الله إلى ما أباحه الله ؛ ويقصد فعل المباح معتقداً أن الله أباحه « والله يحب أن يؤخذ برخصه ، كما يكره أن تؤتى معصيته » كما رواه الإمام أحمد في المسند ورواه غيره ، ولهذا أحب القصر والفطر ، فعدول المؤمن عن الرهبانية والتشديد وتعذيب النفس الذي لا يحبه الله إلى ما يحبه الله من الرخصة هو من الحسنات التى يثيبه الله عليها ، وإن فعل مباحاً لما اقترن به من الاعتقاد والقصد الذين كلاهما طاعة لله ورسوله . فإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى .

و (أيضاً) فالعبد مأمور بفعل ما يحتاج إليه من المباحات ، هو مأمور بالأكل عند الجوع والشرب عند العطش ، ولهذا يجب على المضطر إلى الميتة أن يأكل منها ، ولو لم يأكل حتى مات كان مستوجباً للوعيد ، كما هو قول جماهير العلماء من الأئمة الأربعة وغيرهم ، وكذلك هو مأمور بالوطء عند حاجته إليه ، بل وهو مأمور

بنفس عقد النكاح إذا احتاج إليه وقدر عليه . فقول النبي صلى الله عليه وسلم : « فى بضع أحدكم صدقة » فإن المباضعة مأمور بها لحاجته ولحاجة المرأة إلى ذلك ، فإن قضاء حاجتها التى لا تنقضي إلا به بالوجه المباح صدقة.

و « السلوك » سلوكان :

سلوك الأبرار أهل اليمين ، وهو أداء الواجبات وترك المحرمات باطناً وظاهراً .

و (الثاني) : سلوك المقربين السابقين ، وهو فعل الواجب والمستحب بحسب الإمكان ، وترك المكروه والمحرم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه . وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

وكلام الشيوخ الكبار : كالشيخ « عبد القادر » وغيره يشير إلى هذا السلوك ؛ ولهذا يأمرون بما هو مستحب غير واجب وينهون عما هو مكروه غير محرم ، فإنهم يسلكون بالخاصة مسلك الخاصة ، وبالعامة مسلك العامة ، وطريق الخاصة طريق المقربين أ لا يفعل العبد إلا ما أمر به ، ولا يريد إلا ما أمر الله ورسوله بإرادته ، وهو مايحبه

الله ويرضاه ، ويريده إرادة دينية شرعية ، وإلا فالحوادث كلها مرادة له خلقاً وتكويناً .

والوقوف مع الإرادة الخلقية القدرية مطلقاً غير مقدور عقلاً ، ولا مأمور شرعاً ؛ وذلك لأن من الحوادث ما يجب دفعه ولا تجوز إرادته ، كمن أراد تكفير الرجل أو تكفير أهله ، أو الفجور به أو بأهله أو أراد قتل النبي وهو قادر على دفعه ، أو أراد إضلال الخلق وإفساد دينهم ودنياهم ، فهذه الأمور يجب دفعها وكراهتها ؛ ولا تجوز إرادتها .

وأما الامتناع عقلا ؛ فلأن الإنسان مجبول على حب ما يلائمه وبغض ما ينافره ، فهو عند الجوع يحب ما يغنيه كالطعام ، ولا يحب ما لا يغنيه كالتراب فلا يمكن أن تكون إرادته لهذين سواء .

وكذلك يحب الإيمان والعمل الصالح الذي ينفعه ، ويبغض الكفر والفسوق الذي يضره ، بل ويحب الله وعبادته وحده ، ويبغض عبادة ما دونه . كما قال الخليل : (أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ) وقال تعالى : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ) .

فقد أمرنا الله أن نتأسى بإبراهيم والذين معه إذ تبرؤوا من المشركين ومما يعبدونه من دون الله ، وقال الخليل : (إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ) والبراءة ضد الولاية ، وأصل البراءة البغض وأصل الولاية الحب ، وهذا لأن حقيقة التوحيد ألا يحب إلا الله ، ويحب ما يحبه الله لله ، فلا يحب إلا لله ، ولا يبغض إلا لله . قال تعالى : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) .

والفرق ثابت بين الحب لله والحب مع الله ، فأهل التوحيد والإخلاص يحبون غير الله لله ، والمشركون يحبون غير الله مع الله ، كحب المشركين لآلهتهم ، وحب النصارى للمسيح ، وحب أهل الأهواء رؤوسهم .

فإذا عرف أن العبد مفطور على حب ما ينفعه ، وبغض ما يضره لم يمكن أن تستوي إرادته لجميع الحوادث فطرة وخلقاً ، ولا هو مأمور من جهة الشرع أن يكون مريداً لجميع الحوادث ، بل قد أمره الله بإرادة أمور وكراهة أخرى .

والرسل ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتحويل الفطرة وتغييرها . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وفي الحديث الصحيح عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ « يقول الله تعالى : إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطانا » .

و « الحنيفية » هي الاستقامة بإخلاص الدين لله ، وذلك يتضمن حبه تعالى والذل له لا يشرك به شيء ، لا في الحب ولا في الذل ، فإن العبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل ، وذلك لا يستحقه إلا الله وحده ، وكذلك الخشية والتقوى لله وحده ، والتوكل على الله وحده .

والرسول يطاع ويحب ، فالحلال ما أحله والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه . قال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ .

وهذا حقيقة دين الإسلام .

والرسل بعثوا بذلك ، كما قال تعالى : (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ) وقال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ) .

فهذا هو الأصل الذي يجب على كل أحد أن يعتصم به ، فلا بد أن يكون مريداً محباً لما أمره الله بإرادته ومحبته ، كارها مبغضاً لما أمره الله بكراهته وبغضه .

والناس في هذا الباب « أربعة أنواع » :

أكملهم الذين يحبون ما أحبه الله ورسوله ، ويبغضون ما أبغضه الله ورسوله ، فيريدون ما أمرهم الله ورسوله بإرادته ، ويكرهون ما أمرهم الله ورسوله بكراهته ، وليس عندهم حب ولا بغض لغير ذلك . فيأمرون بما أمر الله به ورسوله ، ولا يأمرون بغير ذلك ، وينهون عما نهى الله عنه ورسوله ، ولا ينهون عن غير ذلك ، وهذه حال الخليلين أفضل البرية : محمد وإبراهيم صلى الله عليهما وسلم ، وقد

ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً » وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « إنى والله لا أعطي أحداً ، ولا أمنع أحداً ، وإنما أنا قاسم أضع حيث أمرت » .

وذكر : أن ربه خيره بين أن يكون نبياً ملكا ؛ وبين أن يكون عبداً رسولاً ، فاختار أن يكون عبداً رسولاً . فإن « النبي الملك » مثل داود وسليمان ، قال تعالى : (هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٍ) قالوا : معناه أعط من شئت ، وامنع من شئت ، لانحاسبك .

« فالنبي الملك » يعطي بإرادته لا يعاقب على ذلك ، كالذي يفعل المباحات بإرادته ، وأما « العبد الرسول » فلا يعطى ولا يمنع إلا بأمر ربه ، وهو محبته ورضاه وإرادته الدينية ، والسابقون المقربون أتباع العبد الرسول ، والمقتصدون أهل اليمين أتباع النبي الملك ، وقد يكون للإنسان حال هو فيها خال عن الإرادتين : وهو ألا تكون له إرادة فى عطاء ولا منع ، لا إرادة دينية هو مأمور بها ، ولا إرادة نفسانية سواء كان منهياً عنها أو غير منهي عنها ، بل ما وقع كان مراداً له ، ومهما فعل به كان مراداً له ، من غير أن يفعل المأمور به شرعا فى ذلك .

فهذا بمنزلة من له أموال يعطيها وليس له إرادة في إعطاء معين ، لا إرادة شرعية ولا إرادة مذمومة ؛ بل يعطي كل أحـد . فهذا إذا قدر أنه قام بما يجب عليه بحسب إمكانه ولكنه خفي عليه الإرادة الشرعية فى تفصيل أفعاله . فإنه لا يذم على ما فعل ولا يمدح مطلقاً . بل يمدح لعدم هواه ، ولو علم تفصيل المأمور به وأراده إرادة شرعية لكان أكمل . بل هذا مع القدرة إما واجب وإما مستحب . وحال هذا خير من حال من يريد بحكم هواه ونفسه ؛ وإن كان ذلك مباحاً له ، وهو دون من يريد بأمر ربه لا بهواه ، ولا بالقدر المحض .

فمضمون هذا المقام أن الناس فى المباحات من الملك والمال وغير ذلك على « ثلاثة أقسام » :

(قوم) لا يتصرفون فيها إلا بحكم الأمر الشرعي . وهو حال نبينا صلى الله عليه وسلم . وهو حال العبد الرسول ومن اتبعه فى ذلك .

و (قوم) يتصرفون فيها بحكم إرادتهم والشهوة التى ليست محرمة . وهذا حال النبي الملك . وهو حال الأبرار أهل اليمين .

و (قوم) لا يتصرفون بهذا ولا بهذا . أما « الأول » فلعدم

علمهم به . وأما « الثانى » فلزهدهم فيه ؛ بل يتصرفون فيها بحكم القدر المحض ، اتباعا لإرادة الله الخلقية القدرية حين تعذر معرفة الإرادة الشرعية الأمرية ، وهذا كالترجيح بالقرعة إذا تعذر الترجيح بسبب شرعي معلوم ، وقد يتصرف هؤلاء في هذا المقام بإلهام يقع فى قلوبهم وخطاب .

وكلام « الشيخ عبد القادر » ـــ قدس الله روحه ـــ كثيراً مايقع فى هذا المقام ؛ فإنه يأمر بالزهد فى إرادة النفس وهواها ، حتى لا يتصرف بحكم الإرادة والنفس ، وهذا رفع له عن حال الأبرار أهل اليمين ومن طريق الملوك مطلقاً ، ومن حصل هذا وتصرف بالأمر الشرعي المحمدي القرآنى فهو أكمل الخلق ، لكن هذا قد يخفى عليه ؛ فإن معرفة هذا على التفصيل قد يتعذر أو يتعسر فى كثير من المواضع ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما حكم سعد بن معاذ فى بني قريظة فحكم بقتل مقاتلتهم ، وبسبي ذراريهم ، وغنيمة أموالهم . قال : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » . وذلك أن تخيير ولي الأمر بين القتل والاسترقاق ، والمن والفداء ليس تخيير شهوة ، بل تخيير رأي ومصلحة ، فعليه أن يختار الأصلح ، فإن اختار ذلك فقد وافق حكم الله ، وإلا فلا .

ولما كان هذا يخفى كثيراً قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث

الصحيح : « إذا حاصرت أهل حصن فسألوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله فإنك لا تدري ماحكم الله فيهم ، ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك » والحاكم الذي ينزل أهل الحصن على حكمه عليه أن يحكم باجتهاده ، فلما أمر سعد بما هو الأرضى لله ، والأحب إليه ، حكم بحكمه ، ولو حكم بغير ذلك لنفذ حكمه فإنه حكم باجتهاده ، وإن لم يكن ذلك هو حكم الله فى الباطن .

ففي مثل هذه الحال التى لايتبين الأمر الشرعي فى الواقعة المعينة يأمر الشيخ عبد القادر وأمثاله من الشيوخ : « تارة » بالرجوع إلى الأمر الباطن والإلهام إن أمكن ذلك ، و« تارة » بالرجوع إلى القدر المحض لتعذر الأسباب المرجحة من جهة الشرع ، كما يرجح الشارع بالقرعة . فهم يأمرون ألا يرجح بمجرد إرادته وهواه ، فإن هذا إما محرم وإما مكروه ، وإما منقص ، فهم فى هذا النهي كنهيهم عن فضول المباحات .

ثم إن تبين لهم الأمر الشرعي وجب الترجيح به ، وإلا رجحوا : إما « بسبب باطن » من الإلهام والذوق ، وإما « بالقضاء والقدر » الذي لا يضاف إليهم . ومن يرجح فى مثل هذه الحال « باستخارة الله » كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلمهم السورة من القرآن ، فقد أصاب .

وهذا كما أنه إذا تعارضت أدلة « المسألة الشرعية » عند الناظر المجتهد ، وعند المقلد المستفتي ، فإنه لا يرجح شيئاً ؛ بل ما جرى به القدر أقروه ، ولم ينكروه . وتارة يرجح أحدهم : إما بمنام ، وإما برأي مشير ناصح ، وإما برؤية المصلحة فى أحد الفعلين .

وأما الترجيح بمجرد الاختيار ، بحيث إذا تكافأت عنده الأدلة يرجح بمجرد إرادته واختياره . فهذا ليس قول أحد من أئمة الإسلام ، وإنما هو قول طائفة من أهل الكلام ، ولكن قاله طائفة من الفقهاء فى العامي المستفتي : إنه يخير بين المفتين المختلفين . وهذا كما أن طائفة من السالكين إذا استوى عنده الأمران في الشريعة رجح بمجرد ذوقه وإرادته ، فالترجيح بمجرد الإرادة التى لا تستند إلى أمر علمي باطن ولا ظاهر ، لا يقول به أحد من أئمة العلم والزهد . فأئمة الفقهاء والصوفية لا يقولون هذا .

ولكن من جوز لمجتهد أو مقلد الترجيح بمجرد اختياره وإرادته فهو نظير من شرع للسالك الترجيح بمجرد إرادته وذوقه .

لكن قد يقال : القلب المعمور بالتقوى إذا رجح بإرادته فهو ترجيح شرعي . وعلى هذا التقدير ليس من هذا فمن غلب على قلبه إرادة ما يحبه الله ، وبغض ما يكرهه الله ، إذا لم يدر فى الأمر المعين

هل هو محبوب لله أو مكروه ، ورأى قلبه يحبه أو يكرهه كان هـذا ترجيحاً عنده . كما لو أخبره من صدقه أغلب من كذبه ، فإن الترجيح بخبر هذا عند انسداد وجوه الترجيح ترجيح بدليل شرعي .

ففي « الجملة » متى حصل ما يظن معه أن أحد الأمرين أحب إلى الله ورسوله كان هـذا ترجيحاً بدليل شرعي ، والذين أنكروا كون الإلهام طريقاً على الإطلاق أخطأوا ، كما أخطأ الذين جعلوه طريقاً شرعياً على الإطلاق .

ولكن إذا اجتهد السالك فى الأدلة الشرعيـة الظاهرة فلم ير فيها ترجيحاً ، وألهم حينئذ رجحان أحد الفعلين مع حسن قصده وعمارته بالتقوى ، فإلهام مثل هذا دليل فى حقه ؛ قد يكون أقوى مـن كثير من الأقيسـة الضعيفة ؛ والأحـاديث الضعيفة ، والظواهر الضعيفـة ، والاستصحابات الضعيفة التى يحتج بها كثير من الخائضين فى المذهب ، والخلاف وأصول الفقه .

وفى الترمذي عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليـه وسلم أنـه قال : « اتقوا فراسـة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ قوله تعـالى : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) . » وقال عمر بن الخطاب : اقتربوا من أفـواه المطيعين ؛ واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنه تتجلى لهم أمـور

صادقة . وقد ثبت في الصحيح قول الله تعالى : « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر ، وبي يبطش وبي يمشي »

و (أيضاً) فالله سبحانه وتعالى فطر عباده على الحنيفية : وهو حب المعروف ، وبغض المنكر ، فإذا لم تستحل الفطرة فالقلوب مفطورة على الحق ، فإذا كانت الفطرة مقومة بحقيقة الإيمان ، منورة بنور القرآن ، وخفي عليها دلالة الأدلة السمعية الظاهرة ، ورأى قلبه يرجح أحد الأمرين ، كان هذا من أقوى الأمارات عند مثله ، وذلك أن الله علم القرآن والإيمان . قال الله تعالى : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا) الآية . ثم قال :
(وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا)
وقال جندب بن عبد الله ، وعبد الله بن عمر : تعلمنا الإيمان ، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً .

وفى الصحيحين عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله أنزل الأمانة فى جذر قلوب الرجال ، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة » وفى الترمذي وغيره حديث النواس عن النبي صلى الله عليه

وسلم أنه قال : « ضرب الله مثلا صراطا مستقيما . وعلى جنبتى الصراط سوران ، وفى السورين أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وداع يدعو على رأس الصراط ، وداع يدعو من فوق الصراط . فالصراط المستقيم هو الإسلام ، والستور حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، فإذا أراد العبد أن يفتح بابا من تلك الأبواب ناداه المنادي — أو كما قال — ياعبد الله ! لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تلجه . والداعي على رأس الصراط كتاب الله ، والداعي فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مؤمن » .

فقد بين أن فى قلب كل مؤمن واعظ ، والواعظ الأمر والنهي بترغيب وترهيب ؛ فهذا الأمر والنهي الذي يقع في قلب المؤمن مطابق لأمر القرآن ونهيه ، ولهذا يقوى أحدهما بالآخر . كما قال تعالى : (نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ) قال بعض السلف في الآية : هو المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بأثر ، فإذا سمع بالأثر كان نوراً على نور . نور الإيمان الذي فى قلبه يطابق نور القرآن ، كما أن الميزان العقلي يطابق الكتاب المنزل ؛ فإن الله أنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط .

وقد يؤتى العبد أحدهما ولا يؤتى الآخر . كما فى الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب . ومثل

المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ؛ ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر » .

والإلهام فى القلب تارة يكون من جنس القول والعلم والظن والاعتقاد ، وتارة يكون من جنس العمل والحب والإرادة والطلب ، فقد يقع في قلبه أن هذا القول أرجح وأظهر وأصوب ، وقد يميل قلبه إلى أحد الأمرين دون الآخر ، وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن فى أمتى أحد فعمر » والمحدث الملهم المخاطب ، وفى مثل هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث وابصة : « البر ما اطمأنت إليه النفس وسكن إليه القلب والإثم ما حاك فى نفسك وإن أفتاك الناس وأفتوك » وهو في السنن . وفى صحيح مسلم عن النواس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « البر حسن الخلق والإثم ما حاك فى نفسك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » وقال ابن مسعود : الإثم حزاز القلوب .

و (أيضاً) فإذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن يقيناً أو ظناً ، فالأمور الدينية كذلك بطريق الأولى ، فإنه إلى كشفها أحوج ، لكن هذا فى الغالب لابد أن يكون كشفاً بدليل ، وقد يكون

بدليل ينقدح فى قلب المؤمن ، ولا يمكنه التعبير عنه ، وهذا أحد ما فسر به معنى « الاستحسان » .

وقد قال من طعن فى ذلك — كأبي حامد وأبى محمد — : مالا يعبر عنه فهو هوس ، وليس كذلك ؛ فإنه ليس كل أحد يمكنه إبانة المعاني القائمة بقلبه ، وكثير من الناس يبينها بيانا ناقصاً ، وكثير من أهل الكشف يلقي فى قلبه أن هذا الطعام حرام ، أو أن هذا الرجل كافر أو فاسق ، من غير دليل ظاهر ، وبالعكس قد يلقى فى قلبه محبة شخص وأنه ولي لله أو أن هذا المال حلال .

وليس المقصود هنا بيان أن هذا وحده دليل على الأحكام الشرعية ؛ لكن إن مثل هذا يكون ترجيحاً لطالب الحق إذا تكافأت عنده الأدلة السمعية الظاهرة . فالترجيح بها خير من التسوية بين الأمرين المتناقضين قطعاً ، فإن التسوية بينهما باطلة قطعاً . كما قلنا : إن العمل بالظن الناشيء عن ظاهر أو قياس خير من العمل بنقيضه إذا احتيج إلى العمل بأحدهما . والصواب الذي عليه السلف والجمهور أنه لابد فى كل حادثة من دليل شرعي ، فلا يجوز تكافؤ الأدلة فى نفس الأمر ، لكن قد تتكافأ عند الناظر لعدم ظهور الترجيح له ، وأما من قال : إنه ليس في نفس الأمر حق معين ، بل كل مجتهد عالم بالحق الباطن في المسألة ، وليس لأحدهما على الآخر مزية فى علم ولا عمل ، فهؤلاء

قد يجوزون أو بعضهم تكافؤ الأدلة ، ويجعلون الواجب التخيير بين القولين ، وهؤلاء يقولون ليس على الظن دليل في نفس الأمر ؛ وإنما رجحان أحد القولين هو من باب الرجحان بالميل والإرادة ، كترجيح النفس الغضبية للانتقام ، والنفس الحليمة للعفو .

وهذا القول خطأ ؛ فإنه لابد فى نفس الأمر من حق معين يصيبه المستدل تارة ويخطئه أخرى . كالكعبة فى حق من اشتبهت عليه القبلة والمجتهد إذا أداه اجتهاده إلى جهة سقط عنه الفرض بالصلاة إليها ، كالمجتهد إذا أداه اجتهاده إلى قول فعمل بموجبه كلاهما مطيع لله ، وهو مصيب بمعنى أنه مطيع لله وله أجر على ذلك ؛ وليس مصيباً بمعنى أنه علم الحق المعين ؛ فإن ذلك لا يكون إلا واحداً ومصيبه له أجران وهذا فى كشف الأنواع التى يكون عليها دليل شرعي لكن قد يخفى على العبد . فإن الشارع بين (الأحكام الكلية) .

وأما (الأحكام المعينات) التى تسمى « تنقيح المناط » مثل كون الشخص المعين عدلاً أو فاسقاً أو مؤمناً أو منافقاً أو ولياً لله أو عدواً له ، وكون هذا المعين عدواً للمسلمين يستحق القتل ، وكون هذا العقار ليتيم أو فقير يستحق الإحسان إليه ، وكون هذا المال يخاف عليه من ظلم ظالم ، فإذا زهد فيه الظالم انتفع به أهله ، فهذه

الأمور لا يجب أن تعلم بالأدلة الشرعية العامة الكلية ، بل تعلم بأدلة خاصة تدل عليها .

ومن طرق ذلك « الإلهام » فقد يلهم الله بعض عباده حال هذا المال المعين ، وحال هذا الشخص المعين ، وإن لم يكن هناك دليل ظاهر يشركه فيه غيره .

وقصة موسى مع الخضر هي من هذا الباب ، ليس فيها مخالفة لشرع الله تعالى ؛ فإنه لا يجوز قط لأحد لا نبي ولا ولي أن يخالف شرع الله ، لكن فيها علم حال ذاك المعين بسبب باطن يوجب فيه الشرع ما فعله الخضر ، كمن دخل إلى دار وأخذ ما فيها من المال لعلمه بأن صاحبها أذن له وغيره لم يعلم ، ومثل من رأى ضالة أخذها ولم يعرفها ، لعلمه بأنه أتى بها هدية له ، ونحو ذلك . ومثل هذا كثير عند أهل الإلهام الصحيح .

و (النوع الثاني) عكس هذا . وهو أنهم يتبعون هواهم ، لا أمر الله ؛ فهؤلاء لا يفعلون ولا يأمرون إلا بما يحبونه بهواهم ، ولا يتركون وينهون إلا عما يكرهونه بهواهم ، وهؤلاء شر الخلق . قال تعالى : (أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا)
قال الحسن : هو المنافق لا يهوى شيئاً إلا ركبه . وقال تعالى :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ) وقال عمر بن عبد العزيز : لا تكن ممن يتبع الحق إذا وافق هواه ، ويخالفه إذا خالف هواه ، فإذا أنت لا تثاب على ما اتبعته من الحق ، وتعاقب على ماخالفته. وهو كما قال — رضي الله عنه — لأنه فى الموضعين إنما قصد اتباع هواه لم يعمل لله .

ألا ترى أن « أبا طالب » نصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وذب عنه أكثر من غيره ؛ لكن فعل ذلك لأجل القرابة ، لا لأجل الله تعالى ، فلم يتقبل الله ذلك منه ، ولم يثبه على ذلك ؟ ! و أبو بكر الصديق — رضي الله عنه — أعانه بنفسه وماله لله ؛ فقال الله فيه : (وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ) .

(القسم الثالث) : الذي يريد تارة إرادة يحبها الله ؛ وتارة إرادة يبغضها الله . وهؤلاء أكثر المسلمين فإنهم يطيعون الله تارة ، ويريدون ما أحبه ، ويعصونه تارة ويريدون ما يهوونه ، وإن كان يكرهه .

و (القسم الرابع) : أن يخلو عن الإرادتين ، فلا يريد لله ولا لهواه ، وهذا يقع لكثير من الناس فى بعض الأشياء ، ويقع لكثير

من الزهاد والنساك فى كثير من الأمور .

وأما خلو الإنسان عن الإرادة مطلقاً فممتنع ، فإنه مفطور على إرادة ما لا بد له منه وعلى كراهة ما يضره ويؤذيه ، والزاهد الناسك إذا كان مسلماً فلا بد أن يريد أشياء يحبها الله : مثل أداء الفرائض وترك المحارم ؛ بل وكذلك عموم المؤمنين لا بد أن يريد أحدهم أشياء يحبها الله ، وإلا فمن لم يحب الله ، ولا أحب شيئاً لله ، فلم يحب شيئاً من الطاعات ، لا الشهادتين ولا غيرهما ولا يريد ذلك فإنه لا يكون مؤمناً ، فلا بد لكل مؤمن من أن تكون له إرادة لبعض ما يحبه الله ؛ وأما إرادة العبد لما يهواه ولا يحبه الله ، فهذا لازم لكل من عصى الله ، فإنه أراد المعصية والله لا يحبها ولا يرضاها . وأما الخلو عن الإرادتين المحمودة والمذمومة فيقع على وجهين :

(أحدهما) : مع إعراض العبد عن عبادة الله تعالى وطاعته وإن علم بها ، فإنه قد يعلم كثيراً من الأمور أنه مأمور بها ، وهو لا يريدها ولا يكره من غيره فعلها ، وإذا اقتتل المسلمون والكفار لم يكن مريداً لانتصار هؤلاء الذي يحبه الله ، ولا لانتصار هؤلاء الذي يبغضه الله .

و (الوجه الثانى) : يقع من كثير من الزهاد العباد الممتثلين لما

يعلمون أن الله أمر به المجتنبين لما يعلمون أن الله نهى عنه ، وأمور أخرى لا يعلمون أنها مأمور بها ولا منهي عنها ، فلا يريدونها ولا يكرهونها لعدم العلم ، وقد يرضونها من جهة كونها مخلوقة مقدرة ، وقد يعاونون عليها ، ويرون هذا موافقة لله وأنهم لما خلوا عن هوى النفس كانوا مأمورين بالرضا بكل حادث ؛ بل والمعاونة عليه . وهذا موضع يقع فيه الغلط ، فإن ما أحبه الله ورسوله علينا أن نحب ماأحبه الله ورسوله ، وما أبغضه الله ورسوله فعلينا أن نبغض ما أبغضه الله ورسوله ، وأما ما لا يحبه الله ورسوله ولا يبغضه الله ورسوله كالأفعال التي لا تكليف فيها مثل أفعال النائم والمجنون فهذا إذا كان الله لا يحبها ويرضاها ولا يكرهها ويذمها ، فالمؤمن أيضاً لا ينبغي أن يحبها ويرضاها ولا يكرهها .

وأما كونها مقدورة ومخلوقة لله فذاك لا يختص بها ، بل هو شامل لجميع المخلوقات . والله تعالى خلق ما خلقه لما شاء من حكمته ، وقد أحسن كل شيء خلقه ، والرضا بالقضاء « ثلاثة أنواع » :

(أحدها) الرضا بالطاعات ؛ فهذا طاعة مأمور بها .

و (الثاني) : الرضا بالمصائب ، فهذا مأمور به : إما مستحب ، وإما واجب .

و (الثالث) : الكفر والفسوق والعصيان ، فهذا لا يؤمر بالرضا به ، بل يؤمر ببغضه وسخطه ، فإن الله لا يحبه ولا يرضاه . كما قال تعالى : (إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ) وقال : (وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ) وقال : (وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ) وقال : (فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ) وقال : (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ) .

وهو وإن خلقه لما له في ذلك من الحكمة فلا يمتنع أن يخلق ما لا يحبه لإفضائه إلى الحكمة التى يحبها ، كما خلق الشياطين . فنحن راضون عن الله فى أن يخلق ما يشاء ، وهو محمود على ذلك .

وأما نفس هذا الفعل المذموم وفاعله فلا نرضى به ولا نحمده . وفرق بين ما يحب لنفسه ، وما يراد لإفضائه إلى المحبوب مع كونه مبغضاً من جهة أخرى ؛ فإن الأمر الواحد يراد من وجه ويكره من وجه آخر . كالمريض الذي يتناول الدواء الكريه ؛ فإنه يبغض الدواء ويكرهه ، وهو مع هذا يريد استعماله لإفضائه إلى المحبوب ، لا لأنه فى نفسه محبوب .

وفى الحديث الصحيح يقول الله تعالى : « وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » فهو سبحانه لما كره مساءة عبده المؤمن الذي

يكره الموت كان هذا مقتضياً أن يكره إماتته مع أنه يريد إماتته ؛ لما له في ذلك من الحكمة سبحانه وتعالى. فالأمور التى يبغضها الله تعالى وينهى عنها لا تحب ولا ترضى ؛ لكن نرضى بما يرضى الله به حيث خلقها ، لما له فى ذلك من الحكمة ، فكذلك الأفعال التى لا يحبها ولا يبغضها لا ينبغي أن تحب ولا ترضى كما لا ينبغي أن تبغض .

والرضا الثابت بالنص هو أن يرضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً . وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، كان حقاً على الله أن يرضيه » وأما بالنسبة إلى القدر فيرضى عن الله ، إذ له الحمد على كل حال ، ويرضى بما يرضاه من الحكمة التى خلق لأجلها ماخلق وإن كنا نبغض ما يبغضه من المخلوقات ، فحيث انتفى الأمر الشرعي أو خفى الأمر الشرعي لا يكون الامتثال والرضا والمحبة ، كما يكون فى الأمر الشرعي ، وإن كان ذلك مقدوراً .

وهذا موضع يغلط فيه كثير من خاصة « السالكين » وشيوخهم ، فضلا عن عامتهم ، ويتفاوتون فى ذلك بحسب معرفتهم بالأمر الشرعي وطاعتهم له .

فمنهم من هو أعرف من غيره بالأمر الشرعي وأطوع له ، فهذا

تكون حاله أحسن ممن يقصر عنه فى المعرفة بالأمر الشرعي والطاعة له .

ومنهم من يبعد عن الأمر الشرعي ، ويسترسل حتى ينسلخ من الإسلام بالكلية ، ويبقى واقفاً مع هواه والقدر .

ومن هؤلاء من يموت كافراً ، ومنهم من يتوب الله عليه ، ومنهم من يموت فاسقاً ، ومنهم من يتوب الله عليه .

وهؤلاء ينظرون إلى الحقيقة القدرية معرضين عن الأمر الشرعي ولا بد مع ذلك من اتباع أمر ونهي غير الأمر الشرعي ، إما من أنفسهم وإما من غير الله ورسوله ، إذ الاسترسال مع القدر مطلقاً ممتنع لذاته ، لما تقدم من أن العبد مفطور على محبة أشياء وبغض أشياء .

وقول من قال : « إن العبد يكون مع الله كالميت مع الغاسل » لا يصح ولا يسوغ على الإطلاق عن أحد من المسلمين ، وإنما يقال ذلك في بعض المواضع ؛ ومع هذا فإنما ذلك لخفاء أمر الله عليه ، وإلا فإذا علم ما أمر الله به وأحبه . فلا بد أن يحب ما أحبه الله ، ويبغض ما أبغضه .

فصـــــل

وكما أن الطريقة العلمية بصحة النظر في الأدلة والأسباب هي الموجبة للعلم : كتدبر القرآن والحـديث ، فالطريقـة العمليـة بصحـة الإرادة والأسباب هي الموجبة للعمل ، ولهـذا يسمون السالك فى ذلك « المريد » كما يسميه أولئك « الطالب » و « النظر » جنس تحته حق وباطـل ، ومحمود ومذموم ، وكذلك « الإرادة »

فـكما أن طريق العلم لا بد فيـه من العلم النبوي الشرعي ، بحيث يكون معلومك المعلومات الدينية النبوية ، ويكون علمك بها مطابقاً لمـا أخبرت به الرسل ، وإلا فلا ينفعك أي معلوم علمتـه ، ولا أي شيء اعتقدته فيما أخبرت به الرسل ، بل لا بد من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فـكذلك « الإرادة » لا بـد فيهـا من تعيين « المراد » وهو الله و « الطريق إليه » وهو ما أمرت به الرسل . فلا بد أن تعبد الله وتـكون عبادتك إياه بما شرع على ألسنة رسـله ، إذ لا بد من تصـديق الرسول فيما أخبر علمـا ، ولا بد من طـاعته فيما أمر عملا .

ولهذا كان « الإيمان » قولاً وعملا مع موافقة السنـة ، فعلم الحق ما وافق علم الله ، والإرادة الصالحة ما وافقت محبة الله ورضـاه ، وهو حكمه الشرعي ، والله عليم حكيم .

فالأمور الخبرية لا بد أن تطابق علم الله وخبره ؛ والأمور العمليـة لا بد أن تطابق حب الله وأمره ، فهذا حكمه ، وذاك علمه .

وأما من جعل حـكمه مجرد القدر ، كما فعـل صاحب « منـازل السائرين » وجعل مشاهدة العارف الحـكم يمنعه أن يستحسن حسنة أو يستقبح سيئة ، فهذا فيه من الغلط العظيم ما قد نبهنا عليـه فى غير هذا الموضع . فلا ينفع المريد القاصد أن يعبـد أي معبود كان ، ولا أن يعبد الله بأي عبادة كانت ، بل هـذه طريقة المشركين المبتدعين الذين لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ، كالنصـارى ومن أشبههم من أهل البدع الذين يعبـدون غير الله بغير أمر الله ، وأما أهل الإسلام والسنة فهم يعبدون الله وحـده ، ويعبدونه بما شرع . لا يعبدونه بالبدع إلا ما يقع من أحدهم خطأ .

فالسالكون طريق الإرادة قد يغلطون تارة فى المراد ؛ وتارة فى الطريق إليه ، وتارة يألهون غير الله بالخوف منه والرجاء له ، والتعظيم والمحبة له وسؤاله والرغبة إليه ، فهذا حقيقة الشرك المحرم ، فإن حقيقة

التوحيد أن لا يعبد إلا الله .

و « العبادة » تتضمن كمال الحب ، وكمال التعظيم ، وكمال الرجاء، والخشية ، والإجلال والإكرام . و « الفناء » فى هـذا التوحيد فناء المرسلين وأتباعهم ، وهو أن تفنى بعبادته عن عبادة ما سواه ، وبطاعته عن طاعة ما سواه ، وبسؤاله عن سؤال ما سواه ، وبخوفه عن خوف ما سواه ، وبرجائه عن رجاء ما سواه ، وبحبه والحب فيـه عن محبـة ما سواه والحب فيه .

وأما الغالطون فى الطريق فقد يريدون الله ؛ لكن لا يتبعون الأمر الشرعي فى إرادته ، لكن « تارة » يعبده أحدهم بما يظنه يرضيـه ، ولا يكون كذلك . و « تارة » ينظرون القدر لكونـه مراده ، فيفنون فى القدر الذي ليس لهم فيه غرض ، وأمـا الفناء المطلق فيـه فممتنع . وهؤلاء يفنى أحدهم متبعاً لذوقـه ووجده المخـالف للأمر الشرعي ، أو ناظراً إلى القدر . وهذا يبتلى به كثير من خواصهم .

و « الشيخ عبد القادر » ونحوه من أعظم مشـايخ زمانهم أمراً بالتزام الشرع ، والأمر والنهي ، وتقديمـه على الذوق والقدر ، ومن أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسيـة . فإن الخطـأ فى الإرادة من حيث هي إرادة إنما تقع من هذه الجهة ؛ فهو يأمر السالك

ألا تكون له إرادة من جهة هواه أصلا ؛ بل يريد ما يريده الرب عز وجل : إمـــا إرادة شرعية إن تبين له ذلك ؛ وإلاجرى مـــع الإرادة القدرية ، فهو إما مع أمر الرب ، وإما مع خلقه . وهو سبحانه له الخلق والأمر .

وهذه « طريقة شرعية صحيحة » إنما يخاف على صاحبهـا من ترك إرادة شرعية لا يعلم أنها شرعية ، أو من تقديم إرادة قدرية على الشرعية فإنه إذا لم يعلم أنها شرعية فقد يتركها ، وقد يريد ضدهـا ، فيكون ترك مأموراً أو فعل محظوراً وهو لا يعلم . فإن « طريقة الإرادة » يخاف على صاحبهـــا من ضعف العلم ؛ وما يقترن بالعلم من العمل ، والوقوع فى الضلال ، كما أن طريقة العلم يخاف على صاحبها من ضعف العمل ، وضعف العلم الذي يقترن بالعمل ؛ لكن لا يكلف الله نفســاً إلا وسعها من هذا وهذا . قال تعالى : (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) فإذا تفقـــه السالك ، وتعلم الأمر والنهي بحسب اجتهاده ، وكان علمـــه وإرادته بحسب ذاك ، فهذا مستطاعه . وإذا أدى الطالب ما أمر به ، وترك مانهى عنه ، وكان علمه مطابقاً لعمله ، فهذا مستطاعه

فصل

قال « الشيخ عبد القادر » قدس الله روحه : « افن عن الخلق بحكم الله ، وعن هواك بأمره ، وعن إرادتك بفعله ، فحينئذ يصلح أن تكون وعاء لعلم الله » .

قلت : فحكمه يتناول خلقه وأمره أي : افن عن عبادة الخلق والتوكل عليهم بعبادة الله والتوكل عليه ، فلا تطعهم فى معصية الله تعالى ولا تتعلق بهم فى جلب منفعة ولا دفع مضرة . وأما الفناء عن الهوى بالأمر وعن الإرادة بالفعل بأن يكون فعله موافقاً للأمر الشرعي لا لهواه ، وأن تكون إرادته لما يخلق تابعة لفعل الله لا لإرادة نفسه . فالإرادة تارة تتعلق بفعل نفسه وتارة بالمخلوقات .

فا « الأول » يكون بالأمر و « الثاني » لاتكون له إرادة . ولا بد فى هذا أن يقيد بألا تكون له إرادة لم يؤمر بها وإلا فإذا أمر بأن يريد من المقدورات شيئاً دون شيء فليرد ما أمر بإرادته سواء كان موافقاً للقدر أم لا . وهذا الموضع قد يغلط فيه طائفة من السالكين .

والغالب على الصادقين منهم أنهم لم يعرفوا الإرادة الشرعية في ذلك المعين وهم ليس لهم إرادة نفسانية فتركوا إرادتهم لغير المقدور .

قال الشيخ : « فعلامة فنائك عن خلق الله انقطاعك عنهم وعن التردد إليهم واليأس مما في أيديهم » . وهو كما قال .

فإذا كان القلب لا يرجوهم ، ولا يخافهم ، لم يتردد إليهم لطلب شيء منهم وهذا يشبه بما يكون مأموراً به من المشي إليهم لأمرهم بما أمر الله به ، ونهيهم عما نهاهم الله عنه ، كذهاب الرسل ، وأتباع الرسل إلى من يبلغون رسالات الله ، فإن التوكل إنما يصح مع القيام بما أمر به العبد . ليكون عابداً لله متوكلا عليه ، وإلا فمن توكل عليه ولم يفعل ما أمر به ؛ فقد يكون ما أضاعه من الأمر أولى به مما قام به من التوكل ، أو مثله أو دونه ، كما أن من قام بأمر ولم يتوكل عليه ولم يستعن به فلم يقم بالواجب ؛ بل قد يكون ما تركه من التوكل والاستعانة أولى به مما فعله من الأمر أو مثله أو دونه .

قال الشيخ : « وعلامة فنائك عنك وعن هواك : ترك التكسب ، والتعلق بالسبب في جلب النفع ودفع الضر ، فلا تتحرك فيك بك ولا تعتمد عليك لك ولا تنصر نفسك ، ولا تذب عنك ، لكن تكل ذلك كله

إلى من تولاه أولا فيتولاه آخراً . كما كان ذلك موكولا إليه فى حال كونك مغيباً فى الرحم، وكونك رضيعاً طفلا فى مهدك » .

قلت : وهذا لأن النفس تهوى وجود ما تحبه وينفعها ودفع ما تبغضه ويضرها ، فإذا فنى عن ذاك بالأمر فعل مايحبه الله وترك ما يبغضه الله فاعتاض بفعل محبوب الله عن محبوبه وبترك ما يبغضه الله عما يبغضه وحينئذ فالنفس لا بد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة، فيكون فى ذلك متوكلا على الله .

و « الشيخ رحمه الله » ذكر هنا التوكل دون الطاعة ؛ لأن النفس لابد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة، فإن لم تكن متوكلة على الله فى ذلك واثقة به لم يمكن أن تنصرف عن ذلك فتمتثل الأمر مطلقاً ؛ بل لابد أن تعصي الأمر فى جلب المنفعة ودفع المضرة فلا تصح العبادة لله وطاعة أمره بدون التوكل عليه، كما أن التوكل عليه لا يصح بدون عبادته وطاعته . قال تعالى : (فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ) وقال تعالى : (وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥ) وقال تعالى : (وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا * رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا) .

و (المقصود) أن امتثال الأمر على الإطلاق لا يصح بدون

التوكل والاستعانة ، ومن كان واثقا بالله أن يجلب له ما ينفعه ويدفع عنه ما يضره أمكن أن يدع هواه ويطيع أمره ، وإلا فنفسه لا تدعه أن يترك ما يقول إنه محتاج فيه إلى غيره .

قال الشيخ — رضي الله عنه — : « وعلامة فناء إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مراداً قط ، فلا يكن لك غرض ، ولا تقف لك حاجة ولا مرام ؛ لأنك لا تريد مع إرادة الله سواها ، بل يجري فعله فيك فتكون أنت إرادة الله تعالى وفعله ، ساكن الجوارح مطمئن الجنان ، مشروح الصدر ، منور الوجه ، عامر الباطن ، غنيا عن الأشياء بخالقها ، تقلبك يد القدرة ويدعوك لسان الأزل ، ويعلمك رب الملك ويكسوك نوراً منه والحلل ، وينزلك منازل من سلف من أولي العلم الأول ، فتكون منكسراً أبداً .

فلا تثبت فيك شهوة ولا إرادة : كالإناء المتثلم — الذي لايثبت فيه مائع ولا كدر فتفنى عن أخلاق البشرية ، فلن يقبل باطنك ساكنا غير إرادة الله ، فحينئذ يضاف إليك التكوين وخرق العادات فيرى ذلك منك فى ظاهر العقل والحكم وهو فعل الله تبارك وتعالى حقا فى العلم فتدخل حينئذ فى زمرة المنكسرة قلوبهم الذين كسرت إرادتهم البشرية ، وأزيلت شهواتهم الطبيعية واستوثقت لهم إرادات ربانية وشهوات إضافية . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « حبب إلي من

دنياكم : النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصـلاة » فأضيف ذلك إليه بعد أن خرج منه وزال عنه تحقيقاً لما أشرت إليه وتقدم ، قال الله تعالى : « أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي » وساق كلامه . وفيه : « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل » الحديث .

قلت : هذا المقام هو آخر ما يشير إليه الشيخ عبد القادر ـــ رضي الله عنه ـــ وحقيقته أنه لا يريد كون شيء إلا أن يـكون مأموراً بإرادته . فقوله : علامة فناء إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مراداً قط . أي لا تريد مراداً لم تؤمر بإرادته ، فأما ما أمرك الله ورسوله بإرادتك إياه ، فإرادته إما واجب وإما مستحب ، وترك إرادة هذا إما معصية وإما نقص .

وهذا الموضع يلتبس عـلى كثير من السالكـين ، فيظنون أن الطريقة الـكاملة ألا يكون للعبد إرادة أصلاً ، وأن قول أبي يزيد : « أريد ألا أريد » ـــ لما قيل له : ماذا تريد ؟ ـــ نقص وتناقض ؛ لأنه قد أراد ، ويحملون كلام المشايخ الذين يمدحون بترك الإرادة على ترك الإرادة مطلقاً ، وهذا غلط منهم على الشيوخ المستقيمين ، وإن كان من الشيوخ من يأمر بترك الإرادة مطلقاً ، فإن هذا غلط ممن قاله ، فإن ذلك ليس بمقدور ولا مأمور .

فإن الحي لا بد له من إرادة ، فلا يمكن حياً ألا تكون له إرادة ، فإن الإرادة التي يحبها الله ورسوله ويأمر بها أمر إيجاب أو أمر استحباب لا يدعها إلا كافر أو فاسق أو عاص إن كانت واجبة ، وإن كانت مستحبة كان تاركها تاركا لما هو خير له .

والله تعالى قد وصف الأنبياء والصديقين بهذه « الإرادة » فقال تعالى : (وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ) وقال تعالى : (وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ) وقال تعالى : (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا) وقال تعالى : (وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا) وقال تعالى : (وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا) وقال تعالى : (فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ) وقال تعالى : (قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى) وقال تعالى : (وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا) وقال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

ولا عبادة إلا بإرادة الله ، ولما أمر به . وقال تعالى : (بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) أي أخلص قصده لله . وقال تعالى : (وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ) وإخلاص الدين له

هو إرادته وحده بالعبادة . وقال تعالى : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) وقال تعالى : (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) وقال تعالى : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ) . وكل محب فهو مريد . وقال الخليل عليه السلام : (لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ) ثم قال : (إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ) .

ومثل هذا كثير فى القرآن ، يأمر الله بإرادته ، وإرادة ما يأمر به ، وينهى عن إرادة غيره ، وإرادة ما نهى عنه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » فهما « إرادتان » : إرادة يحبها الله ويرضاها ، وإرادة لا يحبها الله ولا يرضاها ، بل إما نهى عنها ، وإما لم يأمر بها ، ولا ينهى عنها والناس فى الإرادة « ثلاثة أقسام » .

(قوم) يريدون ما يهوونه ، فهؤلاء عبيد أنفسهم والشيطان .

و (قوم) يزعمون أنهم فرغوا من الإرادة مطلقاً ، ولم يبق لهم مراد إلا ما يقدره الرب ، وإن هذا المقام هو أكمل المقامات . ويزعمون أن من قام بهذا فقد قام بالحقيقة ، وهي الحقيقة القدرية الكونية : وأنه

شهد القيومية العامة ، ويجعلون الفناء فى شهود توحيد الربوبيـة ، هو الغاية ؛ وقد يسمون هذا الجمع والفنـاء والاصطلام ، ونحو ذلك . وكثير من الشيوخ زلقوا في هذا الموضع .

وفى « هذا المقام » كان النزاع بين الجنيد بن محمد وبين طائفة من أصحابه الصوفية ؛ فإنهم اتفقوا على شهود توحيد الربوبية ، وأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ، وهو شهود القدر ؛ وسموا هذا مقـام الجمع . فإنه خرج به عن الفرق الأول وهو الفرق الطبيعي بإرادة هذا وكراهة هذا ، ورؤية فعل هذا وترك هذا ، فإن الإنسان قبل أن يشهد هذا التوحيد يرى للخلق فعلاً يتفرق به قلبه فى شهود أفعـال المخلوقات ؛ ويكون متبعاً لهواه فيما يريده ، فإذا أراد الحق خرج بإرادته عن إرادة الهوى والطبـع ، ثم شهد أنه خالق كـل شيء ، فخرج بشهود هـذا الجمع عن ذاك الفرق ، فلما اتفقوا على هذا ذكر لهـم الجنيد بن محمد « الفرق الثانى » وهو بعـد هذا الجمـع ، وهو الفرق الشرعى . ألا ترى أنك تريد ما أمرت به ، ولا تريد ما نهيت عنه ؟! وتشهد أن الله يستحق العبـادة دون ما سواه ، وأن عبادته هي بطاعة رسـله ، فتفرق بين المأمور والمحظور ، وبين أوليائـه وأعدائه ، وتشهد توحيد الألوهية ، فنازعوه فى هذا « الفرق » .

(منهم) من أنـكره .

و (منهم) من لم يفهمه .

و (منهم) من ادعى أن المتـكلم فيه لم يصل إليه .

ثم إنك تجد كثيراً من الشيوخ إنما ينتهي إلى ذلك الجمـع ، وهو « توحيد الربوبية » والفناء فيه . كما فى كلام صاحب « منازل السائرين » مع جلالة قدره ، مع أنه قطعاً كان قائماً بالأمر والنهي المعروفين ،لكن قد يدعون أن هذا لأجل العامة .

و (منهم) من يتناقض .

و (منهم) من يقول الوقوف مع الأمر لأجل مصلحة العـامة ، وقد يعبر عنهم بأهل المارستان .

و (منهم) من يسمى ذلك مقام التلبيس .

و (منهم) من يقول التحقيق أن يكون الجمع فى قلبك مشهوداً ، والفرق على لسانك موجوداً ، فيشهد بقلبه استواء المأمور والمحظور مع تفريقه بينهما .

و (منهم) من يرى أن هـذه هي الحقيقة التى هي منتهى سلوك

العارفين ، وغاية منازل الأولياء الصديقين .

و (منهم) من يظن أن الوقوف مع إرادة الأمر والنهي يكون فى السلوك والبداية ، وأما فى النهاية فلا تبقى إلا إرادة القدر ، وهو فى الحقيقة قول بسقوط العبادة والطاعة ؛ فإن العبادة لله والطاعة له ولرسوله إنما تكون فى امتثال الأمر الشرعي لا في الجري مع المقدور ، وإن كان كفراً أو فسوقاً أو عصياناً ، ومن هنا صار كثير من السالكين من أعوان الكفار والفجار وخفرائهم ، حيث شهدوا القدر معهم ؛ ولم يشهدوا الأمر والنهي الشرعيين .

ومن هؤلاء من يقول : من شهد القدر سقط عنه الملام . ويقولون إن الخضر إنما سقط عنه الملام لما شهد القدر .

وأصحاب شهود القدر قد يؤتى أحدهم ملكا من جهة خرق العادة بالكشف والتصرف فيظن ذلك كما لا فى الولاية ؛ وتكون تلك « الخوارق » إنما حصلت بأسباب شيطانية ، وأهواء نفسانية ؛ وإنما الكمال في الولاية أن يستعمل خرق العادات فى إقامة الأمر والنهي الشرعيين مع حصولهما بفعل المأمور وترك المحظور ، فإذا حصلت بغير الأسباب الشرعية فهي مذمومة ، وإن حصلت بالأسباب الشرعية لكن استعملت ليتوصل بها إلى محرم كانت مذمومة ، وإن توصل بها إلى مباح

لا يستعان بها على طاعة كانت للأبرار دون المقربين ، وأما إن حصلت بالسبب الشرعي واستعين بها على فعل الأمر الشرعي : فهـذه خوارق المقربين السابقين .

فلا بد أن ينظر في « الخوارق » فى أسبابهـا وغاياتهـا : من أين حصلت ، وإلى ماذا أوصلت ـ كما ينظـر فى الأموال فى مستخرجهـا ومصروفها ـ ومـن استعملهـا ـ أعني الخوارق ـ فى إرادته الطبيعيـة كان مذموماً ، ومن كان خالياً عن الإرادتين الطبيعيـة والشرعية فهـذا حسبه أن يعفى عنه ، لكونه لم يعرف الإرادة الشرعية .

وأما إن عرفها وأعرض عنها فإنه يكون مذموماً مستحقاً للعقاب إن لم يعف عنه ، وهو يمدح بكون إرادته ليست بهواه ؛ لكن يجب مع ذلك أن تكون موافقة لأمر الله تعـالى ورسوله ، لا يكفيـه أن تكون لا من هذا ولا من هذا ، مع أنه لا يمكن خلوه عن الإرادة مطلقاً ، بل لا بد له من إرادة ، فإن لم يرد ما يحبه الله ورسوله ، أراد ما لا يحبه الله ورسوله ؛ لكن إذا جاهد نفسه على ترك ما تهواه بقي مريداً لما يظن أنه مأمور به ، فيكون ضالاً .

فإن هذا يشبه حال الضالين من النصـارى . وقـد قال تعالى : (ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ

وَلَا ٱلضَّآلِّينَ) وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » .

فاليهود لهم إرادات فاسدة منهي عنها ، كما أخبر عنهم : بأنهم عصوا وكانوا يعتدون . وهم يعرفون الحق ولا يعملون به ، فلهم علم ، لكن ليس لهم عمل بالعلم ، وهم في الإرادة المذمومة المحرمة يتبعون أهواءهم ليسوا فى الإرادة المحمودة المأمور بها ، وهي إرادة ما يحبه الله ورسوله .

والنصارى لهم قصد وعبادة وزهد لكنهم ضلال ، يعملون بغير علم ، فلا يعرفون الإرادة التى يحبها الله ورسوله ، بل غاية أحدهم تجريد نفسه عن الإرادات ، فلا يبقى مريدا لما أمر الله به ورسوله ، كما لا يريد كثيراً مما نهى الله عنه ورسوله ، وهؤلاء ضالون عن مقصودهم فإن مقصودهم إنما هو فى طاعة الله ورسوله ، ولهذا كانوا ملعونين : أي بعيدين عن الرحمة التى تنال بطاعة الله عز وجل .

و « العالم الفاجر » يشبه اليهود . و « العابد الجاهل » يشبه النصارى . ومن أهل العلم من فيه شيء من الأول ، ومن أهل العبادة من فيه شيء من الثاني .

وهذا الموضع تفرق فيه بنوا آدم ، وتباينوا تباينا عظيماً ، لا يحيط به إلا الله . ففيهم من لم يخلق الله خلقا أكرم عليه منه ، وهو خير البرية . ومنهم من هو شر البرية ، وأفضل الأحوال فيه حال الخليلين : إبراهيم ومحمد — صلى الله عليهما وسلم — ومحمد سيد ولد آدم ، وأفضل الأولين والآخرين ، وخاتم النبيين وإمامهم إذا اجتمعوا وخطيبهم إذا وفدوا ، وهو المعروج به إلى ما فوق الأنبياء كلهم — إبراهيم وموسى وغيرهما .

وأفضل الأنبياء بعده « إبراهيم » كما ثبت فى الصحيح عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أن إبراهيم خير البرية » وقد ثبت فى صحيح مسلم عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه كان يقول فى خطبة الجمعة : « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدي محمد صلى الله عليه وسلم » . وكذلك كان عبد الله بن مسعود يخطب بذلك يوم الخميس ، كما رواه البخاري فى صحيحه .

وقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خادماً له ولا امرأة ولا دابة ولا شيئاً قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، وما نيل منه قط شيء فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله ، فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله » .

وقال أنس : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي : أف قط ، وما قال لي لشيء فعلته لم فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله لم لا فعلته ؟ » وكان بعض أهله صلى الله عليه وسلم اذا عنفني على شيء قال : « دعوه فلو قضى شيء لكان » .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو أفضل الخلائق ، وسيد ولد آدم ، وله الوسيلة فى المقامات كلها ، ولم يكن حاله أنه لا يريد شيئاً ، ولا أنه يريد كل واقع ، كما أنه لم يكن حاله أنه يتبع الهوى ، بل هو منزه عن هذا وهذا ، قال الله تعالى : (وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ) وقال تعالى : (وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ) وقال تعالى : (وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا) وقال : (سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا) . والمراد بعبده عابده المطيع لأمره ؛ وإلا فجميع المخلوقين عباد بمعنى أنهم معبدون مخلوقون مدبرون .

وقد قال الله لنبيه : (وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ) قال الحسن البصري لم يجعل الله لعمل المؤمن أجلا دون الموت ، وقد قال الله تعالى له : (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) قال ابن عباس ومن وافقه كابن عيينة وأحمد بن حنبل على دين عظيم . و « الدين » فعل ما أمر به . وقالت عائشة : « كان خلقه القرآن » رواه مسلم . وقد أخبرت أنه لم يكن يعاقب لنفسه ، ولا ينتقم لنفسه ، لكن يعاقب لله

وينتقم لله ، وكذلك أخبر أنس أنه كان يعفو عن حظوظه ، وأما حدود الله فقد قال : « والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » أخرجاه فى الصحيحين .

وهذا هو كمال الإرادة ؛ فإنه أراد ما يحبه الله ويرضاه من الإيمان والعمل الصالح ، وأمر بذلك وكره ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان ، ونهى عن ذلك ، كما وصفه الله تعالى بقوله : (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَـٰلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُۥ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

وأما لحظ نفسه فلم يكن يعاقب ولا ينتقم بل يستوفى حق ربه ، ويعفو عن حظ نفسه ، وفى حظ نفسه ينظر إلى القدر . فيقول : « لو قضي شيء لكان » ، وفي حق الله يقوم بالأمر فيفعل ما أمر الله به ، ويجاهد في سبيل الله أكمل الجهاد الممكن ، فجاهدهم أولاً بلسانه بالقرآن الذي أنزل عليه ، كما قال تعالى: (وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا * فَلَا تُطِعِ الْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا) . ثم لما

هاجر إلى المدينة وأذن له فى القتال ، جاهدهم بيده .

وهذا مطابق لما أخرجاه فى الصحيحين عن أبي هريرة ، وهو معروف أيضاً من حديث عمر بن الخطاب عن النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث احتجاج آدم وموسى لما لام موسى آدم لكونه أخرج نفسه وذريته من الجنة بالذنب الذي فعله فأجابه آدم بأن هذا كان مكتوبا علي قبل أن أخلق بمدة طويلة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم « فحج آدم موسى » .

وذلك لأن ملام موسى لآدم لم يكن لحق الله ، وإنما كان لما لحقه وغيره من الآدميين من المصيبة بسبب ذلك الفعل ، فذكر له آدم أن هذا كان أمراً مقدراً لا بد من كونه ، والمصائب التى تصيب العباد يؤمرون فيها بالصبر ؛ فإن هذا هو الذي ينفعهم . وأما لومهم لمن كان سبباً فيها فلا فائدة لهم فى ذلك ، وكذلك ما فاتهم من الأمور التى تنفعهم يؤمرون فى ذلك بالنظر إلى القدر ، وأما التأسف والحزن فلا فائدة فيه ، فما جرى به القدر من فوت منفعة لهم ، أو حصول مضرة لهم ، فلينظروا فى ذلك إلى القدر ، وأما ما كان بسبب أعمالهم فليجتهدوا فى التوبة من المعاصي ، والإصلاح فى المستقبل . فإن هذا الأمر ينفعهم ، وهو مقدور لهم بمعونة الله لهم .

وفى صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن . وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت لكان كذا وكذا ؛ ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان »

أمر النبي صلى الله عليه وسلم بحرص العبد على ما ينفعه ، والاستعانة بالله ، ونهاه عن العجز ، وأنفع ما للعبد طاعة الله ورسوله ، وهي عبادة الله تعالى . وهذان الأصلان هما حقيقة قوله تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) ونهاه عن العجز وهو الإضاعة والتفريط والتوانى . كما قال فى الحديث الآخر : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » رواه الترمذي .

وفى سنن أبي داود : « أن رجلين تحاكما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى على أحدهما . فقال : المقضي عليه : حسبي الله ونعم الوكيل فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل : حسبي الله ونعم الوكيل » فالكيس ضد العجز . وفى الحديث : « كل شيء بقدر حتى العجز والكيس » رواه مسلم . وليس المراد بالعجز فى كلام النبي صلى الله عليه وسلم ما يضاد

القـدرة ؛ فإن من لا قـدرة له بحال لا يلام ، ولا يؤمر بما لايقـدر عليـه بحـال .

ثم لما أمره بالاجتهاد والاستعانة بالله ونهاه عـن العجز ، أمره إذا غلبه أمر أن ينظر إلى القدر ويقول : قدر الله وما شاء فعل ، ولا يتحسر ويتلهف ويحزن . ويقول : لو أنى فعلت كذا وكذا لـكان كذا وكذا ، فإن لو تفتح عمل الشيطان .

وقد قال بعض الناس فى هذا المعنى : الأمر أمران : أمر فيـه حيلة وأمر لا حيلة فيه . فما فيه حيلة لا يعجز عنه ، وما لا حيلة فيه لايجزع منه . وهـــذا هو الذي يذكره أئمـة الدين . كما ذكر (الشيخ عبد القادر) وغيره . فإنه لا بد من فعل المأمور وترك المحظور ، والرضا والصبر على المقدور . وقد قال تعالى حكاية عن يوسف : (أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ)

« فالتقوى » تتضمن فعل المـأمور وترك المحظور . و « الصبر » يتضمن الصبر على المقدور . وقد قال تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ـ إلى قوله ـ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا) فبين سبحانه أنه مع التقوى والصبر لا يضر

المؤمنين كيد أعدائهم المنافقين . وقال تعالى : (بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ) فبين أنه مع الصبر والتقوى يمدهم بالملائكة . وينصرهم على أعدائهم الذين يقاتلونهم .

وقال تعالى : (لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ) فأخبرهم أن أعداءهم من المشركين وأهل الكتاب لا بد أن يؤذوهم بألسنتهم ، وأخبر أنهم إن يصبروا ويتقوا فإن ذلك من عزم الأمور . فالصبر والتقوى يدفع شر العدو المظهر للعداوة ، المؤذين بألسنتهم والمؤذين بأيديهم ، وشر العدو المبطن للعداوة . وهم المنافقون ، وهذا الذي كان خلق النبي صلى الله عليه وسلم وهديه هو أكمل الأمور .

فأما من أراد ما يحبه الله تارة ومالا يحبه تارة ، أو لم يرد لا هذا ولا هذا ، فكلاهما دون خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وإن لم يكن على واحد منهما إثم ، كالذي يريد ما أبيح له من نيل الشهوة المباحة والغضب والانتقام المباح كما هو خلق بعض الأنبياء والصالحين ، فهو وإن كان جائزاً لا إثم فيه فخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل منه .

وكذلك من لم يرد الشهوات المباحة وإن كان يستعان بها على أمر مستحب، ولم يرد أن يغضب وينتقم ويجاهد إذا جاز العفو وإن كان الانتقام لله أرضى لله. كما هو أيضاً خلق بعض الأنبياء والصالحين فهذا وإن كان جائزاً لا إثم فيه فخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل منه.

وهذا والذي قبله إذا كان شريعة لنبي فلا عيب على نبي فيما شرع الله له.

لكن قد فضل الله بعض النبيين على بعض، وفضل بعض الرسل على بعض، والشريعة التي بعث الله بها محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل الشرائع؛ إذ كان محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء والمرسلين، وأمته خير أمة أخرجت للناس. قال أبو هريرة في قوله تعالى: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة. يبذلون أموالهم وأنفسهم فى الجهاد لنفع الناس، فهم خير الأمم للخلق. والخلق عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، وأما غير الأنبياء فمنهم من يكون ذلك شرعة لأتباعه لذلك النبي، وأما من كان من أهل شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ومنهاجه فإن كان ما تركه واجباً عليه وما فعله محرماً عليه كان مستحقاً للذم والعقاب، إلا أن يكون متأولاً مخطئاً فالله قد وضع عن هذه الأمة

الخطأ والنسيان وذنب أحدهم قد يعفو الله عنه بأسباب متعددة .

ومن أسباب هذا الانحراف أن من الناس من تغلب عليه « طريقة الزهد » فى إرادة نفسه فيزهد فى موجب الشهوة والغضب كما يفعل ذلك من يفعله من عباد المشركين، وأهل الكتاب كالرهبان وأشباههم، وهؤلاء يرون الجهاد نقصاً لما فيه من قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال، ويرون أن الله لم يجعل عمارة بيت المقدس على يد داود لأنه جرى على يديه سفك الدماء .

ومنهم من لا يرى ذبح شيء من الحيوان كما عليه البراهمة، ومنهم من لا يحرم ذلك لكنه هو يتقرب إلى الله بأنه لا يذبح حيواناً ولا يأكل لحمه ولا ينكح النساء ، ويقول مادحه : فلان ما نكح ، ولا ذبح .

وقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على هؤلاء كما فى الصحيحين عن أنس : « أن نفراً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن عمله فى السر فقال بعضهم : لا أتزوج النساء وقال بعضهم : لا آكل اللحم ، وقال بعضهم : لا أنام على فراش . فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه وقال : مابال أقوام قالوا : كذا وكذا ؟ ! لكني أصلي وأنام

وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء وآكل اللحم ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » . وقد قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ نزلت في عثمان بن مظعون وطائفة معه كانوا قد عزموا على التبتل ، ونوع من الترهب وفى الصحيحين عن سعد قال رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لا اختصينا .

و « الزهد » النافع المشروع الذي يحبه الله ورسوله هو الزهد فيما لا ينفع فى الآخرة ، فأما ما ينفع فى الآخرة وما يستعان به على ذلك فالزهد فيه زهد فى نوع من عبادة الله وطاعته ، والزهد إنما يراد لأنه زهد فيما يضر ، أو زهد فيما لا ينفع ، فأما الزهد في النافع فجهل وضلال كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن » .

والنافع للعبد هو عبادة الله وطاعته وطاعة رسوله ، وكلما صده عن ذلك فإنه ضار لا نافع ، ثم الأنفع له أن تكون كل أعماله عبادة لله وطاعة له ، وإن أدى الفرائض وفعل مباحا لا يعينه على الطاعة فقد فعل ما ينفعه ومالا ينفعه ولا يضره .

وكذلك « الورع » المشروع هو الورع عما قد تخاف عاقبته وهو

ما يعلم تحريمه ، وما يشك في تحريمه ، وليس فى تركه مفسدة أعظم من فعله ـــ مثل محرم معين ـــ مثل من يترك أخذ الشبهة ورعا مـع حاجته إليها ويأخذ بدل ذلك محرما بينا تحريمه ، أو يترك واجباً تركه أعظم فساداً من فعله مـع الشبهة ، كمن يكون على أبيــه أو عليــه ديون هو مطالب بها ، وليس له وفاء إلا من مال فيه شبهة فيتورع عنها ، ويدع ذمته أو ذمة أبيه مرتهنة .

وكذلك من « الورع » الاحتياط بفعل ما يشك في وجوبــه لكن على هذا الوجه .

وتمام « الورع » أن يعم الإنسان خـير الخيرين ، وشر الشرين ، ويعلم أن الشريعة مبناهـا على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاســد وتقليلهـا وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والـترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية فقـد يدع واجبات ويفعل محرمات . ويرى ذلك من الورع كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظلمة ويرى ذلك ورعاً ، ويدع الجمعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعـة أو فجور ويرى ذلك من الورع ، ويمتنع عن قبول شهادة الصادق وأخذ علم العالم لما فى صاحبه من بدعة خفيــة ، ويرى ترك قبول سمــاع هـــذا الحـق الذي يجب سماعـه من الورع .

وكذلك « الزهد والرغبة » من لم يراع ما يحبه الله ورسوله من الرغبة والزهد وما يكرهه من ذلك ؛ وإلا فقد يدع واجبات ويفعل محرمات مثل من يدع ما يحتاج إليه من الأكل ، أو أكل الدسم حتى يفسد عقله أو تضعف قوته عما يجب عليه من حقوق الله تعالى أو حقوق عباده ، أو يدع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ، لما في فعل ذلك من أذى بعض الناس والانتقام منهم ، حتى يستولي الكفار والفجار على الصالحين الأبرار فلا ينظر المصلحة الراجحة في ذلك .

وقد قال تعالى : (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ) .

يقول سبحانه وتعالى : وإن كان قتل النفوس فيه شر فالفتنة الحاصلة بالكفر وظهور أهله أعظم من ذلك ، فيدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما .

وكذلك الذي يدع ذبح الحيوان أو يرى أن في ذبحه ظلماً له هو جاهل ، فإن هذا الحيوان لا بد أن يموت ، فإذا قتل لمنفعة الآدميين

وحاجتهم كان خيراً من أن يموت موتا لا ينتفع به أحد . والآدمي أكمل منه ، ولا تتم مصلحته إلا باستعمال الحيوان فى الأكل والركوب ونحو ذلك ؛ لكن مالا يحتاج إليه من تعذيبه نهى الله عنه كصبر البهائم وذبحها فى غير الحلق واللبة مع القدرة على ذلك ، وأوجب الله الإحسان بحسب الإمكان فيما أباحه من القتل والذبح . كما فى صحيح مسلم عن شداد بن أوس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء : فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » .

وهؤلاء الذين زهدوا فى « الإرادات » حتى فيما يحبه الله ورسوله من الإرادات بإزائهم « طائفتان » :

(طائفة) رغبت فيما كره الله ورسوله و[1] الرغبة فيه من الكفر والفسوق والعصيان .

و (طائفة) رغبت فيما أمر الله ورسوله ، لكن لهوى أنفسهم لا لعبادة الله تعالى ، وهؤلاء الذين يأتون بصور الطاعات مع فساد النيات ، كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه قيل له : يا رسول الله ! الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، فأي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ،

---

(١) أضيفت الواو حسب مفهوم السياق)

فهو فى سبيل الله » . قال تعالى : (إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا)

وهؤلاء أهل إرادات فاسدة مذمومة ، فهم مع تركهم الواجب فعلوا المحرم . وهم يشبهون اليهود ، كما يشبه أولئك النصارى . قال تعالى : (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ) وقال تعالى : (سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا) . وقال تعالى : (وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا) إلى قوله : (وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

فهؤلاء يتبعون أهواءهم غيا مع العلم بالحق ، وأولئك يتبعون أهواءهم مع الضلال والجهل بالحق . كما قال تعالى : (وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ)

وكلا الطـائفتين تاركة ما أمر الله ورسوله بـه من الإرادات ، والأعمال الصالحة ، مرتـكبة لما نهى الله ورسوله عنـه من الإرادات والأعمال الفاسدة .

فصـــل

فأمر الشيخ عبد القادر وشيخه حماد الدباس وغيرهما من المشايخ أهل الاستقامة ـــ رضي الله عنهم ـــ : بأنه لايريد السالك مراداً قط وأنه لا يريد مع إرادة الله عز وجل سواها ، بل يجري فعله فيه ، فيـكون هو مراد الحق . إنمـا قصدوا به فيما لم يعلم العبـد أمر الله ورسوله فيه ، فأما ماعلم أن الله أمر به فعليه أن يريـده ويعمل به ، وقد صرحوا بذلك فى غير موضع . وإن كان غيرهم من الغالطين يرى القيام بالإرادة الخلقية هو الـكمال ، وهو « الفناء في توحيد الربوبيـة » وأن السلوك إذا انتهى إلى هذا الحد فصـاحبه إذا قام بالأمر فلأجل غيره ، أو أنه لا يحتاج أن يقوم بالأمر ، فتلك أقوال وطرائق فاسدة قد تـكلم عليها فى غير هذا الموضع .

فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشـايخ السلف : مثل الفضيل بن عياض ، وإبراهيم بن أدهم ، وأبي سليمان الدارانى ، ومعروف

الكرخي ، والسري السقطي ، والجنيد بن محمد ، وغيرهم من المتقدمين ومثل الشيخ عبد القادر ، والشيخ حماد ، والشيخ أبي البيان ، وغيرهم من المتأخرين . فهم لا يسوغون للسالك ولو طار فى الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين بل عليه أن يفعل المأمور ، ويدع المحظور إلى أن يموت ، وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف .

وهذا كثير فى كلامهم : كقول الشيخ عبد القادر في كتاب (فتوح الغيب) : « اخرج من نفسك ، وتنح عنها ، وانعزل عن ملكك . وسلم الكل إلى الله تبارك وتعالى ، وكن بوابه على باب قلبك ، وامتثل أمره تبارك وتعالى فى إدخال من يأمرك بإدخاله ، وانته نهيه فى صد من يأمرك بصده . فلا تدخل الهوى قلبك بعد أن خرج منه ، وإخراج الهوى من القلب بمخالفته وترك متابعته فى الأحوال كلها ، وإدخاله فى القلب بمتابعته وموافقته ، فلا ترد إرادة غير إرادته تبارك وتعالى ، وغير ذلك منك غير ، وهو وادى الحمقى ، وفيه حتفك وهلاكك وسقوطك من عينه تبارك وتعالى ، وحجابك عنه .

احفظ أبداً أمره ، وانته أبداً نهيه ، وسلم إليه أبداً مقدوره ، ولا تشركه بشيء من خلقه ، فإرادتك وهواك وشهواتك خلقه ، فلا ترد ولا تهوى ولا تشته لئلا يكون شركا . قال الله تعالى : (فَمَن كَانَ

يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا) ليس الشرك عبادة الأصنام فحسب ؛ بل هو أيضاً متابعتك لهواك ، وأن تختار مع ربك شيئاً سواه من الدنيا وما فيها ، والآخرة وما فيها ، فما سواه تبارك وتعالى غيره ، فإذا ركنت إلى غيره فقد أشركت به غيره ، فاحذر ولا تركن ، وخف ولا تأمن ، وفتش ولا تغفل فتطمئن ، ولا تضف إلى نفسك حالاً ولا مقاماً ، ولا تدع شيئاً من ذلك » .

وقال (الشيخ عبد القادر) أيضاً : « إنما هو الله ونفسك ، وأنت المخاطب ، والنفس ضد الله وعدوته ؛ والأشياء كلها تابعة لله ، فإذا وافقت الحق فى مخالفة النفس وعداوتها كنت خصماً له على نفسك — إلى أن قال — :

« فالعبادة » في مخالفتك نفسك وهواك ، قال تعالى : (وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ) إلى أن قال :

و الحكاية المشهورة عن أبي يزيد البسطامي — رحمه الله تعالى — لما رأى رب العزة فى المنام فقال له : كيف الطريق إليك ؟ فقال : اترك نفسك وتعال ، قال أبو زيد : فانسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها .

فإذا ثبت أن الخير كله فى معاداتها فى الجملة في الأحوال كلها ، فإن

كنت في حال التقــوى فخالف النفس بأن تخــرج من أجرام الخلق ، وشبههم ومنتهم ، والاتكال عليهم والثقة بهم ، والخوف منهــم ؛ والرجاء لهم ، والطمع فيما عندهم من حطام الدنيا ، فلا ترج عطاءهم على طريق الهدية ، أو الزكاة ، أو الصدقة ، أو الكفارة أو النــذر ، فاقطع همك منهم من سائر الوجوه والأسباب ، فاخرج من الخلق جــداً ، واجعلهم كالباب يرد ويفتتح ، وكالشجرة يوجد فيها ثمرة تارة وتحيل أخــرى ، كل ذلك بفعل فاعل ، وتدبير مدبر ، وهو الله تبارك وتعالى .

فإذا صح لك هذا كنت موحداً له تبارك وتعالى ، ولا تنس مــع ذلك كسبهم لتتخلص من مذهب الجبرية ، واعتقد أن الأفعال لا تتم لهم دون الله تبارك وتعالى ؛ لكيلا تعبــدهم ، وتنسى الله تعــالى ، ولا تقبل فعلهم دون الله فتكفر ، وتكون قدرياً . ولكن قل : هي لله خلقا وللعباد كسبا . كما جاءت به الآثار لبيان موضع الجزاء من الثواب والعقــاب ، وامتثل أمر الله فيهم ، وخلص قسمك منهم بأمره ولا تجاوزه ، فحكمه قائم يحكم عليك وعليهم ، فلا تكن أنت الحاكم ، وكونك معهم قدر ، والقدر ظلمة ، فادخل فى الظلمة بالمصباح وهو « الحــكم » : كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا تخرج عنهما .

فإن خطر خاطر أو وجدت إلهاما فاعرضهما على الــكتاب والسنة ، فإن وجدت فيهما تحريم ذلك ، مثل أن تلهم بالزنا أو الربا أو مخالطــة

أهل الفسوق والفجور وغير ذلك من المعاصي فادفعه عنك ، واهجره ولا تقبله ، ولا تعمل به واقطع بأنه من الشيطان اللعين ، وإن وجدت فيها إباحته كالشهوات المباحة من الأكل والشرب واللبس والنكاح فاهجره أيضاً ولا تقبله ، وأعلم أنه من إلهام النفس وشهواتها ، وقد أمرت بمخالفتها وعداوتها » .

قلت : ومراده بهجر المباح إذا لم يكن مأموراً به ، كما قد بين مراده فى غير هذا الموضع . فإن المباح المأمور به إذا فعله بحكم الأمر كان ذلك من أعظم نعمة الله عليه ، وكان واجباً عليه ، وقد قدمت أنه يدعو إلى طريقة السابقين المقربين ؛ لا يقف عند طريقة الأبرار أصحاب اليمين .

قال : « وإن لم تجد فى الكتاب والسنة تحريمه ولا إباحته بل هو أمر لا تعقله ، مثل أن يقال لك ائت موضع كذا وكذا ، الق فلانا الصالح ؛ ولا حاجة لك هناك ولا فى الصالح ؛ لاستغنائك عنه بما أولاك الله تعالى من نعمه من العلم والمعرفة ، فتوقف فى ذلك ولا تبادر إليه . فتقول : هل هذا إلهام إلا من الحق فاعمل به ؟ بل انتظر الخير فى ذلك ، وفعل الحق بأن يتكرر ذلك الإلهام وتؤمر بالسعي ، أو علامة تظهر لأهل العلم بالله تبارك وتعالى يفعلها العقلاء من أولياء الله ، والمؤيدون من الأبدال .

وإنما لم تبادر إلى ذلك لأنك لا تعلم عاقبته وما يؤول الأمر إليه ، وربما

كان فيه فتنة وهلاك ومكر من الله وامتحان فاصبر حتى يكون عز وجل هو الفاعل فيك ، فإذا تجرد الفعل وحملت إلى هناك واستقبلتك فتنة كنت محمولاً محفوظاً فيها ؛ لأن الله تعالى لا يعاقبك على فعله ، وإنما تتطرق العقوبات نحوك لكونك فى الشيء » .

قلت : فقد أمر — رضي الله عنه — بأن ما كان محظوراً فى الشرع يجب تركه ولا بد ، وما كان معلوماً أنه مباح بعينه لكونه يفعل بحكم الهوى لا بأمر الشارع فيترك أيضاً ، وأما ما لم يعلم هل هو بعينه مباح لا مضرة فيه أو فيه مضرة مثل السفر إلى مكان معين أو شخص معين ، والذهاب إلى مكان معين أو شخص معين ، فإن جنس هذا العمل ليس محرما ولا كل أفراده مباحة ؛ بل يحرم على الإنسان أن يذهب إلى حيث يحصل له ضرر فى دينه فأمره بالكف عن الذهاب حتى يظهر أو يتبين له فى الباطن ان هذا مصلحة ؛ لأنه إذا لم يتبين له أن الذهاب واجب أو مستحب لم ينبغ له فعله ، وإذا خاف الضرر ينبغى له تركه ، فإذا أكره على الذهاب لم يكن عليه حرج فلا يؤاخذ بالفعل . بخلاف ما إذا فعله باختياره أو شهوته ؛ وإذا تبين له أنه مصلحة راجحة كان حسناً .

وقد جاءت شواهد السنة : بأن من ابتلى بغير تعرض منه أعين ومن تعرض للبلاء خيف عليه . مثل قوله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن سمرة « لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها

عن غير مسألة أعنت عليها » ومنه قوله : « لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا » . وفى السنن « من سأل القضاء واستعان عليه بالشفعاء وكل إليه ، ومن لم يسأل القضاء ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده — وفى رواية — وإن أكره عليه » وفى الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال فى الطاعون : « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ؛ وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » وعنه أنه صلى الله عليه وسلم « نهى عن النذر » ومنه قوله : « ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه . وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

فصل

قال (الشيخ عبد القادر) : « وإن كنت فى حال الحقيقة ، وهي حال الولاية : فخالف هواك واتبع الأمر فى الجملة ، واتباع الأمر على « قسمين » :

(أحدها) : أن تأخذ من الدنيا القوت الذي هو حق النفس ، وتترك الحظ وتؤدي الفرض وتشتغل بترك الذنوب ما ظهر منها وما بطن .

و (القسم الثـاني) : ما كان بأمر باطن ، وهو أمر الحق تبـارك وتعالى يأمر عبده وينهاه ، وإنما يتحقق هذا الأمر فى المبـاح الذي ليس حكما في الشرع ، على معنى أنه ليس من قبيل النهي ولا من قبيل الأمر الواجب ، بل هو مهمل ترك العبد يتصرف فيه باختياره ، فسمي مباحا فلا يحدث العبد فيه شيئاً من عنده بل ينتظر الأمر فيه فإذا أمر امتثل فيصير جميع حركاته وسكناته بالله تعـالى ، مافى الشرع حكمه فبالشرع ، وما ليس له حـكم فى الشرع فبالأمر الباطن ، فحينئذ يصـير محققـاً من أهـل الحقيقـة وما ليس فيـه أمـر باطن فهو مجـرد الفعـل حالة التسليم .

وإن كنت فى حالة حق الحـق وهي حالة المحق ، والفنـاء حالة الأبـدال المنكسري القـلوب ؛ لأجل الحق ، الموحـدين العـارفين أرباب العلوم والفعل السادة الأمراء السخى الخفراء للحق خلفاء الرحمن وأجلائه وأعيانه وأحبابه عليهـم السلام ، فاتباع الأمر فيها بمخالفتك إياك بالتبري من الحول والقوة ، وأن لا تكون لـك إرادة وهمة فى شيء ألبتة ، دنيا وأخرى عبد الملِك لا عبد الملَك ، وعبد الأمر لا عبد الهوى كالطفل مع الظئر ، والميت الغسيل مع الغاسل ، والمريض المغلوب على حسه مع الطبيب فيما سوى الأمر والنهي .

وقال أيضاً : « اتبع الشرع في جميـع ما ينزل بك ، إن كنت فى

حال التقوى التى هي القدم الأولى ، واتبع الأمر فى حالة الولاية ووجود الهوى ولا تتجاوزه ، وهي القـدم الثانية ، وارض بالفعل ووافق وافن فى حالة البدليـة والعينية والصديقية ، وهي المنتهى . تنـح عن الطريق القدر ، خل عن سبيله ، رد نفسك وهواك ، كف لسانك عن الشكوى فإذا فعلت ذلك إن كان خـيراً زادك المولى طيبة ولذة وسروراً ، وإن كان شراً حفظك فى طاعته فيه ، وأزال عنك الملامة وأقعدك فيه حتى يتجاوز ويريحك عند انقضاء أجله ، كما ينقضي الليل فيسفر عن النهار والبرد فى الشتاء فيسفر عن الصيف ، ذلك النموذج عندك فاعتبر بـه . ثم ذنوب وآثـام وأجرام وتلويث بأنواع المعاصي والخطايا ، ولا يصلح لمجالسة الكريم إلا طاهر عن أنجاس الذنوب والزلات ، ولا يقبل عـلى شدته إلا طيب من دون الدعوى والهـواشات ، كما لا يصلح لمجالسـة الملوك إلا الطاهر من الأنجـاس وأنواع النـتن والأوسـاخ ، فالبلايا مكـفرات . قال النـبي صـلى الله عليـه وسـلم : « حمى يـوم كفارة سنة » .

قلت : فقد بين الشيخ عبد القادر ـ رضي الله عنه ـ أن لزوم الأمر والنهي لا بد منـه فى كل مقـام ، وذكر الأحوال الثلاث الـتى جعلها حال صاحب التقوى ، وحال الحقيقـة ، وحال حق الحق ، وقـد فسر مقصوده بأنه لابد للعبد فى كل حال من أن يريد فعل ما أمر به

في الشرع وترك ما نهى عنه فى الشرع ، وأنه إذا أمر العبد بترك إرادته فهو فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه ، وهذا حق . فإنه لم يؤمر به فتكون له إرادة فى وجوده ولا نهى عنه فتكون له إرادة فى عدمه فيخلو فى مثل هذا عن إرادة النقيضين .

وقد بين أن صاحب الحقيقة عليه أن يلزم الأمر دائماً الأمر الشرعي الظاهر إن عرفه، أو الأمر الباطن ، وبين أن الأمر الباطن إنما يكون فيما ليس بواجب فى الشرع ولا محرم، وأن مثل هذا ينتظر فيه الأمر الخاص حتى يفعله بحكم الأمر .

فإن قلت : فما الفرق بين هذا وبين صاحب التقوى الذي قبله ؟ وصاحب الحق الذي بعده ؟ .

قيل : أما الذي بعده الذين سماهم « الأبدال » فهم الذين لايفعلون إلا بأمر الحق ولا يفعلون إلا به فلا يشهدون لأنفسهم فعلا فيما فعلوه من الطاعة ؛ بل يشهدون أنه هو الفاعل بهم ما قام بهم من طاعة أمره . ولهذا قال: فاتباع الأمر فيها مخالفتك إياك بالتبري من الحول والقوة .

فهؤلاء يشهدون توحيد الربوبية مع توحيد الإلهية ، فيشهدون

أن الله هو الذي خلق ما قام بهم من أفعال البر والخير ، فلا يرون لأنفسهم حمداً ولا منة على أحد ، ويرون أن الله خالق أفعال العباد فلا يرون أحداً مسيئاً إليهم ، ولا يرون لهم حقاً على أحد إذ قد شهدوا أن الله خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها ، وهم يعلمون أن العباد لا يستحقون من أنفسهم ولا بأنفسهم على الله شيئاً ، بل هو الذي كتب على نفسه الرحمة ويشهدون أنه يستحق أن يعبد ، ولا يشرك به شيء وأنه يستحق أن يتقى حق تقاته ، وحق تقاته أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر ، فيرون أن ما قام بهم من العمل الصالح فهو جوده وفضله وكرمه له الحمد فى ذلك .

ويشهدون : أنه لا حول ولا قوة إلا بالله . وأما ماقام بالعباد من أذاهم ، فهو خلقه وهو من عدله ، وما تركه الناس من حقوقهم التى يستحقونها على الناس فهو الذي لم يخلقه ، وله الحمد على كل حال على مافعل ومالم يفعل . ولهذا كانوا منكسرة قلوبهم ؛ لشهودهم وجوده الكامل وعدمهم المحض ، ولا أعظم انكساراً ممن لم ير لنفسه إلا العدم لا يرى له شيئاً ، ولا يرى به شيئاً .

وصاحب الحقيقة الذي هو دون هذا قد شاركه فى إخلاص الدين لله ، وأنه لا يفعل إلا ما أمر به ، فلا يفعل إلا لله ، لكن قصر عنه فى شهود توحيد الربوبية ورؤيته ، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله

وأنه ليس له فى الحقيقة شيء ؛ بل الرب هو الخالق الفاعل لكل ما قام به ، وأن كمال هذا الشهود لا يبقى شيئاً من العجب ولا الكبر ونحو ذلك . فكلاهما قائم بالأمر مطيع لله ، لكن هذا يشهد أن الله هو الذي جعله مسلماً مصلياً ، وأنه فى الحقيقة لم يحدث شيئاً ، وذاك وإن كان يؤمن بهذا ويصدق به إذ كان مقراً بأن الله خالق أفعال العباد ؛ لكن قد لا يشهده شهوداً يجعله فيه بمنزلة المعدوم .

و (أيضاً) بينهما فرق من جهة ثانية : وهي أن الأول تكون له إرادة وهمة فى أمور فيتركها ، فهو يميز فى مراداته بين ما يؤمر به وما ينهى عنه ، وما لا يؤمر به ولا ينهى عنه ؛ ولهذا لم يبق له مراد أصلا إلا ما أراده الرب ، إما أمراً به فيمتثله هو بالله ، وإما فعلا فيه فيفعله الله به ، ولهذا شبهه بالطفل مع الظئر ، فى غير الأمر والنهي .

وأما (الأول) : الذي هو فى مقام التقوى العامة ، فإن له شهوات للمحرمات ، وله التفات إلى الخلق ، وله رؤية نفسه ، فيحتاج إلى المجاهدة بالتقوى ، بأن يكف عن المحرمات ، وعن تناول الشهوات بغير الأمر ، فهذا يحتاج أن يميز بين ما يفعله وما لا يفعله ، وهو التقوى ، وصاحب الحقيقة لم يبق له ما يفعله إلا ما يؤمر به فقط ، فلا يفعل إلا ما أمر به فى الشرع ، وما كان مباحاً لم يفعل إلا ما أمر به .

وأما (الثالث) : فقد تم شهوده فى أنه لا يفعل إلا لله وبالله . فلا يفعل إلا ما أمر الله به لله ، ويشهد أن الله هو الذي فعل ذلك فى الحقيقة ، ولا تكون له همة إرادة أن يفعل لنفسه ولا لغير الله، ولا يفعل بنفسه ولا بغير الله تعالى .

و (الثلاثة) مشتركون في الطريق ، فى أن كلامنهم لا يفعل إلا الطاعة ، لكن يتفاوتون بكمال المعرفة والشهادة ، وبصفاء النية والإرادة . والله أعلم .

فإن قيل : كلام الشيخ كله يدور على أنه يتبع الأمر مهما أمكن معرفته باطناً وظاهراً ، وما ليس فيه أمر باطناً ولا ظاهراً يكون فيه مسلماً لفعل الرب ، بحيث لا يكون له اختيار لا فى هذا ولا فى هذا بل إن عرف الأمر كان معه ، وإن لم يعرفه كان مع القدر ، فهو مع أمر الرب إن عرف وإلا فمع خلقه ، فإنه سبحانه له الخلق والأمر ، وهذا يقتضي أن من الحوادث ما ليس فيه أمر ولا نهي ، فلا يكون لله فيه حكم لا باستحباب ولا كراهة ، وقد صرح بذلك هو والشيخ حماد الدباس ، وأن السالك يصل إلى أمور لا يكون فيها حكم شرعي بأمر ولا نهي ، بل يقف العبد مع القدر ؛ وهذا الموضع هو الذي يكون السالك فيه عندهم مع « الحقيقة القدرية » المحضة ، إذ ليس هنا حقيقة شرعية .

وهذا مما ينازعهم فيه أهل العلم بالشريعة . ويقولون : « الفعل » إما أن يكون بالنسبة إلى الشرع وجوده راجحاً على عدمه ، وهو الواجب والمستحب . وإما أن يكون عدمه راجحاً على وجوده ، وهو المحرم والمكروه . وإما أن يستوى الأمران وهو المباح . وهذا التقسيم بحسب الأمر المطلق .

ثم « الفعل المعين » الذي يقال هو مباح ، إما أن تكون مصلحته راجحة للعبد لاستعانته به على طاعته وحسن نيته . فهذا يصير أيضاً محبوباً راجح الوجود بهذا الاعتبار ، وإما أن يكون مفوتا للعبد ما هو أفضل له كالمباح الذي يشغله عن مستحب ، فهذا عدمه خير له .

والسالك المتقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض لا يكون المباح المعين فى حقه مستوى الطرفين ، فإنه إذا لم يستعن به على طاعته كان تركه وفعل الطاعة مكانه خيراً له ، وإنما قدر وجوده وعدمه سواء إذا كان مع عدمه يشتغل بمباح مثله . فيقال : لا فرق بين هذا وهذا فهذا يصلح للأبرار أهل اليمين الذين يتقربون إلى الله بالفرائض ، كأداء الواجبات ، وترك المحرمات ، ويشتغلون مع ذلك بمباحات . فهؤلاء قد يكون المباح المعين يستوى وجوده وعدمه فى حقهم ، إذا كانوا عند عدمه يشتغلون بمباح آخر ، ولا سبيل إلى أن تترك النفس فعلا إن

لم تشتغل بفعل آخر يضاد الأول ؛ إذ لا تكون معطلة عن جميع الحركات والسكنات .

ومن هذا أنكر الكعبي « المباح » فى الشريعة ؛ لأن كل مباح فهو يشتغل به عن محرم ، وترك المحرم واجب ، ولا يمكنه تركه إلا أن يشتغل بضده ، وهذا المباح ضده ، والأمر بالشيء نهي عن ضده والنهي عنه أمر بضده إن لم يكن له إلا ضد واحد ، وإلا فهو أمر بأحد أضداده ، فأي ضد تلبس به كان واجباً من باب الواجب المخير .

وسؤال الكعبي هذا أشكل على كثير من النظار ، فمنهم من اعترف بالعجز عن جوابه : كأبي الحسن الآمدي ، وقواه طائفة ، بناء على أن النهي عن الشيء أمر بضده كأبي المعالي . ومنهم من قال : هذا فيما إذا كانت أضداده محصورة ، فأما ما ليست أضداده محصورة فلا يكون النهي عنه أمراً بأحدها ، كما يفرق بين الواجب المطلق والواجب المخير . فيقال في المخير : هو أمر بأحد الثلاثة ، ويقال فى المطلق هو أمر بالقدر المشترك . وجدنا أبو البركات يميل إلى هذا .

وقد ألزموا « الكعبي » إذا ترك الحرام بحرام آخر ، وهو قد يقول : عليه ترك المحرمات كلها إلى ما ليس بمحرم ، بل إما مباح وإما مستحب ، وإما واجب .

و « تحقيق الأمر » أن قولنا : الأمر بالشيء نهي عن ضده وأضداده ، والنهي عنه أمر بضده أو بأحد أضداده ، من جنس قولنا : الأمر بالشيء أمر بلوازمه ، وما لا يتم الواجب إلا به ، فهو واجب ، والنهي عن الشيء نهي عما لا يتم اجتنابه إلا به . فإن وجود المأمور يستلزم وجود لوازمه وانتفاء أضداده ، بل وجود كل شيء هو كذلك يستلزم وجوده وانتفاء أضداده ، وعدم النهي عنه ؛ بل وعدم كل شيء يستلزم عدم ملزوماته ، وإذا كان لا يعدم إلا بضد يخلقه كالأكوان فلا بد عند عدمه من وجود بعض أضداده ، فهذا حق في نفسه ؛ لكن هذه اللوازم جاءت من ضرورة الوجود وإن لم يكن مقصوده الأمر . والفرق ثابت بين ما يؤمر به قصداً ، وما يلزمه في الوجود .

(فالأول) هو الذي يذم ويعاقب على تركه بخلاف (الثاني) فإن من أمر بالحج أو الجمعة وكان مكانه بعيداً فعليه أن يسعى من المكان البعيد ، والقريب يسعى من المكان القريب ، فقطع تلك المسافات من لوازم المأمور به ، ومع هذا فإذا ترك هذان الجمعة والحج لم تكن عقوبة البعيد أعظم من عقوبة القريب ، بل ذلك بالعكس أولى مع أن ثواب البعيد أعظم ، فلو كانت اللوازم مقصودة للأمر لكان يعاقب بتركها ، فكان يكون عقوبة البعيد أعظم وهذا باطل قطعاً .

وهكذا إذا فعل المأمور به فإنه لا بد من ترك أضداده ، لكن

ترك الأضداد هو من لوازم فعل المأمور به ليس مقصوداً للآمر ، بحيث إنه إذا ترك المأمور به عوقب على تركه لا على فعل الأضداد التى اشتغل بها ، وكذلك المنهي عنه مقصود الناهي عدمه ؛ ليس مقصوده فعل شيء من أضداده ، وإذا تركه متلبساً بضد له كان ذلك من ضرورة الترك .

وعلى هذا إذا ترك حراماً بحرام آخر فإنه يعاقب على الثانى ، ولا يقال فعل واجباً وهو ترك الأول ؛ لأن المقصود عدم الأول ، فالمباح الذي اشتغل به عن محرم لم يؤمر به ولا بامتثاله أمراً مقصوداً ؛ لكن نهي عن الحرام ومن ضرورة ترك المنهي عنه الاشتغال بضد من أضداده ، فذاك يقع لازماً لترك المنهي عنه ، فليس هو الواجب المحدود بقولنا « الواجب ما يذم تاركه ، ويعاقب تاركه » ، أو « يكون تركه سبباً للذم والعقاب » .

فقولنا : « ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » ، أو « يجب التوصل إلى الواجب بما ليس بواجب » . يتضمن إيجاب اللوازم . والفرق ثابت بين الواجب « الأول » ، و « الثانى » . فإن الأول يذم تاركه ويعاقب ، والثانى واجب وقوعا ، أي لا يحصل إلا به ، ويؤمر به أمراً بالوسائل ، ويثاب عليه ، لكن العقوبة ليست على تركه .

ومن هذا الباب إذا اشتبهت الميتة بالمذكى فإن المحرم الذي يعاقب على فعله أحدهما ، بحيث إذا أكلهما جميعاً لم يعاقب عقوبة من أكل ميتتين ، بل عقوبة من أكل ميتة واحدة ، والأخرى وجب تركها وجوب الوسائل . فقول من قال : كلاهما محرم صحيح بهذا الاعتبار ؛ وقول من قال : المحرم فى نفس الأمر أحدهما صحيح أيضاً بذلك الاعتبار وهذا نظير قول من قال : يجب التوصل إلى الواجب بما ليس بواجب .

وإنكار أبي حامد الغزالي وأبي محمد المقدسي على من قال هذا ، ومن قال المحرم أحدهما لا يناسب طريقة الفقهاء ، وحاصله يرجع إلى « نزاع لفظي » . فإن الوجوب والحرمة الثابتة لأحدهما ليست ثابتة للآخر ، بل نوع آخر ، حتى لو اشتبهت مملوكته بأجنبية بالليل ووطئها يعتقد حل وطء إحداهما وتحريم وطء الأخرى ، كان ولده من مملوكته ثابتاً نسبه بخلاف الأخرى ، ولو قدرنا أنها اشتبهت بأجنبية وتزوج إحداها فحد مثلاً ، ثم تزوج الأخرى لم يحد حدين ، مع أنه لا حد فى ذلك لجواز أن تكون المنكوحة هي الأجنبية .

وبهذا تنحل « شبهة الكعبي » . فإن المحرم تركه مقصود ، وأما الاشتغال بضد من أضداده فهو وسيلة ؛ فإذا قيل المباح واجب بمعنى وجوب الوسائل ، أي قد يتوسل به إلى فعل واجب وترك محرم فهذا حق .

ثم إن هذا يعتبر فيه القصد ؛ فإن كان الإنسان يقصد أن يشتغل بالمباح ليترك المحرم مثل من يشتغل بالنظر إلى امرأته ووطئها ليدع بذلك النظر إلى الأجنبية ووطئها ، أو يأكل طعاماً حلالاً ليشتغل به عن الطعام الحرام ، فهذا يثاب على هذه النية والفعل ؛ كما بين ذلك النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « وفي بضع أحدكم صدقة . قالوا : يارسول الله ؛ أيأتى أحدنا شهوته ويكون له أجر ؟! قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام أما كان عليه وزر ، فلم تحتسبون بالحرام ولا تحتسبون بالحلال ؟! » ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته » رواه أحمد وابن خزيمة فى صحيحه .

وقد يقال المباح يصير واجباً بهذا الاعتبار ، وإن تعين طريقاً صار واجباً معيناً ، وإلا كان واجباً مخيراً ، لكن مع هذا القصد ، أما مع الذهول عن ذلك فلا يكون واجباً أصلاً ، إلا وجوب الوسائل إلى الترك وترك المحرم لا يشترط فيه القصد . فكذلك ما يتوسل به إليه ، فإذا قيل هو مباح من جهة نفسه وأنه قد يجب وجوب المخيرات من جهة الوسيلة لم يمنع ذلك . فالنزاع فى هذا الباب نزاع لفظي اعتباري . وإلا فالمعانى الصحيحة لا ينازع فيها من فهمها .

و (المقصود هنا) : أن الأبرار وأصحاب اليمين قد يشتغلون بمباح

عن مباح آخر ، فيكون كل من المباحين يستوي وجوده وعدمه في حقهم . أما السابقون المقربون فهم إنما يستعملون المباحات إذا كانت طاعة لحسن القصد فيها ، والاستعانة على طاعة الله . وحينئذ فمباحاتهم طاعات ، وإذا كان كذلك لم تكن الأفعال في حقهم إلا ما يترجح وجوده ، فيؤمرون به شرعاً أمر استحباب ، أو ما يترجح عدمه فالأفضل لهم ألا يفعلوه ، وإن لم يكن فيه إثم ، والشريعة قد بينت أحكام الأفعال كلها فهذا « سؤال » .

و « سؤال ثان » وهو أنه إذا قدر أن من الأفعال ما ليس فيه أمر ولا نهي كما فى حق الأبرار ، فهذا الفعل لا يحمد ولا يذم ، ولا يحب ولا يبغض ، ولا ينظر فيه إلا وجود القدر وعدمه ؛ بل إن فعلوه لم يحمدوا ، وإن لم يفعلوه لم يحمدوا ، فلا يجعل مما يحمدون عليه أنهم يكونون فى هذا الفعل كالميت بين يدي الغاسل ، مع كون هذا الفعل صدر باختيارهم وإرادتهم . إذ الكلام فى ذلك .

وأما غير « الأفعال الاختيارية » : وهو ما فعل بالإنسان كما يحمل الإنسان وهو لا يستطيع الامتناع ، فهذا خارج عن التكليف ، مع أن العبد مأمور فى مثل هذا أن يحبه إن كان حسنة ، ويبغضه إن كان سيئة ، ويخلو عنهما إن لم يكن حسنة ولا سيئة ، فمن جعل الإنسان فيما يستعمله فيه القدر من الأفعال الاختيارية كالميت بين

يدي الغاسل فقد رفع الأمر والنهي عنه فى الأفعال الاختيارية ، وهذا باطل .

و « سؤال ثالث » : وهو أن حقيقة هذا القول طي بساط الأمر والنهي عن العبد فى هذه الأحوال ، مع كون أفعاله اختيارية ، وهب أنه ليس له هوى ، فليس كل ما لا هوى فيه يسقط عنه فيه الأمر والنهي ، بل عليه أن يحب ما أحبه الله ورسوله ، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله .

قيل : هذه الأسئلة أسئلة صحيحة .

وفصل الخطاب أن السالك قد يخفى عليه الأمر والنهي ، بحيث لا يدري هل ذلك الفعل مأمور به شرعا أو منهي عنه شرعا ؛ فيبقى هواه لئلا يكون له هوى فيه ، ثم يسلم فيه للقدر ، وهو فعل الرب لعدم معرفته برضا الرب وأمره وحبه فى ذلك الفعل .

وهذا يعرض لكثير من أئمة العباد ، وأئمة العلماء ، فإنه قد يكون عندهم أفعال وأقوال لا يعرفون حكم الله الشرعي فيها ، بل قد تعارضت عندهم فيها الأدلة أو خفيت الأدلة بالكلية ، فيكونون معذورين لخفاء الشرع عليهم ، وحكم الشرع إنما يثبت فى حق العبد إذا تمكن من

معرفته . وأما ما لم يبلغه ولم يتمكن من معرفته فلا يطالب به ، وإنما عليه أن يتقي الله ما استطاع . وهـذا خطأ في العلم ، وليس خطـأ فى العمـل ، وهو كالمجتهد المخطئ له أجر على قصده واجتهـاده ، وخطؤه مرفوع عنه .

فإن قيل : فإذا كان الأمر هكذا . فالواجب على العبد أن يتوقف فى مثل هذه الحال إذا لم يتبين له أن ذلـك الفعل مأمور به أو منهى عنه ، وهو لا يريد أن يفعل شيئاً لا مدح فيه ولا ذم ، فيقف لايستسلم للقدر ويصير محلا لما يستعمل فيه من الأفعـال ، اللهم إلا إذا فعل غيره فعلا ، فهو لا يمدحه ولا يذمه ، ولا يرضاه ولا يسخطه ؛ إذا لم يتبين له حكمه .

فأما كونه هو من أفعـاله الاختيارية يصير مستسلماً لمـا يستعمله القدر فيه : كالطفل مع الظئر ، والميت مع الغاسل ، فهذا مما لم يأمر الله به ولا رسوله ، بل هـذا محرم ، وإن عفي عن صـاحبه وحسب صاحبه أن يعفى عنه ؛ لاجتهاده وحسن قصده ، أما كونـه يحمد على ذلك ، ويجعل هذا أفضل المقامات فليس الأمر كذلك ، وكونـه مجرداً عن هواه ليس مسوغا له أن يستسلم لـكل ما يفعل به .

ثم يقال الأمور مع هذا نوعان :

(أحدها) : أن يفعل به بغير اختياره كما يحمل الإنسـان ولا يمكنه الامتنـاع ، وكما تضجع المرأة قهراً وتوطأ ، فهـذا لا إثم فيه باتفـاق العلمـاء . وإما أن يكره بالإكراه الشرعي حتى يفعل ، فهـذا أيضاً معفو عنه فى الأفعال عند الجمهور ، وهو أصح الروايتين عن أحمد لقوله تعالى : (وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

وأما إذا لم يكره الإكراه الشرعي فاستسلامـه للفعل المطلق الذي لا يعرف أخير هو أم شر ؟ ليس هو مأموراً به ، وإن جرى على يده خرق عادة أو لم يجر ، فليس هو مأموراً أن يفعـل إلا ماهـو خير عند الله ورسوله .

قيل : هذا السؤال صحيـح ، وحقيقة الأمر أن السالكين إذا وصلوا إلى هذا المقام فيحسن قصـدهم وتسليمهم وخضوعهم لربهم ، وطلبهم منـه أن يختار لهم ما هو الأصلح ، إذا استعملوا فى أمورهم [ما](1) لا يعرفون حكمه فى الشرع رجوا أن يـكون خيراً ؛ لأن معرفتهم بحكمه قـد تعذرت عليهم ، والإنسان غير عالم فى كل حال بمـا هو الأصلح له فى دينـه ، وبمـا هو أرضى لله ورسوله ، فيبقى حالهم حال المستخير لله فيما لم يعلم عاقبته ، إذا قال : « اللهم ! إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ؛ فإنك تقدر ولا أقدر ؛ وتعلم ولا أعـلم ؛ وأنت علام الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني

(1) اضيفت حسب مفهوم السياق

ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي ، ثم بارك لي فيه . وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي فى ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به »

فإذا استخار الله كان ما شرح له صدره وتيسر له من الأمور هو الذي اختاره الله له . إذ لم يكن معه دليل شرعي على أن عين هذا الفعل هو مأمور به فى هذه الحال ، فإن الأدلة الشرعية إنما تأمر بأمر مطلق عام ، لا بعين كل فعل من كل فاعل ، إذ كان هذا ممتنعاً ؛ وإن كان ذلك المعين يمكن إدراجه تحت بعض خطاب الشارع العام ؛ إذا كانت الأفراد المعينة داخلة تحت الأمر العام الكلي ؛ لكن لا يقدر كل أحد على استحضار هذا ، ولا على استحضار أنواع الخطاب

ولهذا كان الفقهاء يعدلون إلى القياس عند خفاء ذلك عليهم .

ثم « القياس » أيضاً قد لا يحصل فى كل واقعة ، فقد يخفى على الأئمة المجتهدين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان دخول الواقعة المعينة تحت خطاب عام ، أو اعتبارها بنظير لها ، فلا يعرف لها أصل ، ولا نظير . هذا مع كثرة نظرهم فى خطاب الشارع ومعرفة معانيه ، ودلالته على الأحكام . فكيف من لم يكن كذلك ؟!

ثم السالك ليس قصده معرفة الحلال والحرام ؛ بل مقصوده أن هذا الفعل المعين خير من هذا ، وهذا خير من هذا ، وأيهما أحب إلى الله فى حقه فى تلك الحال ، وهذا باب واسع لا يحيط به إلا الله ولكل سالك حال تخصه قد يؤمر فيها بما ينهى عنه غيره ، ويؤمر فى حال بما ينهى عنه فى أخرى .

فقالوا : نحن نفعل الخير بحسب الإمكان ، وهو فعل ما علمنا أنا أمرنا به ، ونترك أصل الشر وهو هوى النفس ، ونلجأ إلى الله فيما سوى ذلك أن يوفقنا لما هو أحب إليه وأرضى له ؛ فما استعملنا فيه رجونا أن يكون من هذا الباب ؛ ثم إن أصبنا فلنا أجران ، وإلا فلنا أجر ، وخطؤنا محطوط عنا فهذا هذا .

وحينئذ فمن قدر أنه علم المشروع وفعله فهو أفضل من هذا ؛ ولكن كثير ممن يعلم المشروع لا يفعله ولا يقصد أحب الأمور إلى الله وكثير منهم يفعله بشوب من الهوى ، فيبقى هذا فعل المشروع بهوى وهذا ترك ما لم يعلم أنه مشروع بلا هوى . فهذا نقص فى العلم ، وذاك نقص فى العمل ؛ إذ العمل بهوى النفس نقص فى العمل ، ولو كان المفعول واجباً .

فيقال : إن تاب صاحب الهوى من هواه كان أرفع بعلمه ، وإن

لم يتب فله نصيب من عالم السوء ؛ ولهذا تشاجر رجلان من المتقدمين عام الحكمين فى مثل هذا . فقال أحدهما لصاحبه : إنما مثلك مثل الكلب : إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . وقال الآخر : أنت كالحمار يحمل أسفاراً ؛ فهذا أحسن قصداً وأقوى علماً .

ولهذا تجد أصحاب حسن القصد إنما يعيبون على هؤلاء اتباع الهوى وحب الدنيا والرئاسة ، وأهل العلم يعيبون على أُولئك نقص علمهم بالشرع ، وعدولهم عن الأمر والنهي فهذا هذا .

والله تعالى المسؤول أن يهدينا إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك رفيقاً .

وقد قال بعض (أهل الفقه والزهد) : من الناس من سلك « الشريعة » ومنهم من سلك « الحقيقة » . ولعله أراد هؤلاء وهؤلاء ؛ فإن هؤلاء يرجحون بما ييسره الله مع حسن القصد واتباع الأمر والنهي المعلوم لهم مع خفاء الأدلة الشرعية فى ذلك المتيسر لهم ، وهؤلاء يرجحون بالأدلة الشرعية من الظواهر والأقيسة ، وأخبار الآحاد وأقوال العلماء مع خفاء الأمر المتيسر لهم .

و (أيضاً) فهؤلاء قد يشهدون مافى ذلك الفعل المقدر من

المصلحة والخير ، فيرجحونه بحكم الإيمان وإن لم يعرفوا دليلا من النص على حسنه ، وأولئك إنما يرجحون من النصوص، وما استنبط منها . فهؤلاء لهم القرآن ، وهؤلاء لهم الإيمان . وسبب هذا أن كلا من الطائفتين خفي عليه ما مع الأخرى من الحق ، وكل من الطائفتين فى طريقها حق وباطل .

فأما المدعون للحقيقة بدون مراعاة الأمر والنهي الشرعيين ، فهم ضالون ؛ كالذين يعرفون الأمر والنهي ولا يفعلون إلا ما يهوونه من الكبائر ، فإنهم فساق . وهؤلاء الذين قيل فيهم : « احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون » . و « الحقيقة » قد تكون قدرية وقد تكون ذوقية ، وقد تكون شرعية ولفظ « الشرع » يتناول المنزل ، والمؤول والمبدل .

و (المقصود هنا) ذكر أهل الاستقامة من الطائفتين والكلام على حال أهل العبادة والإرادة ، الذين خرجوا عن الهوى وهو الفرق الطبعي ، وقاموا بما علموه من الفرق الشرعي .

وبقي « قسم ثالث » ليس لهم فيه فرق طبعي ولا عندهم فيه فرق شرعي فهو الذي جروا فيه مع الفعل والقدر .

وأما من جرى مع الفرق الطبعي ، إما عالماً بأنه عاص وهو العالم

الفاجر ، أو محتجاً بالقدر أو بذوقه ووجده معرضاً عن الكتاب والسنة ، وهو العابد الجاهل فهذا خارج عن الصراط المستقيم .

وهذا مما بين حال كمال الصحابة – رضي الله عنهم – وأنهم خير قرون هذه الأمة ؛ إذ كانوا فى خلافة النبوة يقومون بالفروق الشرعية فى جليل الأمور ودقيقها مع اتساع الأمر ، والواحد من المتأخرين قد يعجز عن معرفة الفروق الشرعية فيما يخصه ، كما أن الواحد من هؤلاء يتبع هواه في أمر قليل . فأولئك مع عظيم مادخلوا فيه من الأمر والنهي لهم العلم الذي يميزون به بين الحسنات والسيئات ، ولهم القصد الحسن الذي يفعلون به الحسنات ، والكثير من المتأخرين العالمين والعابدين يفوت أحدهم العلم فى كثير من الحسنات والسيئات حتى يظن السيئة حسنة وبالعكس أو يفوته القصد في كثير من الأعمال ، حتى يتبع هواه فيما وضح له من الأمر والنهي .

فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

هذا لعمري إذا كان عند العالم ما هو أمر الشارع ونهيه حقيقة ، وعند العابد حسن القصد الخالي عن الهوى حقيقة ، فأما من خلط الشرع المنزل بالمبدل والمؤول ، وخلط القصد الحسن باتباع الهوى ، فهؤلاء

وهؤلاء مخلطون فى علمهم وعملهم ، وتخليط هؤلاء فى العلم سوى تخليطهم وتخليط غيرهم فى القصد ، وتخليط هؤلاء فى القصد سوى تخليطهم وتخليط غيرهم فى العلم .

فإنه من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم . و « حسن القصد » من أعون الأشياء على نيل العلم ودركه . و « العلم الشرعي » من أعون الأشياء على حسن القصد والعمل الصالح ؛ فإن العلم قائد والعمل سائق والنفس حرون ، فإن ونى قائدها لم تستقم لسائقها ، وإن ونى سائقها لم تستقم لقائدها ، فإذا ضعف العلم حار السالك ولم يدر أين يسلك ، فغايته أن يستطرح للقدر ، وإذا ترك العمل حار السالك عن الطريق فسلك غيره مع علمه أنه تركه ، فهذا حائر لا يدري أين يسلك مع كثرة سيره وهذا حائر عن الطريق زائغ عنه مع علمه به .

قال تعالى : (فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ) . هذا جاهل وهذا ظالم . قال تعالى : (وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) . مع أن الجهل والظلم متقاربان لكن الجاهل لايدري أنه ظالم والظالم جهل الحقيقة المانعة له من العلم . قال تعالى : (إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ) .

قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد فقالوا : كل من عصى الله

فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب .

وقد روى الخلال عن أبي حيان التيمي قال : « العلماء ثلاثة » فعالم بالله ليس عالما بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس عالما بالله ، وعالم بالله وبأمر الله .

فالعالم بالله الذي يخشاه ، والعالم بأمر الله الذي يعرف أمره ونهيه .

قلت : والخشية تمنع اتباع الهوى قال تعالى : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ) .

والكمال فى عدم الهوى وفي العلم هو لخاتم الرسل صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه : (وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ) فنفى عنه الضلال والغي ووصفه بأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، فنفى الهوى وأثبت العلم الكامل وهو الوحي ، فهذا كمال العلم وذاك كمال القصد صلى الله عليه وسلم .

ووصف أعداءه بضد هذين فقال تعالى : (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ) فالكمال المطلق للإنسان هو تكميل العبودية لله علماً وقصداً . قال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ

ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) وقال تعالى : (وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ) وقال تعالى فيما حكاه عن ابليس : (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ) . قال تعالى : (إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ) وقال تعالى : (كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ) وقال تعالى : (إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ) .

و « عبادته » طاعة أمره ، وأمره لنا ما بلغه الرسول عنه ؛ فالكمال فى كمال طاعة الله ورسوله باطناً وظاهراً ، ومن كان لم يعرف ما أمر الله به فترك هواه واستسلم للقدر أو اجتهد فى الطاعة فأخطأ فعل المأمور به إلى ما اعتقده مأموراً به ، أو تعارضت عنده الأدلة فتوقف عما هو طاعة فى نفس الأمر ، فهؤلاء مطيعون لله مثابون على ما أحسنوه من القصد لله ، واستفرغوه من وسعهم فى طاعة الله ، وما عجزوا عن علمه فأخطأوه إلى غيره فمغفور لهم .

وهذا من أسباب فتن تقع بين الأمة ، فإن أقواماً يقولون ويفعلون أموراً هم مجتهدون فيها ، وقد أخطؤوا فتبلغ أقواماً يظنون أنهم تعمدوا فيها الذنب ، أو يظنون أنهم لا يعذرون بالخطأ ، وهم أيضاً مجتهدون مخطئون ، فيكون هذا مجتهداً مخطئاً فى فعله ، وهذا مجتهداً مخطئاً

في إنكاره ، والكل مغفور لهم . وقد يكون أحدهما مذنباً ، كما قد يكونان جميعاً مذنبين .

وخير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة .

والواحد من هؤلاء قد يعطى طرفاً بالأمر والنهي ، فيولي ويعزل ويعطي ويمنع ، فيظن الظان أن هذا كمال ، وإنما يكون كما لا إذا كان موافقاً للأمر ، فيكون طاعة لله ، وإلا فهو من جنس الملك ، وأفعال الملك : إما ذنب ، وإما عفو ، وإما طاعة .

فالخلفاء الراشدون أفعالهم طاعة وعبادة ، وهم أتباع العبد الرسول . وهي طريقة السابقين المقربين .

وأما طريقة الملوك العادلين ، فإما طاعة وإما عفو ؛ وهي طريقة الأنبياء الملوك ؛ وطريقة الأبرار أصحاب اليمين .

وأما طريقة الملوك الظالمين : فتتضمن المعاصي ؛ وهي طريقة الظالمين لأنفسهم . قال تعالى : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ) فلا يخرج الواحد من المؤمنين عن أن يكون

من أحد هذه الأصناف : إما ظالم لنفسه وإما مقتصد ، وإما سابق بالخيرات .

و « خوارق العادات » إما مكاشفة وهي من جنس العلم الخارق . وإما تصرف وهي من جنس القدرة الخارقة ؛ وأصحابها لا يخرجون عن الأقسام الثلاثة .

قال شيخ الإسلام
رحمه الله تعالى

فصل

حدثني أبي عن محي الدين بن النحاس ؛ وأظنني سمعتها منه أنه رأى الشيخ عبد القادر في منامه وهو يقول : إخباراً عن الحق تعالى : «من جاءنا تلقيناه من البعيد ، ومن تصرف بحولنا ألناله الحديد ، ومن اتبع مرادنا أردنا ما يريد ، ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد » .

قلت : هذا من جهة الرب تبارك وتعالى .

فالأوليان : العبادة والاستعانة . والآخرتان : الطاعة والمعصية . فالذهاب إلى الله هي عبادته وحده كما قال تعالى : « من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعا ، ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة » .

والتقرب بحوله هو الاستعانة ، والتوكل عليه ؛ فإنه لا حول ولا

قوة إلا بالله . وفى الأثر : « من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله » . وعن سعيد بن جبير : « التوكل جماع الإيمان » ؛ وقال تعالى : (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ) وقال : (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ) وهذا على أصح القولين في أن التوكل عليه — بمنزلة الدعاء على أصح القولين أيضاً — سبب لجلب المنافع ودفع المضار ، فإنه يفيد قوة العبد وتصريف الكون ولهذا هو الغالب على ذوى الأحوال متشرعهم وغير متشرعهم ، وبه يتصرفون ويؤثرون « تارة » بما يوافق الأمر . و « تارة » بما يخالفه .

وقوله : « ومن اتبع مرادنا » يعنى المراد الشرعي كقوله : (يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ) وقوله : (يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ) وقوله : (مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ) هذا هو طاعة أمره ، وقد جاء فى الحديث : « وأنت ياعمر لو أطعت الله لأطاعك » . وفى الحديث الصحيح : « ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه » وقد قال تعالى : (وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ) .

وقوله : « ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد » . يعنى ترك ما كره الله من المحرم والمكروه لأجل الله : رجاء ومحبة وخشية أعطيناه فوق المزيد ؛ لأن هذا مقام الصبر . وقد قال تعالى : (إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) .

سئل

عن « إحياء علوم الدين » و « قوت القلوب » الخ . .

فأجاب : أما (كتاب قوت القلوب) و (كتاب الإحياء) تبع له فيما يذكره من أعمال القلوب : مثل الصبر والشكر ، والحب والتوكل ، والتوحيد ونحو ذلك . وأبو طالب أعلم بالحديث والأثر وكلام أهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم من أبي حامد الغزالي ، وكلامه أسد وأجود تحقيقاً ، وأبعد عن البدعة مع أن فى « قوت القلوب » أحاديث ضعيفة وموضوعة ، وأشياء كثيرة مردودة .

وأما مافى (الإحياء) من الكلام فى « المهلكات » مثل الكلام على الكبر ، والعجب والرياء ، والحسد ونحو ذلك ، فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي فى الرعاية ، ومنه ماهو مقبول ومنه ماهو مردود ، ومنه ماهو متنازع فيه .

و « الإحياء » فيه فوائد كثيرة ؛ لكن فيه مواد مذمومة ، فإنه فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد ، فإذا

ذكر معــارف الصوفيــة كان بمنزلة من أخــذ عدواً للمسلمــين ألبسه ثياب المسلمين .

وقد أنكر أئمة الدين على « أبى حامد » هــذا فى كتبه . وقالوا : مرضه « الشفاء » يعني شفاء ابن سينا فى الفلسفة .

وفيه أحاديث وآثار ضعيفة ؛ بل موضوعة كثيرة .

وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم .

وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفــين المستقيمين فى أعمال القــلوب الموافق للــكتاب والسنة ، ومن غــير ذلك من العبادات والأدب ماهو موافق للكتاب والسنة ، ماهو أكــثر مما يرد منــه ، فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه .

وقال شيخ الإسلام

قدس الله روحه

فصـــــل

قد دل الكتاب والسنة وآثار سلف الأمة عـلى « جنس المشروع المستحب فى ذكر الله ودعائه » كسائر العبادات ، وبين النبي صـلى الله عليـه وسـلم مراتب الأذكار كقوله في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره عن سمرة بن جندب : « أفضل الكلام بعد القرآن أربـع — وهن من القرآن — سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكـبر لا يضرك بأيهن بدأت » . وفى صحيحه عن أبي ذر قال : سئل رسول الله صلى الله عليـه وسلم أي الـكلام أفضل ؟ قال : « ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده » .

وفى « كتاب الذكر » لابن أبى الدنيا وغيره مرفوعا إلى النبي صلى الله عليـه وسلم « أفضل الذكر : لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء : الحمـد

لله » . وفى الموطأ وغيره حديث طلحة بن عبد الله بن كريز عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » وفى السنن حديث الذي قال : يارسول الله ! إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئاً فعلمني ما يجزئني فى صلاتي فقال : قل : « سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر » . ولهذا قال الفقهاء : إن من عجز عن القراءة فى الصلاة انتقل إلى هذه الكلمات الباقيات الصالحات . وفضائل هذه الكلمات ونحوها كثير ليس هذا موضعه .

وإنما (الغرض) من الذكر والدعاء ما ليس بمشروع الجنس أو هو منهى عنه أو عن صفته . كما قال تعالى : (ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ) وقال تعالى : (وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا) فلا يدعى إلا بأسمائه الحسنى .

ومن المنهى عنه : ما كانوا يقولونه فى الجاهلية فى تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . ومثل قول بعض الأعراب للنبي صلى الله عليه وسلم : « إنا نستشفع بالله عليك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : شأن الله أعظم من ذلك : إن الله لايستشفع به على أحد من خلقه » ومثل ما كانوا يقولون فى أول الإسلام:

السلام على الله قبل عباده . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله هو السلام ، فإذا قعد أحدكم فليقل : التحيات لله والصلوات والطيبات » .

أشار بذلك إلى أن « السلام » إنما يطلب لمن يحتاج إليه ، والله هو « السلام » فالسلام يطلب منه لا يطلب له . بل يثنى عليه ؛ فإنه له فيقال : التحيات لله والصلوات والطيبات . فالحق سبحانه يثنى عليه ويطلب منه ، وأما المخلوق فيطلب له . فيقال : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ والرزق يعم كل ماينتفع به المرتزق ؛ فالإنسان يرزق الطعام والشراب واللباس وما ينتفع بسمعه وبصره وشمه ، ويرزق ما ما ينتفع به باطنه من علم وإيمان ، وفرح وسرور ، وقوة ونور ، وتأييد وغير ذلك ، والله سبحانه ما يريد من الخلق من رزق ، فإنهم لن يبلغوا ضره فيضروه ، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه ؛ بل هو الغني وهم الفقراء . و ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ وهو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

وكذلك الدعاء المكروه مثل الدعاء ببغي أو قطيعة رحم أو دعاء منازل الأنبياء ، أو دعاء الأعرابي الذي قال : اللهم ما كنت معذبي به فى

الآخرة فعجله لي فى الدنيا . ومثل قوله صلى الله عليه وسلم للمصابين بميت لما صاحوا : « لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير ؛ فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون » . وقد قال تعالى : (وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) وقال تعالى : (وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا) وهذا باب واسع ليس الغرض هنا استيعابه . وإنما نبهنا على جنس المكروه .

وإنما (الغرض هنا) أن الشرع لم يستحب من الذكر إلا ما كان كلاما تاما مفيداً مثل « لا إله إلا الله » ومثل « الله أكبر » ومثل « سبحان الله والحمد لله » ومثل « لا حول ولا قوة إلا بالله » ومثل (تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ) ، (تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ) ، (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) (تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ) .

فأما « الاسم المفرد » مظهراً مثل : « الله » « الله » . أو « مضمراً » مثل « هو » « هو » . فهذا ليس بمشروع فى كتاب ولا سنة ، ولا هو مأثور أيضاً عن أحد من سلف الأمة ، ولا عن أعيان الأمة المقتدى بهم ، وإنما لهج به قوم من ضلال المتأخرين .

وربما اتبعوا فيه حال شيخ مغلوب فيه ، مثلما يروى عن الشبلي أنه كان يقول : « الله ، الله » . فقيل له : لم لا تقول لا إله إلا الله ؟

فقال : أخاف أن أموت بين النفي والإثبات . وهـذه من زلات الشبلي التي تغفر له لصدق إيمانه ، وقوة وجده ، وغلبة الحال عليه ، فإنه كان ربما يجن ويذهب به إلى المارستان ، ويحلق لحيته . وله أشياء من هذا النمط التي لا يجوز الاقتداء به فيها ؛ وإن كان معذوراً أو مأجوراً ، فإن العبد لو أراد أن يقول : « لا إله إلا الله » ومات قبل كمالهـا لم يضره ذلك شيئاً . إذ الأعمال بالنيات ؛ بل يكتب له مانواه .

وربما غلا بعضهم في ذلك حتى يجعلوا ذكر الاسم المفرد للخاصة ، وذكر الكلمة التامة للعامة . وربمـا قال بعضهم : « لا إله إلا الله » للمؤمنين ، و « الله » للعارفين ، و « هو » للمحققين ، وربمـا اقتصر أحدهم في خلوته أو في جماعته على « الله ، الله ، الله » . أو على « هو » أو « ياهو » أو « لا هو إلا هو » .

وربما ذكر بعض المصنفين في الطريق تعظيم ذلك . واستدل عليه تارة بوجـد ، وتارة برأي ، وتارة بنقل مكذوب . كما يروى بعضهم أن النبي صلى الله عليـه وسلم لقن علي بن أبي طـالب أن يقـول : « الله ، الله ، الله » . فقالهـا النبي صـلى الله عليه وسـلم ثلاثاً . ثم أمر عليـاً فقالهـا ثلاثاً . وهـذا حديث موضوع باتفـاق أهـل العلم بالحديث .

وإنما كان تلقين النبي صلى الله عليه وسلم للذكر المأثور عنه ، ورأس الذكر « لا إله إلا الله » وهي الكلمة التى عرضها على عمه أبي طالب حين الموت . « وقال : ياعم ! قل : لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله » وقال : « إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجد روحه لها روحاً » وقال : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » وقال : « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة » وقال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » والأحاديث كثيرة فى هذا المعنى .

وقد كتبت فيما تقدم من « القواعد » بعض ما يتعلق بهاتين « الكلمتين » العظيمتين الجامعتين الفارقتين : شهادة أن لا إله إلا الله ، وشهادة أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

فأما ذكر « الاسم المفرد » فلم يشرع بحال ، وليس في الأدلة الشرعية ما يدل على استحبابه .

وأما ما يتوهمه طائفة من غالطي المتعبدين في قوله تعالى : (قُلِ

ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ) ويتوهمون أن المراد قول هذا الاسم لخطأ واضح ؛ ولو تدبروا ما قبل هذا تبين مراد الآية ؛ فإنه سبحانه قال : (وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ) . أي : قل : الله أنزل الكتاب الذي جاء به موسى . فهذا كلام تام ، وجملة اسمية مركبة من مبتدأ وخبر ، حذف الخبر منها لدلالة السؤال على الجواب .

وهذا قياس مطرد فى مثل هذا في كلام العرب كقوله : (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم) الآية . وقوله : (أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ) وكذلك ؟ ما بعدها وقوله : (قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سيقولون : الله) على قراءة أبي عمرو . وتقول فى الكلام من جاء ؟ فتقول : زيد . ومن أكرمت ؟ فتقول : زيداً . وبمن مررت ؟ فتقول : بزيد . فيذكرون الاسم الذي هو جواب من ؛ ويحذفون المتصل به ، لأنه قد ذكر فى السؤال مرة ، فيكرهون تكريره من غير فائدة بيان ، لما فى ذلك من التطويل والتكرير .

وأغرب من هذا ما قاله : لي مرة شخص من هؤلاء الغالطين في قوله : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ) قال المعنى وما يعلم تأويل (هو) اي اسم « هو » الذي يقال فيه : « هو ، هو » وصنف ابن عربي كتابا فى « الهو » فقلت له — وأنا إذ ذاك صغير جداً — لو كان كما تقول : لكتبت فى المصحف مفصولة (تأويل هو) ولم تكتب موصولة ، وهذا الكلام الذي قاله هذا معلوم الفساد بالاضطرار . وإنما كثير من غالطي المتصوفة لهم مثل هذه التأويلات الباطلة فى الكتاب والسنة .

وقد يكون المعنى الذي يعنونه صحيحاً ؛ لكن لا يدل عليه الكلام وليس هو مراد المتكلم ، وقد لا يكون صحيحاً . فيقع الغلط « تارة » فى الحكم ، و « تارة » فى الدليل كقول بعضهم : (أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ) أي : أن رأى ربه استغنى ، والمعنى إنه ليطغى أن رأى نفسه استغنى ، وكقول بعضهم : « فإن لم تكن تراه » : يعني فإن فنيت عنك رأيت ربك . وليس هذا معنى الحديث ، فإنه لو أريد هذا لقيل : فإن لم تكن تره . وقد قيل : « تراه » ثم كيف يصنع بجواب الشرط ؟ وهو قوله : فإنه يراك ؛ ثم إنه على قولهم الباطل تكون كان تامة . فالتقدير : فإن لم تكن : أي لم تقع ، ولم تحصل . وهذا تقدير محال فإن العبد كائن موجود ليس بمعدوم . ولو أريد فناؤه عن هواه أو فناء شهوده للأغيار لم يعبر بنفي كونه ؛ فإن هذا محال . ومتى كان المعنى صحيحاً والدلالة ليست مرادة فقد يسمي ذلك « إشارة »

وقد أودع الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى « حقائق التفسير » من هذا قطعة .

وليس المقصود الآن الكلام فى هذا فإنه باب آخر .

وإنما الغرض بيان حكم ذكر الاسم وحده من غير كلام تام، وقد ظهر بالأدلة الشرعية أنه غير مستحب .

وكذلك بالأدلة العقلية الذوقية ؛ فإن الاسم وحده لا يعطي إيمانا ولا كفراً ، ولا هدى ولا ضلالاً ، ولا علماً ولا جهلا ، وقد يذكر الذاكر اسم نبي من الأنبياء ، أو فرعون من الفراعنة ، أو صنم من الأصنام ، ولا يتعلق بمجرد اسمه حكم إلا أن يقرن به ما يدل على نفي أو إثبات ، أو حب أو بغض، وقد يذكر الموجود والمعدوم .

ولهذا اتفق أهل العلم بلغة العرب وسائر اللغات على أن الاسم وحده لا يحسن السكوت عليه ؛ ولا هو جملة تامة ؛ ولا كلاماً مفيداً ولهذا سمع بعض العرب مؤذنا يقول : أشهد أن محمداً رسولَ الله . قال : فعل ماذا ؟ ! فإنه لما نصب الاسم صار صفة ، والصفة من تمام الاسم الموصوف ، فطلب بصحة طبعه الخبر المفيد ؛ ولكن المؤذن قصد الخبر ولحن .

ولو كرر الإنسان اسم « الله » ألف ألف مرة لم يصر بذلك مؤمناً ، ولم يستحق ثواب الله ولا جنته ؛ فإن الكفار من جميع الأمم يذكرون الاسم مفرداً ، سواء أقروا به وبوحدانيته أم لا ؛ حتى إنه لما أمرنا بذكر اسمه كقوله : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ وقوله : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ وقوله : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ ونحو ذلك : كان ذكر اسمه بكلام تام مثل أن يقول : بسم الله ، أو يقول : سبحان ربي الأعلى ، وسبحان ربي العظيم ، ونحو ذلك . ولم يشرع ذكر الاسم المجرد قط ، ولا يحصل بذلك امتثال أمر ولا [حل صيد](١) ولا ذبيحة ولا غير ذلك .

فإن قيل : فالذاكر أو السامع للاسم المجرد قد يحصل له وجد محبة ، وتعظيم لله ، ونحو ذلك .

قلت : نعم ، ويثاب على ذلك الوجد المشروع ، والحال الإيماني لا لأن مجرد الاسم مستحب ، وإذا سمع ذلك حرك ساكن القلب ، وقد يتحرك الساكن بسماع ذكر محرم أو مكروه ، حتى قد يسمع المسلم من يشرك بالله ؛ أو يسبه فيثور فى قلبه حال وجد ومحبة لله بقوة نفرته

---

(١) بالأصل كلمة لم تتضح لقدم الأصل ولعل ما بين القوسين هو المعنى المقصود .

وبغضه لما سمعه ، وقد قال الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم : « إن أحدنا ليجد فى نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به . قال : أو قد وجدتموه ؟! قالوا : نعم ، قال : ذاك صريح الإيمان » وفى رواية « قال : الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة »

فالشيطان لما قذف فى قلوبهم وسوسة مذمومة تحرك الإيمان الذي فى قلوبهم بالكراهة لذلك ، والاستعظام له ، فكان ذلك صريح الإيمان ؛ ولا يقتضى ذلك أن يكون السبب الذي هو الوسوسة مأموراً به .

والعبد أيضاً قد يدعوه داع إلى الكفر أو المعصية فيستعصم ويمتنع ويورثه ذلك إيمانا وتقوى ؛ وليس السبب مأموراً به ؛ وقد قال تعالى:
(ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ * فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ)
الآية . فهذا الإيمان الزائد والتوكل كان سبب تخويفهم بالعدو وليس ذلك مشروعا بل العبد يفعل ذنباً فيورثه ذلك توبة يحبه الله بها ، ولا يكون الذنب مأموراً به ، وهذا باب واسع جداً .

ففرق بين أن يكون نفس السبب موجباً للخير ومقتضياً ، وبين

أن لا يكون ؛ وإنما نشأ الخير من المحل . فالمأمور به من الكلمات الطيبات والأعمال الصالحات ، هي موجبة للخير والرحمة والثواب . وإذا اقترن بها قوة إيمان العبد وما يجده من حلاوة الايمان وتذوقه من طعمه تضاعف الخير والرحمة والبركة ، وما ليس مأموراً به : إما من فعل العبد : محرمه ومكروهه ومباحه . وإما من فعل غيره معه : من الإنس والجن ، وإما من الحوادث السمائية التى يصيبه بها الرب ، إذا صادفت منه إيماناً ويقيناً فحركت ذلك الإيمان واليقين ، وازداد العبد بذلك [إيمانا] لم يكن ذلك مما يوجب أن تحب تلك الأسباب ، أو تحمد أو يؤمر بها ، إذا لم يكن كذلك ، فإنها ليست مقتضية لذلك الخير ، وإنما مقتضاها تحريك الساكن وطال ما جرت إلى شر وضرر .

ويشبه هذا الباب ذكر الحب المطلق والشوق المطلق ، والوجل المطلق ، وما يتضمن ذلك من نظم ونثر ، فإن هذا من المجمل أيضاً : يشترك فيه المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، فلذلك لم يشرعها الله ورسوله ، ولم يأمر بها فإن الله إنما يأمر بالخير والعمل الصالح والبر وذلك ليس من هذا الباب ، فإن شعر المحبين مشترك بين محب الإيمان ومحب الأوثان ، ومحب النسوان ، ومحب المردان ، ومحب الأوطان ، ومحب الأخدان .

فثبت بما ذكرناه أن ذكر الاسم المجرد ليس مستحباً ؛ فضلاً عن أن يكون هو ذكر الخاصة .

وأبعد من ذلك ذكر « الاسم المضمر » وهو : « هو » . فإن هذا بنفسه لا يدل على معين، وإنما هو بحسب ما يفسره مـن مذكور أو معلوم فيبقى معناه بحسب قصد المتكلم ونيته ؛ ولهذا قد يذكر به من يعتقد [أن] الحق الوجود المطلق . وقد يقول : « لا هو إلا هو » ويسرى قلبه فى « وحدة الوجود » ومذهب فرعون والإسماعيليـة وزنادقة هؤلاء المتصوفة المتأخرين بحيث يكون قوله « هو » كقوله : « وجوده » . وقد يعني بقوله : « لا هو إلا هو » أي : أنه هو الوجود وأنـه ما ثَم خلق أصـلاً ، وأن الرب والعبـد والحـق والخلق شيء واحد . كما بينته من مذهب « الاتحادية » فى غير هذا الموضع .

ومن أسباب هذه الاعتقادات والأحـوال الفاسدة الخروج عـن الشرعة والمنهاج الذي بعث به الرسول إلينا صلى الله عليه وسلم . فإن البدع هي : مبادئ الكفر ومظان الكفر . كما أن السنن المشروعة هي : مظاهر الإيمان ، ومقوية للإيمان ؛ فإنه يزيد بالطاعـة وينقص بالمعصية . كما أخبر الله عن زيادته في مثل قوله : (ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا) وقوله : (أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا)

وقوله : (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ)
وغير ذلك.

فإن قيل : إذا لم يكن هذا الذكر مشروعا . فهل هو مكروه؟

قلت : أما فى حق المغلوب فلا يوصف بكراهة ؛ فإنه قد يعرض للقلب أحوال يتعسر عليه فيها نطق اللسان مع امتلاء القلب بأحوال الإيمان ، وربما تيسر عليه ذكر الاسم المجرد دون الكلمة التامة وهؤلاء يأتون على ما فى قلوبهم من أحوال الإيمان وما قدروا عليه من نطق اللسان ؛ فإن الناس فى الذكر أربع طبقات :

(إحداها) الذكر بالقلب واللسان ، وهو المأمور به.

(الثاني) الذكر بالقلب فقط ، فإن كان مع عجز اللسان فحسن وإن كان مع قدرته فترك للأفضل .

(الثالث) الذكر باللسان فقط ، وهو كون لسانه رطباً بذكر الله ، وفيه حكاية التى لم تجد الملائكة فيه خيراً إلا حركة لسانه بذكر الله . ويقول الله تعالى : « أنا مع عبدي ما ذكرنى وتحركت بي شفتاه .

(الرابع) عدم الأمرين وهو حال الخاسرين .

وأما مع تيسر الكلمة التامة فالاقتصار على مجرد الاسم مكرراً بدعة ، والأصل فى البدع الكراهة .

وما نقل عن « أبى يزيد » و « النوري » و « الشبلي » وغيرهم : من ذكر الاسم المجرد ، فمحمول على أنهم مغلوبون ، فإن أحوالهم تشهد بذلك ، مع أن المشايخ الذين هم أصح من هؤلاء وأكمل لم يذكروا إلا الكلمة التامة ، وعند التنازع يجب الرد إلى الله والرسول ، وليس فعل غير الرسول حجة على الإطلاق .

والله أعلم .

وقال الشيخ رحمه الله

فصـــل

في الصراط المستقيم : في « الزهد » و « العبـادة » و « الورع » فى ترك المحرمات والشهوات ، و « الاقتصاد » فى العبـادة . وأن لزوم السنة هو يحفظ من شر النفس والشيطان بدون الطرق المبتدعة ، فإن أصحابها لا بد أن يقعوا فى الآصار والأغلال ، وإن كانوا متأولين ، فلابد لهم من اتبـاع الهوى ؛ ولهذا سمي أصحاب البدع أصحاب الأهواء ؛ فإن طريق السنة علم وعدل وهدى ؛ وفى البدعة جهل وظلم ، وفيها اتبـاع الظن وما تهوى الأنفس .

و « الرسول » ما ضل وما غوى ، و « الضلال » مقرون بالغي ؛ فـكل غاو ضال ؛ والرشد ضد الغي والهدى ضد الضلال ، وهو مجانبة طريق الفجار وأهل البدع ، كما كان السلف ينهون عنهما . قال تعـالى : (فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا) .

و « الغي » في الأصل : مصدر غوى يغوي غياً ؛ كما يقال : لوى يلوى لياً . وهو ضد الرشد كما قال تعالى : (وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا) .

و « الرشد » العمل الذي ينفع صاحبه ، والغي العمل الذي يضر صاحبه ، فعمل الخير رشد ، وعمل الشر غي ؛ ولهذا قالت الجن : (وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) فقابلوا بين الشر وبين الرشد ، وقال في آخر السورة : (قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا) ومنه « الرشيد » الذي يسلم إليه ماله . وهو الذي يصرف ماله فيما ينفع لا فيما يضر .

وقال الشيطان : (لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ) وهو أن يأمرهم بالشر الذي يضرهم فيطيعونه كما قال تعالى : (وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي) وقال : (وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ) إلى أن قال : (فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ) وقال : (قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا) وقال : (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ) .

ثم إن « الغي » إذا كان اسماً لعمل الشر الذي يضر صاحبه فإن عاقبة العمل أيضاً تسمى غياً ، كما أن عاقبة الخير تسمى رشداً ، كما

يسمى عاقبة الشر شراً ، وعاقبة الخير خيراً ؛ وعاقبة الحسنات حسنات ؛ وعاقبة السيئات سيئات .

« فالحسنات والسيئات » في كتاب الله يراد بها أعمال الخير وأعمال الشر ، كما يراد بها النعم والمصائب والجزاء من جنس العمل ، فمن عمل خيراً وحسنات لقي خيراً وحسنات ، ومن عمل شراً وسيئات لقي شراً وسيئات . كذلك من عمل غياً لقي غياً ، وترك الصلاة واتباع الشهوات غي يلقى صاحبه غياً . فلهذا قال الزمخشري : كل شر عند العرب غي ، وكل خير رشاد . كما قيل :

فمن يلق خيراً يحمد النـاس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً .

وقال الزجاج : جزاؤه غي ؛ لقوله : (يَلْقَ أَثَامًا) أي مجازاة آثام . وفى الحديث المأثور : « إن غيا واد فى جهنم تستعيذ منه أوديتها » وهذا تعبير عن ملاقاة الشر ، وقال سبحانه : (أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ) فإن الصلاة فيها إرادة وجه الله . كما قال تعالى : (وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ) : أي يصلون صلاة الفجر والعصر . والداعي يقصد ربه ويريده ، فتكون القلوب فى هذه الأشياء مريدة لربها محبة له .

و (اتباع الشهوات) هو اتباع ما تشتهيه النفس ؛ فإن « الشهوات » جمع شهوة، والشهوة هى فى الأصل : مصدر ، ويسمى المشتهى شهوة . تسمية للمفعول باسم المصدر . قال تعالى: (وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا) فجعل التوبة فى مقابلة اتباع الشهوات، فإنه يريد أن يتوب علينا : أي فالله يحب لنا ذلك ويرضاه ويأمر به ، (وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ) وهم الغاوون (أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا) يعدل بكم عن الصراط المستقيم إلى اتباع الشهوات عدولاً عظيماً ، فإن أصل « الميل » العدول ، فلا بد منه للذين يتبعون الشهوات ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » رواه أحمد وابن ماجه من حديث ثوبان .

فأخبر أنا لا نطيق الاستقامة أو ثوابها إذا استقمنا . وقال : (وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِ) فقوله: « كل الميل » أي يريد نهاية الميل ، يريد الزيغ عن الطريق ، والعدول عن سواء الصراط إلى نهاية الشر ؛ بل إذا بليت بذلك فتوسط ، وعد إلى الطريق بالتوبة .

كما فى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ميل المؤمن كميل الفرس فى آخيته يحول ثم يرجع إلى آخيته . كذلك المؤمن يحول ثم يرجع

إلى ربه » قال تعالى : (وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ) إلى قوله : (وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ) فلم يقل لا يظلمون ولا يذنبون . بل قال : (إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ) أي بذنب آخر غير الفاحشة ؛ فعطف العام على الخاص . كما قال موسى : (رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي) وقالت بلقيس : (رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي) وقال تعالى عموماً عن أهل القرى المهلكة : (وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ) فظلموا أنفسهم بارتكابهم ما نهوا عنه ؛ وبعصيانهم لأنبيائهم ؛ وبتركهم التوبة إلى ربهم .

وقوله تعالى : (ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ) ولهذا قال : (وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ) ثم قال : (يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا) . قال مجاهد وغيره : يتبعون الشهوات الزنا وقال ابن زيد : هم أهل الباطل . وقال السدي : هم اليهود والنصارى والجميع حق ؛ فإنهم قد يتبعون الشهوات مع الكفر ، وقد يكون مع الاعتراف بأنها معصية .

ثم ذكر أنه (خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا) وسياق الكلام يدل على أنه ضعيف عن ترك الشهوات ، فلا بد له من شهوة مباحة يستغنى بها عن المحرمة ؛ ولهذا قال طاووس ومقاتل : ضعيف فى قلة الصبر عن النساء ، وقال الزجاج وابن كيسان : ضعيف العزم عن قهر الهوى . وقيل : ضعيف فى أصل الخلقة ؛ لأنه خلق من ماء مهين ، يروى ذلك

عن الحسن ، لكن لا بد أن يوجد مع ذلك أنه ضعيف عن الصبر ليناسب ما ذكر فى الآية ، فإنه قال : (يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ) وهو تسهيل التكليف بأن يبيح لكم ما تحتاجون إليه ولا تصبروا عنه . كما أباح نكاح الفتيات ؛ وقد قال قبل ذلك : (لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) .

فهو سبحانه مع إباحته نكاح الإماء عند عدم الطول وخشية العنت قال : (وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ) فدل ذلك على أنه يمكن الصبر مع خشية العنت وأنه ليس النكاح كإباحة الميتة عند المخمصة ، فإن ذلك لا يمكن الصبر عنه .

وكذلك من أباح « الاستمناء » عند الضرورة فالصبر عن الاستمناء أفضل . فقد روى عن ابن عباس : أن نكاح الإماء خير منه ، وهو خير من الزنا ، فإذا كان الصبر عن نكاح الإماء أفضل فعن الاستمناء بطريق الأولى أفضل .

لا سيما وكثير من العلماء أو أكثرهم يجزمون بتحريمه مطلقاً ، وهو أحد الأقوال فى مذهب أحمد . واختاره ابن عقيل في المفردات والمشهور عنه ــ يعني عن أحمد ــ أنه محرم إلا إذا خشى العنت . والثالث أنه مكروه إلا إذا خشي العنت . فإذا كان الله قد قال فى نكاح الإماء : (وَأَن

تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ) ففيه أولى . وذلك يدل على أن الصبر عن كليهما ممكن .

فإذا كان قد أباح ما يمكن الصبر عنه ، فذلك لتسهيل التكليف كما قال تعالى : (يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا) .

و « الاستمناء » لا يباح عند أكثر العلماء سلفا وخلفاً سواء خشي العنت أو لم يخش ذلك . وكلام ابن عباس وما روى عن أحمد فيه إنما هو لمن خشي « العنت » وهو الزنا واللواط خشية شديدة خاف على نفسه من الوقوع فى ذلك فأبيح له ذلك لتكسير شدة عنته وشهوته .

وأما من فعل ذلك تلذذاً أو تذكراً أو عادة ؛ بأن يتذكر فى حال استمنائه صورة كأنه يجامعها ، فهذا كله محرم لا يقول به أحمد ولا غيره وقد أوجب فيه بعضهم الحد والصبر عن هذا من [الواجبات لا من] المستحبات .

وأما الصبر عن المحرمات فواجب ، وإن كانت النفس تشتهيها وتهواها . قال تعالى : (وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ) و « الاستعفاف » هو ترك المنهي عنه . كما فى الحديث

الصحيح عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » .

« فالمستغني » لا يستشرف بقلبه ، و « المستعف » هو الذي لا يسأل الناس بلسانه ، و « المتصبر » هو الذي لا يتكلف الصبر . فأخبر أنه من يتصبر يصبره الله . وهذا كأنه فى سياق الصبر على الفاقة ، بأن يصبر على مرارة الحاجة ، لا يجزع مما ابتلى به من الفقر ، وهو الصبر فى البأساء والضراء . قال تعالى : ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ ﴾ .

و « الضراء » المرض . وهو الصبر على ما ابتلى به من حاجة ومرض وخوف . والصبر على ما ابتلى به باختياره كالجهاد ؛ فإن الصبر عليه أفضل من الصبر على المرض الذي يبتلى به بغير اختياره ؛ ولذلك إذا ابتلى بالعنت فى الجهاد فالصبر على ذلك أفضل من الصبر عليه فى بلده ؛ لأن هذا الصبر من تمام الجهاد . وكذلك لو ابتلى فى الجهاد بفاقة أو مرض حصل بسببه كان الصبر عليه أفضل . كما قد بسط هذا فى مواضع .

وكذلك مايؤذي الإنسان به فى فعله للطاعات كالصلاة والأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر وطلب العلم من المصائب ، فصبره عليهـا أفضل من صبره على ما ابتلي به بدون ذلك ، وكذلك إذا دعته نفسه إلى محرمات : من رئاسة ، وأخذ مال ، وفعل فاحشة كان صبره عنه أفضل من صبره على ماهو دون ذلك ؛ فإن أعمال البر كلما عظمت كان الصبر عليها أعظم مما دونها .

فإن فى « العلم » و « الإمارة » و الجهـاد » و « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر » و « الصـلاة » و « الحـج » و « الصوم » و « الزكاة » من الفتن النفسية وغيرها ما ليس في غيرها . ويعرض فى ذلك ميل النفس إلى الرئاسة والمال والصور . فإذا كانت النفس غـير قادرة على ذلك لم تطمع فيه ، كما تطمع مـع القدرة ؛ فإنها مع القدرة تطلب تلك الأمور المحرمة ؛ بخلاف حالها بدون القدرة فإن الصبر مع القدرة جهاد ؛ بل هو من أفضل الجهاد . وأكمل من ثلاثة أوجه :

(أحدهـا) : أن الصـبر عـن المحرمـات أفضـل من الصـبر على المصائب .

(الثاني) : أن ترك المحرمات مع القدرة عليها وطلب النفس لها أفضل من تركها بدون ذلك .

(الثالث) : أن طلب النفس لها إذا كان بسبب أمر ديني ــ كمن

خرج لصلاة أو طلب علم أو جهـاد فابتلي بمـا يميل إليه من ذلك فإن صبره عن ذلك ـ يتضمن فعل المـأمور وترك المحظور ؛ بخلاف ما إذا مالت نفسه إلى ذلك بدون عمل صالح ؛ ولهـذا كان يونس بن عبيـد يوصي بثلاث يقول : لا تدخل على سلطان ، وإن قلت : آمره بطاعـة الله . ولا تدخل على امرأة ، وإن قلت : أعلمهـا كتاب الله . ولا تصغ أذنك إلى صاحب بدعة ، وإن قلت : أرد عليه .

فأمره بالاحتراز من « أسباب الفتنـة » فإن الإنسـان إذا تعرض لذلك فقد يفتتن ولا يسلم .

فإذا قدر أنه ابتلي بذلك بغير اختياره أو دخل فيه باختياره ، وابتلي فعليه أن يتقي الله ويصبر ويخلص ويجاهد . وصبره على ذلك وسلامته مع قيامه بالواجب من أفضل الأعمال ، كمن تولى ولاية وعدل فيها ، أو رد على أصحاب البدع بالسنـة المحضة ولم يفتنوه ، أو علم النساء الدين على الوجـه المشروع من غير فتنة .

لكن الله إذا ابتلى العبد وقدر عليه أعانه ، وإذا تعرض العبـد بنفسه إلى البلاء وكله الله إلى نفسه . كما قال النبي صلى الله عليـه وسلم لعبـد الرحمن بن سمرة : « لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتهـا عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها » وكذلك

قال فى الطاعون : « إذا وقع ببلد وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » فمن فعل ما أمره الله به فعرضت له فتنة من غير اختياره فإن الله يعينه عليها بخلاف من تعرض لها .

لكن باب التوبة مفتوح ؛ فإن الرجل قد يسأل الإمارة فيوكل إليها ، ثم يندم فيتوب من سؤاله فيتوب الله عليه ويعينه ؛ إما على إقامة الواجب ، وإما على الخلاص منها ؛ وكذلك سائر الفتن . كما قال : (قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا) وهذه الأمور تحتاج إلى بسط لا يتسع له هذا الموضع .

و (المقصود) أن الله سبحانه يريد أن يبين لنا ويهدينا سنن الذين من قبلنا الذين قال فيهم : (أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ) وهم الذين أمرنا أن نسأله الهداية لسبيلهم فى قوله : (ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) فهو يحب لنا ويأمرنا أن نتبع صراط هؤلاء ، وهو سبيل من أناب إليه ، فذكر هنا ثلاثة أمور : البيان ، والهداية ، والتوبة .

وقيل : المراد بالسنن هنا سنن أهل الحق والباطل . أي : يريد أن يبين لنا سنن هؤلاء وهؤلاء فيهدي عباده المؤمنين إلى الحق ،

ويضل آخرين ، فإن الهدى والضلال إنما يكون بعد البيان . كما قال : (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) وقال : (وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ)

فتكون (سنن) متعلقاً بيبين يعنى سنن أهل الباطل لا بيهدى ، وأهل الحق متعلق بقوله : ويهديكم . وقال الزجاج : السنن الطرق ، فالمعنى يدلكم على طاعته ، كما دل الأنبياء وتابعيهم ، وهذا أولى ؛ لأنه قد يقدم فعلين فلا يجعل الأول هو العامل وحده ؛ بل العامل إما الثانى وحده ، وإما الاثنان ، كقوله : (ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا)

أو إذا أريد هذا التقدير : يبين لكم سنن الذين من قبلكم ويهديكم سنناً . فدل على أنه يهدينا سننهم . والمراد بذلك سنن أهل الحق ، بخلاف قوله : (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ) فإنه قال بعدها : (فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ) فإنه أراد تعريف عقوبة الظالمين بالعيان ، وهنا فأنزل علينا من القرآن ما يهدينا به سنن الذين من قبلنا ، وهم الذين أنعم الله عليهم .وذكر ثلاثة أمور :

« التبيين » و « الهدى » و « التوبة » ؛ لأن الإنسان أولا يحتاج إلى معرفة الخير والشر وما أمر به وما نهى عنه ، ثم يحتاج بعد ذلك

إلى أن يهدى فيقصد الحق ويعمل به دون الباطل . وهو سنن الأنبياء والصالحين . ثم لابد له بعد ذلك من الذنوب فيريد أن يتطهر منها بالتوبة فهو محتاج إلى العلم والعمل به ، وإلى التوبة مع ذلك ، فلا بد له من التقصير أو الغفلة في سلوك تلك السنن التى هداه الله إليها ، فيتوب منها بما وقع من تفريط فى كل سنة من تلك السنن ، وهذه « السنن » تدخل فيها الواجبات والمستحبات ، فلا بد للسالك فيها من تقصير وغفلة فيستغفر الله ويتوب إليه . فإن العبد لو اجتهد مهما اجتهد لا يستطيع أن يقوم لله بالحق الذي أوجبه عليه ، فما يسعه إلا الاستغفار والتوبة عقيب كل طاعة .

وقد يقال : « الهداية » هنا البيان والتعريف أي : يعرفكم سنن الذين من قبلكم من أهل السعادة والشقاوة لتتبعوا هذه وتجتنبوا هذه ، كما قال تعالى : (وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ) قال علي وابن مسعود : سبيل الخير والشر . وعن ابن عباس : سبيل الهدى والضلال . وقال مجاهد : سبيل السعادة والشقاوة : أي فطرناه على ذلك ، وعرفناه إياه ، والجميع واحد . والنجدان الطريقان الواضحان ، والنجد المرتفع من الأرض ، فالمعنى ألم نعرفه طريق الخير والشر ونبينه له كتبيين الطريقين العاليين ؛ لكن الهدى والتبيين والتعريف فى هذه الآية يشترك

فيه بنو آدم ، ويعرفونه بعقولهم .

وأما طريق من تقدم من الأنبياء فلا بد من إخبار الله تعالى عنها كما قال : (تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا) لكن يجاب عن هذا بأنه لو أريد هذا المعنى لقال يريد الله ليبين لكم سنن الذين من قبلكم ، ولم يحتج أن يذكر الهدى إذا كان المعنى واحداً ، فلما ذكر أنه يريد التبيين والهدى علم أن هذا غير هذا ، فا « لتبيين » التعريف والتعليم ، و « الهدى » هو الأمر والنهي ، وهو الدعاء إلى الخير . كما قال تعالى : (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) أي داع يدعوهم إلى الخير . كما قال تعالى : (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) أي تدعوهم إليه دعاء تعليم .

وهداه هنا [يتعدى] بنفسه ؛ لأن التقدير : ويلزمكم سنن الذين من قبلكم فلا تعدلوا عنها ، وليس المراد هنا بالهدى الإلهام . كما فى قوله : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) لكونه لو أراد ذلك لوقع ، ولم يكن فينا ضال ؛ بل هذه إرادة شرعية أمرية بمعنى المحبة والرضا ، ولهذا قال الزجاج : يريد أن يدلكم على ما يكون سبباً لتوبتكم ، فعلق الإرادة بفعل نفسه . فإن الزجاج ظن الإرادة فى القرآن ليست إلا كذلك ، وليس كما ظن ؛ بل الإرادة المتعلقة بفعله يكون مرادها كذلك ، فإنه

ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وأما الإرادة الموجودة في أمره وشرعه فهو كقوله : (مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ) الآية . وقوله : (إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ) ونحو ذلك .

فهذه إرادته لما أمر به ، بمعنى أنه يحبه ويرضاه ، ويثيب فاعله ؛ لا بمعنى أنه أراد أن يخلقه فيكون كما قال : (فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا) الآية .

وكما قال نوح : (وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) .

فهذه إرادة لما يخلقه ويكونه . كما يقول المسلمون : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وهذه الإرادة متعلقة بكل حادث ، والإرادة الشرعية الأمرية لا تتعلق إلا بالطاعات كما يقول الناس لمن يفعل القبيح : يفعل شيئاً ما يريده الله ، مع قولهم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . فإن هذه الإرادة « نوعان » . كما قد بسط فى موضع آخر .

وقد يراد بالهدى الإلهام ، ويكون الخطاب للمؤمنين المطيعين الذين

هداهم الله إلى طاعته ، فإن الله تعالى أراد أن يتوب عليهم ويهديهم ، فاهتدوا ، ولو لا إرادته لهم ذلك لم يهتدوا ، كما قالوا : (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ) .

لكن الخطاب فى الآية لجميع المسلمين ، كالخطاب بآية الوضوء . والخطاب لأهل البيت بقوله : (إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ) ولهذا يهدد من لم يطعه. وكما فى الصيام: (يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ) . فهذه إرادة شرعية أمرية بمعنى المحبة والرضا ؛ لا إرادة الخلق المستلزمة للمراد ؛ لأنه لو كان كذلك لم تكن الآية خطاباً إلا لمن أخذ باليسر ، ولمن فعل ما أمر به ، وكان من تخلف عن ذلك لا يدخل تحت الأمر والنهي الذي فى الآية ، وليس كذلك . بل الحكم الشرعي لازم لجميع المسلمين ؛ فمن أطاع أثيب ومن عصى عوقب ، والذين أطاعوه إنما أطاعوه بهداه لهم : هدى الإلهام ، والإعانة بأن جعلهم مهتدين . كما أنه هو الذي جعل المصلي مصلياً ، والمسلم مسلماً .

ولو كانت الإرادة هنا من الإنسان مستلزمة لوقوع المراد لم يقل : (وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا) فإنه حينئذ لا تأثير لإرادة هؤلاء ، بل وجودها وعدمها سواء . كما فى قول نوح (وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن

يُغْوِيَكُمْ) فإن ما شاء الله كان وإن لم يشأ الناس ، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس .

والمقصود بالآية تحذيرهم من متابعة الذين يتبعون الشهوات . والمعنى : إني أريد لكم الخير الذي ينفعكم ، وهؤلاء يريدون لكم الشر الذي يضركم ، كالشيطان الذي يريد أن يغويكم ، وأتباعه هم أهل الشهوات فلا تتخذوه وذريته أولياء من دوني ، بل اسلكوا طرق الهدى والرشاد ، وإياكم وطرق الغي والفساد . كما قال تعالى : (فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ) الآيات .

وقوله : (يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ) في الموضعين . فاتباع الشهوة من جنس اتباع الهوى ، كما قال تعالى : (أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ) وقال : (وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ) وقال تعالى : (وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ) وقال تعالى : (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم) وقال تعالى : (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) وهذا فى القرآن كثير .

و « الهوى » مصدر هوى يهوى هوى ، ونفس المهوي يسمى هوى مايهوى ، فاتباعه كاتباع السبيل . كما قال تعالى : (وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ

أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ) وكما في لفظ الشهوة ، فاتباع الهوى يراد به نفس مسمى المصدر ، أي اتباع إرادته ومحبته التى هي هواه واتباع الإرادة هو فعل ماتهواه النفس . كقوله تعالى : (وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ) وقوله : (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ) وقال : (وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ) [1] فلفظ الاتباع يكون للآمر الناهي ، وللأمر والنهي ، وللمأمور به والمنهي عنه ، وهو الصراط المستقيم .

كذلك يكون للهوى أمر ونهي ؛ وهو أمر النفس ونهيها . كما قال تعالى : (وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ) ولكن ما يأمر به من الأفعال المذمومة فأحدها مستلزم للآخر فاتباع الأمر هو فعل المأمور ، واتباع أمر النفس هو فعل ما تهواه فعلى هذا يعلم أن اتباع الشهوات واتباع الأهواء هو اتباع شهوة النفس وهواها ، وذلك بفعل ما تشتهيه وتهواه .

بل قد يقال : هذا هو الذي يتعين فى لفظ اتباع الشهوات والأهواء ؛ لأن الذي يشتهى ويهوى إنما يصير موجوداً بعد أن يشتهى ويهوى ، وإنما يذم الإنسان إذا فعل ما يشتهى ويهوى عند وجوده ،

---

(١) نسخة : فالأول يكون للإنسان ، والثانى للقول ، والثالث للفعل .

فهو حينئذ قد فعل ؛ ولا ينهى عنه بعد وجوده ، ولا يقال لصاحبه : لا تتبع هواك .

وأيضاً فالفعل المراد المشتهي الذي يهواه الإنسان هو تابع لشهوته وهواه ؛ فليست الشهوة والهوى تابعة له ؛ فاتباع الشهوات هو اتباع شهوة النفس . وإذا جعلت الشهوة بمعنى المشتهى كان مع مخالفة الأصل يحتاج إلى أن يجعل فى الخارج ما يشتهى ، والإنسان يتبعه كالمرأة المطلوبة ، أو الطعام المطلوب ، وإن سميت المرأة شهوة والطعام أيضاً كما في قوله صلى الله عليه وسلم : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به ، يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلى » أي يترك شهوته ؛ وهو إنما يترك ما يشتهيه كما يترك الطعام ؛ لا أنه يدع طعامه بترك الشهوة الموجودة في نفسه ؛ فإن تلك مخلوقة فيه مجبول عليها ؛ وإنما يثاب إذا ترك ما تطلبه تلك الشهوة .

و « حقيقة الأمر » أنهما متلازمان : فمن اتبع نفس شهوته القائمة بنفسه اتبع ما يشتهيه ؛ وكذلك من اتبع الهوى القائم بنفسه اتبع ما يهواه ، فإن ذلك من آثار الإرادة ، واتباع الإرادة هو امتثال أمرها ، وفعل ما تطلبه ، كالمأمور الذي يتبع أمر أميره ؛ ولابد أن يتصور مراده الذي يهواه ويشتهيه فى نفسه ويتخيله قبل فعله . فيبقى ذلك المثال كالإمام مع المأموم يتبعه حيث كان ؛ وفعله فى الظاهر

تبع لاتباع الباطن ، فتبقي صورة المراد المطلوب المشتهى التى فى النفس هي المحركة للإنسان الآمرة له .

ولهذا يقال : العلة الغائية علة فاعلية ، فإن الإنسان للعلة الغائية — بهذا التصور والإرادة — صار فاعلا للفعل ، وهذه الصورة المرادة المتصورة في النفس هي التى جعلت الفاعل فاعلاً ، فيكون الإنسان متبعاً لها ، والشيطان يمده فى الغي ، فهو يقوي تلك الصورة ويقوي أثرها ويزين للناس اتباعها ، وتلك الصورة تتناول صورة العين المطلوبة — كالمحبوب من الصور والطعام والشراب — ويتناول نفس الفعل الذي هو المباشرة لذلك المطلوب المحبوب ، والشيطان والنفس تحب ذلك ، وكلما تصور ذلك المحبوب فى نفسه أراد وجوده فى الخارج ، فإن أول الفكر آخر العمل ، وأول البغية آخر الدرك .

ولهذا يبقى الإنسان عند شهوته وهواه أسيراً لذلك ، مقهوراً تحت سلطان الهوى ، أعظم من قهر كل قاهر ، فإن هذا القاهر الهوائي القاهر للعبد هو صفة قائمة بنفسه ، لا يمكنه مفارقته ألبتة والصورة الذهنية تطلبها النفس ، فإن المحبوب تطلب النفس أن تدركه ، وتمثله لها فى نفسها فهو متبع للإرادة . وإن كانت الذهنية والتزين من الزين والمراد التصور فى نفسه . والمشتهى الموجود في الخارج له « محركان » التصور والمشتهى هذا يحركه تحريك طلب وأمر ، وهذا يأمره أن يتبع

طلبه وأمره ، فاتباع الشهوات والأهواء يتناول هذا كله ؛ بخلاف كل قاهر ينفصل عن الإنسان فإنه يمكنه مفارقته مع بقاء نفسه على حالها ، وهذا إنما يفارقه بتغير صفة نفسه .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه . وثلاث منجيات : خشية الله في السر والعلانية ، والقصد في الفقر والغنى ، وكلمة الحق فى الغضب والرضا » .

وقوله فى الحديث : « هوى متبع » . فيه دليل على أن المتبع هو ما قام فى النفس. كقوله : في الشح المطاع ، وجعل الشح مطاعا ، لأنه هو الآمر ، وجعل الهوى متبعاً ؛ لأن المتبع قد يكون إماما يقتدى به ولا يكون آمراً . وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إياكم والشح . فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » . فبين أن الشح يأمر بالبخل والظلم والقطيعة . « فالبخل » منع منفعة الناس بنفسه وماله ، و « الظلم » هو الاعتداء عليهم .

فالأول هو التفريط فيما يجب فيكون قد فرط فيما يجب ، واعتدى عليهم بفعل ما يحرم وخص قطيعة الرحم بالذكر إعظاما لها ؛ لأنها تدخل

فى الأمرين المتقدمين قبلها .

وقال المفسرون في قوله تعالى : (وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ) هو ألا يأخذ شيئاً مما نهاه الله عنه ، ولا يمنع شيئاً أمره الله بأدائه « فالشح » يأمر بخلاف أمر الله ورسوله ، فإن الله ينهى عن الظلم ويأمر بالإحسان والشح يأمر بالظلم وينهي عن الإحسان .

وقد كان عبد الرحمن بن عوف يكثر فى طوافه بالبيت وبالوقوف بعرفة أن يقول : اللهم قني شح نفسى ، فسئل عن ذلك فقال : إذا وقيت شح نفسي وقيت الظلم والبخل والقطيعة . وفي رواية عنه قال : إنى أخاف أن أكون قد هلكت قال : وماذاك ؟ قال : أسمع الله يقول : (وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ) وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء ، فقال ليس ذاك بالشح الذي ذكره الله فى القرآن إنما الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً وإنما يكون بالبخل وبئس الشيء البخل .

وقد ذكر تعالى « الشح » فى سياق ذكر الحسد والإيثار فى قوله : (وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) — ثم قال — (وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) فمن وقى شح نفسه لم يكن حسوداً باغياً على المحسود ، و « الحسد » أصله بغض المحسود .

و « الشح » يكون في الرجل مع الحرص وقوة الرغبة فى المال وبغض للغير وظلم له ، كما قال تعالى : (قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ) الآيات — إلى قوله — (أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ) فشحهم على المؤمنين وعلى الخير يتضمن كراهيته وبغضه ، وبغض الخير يأمر بالشر وبغض الإنسان يأمر بظلمه وقطيعته كالحسد ؛ فإن الحاسد يأمر حاسده بظلم المحسود وقطيعته ، كابني آدم وإخوة يوسف .

« فا لحسد والشح » يتضمنان بغضاً وكراهية فيأمران بمنع الواجب وبظلم ذلك الشخص ، فإن الفعل صدر فيه عن بغض ، بخلاف الهوى فإن الفعل صدر فيه عن حب أحب شيئاً فأتبعه ففعله ، وذلك مقصوده أمر عدمي والعدم لا ينفع . ولكن ذاك القصد أمر بأمر وجودي ، فأطيع أمره .

وابن مسعود جعل البخل خارجا عن الشح والنبي صلى الله عليه وسلم جعل الشح يأمر بالبخل .

ومن الناس من يقول : « الشح ، والبخل » سواء . كما قال ابن جرير : الشح فى كلام العرب هو البخل ومنع الفضل من المال . وليس

كما قال ، بل ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم وابن مسعود أحق أن يتبع ؛ فإن « البخيل » قد يبخل بالمال محبة لما يحصل له به من اللذة والتنعم وقد لا يكون متلذذاً به ولا متنعما بل نفسه تضيق عن إنفاقه وتكره ذلك حتى يكون يكره أن ينفع نفسه منه مع كثرة ماله ، وهذا قد يكون مع التذاذه بجمع المال ومحبته لرؤيته ، وقد لا يكون هناك لذة أصلا ؛ بل يكره أن يفعل إحسانا إلى أحد حتى لو أراد غيره أن يعطي كره ذلك منه بغضاً للخير لا للمعطي ولا للمعطي ؛ بل بغضاً منه للخير وقد يكون بغضاً وحسداً للمعطى أو للمعطى وهذا هو « الشح » وهذا هو الذي يأمر بالبخل قطعاً ، ولكن كل بخل يكون عن شح . فكل شحيح بخيل وليس كل بخيل شحيحاً .

قال الخطابي « الشح » أبلغ في المنع من البخل والبخل إنما هو من أفراد الأمور وخواص الأشياء والشح عام فهو كالوصف اللازم للإنسان من قبل الطبع والجبلة .

وحكى الخطابي عن بعضهم أنه قال : « البخل » أن يضن الإنسان بماله و « الشح » أن يضن بماله ومعروفه وقيل « الشح » أن يشح بمعروف غيره على غيره و « البخل » أن يبخل بمعروفه على غيره والذين يتبعون الشهوات ويتبعون أهواءهم يحبون ذلك ويريدونه فاتبعوا

محبتهم وإرادتهم من غير علم ، فلم ينظروا هل ذلك نافع لهم فى العاقبة أو ضار .

ولهذا قال : (فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ) ثم قال : (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ) و « اتباع الهوى » درجات : فمنهم المشركون والذين يعبدون من دون الله مايستحسنون بلا علم ، ولا برهان ، كما قال : (أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ) : أي يتخذ إلهه الذي يعبده وهو ما يهواه من آلهة ، ولم يقل إن هواه نفس إلهه فليس كل من يهوى شيئاً يعبده ، فإن الهوى أقسام بل المراد أنه جعل المعبود الذي يعبده هو ما يهواه فكانت عبادته تابعة لهوى نفسه فى العبادة فإنه لم يعبد ما يحب أن يعبد ، ولا عبد العبادة التى أمر بها .

وهذه حال « أهل البدع » فإنهم عبدوا غير الله ، وابتدعوا عبادات زعموا أنهم يعبدون الله بها ، فهم إنما اتبعوا أهواءهم ، فإن أحدهم يتبع محبة نفسه وذوقها ووجدها وهواها من غير علم ، ولا هدى ولا كتاب منير .

فلو اتبع العلم والكتاب المنير لم يعبد إلا الله بما شاء ، لا بالحوادث والبدع .

و (المقصود) أن الآلهة كثيرة ، والعبادات لها متنوعة ، وبالجملة فكل ما يريده الإنسان ويحبه لا بد أن يتصوره فى نفسه ، فتلك الصورة العلمية محركة له إلى محبوبه ولوازم الحب ، فمن عبده عبد غير الله وتمثلت له الشياطين فى صورة من يعبده ، وهذا كثير مازال ولم يزل ، ولهذا كان كل من عبد شيئاً غير الله فإنما يعبد الشيطان ، ولهذا يقارن الشيطان الشمس عند طلوعها وغروبها واستوائها ليكون سجود من يعبدها له .

وقد كانت « الشياطين » تتمثل في صورة من يعبد ، كما كانت تكلمهم من الأصنام التى يعبدونها ، وكذلك فى وقتنا خلق كثير من المنتسبين إلى الإسلام ، والنصارى والمشركين ممن أشرك ببعض من يعظمه من الأحياء والأموات من المشايخ وغيرهم ، فيدعوه ويستغيث به فى حياته وبعد مماته ، فيراه قد أتاه وكلمه وقضى حاجته ، وإنما هو شيطان تمثل على صورته ليغوي هذا المشرك .

والمبتلون « بالعشق » لايزال الشيطان يمثل لأحدهم صورة المعشوق أو يتصور بصورته فلا يزال يرى صورته مع مغيبه عنه بعد موته ، فإنما جلاه الشيطان على قلبه ، ولهذا إذا ذكر العبد الله الذكر الذي يخنس منه الوسواس الخناس خنس هذا المثال الشيطاني ، وصورة المحبوب تستولي على المحب أحيانا حتى لا يرى غيرها ، ولا يسمع غير كلامها ، فتبقى

نفسه مشتغلة بها .

والذين يسلكون في محبة الله مسلكا ناقصاً يحصل لأحدهم نوع من ذلك يسمى « الاصطلام » و « الفناء » يغيب بمحبوبه عن محبته ، وبمعروفه عن معرفته ، وبمذكوره عن ذكره ، حتى لا يشعر بشيء من أسماء الله وصفاته وكلامه وأمره ونهيه .

و « منهم » من قد ينتقل من هذا إلى « الاتحاد » . فيقول : أنا هو ، وهو أنا ، وأنا الله . ويظن كثير من السالكين أن هذا هو غاية السالكين ، وأن هذا هو « التوحيد » الذي هو نهاية كل سالك . وهم غالطون فى هذا ؛ بل هذا من جنس قول النصارى ، ولكن ضلوا لأنهم لم يسلكوا الطريق الشرعية فى الباطن فى خبر الله وأمره .

وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع ،

و (المقصود) : أن المتبعين لشهواتهم من الصور والطعام والشراب واللباس يستولي على قلب أحدهم ما يشتهيه حتى يقهره ويملكه ، ويبقى أسيراً ما يهواه يصرفه كيف تصرف ذلك المطلوب ، ولهذا قال بعض السلف : ما أنا على الشاب الناسك بأخوف مني عليه من سبع ضار يثب عليه من صبي حدث يجلس إليه .

وذلك أن النفس الصافية التى فيها رقة « الرياضة » ولم تنجذب إلى محبة الله وعبادته انجذابا تاماً ، ولاقام بها من خشية الله التامة ما يصرفها عن هواها متى صارت تحت صورة من الصور استولت تلك الصورة عليها ، كما يستولي السبع على ما يفترسه ؛ فالسبع يأخذ فريسته بالقهر ، ولا تقدر الفريسة على الامتناع منه ، كذلك ما يمثله الإنسان في قلبه من الصور المحبوبة تبتلع قلبه وتقهره ، فلا يقدر قلبه على الامتناع منه ، فيبقى قلبه مستغرقا فى تلك الصورة أعظم من استغراق الفريسة فى جوف الأسد ؛ لأن المحبوب المراد هو غاية النفس ، له عليها سلطان قاهر .

و « القلب » يغرق فيما يستولي عليه : إما من محبوب وإما من مخوف ، كما يوجد من محبة المال والجاه والصور ، والخائف من غيره يبقى قلبه وعقله مستغرقا فيه كما يغرق الغريق فى الماء ، فلابد أن يستولي عليها مايحيط بها من الأجسام ، والقلوب يستولي عليها ما يتمثل لها من المخاوف ، والمحبوبات والمكروهات ، فالمحبوب يطلبه والمكروه يدفعه ، والرجاء يتعلق بالمحبوب والخوف يتعلق بالمكروه ، ولا يأتى بالحسنات إلا الله ، ولا يذهب السيئات إلا الله ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ .

وإذا دعا العبد ربه بإعطاء المطلوب ودفع المرهوب جعل له من الإيمان بالله ومحبته ومعرفته وتوحيده ورجائه وحياة قلبه واستنارته بنور الإيمان ماقد يكون أنفع له من ذلك المطلوب إن كان عرضاً من الدنيا، وأما إذا طلب منه أن يعينه على ذكره وشكره وحسن عبادته وما يتبع ذلك فهنا المطلوب قد يكون أنفع من الطلب، وهو الدعاء والمطلوب الذكر والشكر، وقيام العبادة على أحسن الوجوه وغير ذلك. وهذا لبسطه موضع آخر.

و (المقصود) : أن القلب قد يغمره فيستولي عليه مايريده العبد، ويحبه وما يخافه ويحذره كائناً من كان؛ ولهذا قال تعالى:

(بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ)

فهي فيما يغمرها عما أنذرت به، فيغمرها ذلك عن ذكر الله والدار الآخرة وما فيها من النعيم، والعذاب الأليم. قال الله تعالى: (فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ) : أي فيما يغمر قلوبهم من حب المال والبنين المانع لهم من المسارعة فى الخيرات والأعمال الصالحة. وقال تعالى: (قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ) الآيات: أي ساهون عن أمر الآخرة، فهم فى غمرة عنها، أي فيما يغمر قلوبهم من حب الدنيا ومتاعها، ساهون عن أمر الآخرة، وما خلقوا له.

وهذا يشبه قوله: (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ

أَمْرُهُ فُرُطًا)   فالغمرة تكون من اتباع الهوى ، والسهو من جنس الغفلة ؛ ولهذا قال من قال : « السهو » الغفلة عن الشيء ، وذهاب القلب عنه ، وهذا جماع الشر « الغفلة » و « الشهوة »

« فالغفلة » عن الله والدار الآخرة تسد باب الخير الذي هو الذكر واليقظة .

و « الشهوة » تفتح باب الشر والسهو والخوف ، فيبقى القلب مغموراً فيما يهواه ويخشاه ، غافلا عن الله ، رائداً غير الله ، ساهياً عن ذكره ، قد اشتغل بغير الله ، قد انفرط أمره ، قد ران حب الدنيا على قلبه ، كما روي فى صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، إن أعطى رضي ، وإن منع سخط »

جعله عبد ما يرضيه وجوده ويسخطه فقده ، حتى يكون عبد الدرهم وعبد ما وصف فى هذا الحديث ، و « القطيفة » هي التى يجلس عليها فهو خادمها كما قال بعض السلف : البس من الثياب ما يخدمك ، ولا تلبس منها ما تكن أنت تخدمه ، وهي كالبساط الذي تجلس عليه ، و « الخميصة » هي التى يرتدي بها ، وهذا من أقل المال . وإنما

نبه به النبي صلى الله عليه وسلم على ما هو أعلى منه ، فهو عبد لذلك : فيه أرباب متفرقون ، وشركاء متشاكسون .

ولهذا قال : « إن أعطى رضي ، وإن منع سخط » . فما كان يرضى الإنسان حصوله ويسخطه فقده فهو عبده ، إذ العبد يرضى باتصاله بها ، ويسخط لفقدها . و « المعبود الحق » الذي لا إله إلا هو إذا عبده المؤمن وأحبه حصل للمؤمن بذلك فى قلبه إيمان ، وتوحيد ومحبة ، وذكر ، وعبادة ، فيرضى بذلك ، وإذا منع من ذلك غضب .

وكذلك من أحب شيئاً فلا بد أن يتصوره فى قلبه ، ويريد اتصاله به بحسب الإمكان .

قال الجنيد : لا يكون العبد عبداً حتى يكون مما سوى الله تعالى حراً . وهذا مطابق لهذا الحديث ، فإنه لا يكون عبداً لله خالصاً مخلصاً دينه لله كله حتى لا يكون عبداً لما سواه ، ولا فيه شعبة ، ولا أدنى جزء من عبودية ما سوى الله ، فإذا كان يرضيه ويسخطه غير الله فهو عبد لذلك الغير ، ففيه من الشرك بقدر محبته ، وعبادته لذلك الغير زيادة .

قال « الفضيل بن عياض » والله ما صدق الله فى عبوديته من

لأحد من المخلوقين عليه ربانية. وقال زيد بن عمرو بن نفيل :

أربا واحداً ، أم ألف رب   أدين إذا تقسّمت الأمور ؟!

روى الإمام أحمد والترمذي والطبراني من حديث أسماء بنت عميس قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بئس العبد عبد تخيل واختال ، ونسي الكبير المتعال ، بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى ، بئس العبد عبد سهى ولهى ونسي المقابر والبلى ، بئس العبد عبد بغى واعتدى ونسي المبدأ والمنتهى ، بئس العبد عبد يختل الدنيا بالدين ، بئس العبد عبد يختل الدين بالشبهات ، بئس العبد عبد رغب يذله ويزيله عن الحق ، بئس العبد عبد طمع يقوده ، بئس العبد عبد هوى يضله » قال الترمذي غريب . وفى الحديث الصحيح المتقدم ما يقويه . والله أعلم .

وكذلك أحاديث وآثار كثيرة رويت فى معنى ذلك . كما قال تعالى : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) .

وطالب الرئاسة ــ ولو بالباطل ــ ترضيه الكلمة التى فيها تعظيمه وإن كانت باطلا ، وتغضبه الكلمة التى فيها ذمه وإن كانت حقاً .

والمؤمن ترضيه كلمة الحق له وعليه ، وتغضبه كلمة الباطل له وعليه ؛ لأن الله تعالى يحب الحق والصدق والعدل ، ويبغض الكذب والظلم .

فإذا قيل : الحق والصدق والعدل الذي يحبه الله أحبه ، وإن كان فيه مخالفة هواه ؛ لأن هواه قد صار تبعاً لما جاء به الرسول . وإذا قيل : الظلم والكذب فالله يبغضه ، والمؤمن يبغضه ، ولو وافق هواه .

وكذلك طالب « المال » ـــ ولو بالباطل ـــ كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ وهؤلاء هم الذين قال [فيهم] : « تعس عبد الدينار » الحديث . فكيف إذا استولى على القلب ما هو أعظم استعباداً من الدرهم والدينار من الشهوات والأهواء ، والمحبوبات التي تجذب القلب عن كمال محبته لله وعبادته ؟! لما فيها من المزاحمة والشرك بالمخلوقات ، كيف تدفع القلب وتزيغه عن كمال محبته لربه وعبادته وخشيته ، لأن كل محبوب يجذب قلب محبه إليه ، ويزيغه عن محبة غير محبوبه ، وكذلك المكروه يدفعه ويزيله ويشغله عن عبادة الله تعالى .

ولهذا روى الإمام أحمد فى مسنده وغيره . أن النبي صلى الله عليه

وسـلم قال لأصحابه : « الفقر تخـافون ؟ ! لا أخاف عليـكم الفقر . إنما أخاف عليـكم الدنيا ، حتى إن قلب أحدكم إذا زاغ لا يزيغه إلا هي »

وكذلك الذين يحبون العبد كأصدقائه ، والذين يبغضونه كأعدائه ، فالذين يحبونه يجذبونه إليهم ، فإذا لم تـكن المحبة منهم له لله كان ذلك مما يقطعه عن الله ، والذين يبغضونه يؤذونه ويعادونه فيشغلونـه بأذاهم عن الله ، ولو أحسن إليه أصدقـاؤه الذين يحبونـه لغير الله أوجب إحسانهم إليه محبته لهم ، وانجذاب قلبه إليهم ، ولو كان على غير الاستقامة ، وأوجب مكافأته لهم ، فيقطعونه عن الله وعبادته .

فلا تزول الفتنة عـن القلب إلا إذا كان دين العبد كله لله عز وجل ، فيكون حبه لله ولما يحبه الله ، وبغضه لله ولما يبغضه الله ، وكذلك موالاته ومعاداته ، وإلا فمحبة المخلوق تجذبه ، وحب الخلق له سبب يجذبهم به إليه ، ثم قد يكون هذا أقوى ، وقد يكون هـذا أقوى ، فإذا كان هو غالباً لهـواه لم يجذبه مغلوب مـع هواه ، ولا محبوباته إليها ؛ لكونه غالباً لهواه ناهياً لنفسه عن الهوى ، لما فى قلبـه مـن خشية الله ومحبتـه التى تمنعه عن انجذابه إلى المحبوبات .

وأما حب النـاس له فإنه يوجب أن يجذبوه هم بقوتهـم إليهم ، فإن لم يكن فيه قوة يدفعهم بها عن نفسه من محبـة الله وخشيته ،

وإلا جذبوه وأخذوه إليهم ، كحب امرأة العزيز ليوسف ؛ فإن قوة « يوسف » ومحبته لله وإخلاصه وخشيته كانت أقوى من جمال امرأة العزيز وحسنها وحبه لها ، هذا إذا أحب أحدهم صورته ، مع أن هنا الداعي قوي منه ومنهم ، فهنا المعصوم مـن عصمه الله ، وإلا فالغالب على الناس في المحبة من الطرفين أنه يقع بعض الشر بينهم .

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان » .

وقد يحبونه لعلمه أو دينه أو إحسانه أو غير ذلك ؛ فالفتنة فى هذا أعظم ؛ إلا إذا كانت فيه قوة إيمانيـة ، وخشية وتوحيد تام ؛ فإن فتنة العلم والجاه والصور فتنة لـكل مفتون . وهم مع ذلك يطلبون منه مقاصدهم ، إن لم يفعلها وإلا نقص الحب ، أو حصل نوع بغض ، وربما زاد أو أدى إلى الانسلاخ من حبه ، فصار مبغوضاً بعد أن كان محبوباً ، فأصدقاء الإنسان يحبون استخدامه واستعماله فى أغراضهم ، حتى يكون كالعبد لهم ، وأعداؤه يسعون فى أذاه وإضراره ، وأولئك يطلبون منه انتفاعهم ، وإن كان مضراً له مفسداً لدينـه لا يفكرون فى ذلك . وقليل منهم الشكور .

فالطائفتان في الحقيقة لا يقصدون نفعه ولا دفـع ضرره ، وإنمـا

يقصدون أغراضهم به ، فإن لم يكن الإنسان عابداً الله ، متوكلاً عليه موالياً له وموالياً فيه ومعادياً ، وإلا أكلته الطائفتان ، وأدى ذلك إلى هلاكه فى الدنيا والآخرة .

وهذا هو المعروف من أحوال بني آدم ، وما يقع بينهم من المحاربات والمخاصمات والاختلاف والفتن . قوم يوالون زيداً ويعادون عمراً . وآخرون بالعكس ؛ لأجل أغراضهم ، فإذا حصلوا على أغراضهم ممن يوالونه وما هم طالبونه من زيد انقلبوا إلى عمرو ، وكذلك أصحاب عمرو كما هو الواقع بين أصناف الناس .

وكذلك « الرأس » من الجانبين ، يميل إلى هؤلاء الذين يوالونه وهم إذا لم تكن الموالاة لله أضر عليه من أولئك ؛ فإن أولئك إنما يقصدون إفساد دنياه : إما بقتله ، أو بأخذ ماله ، وإما بإزالة منصبه ، وهذا كله ضرر دنيوي لا يعتد به إذا سلم العبد ، وهو عكس حال أهل الدنيا ومحبيها الذين لا يعتدُّون بفساد دينهم مع سلامة دنياهم . فهم لا يبالون بذلك . وأما « دين العبد » الذي بينه وبين الله فهم لا يقدرون عليه .

وأما أولياؤه الذين يوالونه للأغراض ، فإنما يقصدون منه فساد دينه بمعاونته على أغراضهم وغير ذلك ، فإن لم يفعل انقلبوا أعداء . فدخل بذلك عليه الأذى من « جهتين » :

من جهة مفارقتهم .

ومن جهة عداوتهم .

وعداوتهم أشد عليه من عداوة أعدائه ؛ لأنهم قد شاهدوا منه . وعرفوا ما لم يعرفه أعداؤه . فاستجلبوا بذلك عداوة غيرهم فتتضاعف العداوة .

وإن لم يحب مفارقتهم احتاج إلى مداهنتهم ومساعدتهم على ما يريدونه ، وإن كان فيه فساد دينه . فإن ساعدهم على نيل مرتبة دنيوية ناله مما يعملون فيها نصيباً وافراً وحظاً تاماً من ظلمهم وجورهم وطلبوا منه أيضاً أن يعاونهم على أغراضهم ، ولو فاتت أغراضه الدنيوية . فكيف بالدينية إن وجدت فيه أو عنده ! ! فإن الإنسان ظالم جاهل لا يطلب إلا هواه .

فإن لم يكن هذا فى الباطن يحسن إليهم ، ويصبر على أذاهم . ويقضي حوائجهم لله ، وتكون استعانته عليهم بالله تامة ، وتوكله على الله تام . وإلا أفسدوا دينه ودنياه ، كما هو الواقع المشاهد من الناس ممن يطلب الرئاسة الدنيوية ، فإنه يطلب منه من الظلم والمعاصي ما ينال به تلك الرئاسة ، ويحسن له هذا الرأي ، ويعاديه إن لم يقم معه ، كما قد

جرى ذلك مع غير واحد .

وذلك يجري فيمن يحب شخصاً لصورته ، فإنه يخدمه ويعظمه ويعطيه ما يقدر عليه ، ويطلب منه من المحرم ما يفسد دينه .

وفيمن يحب صاحب « بدعة » لكونه له داعية إلى تلك البدعة ، يحوجه إلى أن ينصر الباطل الذي يعلم أنه باطل . وإلا عاداه ، ولهذا صار علماء الكفار وأهل البدع مع علمهم بأنهم على الباطل ينصرون ذلك الباطل ؛ لأجل الاتباع والمحبين ، ويعادون أهل الحق ويهجنون طريقهم .

فمن أحب غير الله ووالى غيره كره محب الله ووليه ، ومن أحب أحداً لغير الله كان ضرر أصدقائه عليه أعظم من ضرر أعدائه ؛ فإن أعداءه غايتهم أن يحولوا بينه وبين هذا المحبوب الدنيوي ، والحيلولة بينه وبينه رحمة فى حقه ، وأصدقاؤه يساعدونه على نفي تلك الرحمة وذهابها عنه ، فأي صداقة هذه ؟! ويحبون بقاء ذلك المحبوب ليستعملوه فى أغراضهم ، وفيما يحبونه ، وكلاهما ضرر عليه .

قال تعالى : (إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ) . قال الفضيل بن عياض عن ليث

عن مجاهد : هي المودات التى كانت لغير الله ، والوصلات التى كانت بينهم فى الدنيا (وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ) .

فالأعمال التى أراهم الله حسرات عليهم : هي الأعمال التى يفعلها بعضهم مع بعض فى الدنيا كانت لغير الله ، ومنها الموالاة والصحبة والمحبة لغير الله . فالخير كله فى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فصل

ومما يحقق هذه الأمور أن المحب يجذب ، والمحبوب يجذب . فمن أحب شيئاً جذبه إليه بحسب قوته ، ومن أحب صورة جذبته تلك الصورة إلى المحبوب الموجود فى الخارج بحسب قوته ، فإن المحب علته فاعلية ، والمحبوب علته غائية ، وكل منهما له تأثير فى وجود المعلول ، والمحب إنما يجذب المحبوب بما فى قلب المحب من صورته التى يتمثلها ، فتلك الصورة تجذبه بمعنى انجذابه إليها ، لا أنها هي فى نفسها قصد وفعل ، فإن في المحبوب من المعنى المناسب ما يقتضي انجذاب المحب إليه كما ينجذب الإنسان إلى الطعام ليأكله ، وإلى امرأة ليباشرها ، وإلى

صديقه ليعاشره ، وكما تنجذب قلوب المحبين لله ورسوله إلى الله ورسوله ، والصالحين من عباده لما اتصف به سبحانه من الصفات التى يستحق لأجلها أن يحب ويعبد .

بل لا يجوز أن يحب شيء من الموجودات لذاته إلا هو سبحانه وبحمده ، فكل محبوب في العالم إنما يجوز أن يحب لغيره لا لذاته ، والرب تعالى هو الذي يجب أن يحب لنفسه ، وهذا من معاني إلهيته و (لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا) فإن محبة الشيء لذاته شرك ، فلا يحب لذاته إلا الله ، فإن ذلك من خصائص إلهيته ، فلا يستحق ذلك إلا الله وحده ، وكل محبوب سواه إن لم يحب لأجله أو لما يحب لأجله فمحبته فاسدة .

والله تعالى خلق فى النفوس حب الغذاء ، وحب النساء ، لما فى ذلك من حفظ الأبدان وبقاء الإنسان ؛ فإنه لولا حب الغذاء لما أكل الناس ففسدت أبدانهم ، ولولا حب النساء لما تزوجوا فانقطع النسل والمقصود بوجود ذلك بقاء كل منهم ليعبدوا الله وحده ، ويكون هو المحبوب المعبود لذاته الذي لا يستحق ذلك غيره .

وإنما تحب الأنبياء والصالحون تبعاً لمحبته ، فإن من تمام حبه حب ما يحبه ، وهو يحب الأنبياء والصالحين ، ويحب الأعمال الصالحة ، فحبها

لله هو من تمام حبه ، وأما الحب معه فهو حب المشركين الذين يحبون أندادهم كحب الله ، فالمخلوق إذا أحب لله كان حبه جاذباً إلى حب الله ، وإذا تحاب الرجلان فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، كان كل منهما جاذباً للآخر إلى حب الله ، كما قال تعالى : « حقت محبتى للمتحابين في ، وحقت محبتى للمتجالسين في ، وحقت محبتى للمتباذلين في ، وإن لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء بقربهم من الله ، وهم قوم تحابوا بروح الله على غير أموال يتباذلونها ، ولا أرحام يتواصلون بها ، إن لوجوههم لنوراً ، وإنهم لعلى كراس من نور ، لايخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس » .

فإنك إذا أحببت الشخص لله كان الله هو المحبوب لذاته ، فكلما تصورته فى قلبك تصورت محبوب الحق فأحببته ، فازداد حبك لله . كما إذا ذكرت النبي صلى الله عليه وسلم ، والأنبياء قبله، والمرسلين وأصحابهم الصالحين ، وتصورتهم فى قلبك ، فإن ذلك يجذب قلبك إلى محبة الله المنعم عليهم ، وبهم ، إذا كنت تحبهم لله ، فالمحبوب لله يجذب إلى محبة الله ، والمحب لله إذا أحب شخصاً لله فإن الله هو محبوبه ، فهو يحب أن يجذبه إلى الله تعالى ، وكل من المحب لله والمحبوب لله يجذب إلى الله .

وهكذا إذا كان الحب لغير الله ، كما إذا أحب كل من الشخصين

الآخر بصورة : كالمرأة مع الرجل ، فإن المحب يطلب المحبوب والمحبوب يطلب المحب ، بانجذاب المحبوب ، فإذا كانا متحابين صار كل منهما جاذبا مجذوبا من الوجهين ، فيجب الاتصال ، ولو كان الحب من أحد الجانبين لكان المحب يجذب المحبوب والمحبوب يجذبه ، لكن المحبوب لايقصد جذبه ، والمحب يقصد جذبه وينجذب .

وهذا « سبب التأثير في المحبوب » إما تمثل يحصل في قلبه فينجذب وإما أن ينجذب بلا محبة : كما يأكل الرجل الطعام ، ويلبس الثوب ، ويسكن الدار ، ونحو ذلك من المحبوبات التى لا إرادة لها .

وأما « الحيوان » فيحب بعضه بعضا بكونه سبباً للإحسان إليه وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها ، لكن هذا فى الحقيقة إنما هو محبة الإحسان ، لا نفس المحسن ، ولو قطع ذلك لاضمحل ذلك الحب وربما أعقب بغضا ، فإنه ليس لله عز وجل .

فإن من أحب إنسانا لكونه يعطيه ، فما أحب إلا العطاء ، ومن قال : إنه يحب من يعطيه لله فهذا كذب ومحال وزور من القول ، وكذلك من أحب إنسانا لكونه ينصره إنما أحب النصر لا الناصر . وهذا كله من اتباع ما تهوى الأنفس ، فإنه لم يحب فى الحقيقة إلا مايصل إليه من جلب منفعة أو دفع مضرة ، فهو إنما أحب تلك المنفعة ودفع المضرة وإنما

أحب ذلك لكونه وسيلة إلى محبوبه ، وليس هذا حباً لله ولا لذات المحبوب .

وعلى هذا تجري عامة محبة الخلق بعضهم مع بعض ، وهذا لا يثابون عليه في الآخرة ولا ينفعهم ؛ بل ربما أدى ذلك إلى النفاق والمداهنة ، فكانوا فى الآخرة من الأخلاء الذين بعضهم لبعض عدو إلا المتقين . وإنما ينفعهم فى الآخرة الحب فى الله ولله وحده ، وأما من يرجو النفع والنصر من شخص ثم يزعم أنه يحبه لله فهذا من دسائس النفوس ونفاق الأقوال .

وإنما ينفع العبد الحب لله لما يحبه الله من خلقه كالأنبياء والصالحين لكون حبهم يقرب إلى الله ومحبته وهؤلاء هم الذين يستحقون محبة الله لهم .

ونبينا كان يعطى المؤلفة قلوبهم ويدع آخرين هم أحب إليه من الذي يعطي ؛ يكلهم إلى مافي قلوبهم من الإيمان ، وإنما كان يعطي المؤلفة قلوبهم لما فى قلوبهم من الهلع والجزع ؛ ليكون ما يعطيهم سبباً لجلب قلوبهم إلى أن يحبوا الإسلام فيحبوا الله ، فكان مقصوده بذلك دعوة القلوب إلى حب الله عز وجل وصرفها عن ضد ذلك ؛ ولهذا كان يعطي أقواما خشية أن يكبهم الله على وجوههم فى النار فمنعهم بذلك العطاء عما

يكرهه منهم فكان يعطي لله ويمنع لله . وقد قال : « من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان » وفى صحيح البخاري عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنى والله إنما أنا قاسم لا أعطي أحداً ولا أمنع أحداً ولكن أضع حيث أمرت » .

وصورة المحبوب المتمثلة فى النفس يتحرك لها المحب ويريد لها ويحب ويبغض ويبتهج وينشرح عند ذكرها من أي جنس كانت ، فتبقى هى كالآمر الناهي له ؛ ولهذا يجد فى نفسه كأنها تخاطبه بأمر ونهى وغير ذلك كما يرى كثير من الناس من يحبه ويعظمه فى منامه وهو يأمره وينهاه ويخبره بأمور .

والمشركون تتمثل لهم الشياطين فى صور من يعبدونه . تأمرهم وتنهاهم .

والقائلون بالشاهد والمنتسبون إلى السلوك يقول أحدهم : إنه يخاطب في باطنه على لسان الشاهد ، فمنهم من يصلي بالليل وذاك بإزائه ليشاهده فى الضوء ، ومنهم من يشاهده فى حال السماع في غيره ، ويظنون أنهم يخاطبون ويجدون المريد فى قلوبهم بذلك ، وذلك لأنهم يتمثلونه فى أنفسهم ، وربما كان الشيطان يتمثل فى صورته فيجدون فى نفوسهم خطابا من تلك الصورة فيقولون خوطبنا من جهته . وهذا وإن كان موجوداً فى

المخاطب فمن المخاطب له ؟ فالفرقان هنا . فإنما ذلك المخاطب من وسواس الشيطان والنفس .

وقد يخاطبون بأشياء حسنة رشوة منه لهم ، ولا يخاطبون بما يعرفون أنه باطل ، لئلا ينفرون منه ، بل الشيطان يخاطب أحدهم بما يرى أنه حق ، والراهب إذا راض نفسه فمرة يرى فى نفسه صورة التثليث ، وربما خوطب منها لأنه كان قد يتمثلها قبل ذلك ، فلما انصقلت نفسه بالرياضة ظهرت له ، والمؤمن الذي يحب الله ورسوله يرى الرسول فى منامه بحسب إيمانه ، وكذلك يرى الله تعالى فى منامه بحسب إيمانه ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

ولهذا كثير من أهل الزهد والعبادة يكون من أعوان الكفار ويزعم أنه مأمور بذلك ، ويخاطب به ويظن أن الله هو الذي أمره بذلك ، والله منزه عن ذلك ، وإنما الآمر له بذلك النفس والشيطان وما فى نفسه من الشرك ، إذ لو كان مخلصاً لله الدين لما عرض له شيء من ذلك ، فإن هذا لا يكون إلا لمن فيه شرك في عبادته ، أو عنده بدعة ، ولا يقع هذا لمخلص متمسك بالسنة ألبتة .

وإذا كانت « الرؤيا » على « ثلاثة اقسام » :

رؤيا من الله .

ورؤيا من حديث النفس .

ورؤيا من الشيطان .

فكذلك ما يلقى فى نفس الإنسان فى حال يقظته « ثلاثة أقسام »

ولهذا كانت الأحوال « ثلاثة » رحمانى ، ونفسانى ، وشيطانى .

وما يحصل من نوع المكاشفة والتصرف « ثلاثة أصناف » ملكي ونفسي ، وشيطانى ، فإن الملك له قوة ، والنفس لها قوة ، والشيطان له قوة ، وقلب المؤمن له قوة . فما كان من الملك ومن قلب المؤمن فهو حق ، وما كان من الشيطان ووسوسة النفس فهو باطل .

وقد اشتبه هذا بهذا على طوائف كثيرة ، فلم يفرقوا بين أولياء الله وأعداء الله ، بل صاروا يظنون فى من هو من جنس المشركين والكفار — أهل الكتاب من وجوه كثيرة — أنه من أولياء الله المتقين . والكلام فى هذا مبسوط فى موضع آخر .

ولهذا فى هؤلاء من يرى جواز قتال الأنبياء ، ومنهم من يرى أنه أفضل من الأنبياء ، إلى أنواع أخر . وذلك لأنه حصل لهم من الأنواع الشيطانية والنفسانية ماظنوا أنها من كرامات الأولياء ، فظنوا

أنهم منهم ، فكان الأمر بالعكس . وأصل هذا أنهم تعبدوا بما تحبه النفس ؛ وأما العبادة بما يحبه الله ويرضاه فلا يحبونه ولا يريدونه وحده ، ويرون أنهم إذا عبدوا الله بما أمر به ورسله حط لهم عن منصب الولاية ، فيحدثون محبة قوية وتألهاً وعبادة وشوقا وزهداً ؛ ولكن فيه شرك وبدعة .

ومحبة « التوحيد » إنما تكون لله وحده على متابعة رسوله ؛ كما قال تعالى : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) ؛ فلهذا يكون أهل الاتباع فيهم جهاد ونية في محبتهم ؛ يحبون لله ، ويبغضون له . وهم على ملة إبراهيم . والذين معه (إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ) وأولئك محبتهم فيها شرك وليسوا متابعين للرسول ، ولا مجاهدين فى سبيل الله ، فليست هي المحبة الإخلاصية . فإنها مقرونة بالتوحيد .

ولهذا سمى أبو طالب المكي كتابه « قوت القلوب فى معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد »

والله سبحانه أعلم .

قال شيخ الإسلام

رحمه الله

فصـــــل

قد كتبت فى كراسة الحوادث فصلا فى « جماع الزهد والورع » :

وأن « الزهد » هو عمـا لا ينفع إما لانتفاء نفعـه ، أو لكونه مرجوحا ؛ لأنه مفوت لما هو أنفع منه ، أو محصل لما يربو ضرره على نفعه . وأما المنافع الخالصة أو الراجحة : فالزهد فيها حمق .

وأما « الورع » فإنه الإمساك عما قد يضر ، فتدخل فيـه المحرمات والشبهات لأنها قد تضر . فإنه من اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع فى الشبهـات وقع فى الحرام ، كالراعي حول الحمى يوشك أن يواقعه .

وأما « الورع » عما لا مضرة فيه أو فيه مضرة مرجوحة ــــ لما

تقترن به من جلب منفعة راجحة ، أو دفع مضرة أخرى راجحة — فجهل وظلم . وذلك يتضمن « ثلاثة أقسام » لا يتورع عنهـا : المنافع المكافأة ، والراجحة والخالصة : كالمباح المحض ، أو المستحب ، أو الواجب فإن الورع عنها ضلالة .

وأنا أذكر هنا تفصيل ذلك فأقول :

« الزهد » خلاف الرغبة . يقال : فلان زاهد فى كذا . وفلان راغب فيه . و « الرغبة » هي من جنس الإرادة . فالزهـد فى الشيء انتفـاء الإرادة له ، إما مـع وجود كراهته وإما مـع عـدم الإرادة والكراهة بحيث لا يكون لا مريداً له ولا كارهاً له ، وكل من لم يرغب فى الشيء ويريده فهو زاهد فيه .

وكما أن سبيل الله يحمد فيه الزهد فيما زهد الله فيـه من فضول الدنيا فتحمد فيه الرغبة والإرادة لما حمد الله إرادته والرغبة فيـــه ؛ ولهذا كان أساس الطريق الإرادة . كما قال تعالى : (وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ) وقال تعـالى : (وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا) ونظائره متعددة .

كما رغب فى « الزهد » وذم ضده فى قوله : (مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ) وقال تعالى : (أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ) السورة . وقال تعالى : (وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا) وقال : (إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) وقال تعالى : (ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ) الآية . وهذا باب واسع .

وإنما المقصود هنا تميز « الزهد الشرعي » من غيره ، وهو الزهد المحمود ، وتميز « الرغبة الشرعية » من غيرها ، وهي الرغبة المحمودة ، فإنه كثيراً ما يشتبه الزهد بالكسل والعجز والبطالة عن الأوامر الشرعية وكثيراً ما تشتبه الرغبة الشرعيـة بالحرص والطمع والعمل الذي ضل سعي صاحبه .

وأما « الورع » فهو اجتناب الفعل واتقاؤه ، والكف والإمساك عنه والحذر منه ، وهو يعود إلى كراهة الأمر والنفرة منه والبغض له وهو أمر وجودي أيضاً ـــ وإن كان قد اختلف فى المطلوب بالنهي . هل هو عدم المنهي عنه ، أو فعل ضده ؟ وأكثر أهل الإثبات عـلى الثاني ـــ فلا ريب أنه لا يسمى ورعا ، ومتورعا ، ومتقيـاً ، إلا إذا وجد منه الامتناع والإمساك الذي هو فعل ضد المنهي عنه .

و « التحقيق » أنه مع عدم المنهي عنه يحصل له عدم مضرة الفعل المنهي عنه ، وهو ذمه وعقابه ونحو ذلك ، ومع وجود الامتناع والاتقاء والاجتناب يكون قد وجد منه عمل صالح وطاعة وتقوى ، فيحصل له منفعة هذا العمل ، من حمده وثوابه ، وغير ذلك . فعدم المضرة لعدم السيئات ، ووجود المنفعة لوجود الحسنات .

فتلخص أن « الزهد » من باب عدم الرغبة والإرادة فى المزهود فيه . و « الورع » من باب وجود النفرة والكراهة للمتورع عنه ، وانتفاء الإرادة إنما يصلح فيما ليس فيه منفعة خالصة أو راجحة ، وأما وجود الكراهة فإنما يصلح فيما فيه مضرة خالصة أو راجحة ، فأما إذا فرض ما لا منفعة فيه ولا مضرة ، أو منفعته ومضرته سواء من كل وجه ؛ فهذا لا يصلح أن يراد ، ولا يصلح أن يكره ، فيصلح فيه الزهد ، ولا يصلح فيه الورع ، فظهر بذلك أن كل ما يصلح فيه الورع يصلح فيه الزهد ، من غير عكس ، وهذا بين . فإن ما صلح أن يكره وينفر عنه صلح أ لا يراد ولا يرغب فيه ، فإن عدم الإرادة أولى من وجود الكراهة ؛ ووجود الكراهة مستلزم عدم الإرادة من غير عكس . وليس كل ما صلح أ لا يراد يصلح أن يكره ؛ بل قد يعرض من الأمور ما لا تصلح إرادته ولا كراهته ، ولا حبه ولا بغضه ولا الأمر به ، ولا النهي عنه .

وبهذا يتبين : أن الواجبات والمستحبات لا يصلح فيها زهد ولا ورع ؛ وأما المحرمات والمكروهات فيصلح فيها الزهد والورع . وأما المباحات فيصلح فيها الزهد دون الورع ، وهذا القدر ظاهر تعرفه بأدنى تأمل .

وإنما الشأن فيما إذا تعارض في الفعل . هل هو مأمور به ؟ أو منهي عنه ؟ أو مباح ؟ وفيما إذا اقترن بما جنسه مباح ما يجعله مأموراً به أو منهياً عنه ، أو اقترن بالمأمور به ما يجعله منهياً عنه وبالعكس .

فعند اجتماع المصالح والمفاسد والمنافع والمضار وتعارضها ؛ يحتاج إلى الفرقان .

وقال

فصـــــل

قول بعض النـاس : الثواب عـلى قدر المشقة ليس بمستقيم عـلى الإطلاق ، كما قد يستدل به طوائف عـلى أنواع من « الرهبانيـات ، والعبادات المبتدعة » التى لم يشرعها الله ورسوله مـن جنس تحريمـات المشركين وغيرهم ما أحل الله من الطيبات ، ومثل التعمق والتنطع الذي ذمه النبي صلى الله عليه وسـلم ـــ حيث قال : « هلك المتنطعون » ؛ وقال : « لو مد لي الشهر لواصلت وصـالاً يدع المتعمقون تعمقهـم » ـــ مثل الجوع أو العطش المفرط الذي يضر العقل والجسم، ويمنـع أداء واجبات أو مستحبات أنفع منه،وكذلك الاحتفاء والتعرى والمشي الذي يضر الإنسان بلا فائدة : مثل حديث أبي إسرائيل الذي نذر أن يصـوم وأن يقوم قائمـاً ولا يجلس ولا يستظل ولا يتكلم فقـال النبي صلى الله عليـه وسـلم : « مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم

صومه » رواه البخاري ، وهذا باب واسع .

وأما الأجر على قدر الطاعة فقد تكون الطاعة لله ورسوله فى عمل ميسر كما يسر الله على أهل الإسلام « الكلمتين » وهما أفضل الأعمال ؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » أخرجاه فى الصحيحين .

ولو قيل: الأجر على قدر منفعة العمل وفائدته لكان صحيحاً اتصاف « الأول » باعتبار تعلقه بالأمر و « الثاني » باعتبار صفته فى نفسه . والعمل تكون منفعته وفائدته تارة من جهة الأمر فقط ، وتارة من جهة صفته فى نفسه ، وتارة من كلا الأمرين . فبالاعتبار الأول ينقسم إلى طاعة ومعصية ، وبالثاني ينقسم إلى حسنة وسيئة ، والطاعة والمعصية اسم له من جهة الأمر ، والحسنة والسيئة اسم له من جهة نفسه [1] وإن كان كثير من الناس لا يثبت إلا « الأول » ، كما تقوله الأشعرية وطائفة من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم .

ومن الناس من لا يثبت إلا « الثانى » كما تقوله المعتزلة وطائفة

---

(١) خرم بالاصل مقدار ثلث سطر .

من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم ، والصواب إثبات الاعتبارين كما تدل عليه نصوص الأئمة وكلام السلف وجمهور العلماء من أصحابنا وغيرهم .

فأما كونه مشقاً[1] فليس هو سبباً لفضل العمل ورجحانه ، ولكن قد يكون العمل الفاضل مشقاً[1] ففضله لمعنى غير مشقته ، والصبر عليه مع المشقة يزيد ثوابه وأجره ، فيزداد الثواب بالمشقة ، كما أن من كان بعده عن البيت فى الحج والعمرة أكثر : يكون أجره أعظم من القريب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة في العمرة : « أجرك على قدر نصبك » لأن الأجر على قدر العمل في بعد المسافة ، وبالبعد يكثر النصب فيكثر الأجر ، وكذلك الجهاد ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرؤه ويتتعتع فيه ، وهو عليه شاق له أجران ،

فكثيراً ما يكثر الثواب على قدر المشقة والتعب ، لا لأن التعب والمشقة مقصود من العمل ؛ ولكن لأن العمل مستلزم للمشقة والتعب ، هذا فى شرعنا الذي رفعت عنا فيه الآصار والأغلال ، ولم يجعل علينا فيه حرج ، ولا أريد بنا فيه العسر ؛ وأما فى شرع من قبلنا فقد تكون المشقة مطلوبة منهم . وكثير من العباد يرى جنس المشقة والألم والتعب مطلوباً مقربا إلى الله ؛ لما فيه من نفرة النفس عن اللذات والركون

(١) هكذا وردت في المطبوع ولعل الصواب (شاقا)

إلى الدنيا وانقطاع القلب عن علاقة الجسد ، وهــذا من جنس زهد الصابئة والهند وغيرهم .

ولهذا تجد هؤلاء مع من شابههم من الرهبان يعالجون الأعمـال الشاقة الشديدة المتعبة من أنواع العبادات والزهادات ، مع أنه لا فائدة فيها ولا ثمرة لها ولا منفعة إلا أن يكون شيئاً يسيراً لا يقاوم العذاب الأليم الذي يجدونه .

ونظير هذا الأصل الفاسد مدح بعض الجهال بأن يقول : فلان ما نكح ولا ذبح . وهذا مدح الرهبان الذين لا ينكحون ولا يذبحون ، وأما الحنفاء فقد قال النبي صلى الله عليه وسـلم « لكني أصوم وأفطر وأتزوج النساء وآكل اللحم ، فمن رغب عن سنتى فليس مني » .

وهذه الأشياء هي من الدين الفاسد وهو مذموم كما أن الطمأنينة إلى الحياة الدنيا مذموم .

والنـاس أقسام .

أصحاب « دنيا محضة » وهم المعرضون عن الآخرة .

وأصحاب « دين فاسد » وهم الكفار والمبتدعة الذين يتدينون بمـا لم

يشرعه الله من أنواع العبادات والزهادات .

و « القسم الثالث » وهم أهل الدين الصحيح ، أهل الإسلام المستمسكون بالكتاب والسنة والجماعة ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق .

وقال شيخ الإسلام

أحمد بن تيمية ـ رحمه الله

فصـــــل

في « تزكية النفس » وكيف تزكو بـترك المحرمات مـع فعل المأمورات . قال تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا) و (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى) .

قال قتادة وابن عيينة وغيرهما : قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال . وقال الفراء والزجاج : قـد أفلحت نفس زكاها الله وقد خابت نفس دساها الله . وكذلك ذكره الوالبي عن ابن عباس وهو منقطع. و [ليس] هو مرادا من الآيـة ؛ بل المراد بهـا الأول قطعاً لفظاً ومعنى .

أما « اللفظ » فقوله : من زكاها اسم موصول ولا بد فيه من عائد

على (من) فإذا قيل : قد أفلح الشخص الذي زكاها كان ضمير الشخص فى زكاها يعود على (من) هذا وجه الكلام الذى لا ريب فى صحته كما يقال : قد أفلح من اتقى الله وقد أفلح من أطاع ربه .

وأما إذا كان المعنى : قد أفلح من زكاه الله لم يبق فى الجملة ضمير يعود على (من) فإن الضمير على هذا يعود على الله وليس هو (من) وضمير المفعول يعود على النفس المتقدمة فلا يعود على (من) لا ضمير الفاعل ولا المفعول . فتخلو الصلة من عائد وهذا لايجوز .

نعم ! لو قيل : قد أفلح من زكى الله نفسه أو من زكاها الله له ونحو ذلك صح الكلام ، وخفاء هذا على من قال به من النحاة عجب . وهو لم يقل : قد أفلحت نفس زكاها . فإنه هنا كانت تكون زكاها صفة لنفس لا صلة ؛ بل قال : (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا) فالجملة صلة لـ (من) لا صفة لها .

ولا قال أيضا : قد أفلحت النفس التى زكاها ؛ فإنه لو قيل ذلك وجعل في (زكاها) ضمير يعود على اسم الله صح، فإذا تكلفوا وقالوا : التقدير (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا) هي النفس التى زكاها . وقالوا : فى زكى ضمير المفعول يعود على (من) وهي تصلح للمذكر والمؤنث

والواحد والعدد ، فالضمير عائد على معناها المؤنث وتأنيثها غير حقيقي ولهذا قيل : (قَدْ أَفْلَحَ) ولم يقل قد أفلحت ، قيل لهم : هذا مع أنه خروج من اللغة الفصيحة فإنما يصح إذا دل الكلام على ذلك فى مثل ومن [1] على أن المراد لنا ، وكذا قوله : (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ) ونحو ذلك .

وأما هنا فليس فى لفظ (من) وما بعدها مايدل على أن المراد به النفس المؤنثة فلا يجوز أن يراد بالكلام ماليس فيه دليل على إرادته ؛ فإن مثل هذا مما يصان كلام الله عز وجل عنه ، فلو قدر احتمال عود ضمير (زكاها) إلى نفس وإلى (من) مع أن لفظ (من) لا دليل يوجب عوده عليه لكان إعادته إلى المؤنث أولى من إعادته إلى ما يحتمل التذكير والتأنيث ، وهو فى التذكير أظهر ، لعدم دلالته على التأنيث ، فإن الكلام إذا احتمل معنيين وجب حمله على أظهرهما ، ومن تكلف غير ذلك فقد خرج عن كلام العرب المعروف ، والقرآن منزه عن ذلك ، والعدول عما يدل عليه ظاهر الكلام إلى مالا يدل عليه بلا دليل لا يجوز ألبتة فكيف إذا كان نصا من جهة المغنى ؟ ! فقد أخبر الله أنه يلهم التقوى والفجور . ولبسط هذا موضع آخر .

---

(١) بياض بالاصل .

و (المقصود هنا) أمر الناس بتزكية أنفسهم والتحذير من تدسيتها . كقوله : (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ) فلو قدر أن المعنى قد أفلح من زكى الله نفسه لم يكن فيه أمر لهم ولا نهي ، ولا ترغيب ولا ترهيب . والقرآن إذا أمر أو نهى لا يذكر مجرد « القدر » فلا يقول : من جعله الله مؤمناً ؛ بل يقول : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ) إذ ذكر مجرد القدر فى هذا يناقض المقصود ، ولا يليق هذا بأضعف الناس عقلا فكيف بكلام الله ؟ ! ألا ترى أنه فى مقام الأمر والنهي والترغيب والترهيب يذكر ما يناسبه من الوعد والوعيد ، والمدح والذم ، وإنما يذكر القدر عند بيان نعمه عليهم : إما بما ليس من أفعالهم ، وإما بإنعامه بالإيمان والعمل الصالح ، ويذكره فى سياق قدرته ومشيئته ، وأما فى معرض الأمر فلا يذكره إلا عند النعم . كقوله : (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ) الآية ، فهذا مناسب . وقوله : (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ) وهذه الآية من جنس الثانية لا الأولى .

والمقصود « ذكر التزكية » قال تعالى : (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا) الآية . وقال : (فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ) وقال : (الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) وقال : (وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ) .

وأصل « الزكاة » الزيادة فى الخير . ومنه يقال : زكا الزرع ، وزكا

المال إذا نما . ولن ينمو الخير إلا بترك الشر ، والزرع لا يزكو حتى يزال عنه الدغل ، فكذلك النفس والأعمال لا تزكوا حتى يزال عنها ما يناقضها ولا يكون الرجل متزكياً إلا مع ترك الشر ، فإنه يدنس النفس ويدسيها . قال الزجاج : (دساها) جعلها ذليلة حقيرة خسيسة وقال الفراء : دساها ؛ لأن البخيل يخفي نفسه ومنزله وماله ، قال ابن قتيبة : أي أخفاها بالفجور والمعصية ، فالفاجر دس نفسه ؛ أي قمعها وخباها ، وصانع المعروف شهر نفسه ورفعها ، وكانت أجواد العرب تنزل الربى لتشهر أنفسها ، واللئام تنزل الأطراف والوديان .

فالبر والتقوى يبسط النفس ، ويشرح الصدر ، بحيث يجد الإنسان في نفسه اتساعا وبسطاً عما كان عليه قبل ذلك ؛ فإنه لما اتسع بالبر والتقوى والإحسان بسطه الله وشرح صدره . والفجور والبخل يقمع النفس ويضعها ويهينها ، بحيث يجد البخيل في نفسه أنه ضيق . وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في الحديث الصحيح فقال : « مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد قد اضطرت أيديهما إلى تراقيهما . فجعل المتصدق كلما هم بصدقة اتسعت وانبسطت عنه ، حتى تغشى أنامله . وتعفو أثره وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها ، وأنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بإصبعه في جيبه فلو رأيتها يوسعها فلا تتسع » اخرجاه .

وإخفاء المنزل وإظهاره تبعاً لذلك . قال تعـالى : (يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ) الآية . فهكذا النفس البخيلة الفاجرة قـد دسها صاحبها فى بدنه بعضها فى بعض ، ولهذا وقت الموت تنزع من بدنه كما ينزع السفود من الصوف المبتل ، والنفس البرة التقية النقية التى قد زكاها صاحبها فارتفعت واتسعت ومجدت ونبلت فوقت الموت تخـرج من البدن تسيل كالقطرة من فى السقاء ، وكالشعرة من العجـين . قال ابن عباس : « إن للحسنة لنوراً فى القلب ، وضياء في الوجه ، وقـوة فى البدن ، وسعة فى الرزق ، ومحبة فى قلوب الخلق ، وإن للسيئة لظلمة فى القلب ، وسواداً فى الوجه ، ووهنا فى البدن ، وضيقاً فى الرزق ، وبغضة فى قلوب الخلق » قال تعالى : (وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ) الآية . وهـذا مثل البخيل والمنفق . قال : (فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ) الآية . وقال : (ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟) الآية .

وقال له فى سياق الرمي بالفاحشة وذم مـن أحب إظهارهـا فى المؤمنين ، والمتـكلم بما لا يعلم : (وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا) الآية . فبين أن الزكاة إنما تحصل بترك الفاحشة ولهذا قال : (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ) الآية . وذلك أن ترك السيئات هو من أعمـال النفس ، فإنها تعـلم أن السيئات مذمومة ومكروه فعلها ، ويجاهد نفسه إذا دعته إليها ، إن كان مصدقاً لكتـاب

ربه مؤمناً بما جاء عن نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ ولهذا التصديق والإيمان والكراهة وجهاد النفس أعمال تعملها النفس المزكاة ، فتزكو بذلك أيضاً ؛ بخلاف ما إذا عملت السيئات فإنها تتدنس وتندس وتنقمع كالزرع إذا نبت معه الدغل .

والثواب إنما يكون على عمل موجود ، وكذلك العقاب . فأما العدم المحض فلا ثواب فيه ولا عقاب ، لكن فيه عدم الثواب والعقاب ، والله سبحانه أمر بالخير ونهى عن الشر ، واتفق الناس على أن المطلوب بالأمر فعل موجود ، واختلفوا فى النهي هل المطلوب أمر وجودي ، أم عدمي فقيل : وجودي ، وهو الترك ، وهذا قول الأكثر . وقيل : المطلوب عدم الشر ، وهو أن لا يفعله .

و « التحقيق » أن المؤمن إذا نهى عن المنكر ، فلا بد أ لا يقربه ويعزم على تركه ، ويكره فعله ، وهذا أمر وجودي بلا ريب ؛ فلا يتصور أن المؤمن الذي يعلم أنه [1] وجودي ، لكن قد لا يكون مريداً له كما يكره أكل الميتة طبعاً ، ومع ذلك فلا بد له من اعتقاد التحريم والعزم على تركه لطاعة الشارع ، وهذا قدر زائد على كراهة الطبع ، وهو أمر وجودي يثاب عليه ؛ ولكن ليس كثواب من كف نفسه وجاهدها عن طلب

(١) بياض بالاصل

المحرم ، ومن كانت كراهته للمحرمات كراهة إيمان ، وقد غمر إيمانه حكم طبعه ، فهذا أعلى الأقسام الثلاثة ، وهذا صاحب النفس المطمئنة ، وهو أرفع من صاحب اللوامة التي تفعل الذنب وتلوم صاحبها عليه ، وتتلوم وتتردد هل تفعله أم لا ؟ !

وأما من لم يخطر بباله أن الله حرمه ، ولا هو مريد له ؛ بل لم يفعله ، فهذا لا يعاقب. ولا يثاب ، إذ لم يحصل منه أمر وجودي يثاب عليه أو يعاقب فمن قال : المطلوب أ لا يفعل ، إن أراد أن هذا المطلوب يكفي في عدم العقاب ، فقد صدق ، وإن أراد أنه يثاب على هذا العدم فليس كذلك . والكافر إذا لم يؤمن بالله ورسوله فلا بد لنفسه من أعمال يشتغل بها عن الإيمان ، وترك الأعمال كفر يعاقب عليها .

ولهذا لما ذكر الله عقوبة الكفار في النار ، ذكر أموراً وجودية وتلك تدس النفس ؛ ولهذا كان التوحيد والإيمان أعظم ما تزكو به النفس ، وكان الشرك أعظم ما يدسيها ، وتتزكى بالأعمال الصالحة والصدقة هذا كله مما ذكره السلف . قالوا : في (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ) تطهر من الشرك ومن المعصية بالتوبة ، وعن أبي سعيد وعطاء وقتادة : صدقة الفطر . ولم يريدوا أن الآية لم تتناول إلا هي ، بل مقصودهم : أن من أعطى صدقة الفطر وصلى صلاة العيد فقد تناولته وما بعدها ، ولهذا

كان يزيد بن حبيب كلما خرج إلى الصلاة خرج بصدقة ، ويتصدق بها قبل الصلاة ، ولو لم يجد إلا بصلا . قال الحسن : (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ) من كان عمله زاكيا ، وقال أبو الأحوص : زكاة الأمور كلها ، وقال الزجاج : تزكى بطاعة الله عز وجل ، ومعنى الزاكي النامي الكثير .

وكذلك قالوا في قوله : (وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ) قال ابن عباس : لا يشهدون أن لا إله إلا الله ، وقال مجاهد : لا يزكون أعمالهم أي ليست زاكية ، وقيل لا يطهرونها بالإخلاص ، كأنه أراد — والله أعلم — أهل الريا ، فإنه شرك . وعن الحسن : لا يؤمنون بالزكاة ، ولا يقرون بها . وعن الضحاك : لا يتصدقون ، ولا ينفقون في الطاعة ، وعن ابن السائب : لا يعطون زكاة أموالهم . قال : كانوا يحجون ويعتمرون ولا يزكون .

و « التحقيق » أن الآية تتناول كل ما يتزكى به الإنسان من التوحيد والأعمال الصالحة . كقوله : (هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ) وقوله : (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ) والصدقة المفروضة لم تكن فرضت عند نزولها .

فإن قيل : (يؤتى) فعل متعد .

قيل : هذا كقوله : (ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا) ، وتقدم قبلها أن

الرسول دعاهم ، وهو طلب منه ، فكان هذا اللفظ متضمناً قيام الحجة عليهم بالرسل ، والرسل إنما يدعونهم لما تزكو به أنفسهم .

ومما يليق : أن الزكاة تستلزم الطهارة ؛ لأن معناها معنى الطهارة . قوله : (خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ) من الشر (وَتُزَكِّيهِم) بالخير قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم طهرني بالماء والبرد والثلج » كان يدعو به في الاستفتاح وفى الاعتدال من الركوع ، والغسل .

فهذه الأمور توجب تبريد المغسول بها و « البرد » يعطي قوة وصلابة ، وما يسر يوصف بالبرد وقرة العين ، ولهذا كان دمع السرور بارداً ، ودمع الحزن حاراً ؛ لأن ما يسوء النفس يوجب حزنها وغمها ، وما يسرها يوجب فرحها وسرورها وذلك مما يبرد الباطن .

فسأل النبي صلى الله عليه وسلم : أن يغسل الذنوب على وجه يبرد القلوب أعظم برد يكون بما فيه من الفرح والسرور الذي أزال عنه ما يسوء النفس من الذنوب .

وقوله : « بالثلج والبرد والماء البارد » تمثيل بما فيه من هذا الجنس ، وإلا فنفس الذنوب لا تغسل بذلك ، كما يقال : أذقنا برد عفوك ، وحلاوة مغفرتك . ولما قضى أبو قتادة دين المدين قال صلى الله عليه وسلم : « الآن

برّدت جلدته » ويقال : برد اليقين ، وحرارة الشك . ويقال : هذا الأمر يثلج له الصدر ، إذا كان حقاً يعرفه القلب ويفرح به ، حتى يصير فى مثل برد الثلج . ومرض النفس : إما شبهة وإما شهوة أو غضب ، والثلاثة توجب السخونة . ويقال لمن نال مطلوبه : برد قلبه . فإن الطالب فيه حرارة الطلب .

وقوله : (خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ) دليل على أن عمل الحسنات يطهر النفس ويزكيها من الذنوب السالفة ، فإنه قاله بعد قوله : (وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟) الآية . فالتوبة والعمل الصالح يحصل بهما التطهير والتزكية ولهذا قال فى سياق قوله : (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟) الآيات . (وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ) الآية . فأمرهم جميعاً بالتوبة فى سياق ما ذكره ؛ لأنه لا يسلم أحد من هذا الجنس . كما فى الصحيح : « إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا » الحديث . وكذلك فى الصحيح « إن قوله : (إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ) نزلت بسبب رجل نال من امرأة كل شيء إلا الجماع ، ثم ندم فنزلت » .

ويحتاج المسلم فى ذلك إلى أن يخاف الله ، وينهى النفس عن الهوى ، ونفس الهوى والشهوة لا يعاقب عليه ، بل على اتباعه والعمل به ، فإذا كانت النفس تهوى وهو ينهاها كان نهيه عبادة لله ، وعملاً صالحاً . وثبت عنه أنه قال : « المجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله » فيؤمر بجهادها

كما يؤمر بجهاد من يأمر بالمعاصي ويدعو إليها ، وهو إلى جهاد نفسه أحوج ، فإن هذا فرض عين وذاك فرض كفاية ، والصبر فى هذا من أفضل الأعمال ، فإن هذا الجهاد حقيقة ذلك الجهاد ، فمن صبر عليه صبر على ذلك الجهاد . كما قال : « والمهاجر من هجر السيئات » .

ثم هذا لا يكون محموداً فيه ، إلا إذا غلب ، بخلاف الأول فإنه من (يقتل او يغلب فسوف نؤتيه اجراً عظيماً) ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة الخ » وذلك لأن الله أمر الإنسان أن ينهى النفس عن الهوى ، وأن يخاف مقام ربه . فحصل له من الإيمان ما يعينه على الجهاد ، فإذا غلب كان لضعف إيمانه ، فيكون مفرطاً بترك المأمور ؛ بخلاف العدو الكافر فإنه قد يكون بدنه أقوى .

فالذنوب إنما تقع إذا كانت النفس غير ممتثلة لما أمرت به ، ومع امتثال المأمور لا تفعل المحظور ، فإنهما ضدان . قال تعالى : (كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ) الآية . وقال : (إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ) فعباد الله المخلصون لا يغويهم الشيطان ، و « الغي » خلاف الرشد وهو اتباع الهوى . فمن مالت نفسه إلى محرم ، فليأت بعبادة الله كما أمر الله مخلصاً له الدين ، فإن ذلك يصرف عنه السوء والفحشاء (١) خشية ومحبة ، والعبادة له

---

(١) بياض بالاصل .

وحده ، وهذا يمنع من السيئات .

فإذا كان تائباً ، فإن كان ناقصاً ، فوقعت السيئات من صاحبه كان ماحيا لها بعد الوقوع ، فهو كالترياق الذي يدفع أثر السم ، ويرفعه بعد حصوله ، وكالغذاء من الطعام والشراب ، وكالاستمتاع بالحلال الذي يمنع النفس عن طلب الحرام ، فإذا حصل له طلب إزالته ، وكالعلم الذي يمنع من الشك ، ويرفعه بعد وقوعه ، وكالطب الذي يحفظ الصحة ويدفع المرض ، وكذلك ما فى القلب من الإيمان يحفظ بأشباهه مما يقوم به .

وإذا حصل منه مرض من الشبهات والشهوات أزيل بهذه ، ولا يحصل المرض إلا لنقص أسباب الصحة ، كذلك القلب لا يمرض إلا لنقص إيمانه . وكذلك الإيمان والكفر ان متضادان ، فكل ضدين : فأحدهما يمنع الآخر تارة ، ويرفعه أخرى ، كالسواد والبياض(١) حصل موضعه ويرفعه إذا كان حاصلا ، كذلك الحسنات والسيئات والإحباط (١) والمعتزلة أن الكبيرة تحبط الحسنات حتى الإيمان ، وأن من مات عليها لم يكن (١) الجبائي وابنه بالموازنة . لكن قالوا : من رجحت سيئاته خلد فى النار ، والموازنة بلا تخليد قول (١) الإحباط ما أجمع عليه وهو حبوط الحسنات كلها بالكفر كما قال : ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ

(١) بياض بالاصل .

فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ) الآية وقال : (وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ) .
وقال : (لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ) الآية .

وما ادعته المعتزلة مخالف لأقوال السلف ، فإنه سبحانه ذكر حد الزانى وغيره ، ولم يجعلهم كفاراً حابطي الأعمال ، ولا أمر بقتلهم كما أمر بقتل المرتدين ، والمنافقون لم يكونوا يظهرون كفرهم . والنبي صلى الله عليه وسلم أمر بالصلاة على الغال ، وعلى قاتل نفسه ، ولو كانوا كفاراً ومنافقين لم تجز الصلاة عليهم . فعلم أنهم لم يحبط إيمانهم كله . وقال عمن شرب الخمر « لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله » وذلك الحب من أعظم شعب الإيمان . فعلم أن إدمانه لا يذهب الشعب كلها . وثبت من وجوه كثيرة : « يخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، ولو حبط لم يكن فى قلوبهم شيء منه . وقال تعالى : (ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ) الآية . فجعل من المصطفين .

فإذا كانت السيئات لا تحبط جميع الحسنات ، فهل تحبط بقدرها وهل يحبط بعض الحسنات بذنب دون الكفر ؟ فيه قولان للمنتسبين إلى السنة . منهم من ينكره ، ومنهم من يثبته ، كما دلت عليه النصوص . مثل قوله : (لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ) الآ ية . دل على أن هذه السيئة تبطل الصدقة ، وضرب مثله بالمرائي . وقالت عائشة « أبلغي زيداً أن جهاده بطل » الحديث .

وأما قوله : (أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ) وحديث صلاة العصر في ذلك نزاع . وقال تعالى : (وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ) قال الحسن : بالمعاصي والكبائر ، وعن عطاء : بالشرك والنفاق ، وعن ابن السائب : بالرياء والسمعة ، وعن مقاتل : بالمن . وذلك أن قوماً منوا بإسلامهم ، فما ذكر عن الحسن يدل على أن المعاصي والكبائر تحبط الأعمال .

فإن قيل : لم يرد إلا إبطالها بالكفر .

قيل : ذلك منهي عنه فى نفسه ، وموجب للخلود الدائم ، فالنهي عنه لا يعبر عنه بهذا ، بل يذكره على وجه التغليظ . كقوله : (مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ) ونحوها . والله سبحانه فى هذه وفى آية المن سماها إبطالا ، ولم يسمه إحباطاً ؛ ولهذا ذكر بعدها الكفر بقوله : (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ) الآية .

فإن قيل : المراد إذا دخلتم فيها فأتموها ، وبها احتج من قال : يلزم التطوع بالشروع فيه .

قيل : لو قدر أن الآية تدل على أنه منهي عن إبطال بعض العمل ، فإبطاله كله أولى ، بدخوله فيها فكيف وذلك قبل فراغه لا يسمى صلاة ولا صوماً ؟!

ثم يقال : الإبطال يوجد قبل الفراغ أو بعده ، وما ذكروه أمر بالإتمام ، والإبطال هو إبطال الثواب ، ولا نسلم أن من لم يتم العبادة يبطل جميع ثوابه ، بل يقال : إنه يثاب على ما فعل من ذلك . وفى الصحيح حديث المفلس « الذي يأتى بحسنات أمثال الجبال » .

سئل شيخ الإسلام

قدس الله روحه

عن رجل تفقه وعلم ما أمر الله به وما نهى عنه ، ثم تزهد وترك الدنيا والمال والأهل والأولاد خائفاً من كسب الحرام والشبهات ، وبعث الآخرة وطلب رضا الله ورسوله ، وساح فى أرض الله والبلدان فهل يجوز له أن يقطع الرحم ويسيح كما ذكر أم لا ؟

فأجاب : الحمد لله وحده .

« الزهد المشروع » هو ترك [كل] شيء لا ينفع فى الدار الآخرة ، وثقة القلب بما عند الله . كما فى الحديث الذي في الترمذي « ليس الزهد فى الدنيا بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق بما فى يدك ، وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أصبت أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك ؛ لأن الله تعالى يقول (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) . فهذا صفة « القلب » .

وأما في « الظاهر » فترك الفضول التى لا يستعان بها على طاعة الله من مطعم وملبس ومال وغير ذلك . كما قال الإمام أحمد : إنما هو طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، وصبر أيام قلائل .

وجماع ذلك خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما ثبت عنه فى الصحيح أنه كان يقول : « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » . وكان عادته فى المطعم أنه لا يرد موجوداً ، ولا يتكلف مفقوداً ، ويلبس من اللباس ما تيسر من قطن وصوف وغير ذلك ، وكان القطن أحب إليه ، وكان إذا بلغه أن بعض أصحابه يريد أن يعتدي فيزيد فى الزهد ، أو العبادة على المشروع ، ويقول : أينا مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! يغضب لذلك ، ويقول : « والله إني لأخشاكم لله ، وأعلمكم بحدود الله تعالى » وبلغه أن بعض أصحابه قال : أما أنا فأصوم فلا أفطر ، وقال الآخر أما أنا فأقوم فلا أنام ، وقال آخر أما أنا فلا أتزوج النساء ، وقال آخر أما أنا فلا آكل اللحم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، وآكل اللحم ، فمن رغب عن سنتى فليس مني » .

فأما الإعراض عن الأهل والأولاد فليس مما يحبه الله ورسوله ، ولا هو من دين الأنبياء ؛ بل قد قال تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ

وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً) والإنفاق على العيال و الكسب لهم يكون واجباً تارة ومستحباً أخرى ، فكيف يكون ترك الواجب أو المستحب من الدين ؟!

وكذلك السياحة فى البلاد لغير مقصود مشروع ، كما يعانيه بعض النساك أمر منهى عنه ، قال الإمام أحمد : ليست السياحة من الإسلام فى شيء ، ولا من فعل النبيين ولا الصالحين .

وأما السياحة المذكورة فى القرآن من قوله: (ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ) ومن قوله : (مُسْلِمَـٰتٍ مُّؤْمِنَـٰتٍ قَـٰنِتَـٰتٍ تَـٰٓئِبَـٰتٍ عَـٰبِدَٰتٍ سَـٰٓئِحَـٰتٍ ثَيِّبَـٰتٍ وَأَبْكَارًا) فليس المراد بها هذه السياحة المبتدعة ؛ فإن الله قد وصف النساء اللاتي يتزوجهن رسوله بذلك . والمرأة المزوجة لا يشرع لها أن تسافر فى البراري سائحة ؛ بل المراد بالسياحة شيئان :

(أحدهما) الصيام . كما روى عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن ترك الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل

ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كلـه ، ألا وهي القلب » . متفق عليه .

لكــن إذا ترك الإنسان الحــرام ، أو الشبهة ، بترك واجب أو مستحب ، وكان الإثم أو النقص الذي عليــه في الترك أعظم من الإثم الذي عليه فى الفعل لم يشرع ذلك ، كما ذكر أبو طالب المـكي وأبو حامد الغزالي ، عن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عمن ترك ما لا شبهة فيه وعليه دين ؟ فسأله ولده أترك هذا المال الذي فيه شبهة فلا أقضيه ؟ فقال : له أتدع (١)

---

(١) بياض بالاصل .

سئل شيخ الإسلام أبو العباس

أحمد بن تيمية ـــ رحمه الله ـــ عن قوله تعالى : (حَقُّ ٱلْيَقِينِ) و (عَيْنَ ٱلْيَقِينِ) و (عِلْمَ ٱلْيَقِينِ) فما معنى كل مقام منها ؟ وأي مقام أعلى ؟

فأجاب : الحمد لله رب العالمين . للناس فى هذه الأسماء مقالات معروفة .

(منها) : أن يقال : « عِلْمَ ٱلْيَقِينِ » ما علمه بالسماع والخبر والقياس والنظر ، و « عَيْنَ ٱلْيَقِينِ » ما شاهده وعاينه بالبصر ، و « حَقُّ ٱلْيَقِينِ » ما باشره ووجده وذاقه وعرفه بالاعتبار .

« فالأولى » مثل من أخبر أن هناك عسلاً ، وصدق المخبر . أو رأى آثار العسل فاستدل على وجوده .

و « الثانى » مثل من رأى العسل وشاهده وعاينه ، وهذا أعلى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس المخبر كالمعاين » .

و « الثالث » مثل من ذاق العسل ، ووجد طعمه وحلاوته ، ومعلوم أن هذا أعلى مما قبله ؛ ولهذا يشير أهل المعرفة إلى ما عندهم من الذوق والوجد ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » وقال صلى الله عليه وسلم : « ذاق طعم الإيمان : من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً » فالناس فيما يجده أهل الإيمان ويذوقونه من حلاوة الإيمان وطعمه على ثلاث درجات :

« الأولى » من علم ذلك مثل من يخبره به شيخ له يصدقه ، أو يبلغه ما أخبر به العارفون عن أنفسهم ، أو يجد من آثار أحوالهم ما يدل على ذلك .

و « الثانية » من شاهد ذلك وعاينه ، مثل أن يعاين من أحوال أهل المعرفة والصدق واليقين ما يعرف به مواجيدهم وأذواقهم ، وإن كان هذا فى الحقيقة لم يشاهد ما ذاقوه ووجدوه ، ولكن شاهد ما دل عليه لكن هو أبلغ من المخبر ، والمستدل بآثارهم .

و « الثالثة » أن يحصل له من الذوق والوجد فى نفسه ما كان

سمعه ، كما قال بعض الشيوخ : لقد كنت في حال أقول فيها إن كان أهل الجنة فى الجنة فى مثل هذا الحال إنهم لفي عيش طيب . وقال آخر : إنه ليمر على القلب أوقات يرقص منها طرباً . وقال الآخر : لأهل الليل فى ليلهم ألذ من أهل اللهو فى لهوهم .

والناس فيما أخبروا به من أمر الآخرة على ثلاث درجات :

(إحداها) العلم بذلك لما أخبرتهم الرسل ، وما قام من الأدلة على وجود ذلك .

« الثانية » : إذا عاينوا ما وعدوا به من الثواب والعقاب والجنة والنار .

و « الثالثة » إذا باشروا ذلك ؛ فدخل أهل الجنة الجنة ؛ وذاقوا ما كانوا يوعدون ، ودخل أهل النار النار ، وذاقوا ما كانوا يوعدون ، فالناس فيما يوجد فى القلوب ، وفيما يوجد خارج القلوب على هذه الدرجات الثلاث .

وكذلك فى أمور الدنيا : فإن من أخبر بالعشق أو النكاح ولم يره ولم يذقه كان له علم به ، فإن شاهده ولم يذقه كان له معاينة له ، فإن ذاقه بنفسه كان له ذوق وخبرة به ، ومن لم يذق الشيء لم يعرف حقيقته ، فإن

العبارة إنما تفيد التمثيل والتقريب ، وأما معرفة الحقيقة فلا تحصل بمجرد العبارة ، إلا لمن يكون قد ذاق ذلك الشيء المعبر عنه ، وعرفه وخبره ؛ ولهذا يسمون أهل المعرفة لأنهم عرفوا بالخبرة والذوق ما يعلمه غيرهم بالخبر والنظر ، وفي الحديث الصحيح : « أن هرقل ملك الروم سأل ابا سفيان بن حرب فيما سأله عنه من أمور النبي صلى الله عليه وسلم قال : فهل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له بعد ان يدخل فيه ؟ قال : لا ، قال : وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلب لا يسخطه أحد » .

فالإيمان إذا باشر القلب وخالطته بشاشته لا يسخطه القلب ، بل يحبه ويرضاه ، فإن له من الحلاوة فى القلب واللذة والسرور والبهجة ما لا يمكن التعبير عنه لمن لم يذقه ، والناس متفاوتون في ذوقه والفرح والسرور الذي فى القلب له من البشاشة ما هو بحسبه ، وإذا خالطت القلب لم يسخطه ، قال تعالى : (قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) وقال تعالى : (وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ) وقال تعالى : (وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) فأخبر سبحانه أنهم يستبشرون بما أنزل من القرآن ، والاستبشار هو الفرح والسرور ؛ وذلك لما يجدونه فى قلوبهم من الحلاوة واللذة والبهجة بما أنزل الله .

و « اللذة » أبدا تتبع المحبة فمن أحب شيئاً ونال ما أحبه وجد اللذة به ، فالذوق هو إدراك المحبوب ، اللذة الظاهرة كالأكل مثلاً : حال الإنسان فيها أنه يشتهي الطعام ويحبه ، ثم يذوقه ويتناوله فيجد حينئذ لذته وحلاوته ، وكذلك النكاح وأمثال ذلك .

وليس للخلق محبة أعظم ولا أكمل ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم ، وليس في الوجود ما يستحق أن يحب لذاته من كل وجه إلا الله تعالى ، وكل ما يحب سواه فمحبته تبع لحبه ، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام إنما يحب لأجل الله ، ويطاع لأجل الله ، ويتبع لأجل الله . كما قال تعالى : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ) وفى الحديث « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبونى لحب الله ، وأحبوا أهل بيتى لحبى » وقال تعالى : (قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ) إلى قوله : (أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » وفي حديث الترمذي وغيره « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » وقال تعالى : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) فالذين آمنوا أشد حباً لله ، من كل محب لمحبوبه . وقد بسطنا الكلام على هذا فى مواضع متعددة .

و « المقصود هنا » أن أهـل الإيمان يجدون بسبب محبتهـم لله ولرسوله من حلاوة الإيمان ما يناسب هذه المحبة ، ولهـذا علق النبي صلى الله عليه وسـلم ما يجدونه بالمحبة فقال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه ممـا سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يـكره أن يقذف في النار » .

ومن ذلك ما يجدونه مـن ثمرة التوحيد والإخـلاص . والتوكل والدعاء لله وحده ، فإن الناس فى هذا الباب على ثلاث درجات :

« منهم » من علم ذلك سماعا واستدلالاً .

« ومنهم » من شاهد وعاين ما يحصل لهم .

و « منهم » مـن وجـد حقيقة الإخلاص والتوكل عـلى الله ، والالتجاء إليه ، والاستعانة به ، وقطع التعلق بما سواه ، وجرب من نفسه أنه إذا تعلق بالمخلوقين ورجاهم ، وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة أو يدفعوا عنه مضرة ، فإنه يخذل من جهتهم ؛ ولا يحصل مقصوده ، بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجتـه إليهم ، فلا ينفعونه : إما لعجزهم ، وإما لانصراف قلوبهم عنه ، وإذا

توجه إلى الله بصدق الافتقار إليه ، واستغاث به مخلصاً له الدين ؛ أجاب دعاءه ؛ وأزال ضرره ، وفتح له أبواب الرحمة . فمثل هذا قد ذاق [من] حقيقة التوكل والدعاء لله ، ما لم يذق غيره . وكذلك من ذاق طعم إخلاص الدين لله وإرادة وجهه دون ما سواه ؛ يجد من الأحوال والنتائج والفوائد ما لا يجده من لم يكن كذلك .

بل من اتبع هواه فى مثل طلب الرئاسة والعلو ؛ وتعلقه بالصور الجميلة ، أو جمعه للمال يجد في أثناء ذلك من الهموم والغموم والأحزان والآلام وضيق الصدر ما لا يعبر عنه . وربما لا يطاوعه قلبه على ترك الهوى ، ولا يحصل له ما يسره ؛ بل هو فى خوف وحزن دائماً : إن كان طالباً لما يهواه فهو قبل إدراكه حزين متألم حيث لم يحصل . فإذا أدركه كان خائفاً من زواله وفراقه .

وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؛ فإذا ذاق هذا أو غيره حلاوة الإخلاص لله . والعبادة له . وحلاوة ذكره ومناجاته . وفهم كتابه . وأسلم وجهه لله وهو محسن بحيث يكون عمله صالحاً . ويكون لوجه الله خالصاً ؛ فإنه يجد من السرور واللذة والفرح ما هو أعظم مما يجده الداعي المتوكل الذي نال بدعائه وتوكله ما ينفعه من الدنيا . أو اندفع عنه ما يضره ؛ فإن حلاوة ذلك هي بحسب ما حصل له من

المنفعة ، أو اندفع عنه من المضرة ، ولا أنفع للقلب من التوحيد وإخلاص الدين لله ، ولا أضر عليه من الإشراك .

فإذا وجد حقيقة الإخلاص التى هي حقيقة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) مع حقيقة التوكل التىهي حقيقة(إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) كان هذا فوق ما يجده كل أحد لم يجد مثل هذا . والله أعلم .

سؤال أبي القاسم المغربي[1]

يتفضل الشيخ الإمام بقية السلف ، وقدوة الخلف ، أعلم من لقيت ببلاد المشرق والمغرب ؛ تقي الدين أبو العباس « أحمد بن تيمية » بأن يوصيني بما يكون فيه صلاح ديني ودنياي ، ويرشدني إلى كتاب يكون عليه اعتمادي في علم الحديث ، وكذلك في غيره من العلوم الشرعية وينبهني على أفضل الأعمال الصالحة بعد الواجبات ، ويبين لي أرجح المكاسب ، كل ذلك على قصد الإيماء والاختصار ، والله تعالى يحفظه. والسلام الكريم عليه ورحمة الله وبركاته .

فأجاب :

الحمد لله رب العالمين .

أما « الوصية » فما أعلم وصية أنفع من وصية الله ورسوله لمن عقلها

---

(١) تسمى : « الوصية الصغرى» .

واتبعها . قال تعالى : (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ) .

ووصى النبي صلى الله عليه وسلم معاذاً لما بعثه إلى اليمن فقال : « يا معاذ : اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

وكان معاذ رضي الله عنه من النبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة علية؛ فإنه قال له : « يا معاذ ! والله ! إني لأحبك » وكان يردفه وراءه . وروى فيه : « أنه أعلم الأمة بالحلال والحرام ، وأنه يحشر أمام العلماء برتوة — أي بخطوة — » . ومن فضله أنه بعثه النبي صلى الله عليه وسلم مبلغاً عنه داعياً ومفقهاً ومفتياً وحاكماً إلى أهل اليمن .

وكان يشبهه بإبراهيم الخليل عليه السلام ، وإبراهيم إمام الناس . وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول : إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ؛ تشبيهاً له بإبراهيم .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم وصاه هذه الوصية ، فعلم أنها جامعة . وهي كذلك لمن عقلها ، مع أنها تفسير الوصية القرآنية .

أما بيان جمعها ؛ فلأن العبد عليه « حقان » :

حق لله عز وجل . وحق لعباده . ثم الحق الذي عليه لا بد أن يخل ببعضه أحياناً : إما بترك مأمور به ، أو فعل منهى عنه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اتق الله حيثما كنت » وهذه كلمة جامعة وفى قوله « حيثما كنت » تحقيق لحاجته إلى التقوى فى السر والعلانية . ثم قال : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » فإن الطبيب متى تناول المريض شيئاً مضراً أمره بما يصلحه . والذنب للعبد كأنه أمر حتم . فالكيس هو الذي لا يزال يأتى من الحسنات بما يمحو السيئات . وإنما قدم فى لفظ الحديث « السيئة » وإن كانت مفعولة ، لأن المقصود هنا محوها لا فعل الحسنة ، فصار كقوله فى بول الأعرابى : « صبوا عليه ذنوباً من ماء » .

وينبغي أن تكون الحسنات من جنس السيئات ، فإنه أبلغ في المحو والذنوب يزول موجبها بأشياء :

(أحدها) التوبة .

و (الثانى) الاستغفار من غير توبة . فإن الله تعالى قد يغفر له إجابة لدعائه وإن لم يتب ، فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال .

(الثالث) الأعمال الصالحة المكفرة : إما « الكفارات المقدرة »

كما يكفر المجامع فى رمضان،والمظاهر،والمرتكب لبعض محظورات الحج أو تارك بعض واجباته ، أو قاتل الصيد بالكفارات المقدرة، وهي « أربعة أجناس » : هدى وعتق وصدقة وصيام .

وإما « الكفارات المطلقة » كما قال حذيفة لعمر : فتنة الرجل فى أهله وماله وولده ؛ يكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقد دل على ذلك القرآن والأحاديث الصحاح فى التكفير بالصلوات الخمس ، والجمعة والصيام ، والحج وسائر الأعمال التى يقال فيها : من قال كذا وعمل كذا غفر له ، أو غفر له ما تقدم من ذنبه ، وهي كثيرة لمن تلقاها من السنن خصوصاً ما صنف فى فضائل الأعمال .

وأعلم أن العناية بهذا من أشد ما بالإنسان الحاجة إليه ؛ فإن الإنسان من حين يبلغ ؛ خصوصاً فى هذه الأزمنة ونحوها من أزمنة الفترات التى تشبه الجاهلية من بعض الوجوه ، فإن الإنسان الذي ينشأ بين أهل علم ودين قد يتلطخ من أمور الجاهلية بعدة أشياء ، فكيف بغير هذا ؟!

وفي الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم من حديث أبى سعيد رضي الله عنه : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة

حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : يا رسول الله ! اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » هذا خبر تصديقه فى قوله تعالى : (فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟) ولهذا شواهد في الصحاح والحسان .

وهذا أمر قد يسرى فى المنتسبين إلى الدين من الخاصة ؛ كما قال غير واحد من السلف منهم ابن عيينة ؛ فإن كثيراً من أحوال اليهود قد ابتلى به بعض المنتسبين إلى العلم ، وكثيراً من أحوال النصارى قد ابتلى به بعض المنتسبين إلى الدين ، كما يبصر ذلك من فهم دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم ، ثم نزله على أحوال الناس .

وإذا كان الأمر كذلك فمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، وكان ميتاً فأحياه الله، وجعل له نوراً يمشي به فى الناس ، لا بد أن يلاحظ أحوال الجاهلية، وطريق الأمتين المغضوب عليهم والضالين من اليهود والنصارى ، فيرى أن قد ابتلى ببعض ذلك .

فأنفع ما للخاصة والعامة العلم بما يخلص النفوس من هذه الورطات وهو إتباع السيئات الحسنات . والحسنات ما ندب الله إليه على لسان خاتم النبيين من الأعمال والأخلاق والصفات .

ومما يزيل موجب الذنوب « المصائب المكفرة » وهي كل ما يـؤلم من هم أو حزن أو أذى فى مـال أو عرض أو جسد أو غـير ذلك ، لكن ليس هذا من فعل العبد .

فلما قضى بهاتين الـكلمتين حق الله : من عمل الصالح ، وإصلاح الفاسد قال : « وخالق الناس بخلق حسن » وهو حق الناس .

وجماع الخلق الحسن مـع الناس : أن تصل من قطعـك بالسلام والإكرام والدعاء له والاستغفار والثناء عليـه ، والزيارة له وتعطى من حرمك من التعليم والمنفعة والمال ، وتعفو عمن ظلمك فى دم أو مال أو عرض . وبعض هذا واجب وبعضه مستحب .

وأما الخلق العظيم الذي وصف الله به محمداً صلى الله عليه وسلم فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقاً ، هكذا قال مجاهد وغيره ، وهو تأويل القرآن ، كما قالت عائشة رضي الله عنها : « كان خلقـه القرآن » وحقيقتـه المبـادرة إلى امتثـال ما يحبـه الله تعـالى بطيب نفس وانشراح صدر .

وأما بيان أن هذا كلـه فى وصية الله ، فهو أن اسـم تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به إيجابا واستحبابا ، وما نهى عنـه تحريما

وتنزيها ، وهـذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد . لكن لما كان تارة يعني بالتقوى خشية العذاب المقتضيـة للانكفاف عن المحارم ، جاء مفسراً في حديث معاذ ، وكذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنهما الذي رواه الترمذي وصححه : « قيل : يارسول الله ! ما أكـثر ما يدخـل الناس الجنة ؟ قال : تقوى الله وحسن الخلق . قيل : وما أكثر ما يدخل الناس النار ؟ قال : الأجوفان : الفم والفرج » .

وفي الصحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقاً » فجعل كمال الإيمـان في كمال حسن الخلـق . ومعـلوم أن الإيمان كلـه تقوى الله .

وتفصيل أصول التقوى وفروعها لايحتمله هذا الموضع ، فإنها الدين كله ؛ لكن ينبوع الخير وأصله : إخلاص العبد لربه عبادة واستعانة كما في قوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وفي قوله : (فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) وفي قوله : (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) وفي قوله : (فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُ) بحيث يقطع العبـد تعلق قلبـه من المخلوقين انتفاعا بهم أو عملا لأجلهم ، ويجعل همته ربه تعالى ، وذلك بملازمة الدعاء له في كل مطلوب من فاقـة وحاجة ومخافة وغـير ذلك ،

والعمل له بكل محبوب . ومن أحكم هذا فلا يمكن أن يوصف ما يعقبه ذلك .

وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض ؛ فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه وما يناسب أوقاتهم ، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد ، لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره : أن ملازمة ذكر الله دائماً هو أفضل ماشغل العبد به نفسه فى الجملة ، وعلى ذلك دل حديث أبى هريرة الذي رواه مسلم : « سبق المفردون ، قالوا يارسول الله ! ومن المفردون ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » وفيما رواه أبو داود عن أبى الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : بلى يارسول الله ! قال : ذكر الله » .

والدلائل القرآنية والإيمانية بصراً وخبراً ونظراً على ذلك كثيرة .

وأقل ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن معلم الخير وإمام المتقين صلى الله عليه وسلم ، كالأذكار المؤقتة فى أول النهار وآخره ،

وعند أخذ المضجع ، وعنـد الاستيقاظ من المنـام ، وأدبار الصلوات ، والأذكار المقيدة مثل مايقال عنـد الأكل والشرب واللباس والجماع ، ودخول المنزل والمسجد والخلاء والخروج من ذلك ، وعند المطر والرعد إلى غير ذلك ، وقد صنفت له الكتب المسماة بعمل اليوم والليلة .

ثم ملازمة الذكر مطلقاً وأفضله « لا إله إلا الله » . وقد تعرض أحوال يكون بقية الذكر مثل : « سبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله » أفضل منه .

ثم يعلم أن كل ما تكلم به اللسان وتصوره القلب مما يقرب إلى الله من تعلم علم وتعليمه ، وأمر بمعروف ونهي عن منكر فهو من ذكر الله . ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض ، أو جلس مجلساً يتفقه أو يفقه فيه الفقه الذي سماه الله ورسوله فقهـا فهذا أيضاً من أفضل ذكر الله . وعلى ذلك إذا تدبرت لم تجد بين الأولين فى كلماتهم فى أفضل الأعمال كبير اختلاف .

وما اشتبه أمره على العبد فعليه بالاستخارة المشروعة ، فما ندم من استخار الله تعالى . وليكثر من ذلك ومن الدعاء ، فإنه مفتـاح كل خير ، ولا يعجل فيقول : قد دعوت فلم يستجب لي ، وليتحر الأوقات

الفاضلة : كآخر الليل ، وأدبار الصلوات ، وعند الأذان ، ووقت نزول المطر ، ونحو ذلك .

وأما أرجح المكاسب : فالتوكل على الله ، والثقة بكفايته ، وحسن الظن به . وذلك أنه ينبغي للمهتم بأمر الرزق أن يلجأ فيه إلى الله ويدعوه ، كما قال سبحانه فيما يأثر عنه نبيه : « كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم . ياعبادي ! كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم » وفيما رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع ، فإنه إن لم ييسره لم يتيسر » .

وقد قال الله تعالى فى كتابه : (وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ) وقال سبحانه : (فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ) وهذا وإن كان فى الجمعة فمعناه قائم فى جميع الصلوات . ولهذا والله أعلم أمر النبي صلى الله عليه وسلم الذي يدخل المسجد أن يقول : « اللهم افتح لي أبواب رحمتك » وإذا خرج أن يقول : « اللهم إنى أسألك من فضلك » وقد قال الخليل صلى الله عليه وسلم : (فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ) وهذا أمر ، والأمر يقتضي الإيجاب فالاستعانة بالله واللجأ إليه فى أمر الرزق وغيره أصل عظيم .

ثم ينبغي له أن يأخذ المال بسخاوة نفس ليبارك له فيه ، ولا يأخذه بإشراف وهلع ؛ بل يكون المال عنده بمنزلة الخلاء الذي يحتاج إليه من غير أن يكون له فى القلب مكانة . والسعي فيه إذا سعى كإصلاح الخلاء . وفي الحديث المرفوع الذي رواه الترمذي وغيره : « من أصبح والدنيا أكبر همه ، شتت الله عليه شمله ، وفرق عليه ضيعته ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له . ومن أصبح والآخرة أكبر همه ، جمع الله عليه شمله ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة » .

وقال بعض السلف : أنت محتاج إلى الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج ، فإن بدأت بنصيبك من الآخرة مر على نصيبك من الدنيا فانتظمه انتظاماً . قال الله تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ) .

فأما تعيين مكسب على مكسب من صناعة أو تجارة أو بناية أو حراثة أو غير ذلك ، فهذا يختلف باختلاف الناس ، ولا أعلم في ذلك شيئاً عاماً ، لكن إذا عن للإنسان جهة فليستخر الله تعالى فيها الاستخارة المتلقاة عن معلم الخير صلى الله عليه وسلم ، فإن فيها من البركة ما لا يحاط به . ثم ما تيسر له فلا يتكلف غيره إلا أن يكون منه كراهة شرعية .

وأما ما تعتمد عليه من الكتب فى العلوم ، فهذا باب واسع ، وهو أيضاً يختلف باختلاف نشء الإنسان فى البلاد ، فقد يتيسر له فى بعض البلاد من العلم أو من طريقه ومذهبه فيه ما لا يتيسر له فى بلد آخر ، لكن جماع الخير أن يستعين بالله سبحانه فى تلقي العلم الموروث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنه هو الذي يستحق أن يسمى علماً ، وما سواه إما أن يكون علماً فلا يكون نافعاً ، وإما ألا يكون علماً ، وإن سمي به . ولئن كان علماً نافعاً فلا بد أن يكون فى ميراث محمد صلى الله عليه وسلم ما يغنى عنه مما هو مثله وخير منه . ولتكن همته فهم مقاصد الرسول فى أمره ونهيه وسائر كلامه . فإذا اطمأن قلبه أن هذا هو مراد الرسول فلا يعدل عنه فيما بينه وبين الله تعالى ولا مع الناس ، إذا أمكنه ذلك .

وليجتهد أن يعتصم فى كل باب من أبواب العلم بأصل مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم . وإذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه الناس فليدع بما رواه مسلم فى صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قام يصلي من الليل : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » فإن الله تعالى

قد قال فيما رواه عنه رسوله : « يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم » .

وأما وصف « الكتب والمصنفين » فقد سمع منا فى أثناء المذاكرة ما يسره الله سبحانه . وما فى الكتب المصنفة المبوبة كتاب أنفع من « صحيح محمد بن اسماعيل البخاري » لكن هو وحده لا يقوم بأصول العلم . ولا يقوم بتمام المقصود للمتبحر فى أبواب العلم ، إذ لا بد من معرفة أحاديث أخر ، وكلام أهل الفقه وأهل العلم فى الأمور التى يختص بعلمها بعض العلماء . وقد أوعبت الأمة فى كل فن من فنون العلم إيعاباً ، فمن نور الله قلبه هداه بما يبلغه من ذلك ، ومن أعماه لم تزده كثرة الكتب إلا حيرة وضلالاً ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي لبيد الأنصاري : « أوليست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى ؟ فماذا تغنى عنهم ؟ » .

فنسأل الله العظيم أن يرزقنا الهدى والسداد ، ويلهمنا رشدنا ، ويقينا شر أنفسنا ، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على أشرف المرسلين .

وسئل الشيخ الإمام، العالم العامل

الحبر الكامل، شيخ الإسلام ومفتي الأنام تقي الدين «ابن تيمية» أيده الله وزاده من فضله العظيم. عن (الصبر الجميل) و (الصفح الجميل) و(الهجر الجميل) وما أقسام التقوى والصبر الذي عليه الناس؟[1]

فأجاب رحمه الله: —

الحمد لله. أما بعد: فإن الله أمر نبيه بالهجر الجميل، والصفح الجميل والصبر الجميل «فالهجر الجميل» هجر بلا أذى، و «الصفح الجميل» صفح بلا عتاب، و «الصبر الجميل» صبر بلا شكوى قال يعقوب عليه الصلاة والسلام: (إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ) مع قوله: (فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ) فالشكوى إلى الله لاتنافي الصبر الجميل، ويروى عن موسى عليه الصلاة والسلام أنه كان يقول: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك

(١) مسألة في الهجر الجميل والصفح الجميل وأقسام التقوى والصبر.

المستغاث وعليك التكلان » ومن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، اللهم إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن ينزل بي سخطك، أو يحل علي غضبك، لك العتبى حتى ترضى ».

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ في صلاة الفجر : (إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ) ويبكي حتى يسمع نشيجه من آخر الصفوف ؛ بخلاف الشكوى إلى المخلوق . قرئ على الإمام أحمد في مرض موته أن طاووساً كره أنين المريض . وقال : إنه شكوى . فما أن حتى مات . وذلك أن المشتكي طالب بلسان الحال ، إما إزالة مايضره أو حصول مانيفعه والعبد مأمور أن يسأل ربه دون خلقه ، كما قال تعالى : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب) وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » .

ولابد للإنسان من شيئين : طاعته بفعل المأمور ، وترك المحظور ، وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور . فالأول هو التقوى ، والثانى هو الصبر . قال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن

دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا) إلى قوله : (وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) وقال تعالى : (بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) وقال تعالى : (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) وقد قال يوسف : (أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) .

ولهذا كان الشيخ عبد القادر ونحوه من المشايخ المستقيمين يوصون فى عامة كلامهم بهذين الأصلين : المسارعة إلى فعل المأمور ، والتقاعد عن فعل المحظور ، والصبر والرضا بالأمر المقدور . وذلك أن هذا الموضع غلط فيه كثير من العامة ؛ بل ومن السالكين ، فمنهم من يشهد القدر فقط ويشهد [الحقيقة الكونية] دون [الدينية] فيرى أن الله خالق كل شيء وربه ، ولا يفرق بين ما يحبه الله ويرضاه ، وبين ما يسخطه ويبغضه ، وإن قدره وقضاه ولا يميز بين توحيد الألوهية ، وبين توحيد الربوبية فيشهد الجمع الذي يشترك فيه جميع المخلوقات ــ سعيدها وشقيها ــ مشهد الجمع الذي يشترك فيه المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والنبي الصادق والمتنبئ الكاذب ، وأهل الجنة وأهل النار ، وأولياء الله وأعداؤه ، والملائكة المقربون والمردة الشياطين .

فإن هؤلاء كلهم يشتركون فى هذا الجمع وهذه « الحقيقة الكونية » وهو أن الله ربهم وخالقهم ومليكهم لا رب لهم غيره . ولا يشهد الفرق الذي فرق الله [به] بين أوليائه وأعدائه ، وبين المؤمنين والكافرين ، والأبرار والفجار ، وأهل الجنة والنار وهو توحيد الألوهية ، وهو عبادته وحده لا شريك له ، وطاعته وطاعة رسوله ، وفعل ما يحبه ويرضاه ، وهو ما أمر الله به ورسوله أمر إيجاب ، أو أمر استحباب ، وترك ما نهى الله عنه ورسوله ، وموالاة أوليائه ، ومعاداة أعدائه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجهاد الكفار والمنافقين بالقلب واليد واللسان . فمن لم يشهد هذه « الحقيقة الدينية » الفارقة بين هؤلاء وهؤلاء ، ويكون مع أهل « الحقيقة الدينية » وإلا فهو من جنس المشركين ، وهو شر من اليهود والنصارى .

فإن المشركين يقرون بالحقيقة الكونية . إذ هم يقرون بأن الله رب كل شيء كما قال تعالى : (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ) وقال تعالى : (قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ)
ولهذا قال سبحانه : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ)

قال بعض السلف : تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون الله وهم مع هذا يعبدون غيره .

فمن أقر بالقضاء والقدر دون الأمر والنهي الشرعيين فهـو أكفر من اليهود والنصارى ، فإن أولئك يقرون بالملائكة والرسل الذين جاؤوا بالأمر والنهي الشرعيين لـكن آمنوا ببعض وكفروا ببعض . كما قال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا) .

وأما الذي يشهد « الحقيقة الكونية » وتوحيد الربوبية الشامل للخليقة ويقر أن العباد كلهم تحت القضاء والقدر ، ويسلك هذه الحقيقة ، فلا يفرق بين المؤمنين والمتقين الذين أطاعوا أمر الله الذي بعث به رسله ، وبين من عصى الله ورسوله من الكفار والفجار ، فهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى . لكن من الناس من قد لحوا الفرق فى بعض الأمور دون بعض ، بحيث يفرق بين المؤمن والكافر ، ولا يفرق بين البر والفاجر أو يفرق بين بعض الأبرار ، وبين بعض الفجار ، ولا يفرق بين آخرين اتباعاً لظنه وما يهواه . فيكون ناقص الإيمان بحسب ما سوى بين الأبرار والفجار ، ويكون معه من الإيمان بدين الله تعالى الفارق بحسب ما فرق به بين أوليائه وأعدائه .

ومن أقر بالأمر والنهي الدينيين دون القضاء والقدر كان من القدرية كالمعتزلة وغيرهم الذين هم مجوس هذه الأمـة ، فهؤلاء يشبهون المجوس ، وأولئك يشبهون المشركين الذين هم شر من المجوس .

ومن أقر بهما وجعل الرب متناقضاً ، فهو من اتبــاع إبليس الذي اعترض على الرب سبحانه وخاصمه كما نقل ذلك عنه .

فهذا التقسيم فى القول والاعتقاد .

وكذلك هم في « الأحوال والأفعال » . فالصواب منهـا حالة المؤمن الذي يتقي الله فيفعل المأمور ، ويترك المحظور ، ويصبر على ما يصيبه من المقدور ، فهو عند الأمر والنهى والدين والشريعة ويستعين بالله على ذلك . كما قال تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

وإذا أذنب استغفر وتاب : لا يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات ، ولا يرى للمخلوق حجة عـلى رب الكائنات ، بل يؤمن بالقــدر ولا يحتج به ، كما فى الحديث الصحيح الذي فيه : « سيد الاستغفار أن يقول العبــد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبــدك ، وأنا على عهــدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي ، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » فيقر بنعمة

الله عليه فى الحسنات ، ويعلم أنه هو هداه ويسره لليسرى ، ويقر بذنوبه من السيئات ويتوب منها ، كما قال بعضهم : أطعتك بفضلك ، والمنة لك وعصيتك بعلمك ، والحجة لك ، فأسألك بوجوب حجتك علي وانقطاع حجتى ، إلا غفرت لي . وفى الحديث الصحيح الإلهي : « ياعبادي إنما هي أعمالكم ، أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ؛ فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

وهذا له تحقيق مبسوط فى غير هذا الموضع .

وآخرون قد يشهدون الأمر فقط : فتجدهم يجتهدون في الطاعة حسب الاستطاعة ؛ لكن ليس عندهم من مشاهدة القدر ما يوجب لهم حقيقة الاستعانة والتوكل والصبر . وآخرون يشهدون القدر فقط فيكون عندهم من الاستعانة والتوكل والصبر ما ليس عند أولئك ؛ لكنهم لا يلتزمون أمر الله ورسوله واتباع شريعته ، وملازمة ما جاء به الكتاب والسنة من الدين فهؤلاء يستعينون الله ولا يعبدونه ، والذين من قبلهم يريدون أن يعبدوه ولا يستعينوه ؛ والمؤمن يعبده ويستعينه ،

و « القسم الرابع » شر الأقسام ، وهو من لا يعبده ولا يستعينه ، فلا هو مع الشريعة الأمرية ؛ ولا مع القدر الكونى . وانقسامهم إلى هذه الأقسام هو فيما يكون قبل وقوع المقدور من توكل واستعانة ونحو

ذلك ؛ وما يكون بعده من صبر ورضا ونحو ذلـك . فهم فى التقوى وهي طاعة الأمر الديني ، والصبر على ما يقدر عليه من القدر الـكوني أربعة أقسام .

(أحدهـا) أهل التقوى والصـبر ، وهم الذين أنعم الله عليهم من أهـل السعادة في الدنيا والآخرة .

(والثانى) الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر ، مثل الذين يمتثلون ما عليهم من الصلاة ونحوها ، ويتركون المحرمات : لـكن إذا أصيب أحـدهم فى بدنه بمرض ونحوه أو فى ماله أو فى عرضـه ، أو ابتلي بعدو يخيفـه عظم جزعه ، وظهر هلعه .

و (الثالث) قوم لهم نوع من الصبر بلا تقوى ، مثل الفجار الذين يصبرون على ما يصيبهم فى مثل أهوائهم ، كاللصوص والقطاع الذين يصبرون على الآلام فى مثل ما يطلبونه من الغصب وأخذ الحرام ؛ والـكتاب وأهل الديوان الذين يصبرون على ذلك فى طلب ما يحصل لهم من الأموال بالخيانة وغيرها . وكذلك طلاب الرئاسة والعلو على غيرهم يصـبرون من ذلك على أنواع من الأذى التى لا يصبر عليها أكثر الناس ، وكذلك أهل المحبة للصور المحرمة من أهل العشق وغيرهم يصبرون فى مثل مـا يهوونه من المحرمـات على أنواع من الأذى والآلام . وهؤلاء هم الذين يريدون علواً في الأرض

أو فساداً من طلاب الرئاسة والعلو على الخلق ، ومن طلاب الأموال بالبغي والعدوان ، والاستمتاع بالصور المحرمة نظراً أو مباشرة وغير ذلك يصبرون على أنواع من المكروهات ، ولكن ليس لهم تقوى فيما تركوه من المأمور ، وفعلوه من المحظور ، وكذلك قد يصبر الرجل على ما يصيبه من المصائب : كالمرض والفقر وغير ذلك ، ولا يكون فيه تقوى إذا قدر .

(وأما القسم الرابع) فهو شر الأقسام : لا يتقون إذا قدروا ، ولا يصبرون إذا ابتلوا ؛ بل هم كما قال الله تعالى : (إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا) فهؤلاء تجدهم من أظلم الناس وأجبرهم إذا قدروا ، ومن أذل الناس وأجزعهم إذا قهروا . إن قهرتهم ذلوا لك ونافقوك ، وحابوك واسترحموك ودخلوا فيما يدفعون به عن أنفسهم من أنواع الكذب والذل وتعظيم المسؤول ، وإن قهروك كانوا من أظلم الناس وأقساهم قلباً ، وأقلهم رحمة وإحسانا وعفواً ، كما قد جربه المسلمون في كل من كان عن حقائق الإيمان أبعد : مثل التتار الذين قاتلهم المسلمون ومن يشبههم فى كثير من أمورهم . وإن كان متظاهراً بلباس جند المسلمين وعلمائهم وزهادهم وتجارهم وصناعهم ، فالاعتبار بالحقائق : « فإن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »

فمن كان قلبه وعمله من جنس قلوب التتار وأعمالهم كان شبيهاً لهم من هذا الوجه ، وكان ما معه من الإسلام أو ما يظهره منه بمنزلة ما معهم من الإسلام وما يظهرونه منه ، بل يوجد فى غير التتار المقاتلين من المظهرين للإسلام من هو أعظم ردة وأولى بالأخلاق الجاهلية ، وأبعد عن الأخلاق الإسلامية ، من التتار .

وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول فى خطبته « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » وإذا كان خير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ، فكل من كان إلى ذلك أقرب وهو به أشبه كان إلى الكمال أقرب ، وهو به أحق . ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه به أضعف ، كان عن الكمال أبعد ، وبالباطل أحق . والكامل هو من كان لله أطوع ، وعلى ما يصيبه أصبر . فكلما كان أتبع لما يأمر الله به ورسوله وأعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه ، وصبراً على ما قدره وقضاه ، كان أكمل وأفضل . وكل من نقص عن هذين كان فيه من النقص بحسب ذلك .

وقد ذكر الله تعالى « الصبر والتقوى » جميعاً فى غير موضع من كتابه وبين أنه ينتصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين ، وعلى من ظلمه من المسلمين ، ولصاحبه تكون العاقبة .

قال الله تعالى : (بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ) وقال الله تعالى : (لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ) وقال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) وقال إخوة يوسف له : (أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ) .

وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموما وخصوصاً فقال تعالى :

(وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ) .

وفي اتباع ما أوحي إليه التقوى كلها تصديقاً لخبر الله وطاعة لأمره وقال تعالى : (وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ

ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ * وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ)
وقال تعالى : (فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ
رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ) وقال تعالى : (فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ
مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ)
وقال تعالى : (وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ)
وقال تعالى : (ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ)
فهذه مواضع قرن فيها الصلاة والصبر .

وقرن بين « الرحمة والصبر » في مثل قوله تعالى : (وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ) . وفى الرحمة الإحسان إلى الخلق بالزكاة وغيرها ؛ فإن القسمة أيضا رباعية ، إذ من الناس من يصبر ولا يرحم كأهل القوة والقسوة ، ومنهم من يرحم ولا يصبر كأهل الضعف واللين : مثل كثير من النساء ، ومن يشبههن ، ومنهم من لا يصبر ولا يرحم كأهل القسوة والهلع . والمحمود هو الذي يصبر ويرحم ، كما قال الفقهاء في المتولي : ينبغي أن يكون قويا من غير عنف ، لينا من غير ضعف فبصبره يقوى ، وبلينه يرحم ، وبالصبر ينصر العبد ؛ فإن النصر مع الصبر ، وبالرحمة يرحمه الله تعالى . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » وقال : « من لا يرحم لا يرحم » وقال : « لا تنزع الرحمة إلا من شقي » وقال « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » . والله أعلم انتهى .

وسئل شيخ الإسلام

رحمه الله

عما ذكر الأستاذ القشيري فى (باب الرضا) عن الشيخ أبي سليمان أنه قال : الرضا ألا يسأل الله الجنـة ، ولا يستعيذ من النار . فهل هذا الكلام صحيـح ؟؟.

فأجاب : الحمـد لله رب العالمـين : الـكلام عـلى هـذا القول من وجهين :

(أحدهما) : من جهة ثبوته عن الشيـخ .

و (الثاني) من جهة صحته فى نفسه وفساده .

أما « المقام الأول » فينبغي أن يعلم أن الأستاذ أبا القاسم لم يذكر هذا عن الشيـخ أبي سليمان بإسناد ، وإنما ذكره مرسلا عنه ، وما يذكره أبو القاسم في رسالته عن النبي صـلى الله عليـه والصحابـة والتابعين والمشايخ وغيرهم . تارة يذكره بإسناد ، وتارة يذكره مرسلا ، وكثيراً ما يقول : وقيل كـذا ـ ثم الذي يذكره بإسناد تارة يكون إسناده

صحيحاً ، وتارة يكون ضعيفاً ؛ بل موضوعا . وما يذكره مرسلا ، ومحذوف القائل أولى ، وهذا كما يوجد ذلك فى مصنفات الفقهاء . فإن فيها من الأحاديث والآثار ماهو صحيح ، ومنها ماهو ضعيف ، ومنها ما هو موضوع .

فالموجود فى (كتب الرقائق والتصوف) من الآثار المنقولة فيها الصحيح وفيها الضعيف وفيها الموضوع . وهذا الأمر متفق عليه بين جميع المسلمين لا يتنازعون أن هذه الكتب فيها هذا وفيها هذا ؛ بل نفس الكتب المصنفة في « التفسير » فيها هذا وهذا ، مع أن أهل الحديث أقرب إلى معرفة المنقولات وفى كتبهم هذا وهذا فكيف غيرهم ؟! .

والمصنفون قد يكونون أئمة فى الفقه أو التصوف أو الحديث ويروون هذا تارة لأنهم لم يعلموا أنه كذب ، وهو الغالب على أهل الدين ؛ فإنهم لا يحتجون بما يعلمون أنه كذب ، وتارة يذكرونه وإن علموا أنه كذب ؛ إذ قصدهم رواية ماروي فى ذلك الباب ، ورواية الأحاديث المكذوبة مع بيان كونها كذبا جائز . وأما روايتها مع الإمساك عن ذلك رواية عمل فإنه حرام عند العلماء ، كما ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من حدث عني حديثاً وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » . وقد فعل كثير من العلماء

متأولين أنهم لم يكذبوا ، وإنما نقلوا ما رواه غيرهم وهذا يسهل إذ رووه لتعريف أنه روي لا لأجل العمل به ولا الاعتماد عليه .

و (المقصود هنا) أن مايوجد فى « الرسالة » وأمثالها : من كتب الفقهاء والصوفية وأهل الحديث من المنقولات عن النبي صلى الله عليه وسلم وغيره من السلف فيه : الصحيح والضعيف والموضوع . فالصحيح الذي قامت الدلالة على صدقه والموضوع الذي قامت الدلالة على كذبه ، والضعيف الذي رواه من لم يعلم صدقه ، إما لسوء حفظه وإما لا تهامه ، ولكن يمكن أن يكون صادقا فيه ؛ فإن الفاسق قد يصدق والغالط قد يحفظ .

وغالب أبواب « الرسالة » فيها الأقسام الثلاثة . ومن ذلك (باب الرضا) فإنه ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً » . وهذا الحديث رواه مسلم فى صحيحه ، وإن كان الأستاذ لم يذكر أن مسلماً رواه لكنه رواه ، بإسناد صحيح .

وذكر فى أول هذا الباب حديثاً ضعيفاً ــ بل موضوعا ــ وهو حديث جابر الطويل الذي رواه من حديث الفضل بن عيسى الرقاشي عن محمد بن المنكدر عن جابر ، فهو وإن كان أول حديث ذكره فى الباب

فإن أحاديث الفضل بن عيسى من أوهى الأحاديث وأسقطها ، ولا نزاع بين الأئمة أنه لا يعتمد عليها ولا يحتج بها ؛ فإن الضعف ظاهر عليها وإن كان هو لا يتعمد الكذب فإن كثيراً من الفقهاء لا يحتج بحديثهم لسوء الحفظ لا لاعتماد الكذب ، وهذا الرقاشي اتفقوا على ضعفه كما يعرف ذلك أئمة هـذا الشأن ؛ حتى قال أيوب السختياني : لو ولد أخرس لـكان خيراً له وقال سفيان بن عيينة : لا شيء وقال الإمام أحمـد والنسائي : هو ضعيف . وقال يحيى بن معـين : رجل سوء . وقال أبو حاتم وأبو زرعة : منكر الحديث .

وكذلك ما ذكره من الآثار ؛ فإنه قد ذكر آثاراً حسنة بأسانيد حسنة مثـل ما رواه عن الشيخ أبي سليمان الداراني أنـه قال : « إذا سلا العبد عن الشهوات فهو راض » فإن هذا رواه عن شيخه أبي عبد الرحمن السلمى بإسناده، والشيخ أبو عبد الرحمن كانت له عناية بجمع كلام هؤلاء المشايخ وحكاياتهم ، وصنف [فى] الأسماء (كتاب طبقات الصوفية) و (كتاب زهاد السلف) وغير ذلك ، وصنف في الأبواب (كتاب مقامات الأولياء) وغير ذلك ومصنفاته تشتمل على الأقسام الثلاثة .

وذكر عن الشيخ أبي عبد الرحمن أنـه قال سمعت النصر آبادي يقول : من أراد أن يبلغ محل الرضا فيلزم ما جعل الله رضاه فيـه ، فإن هذا الـكلام فى غاية الحسن ، فإنه من لزم ما يرضي الله من امتثال

أوامره واجتناب نواهيه لا سيما إذا قام بواجبها ومستحبها فإن الله يرضى عنه ، كما أن من لزم محبوبات الحق أحبه الله ، كما قال في الحديث الصحيح الذي فى البخاري : « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته » الحديث . وذلك أن الرضا نوعان :

(أحدها) الرضا بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه . ويتناول ما أباحه الله من غير تعد إلى المحظور ، كما قال : (وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ) وقال تعالى : (وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ)
وهذا الرضا واجب ؛ ولهذا ذم من تركه بقوله : (وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ * وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ) .

(والنوع الثاني) الرضا بالمصائب : كالفقر والمرض والذل فهذا الرضا مستحب فى أحد قولي العلماء ، وليس بواجب ، وقد قيل : إنه واجب ، والصحيح أن الواجب هو الصبر . كما قال الحسن : الرضا غريزة ، ولكن الصبر معول المؤمن . وقد روى في حديث ابن عباس

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن استطعت أن تعمل بالرضا مع اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً » .

وأما الرضا بالكفر والفسوق والعصيان : فالذي عليه أئمة الدين أنه لا يرضى بذلك ، فإن الله لا يرضاه كما قال : (وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ) وقال : (وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ) وقال تعالى : (فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ) وقال تعالى : (فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا) وقال : (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ) وقال تعالى : (وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ) وقال تعالى : (لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ) وقال تعالى : (فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ) فإذا كان الله سبحانه لا يرضى لهم ما عملوه بل يسخطه ذلك ، وهو يسخط عليهم ، ويغضب عليهم ، فكيف يشرع للمؤمن أن يرضى ذلك ألا يسخط ويغضب لما يسخط الله ويغضبه ؟!.

وإنما ضل هنا « فريقان » من الناس :

« قوم » من أهل الكلام المنتسبين إلى السنة فى مناظرة القدرية ظنوا أن محبة الحق ورضاه وغضبه وسخطه يرجع إلى إرادته ، وقد

علموا أنه مريد لجميع الكائنات خلافاً للقدرية . وقالوا : هو أيضاً محب لها مريد لها ، ثم أخذوا يحرفون الكلم عن مواضعه . فقالوا : لا يحب الفساد ، بمعنى لا يريد الفساد : أي لا يريده للمؤمنين ، ولا يرضى لعباده الكفر : أي لا يريده لعباده المؤمنين . وهذا غلط عظيم؛ فإن هذا عندهم بمنزلة أن يقال : لا يحب الإيمان ، ولا يرضى لعباده الإيمان : أي لا يريده للكافرين ، ولا يرضاه للكافرين ، وقد اتفق أهل الإسلام على أن ما أمر الله به فإنه يكون مستحباً يحبه . ثم قد يكون مع ذلك واجباً ، وقد يكون مستحباً ليس بواجب سواء فعل أو لم يفعل . والكلام على هذا مبسوط في غير هذا الموضع .

(والفريق الثاني) من غالطي المتصوفة شربوا من هذه العين : فشهدوا أن الله رب الكائنات جميعها ، وعلموا أنه قدر على كل شيء وشاءه ، وظنوا أنهم لا يكونون راضين حتى يرضوا بكل ما يقدره ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان ، حتى قال بعضهم : المحبة نار تحرق من القلب كل ما سوى مراد المحبوب . قالوا : والكون كله مراد المحبوب . وضل هؤلاء ضلالاً عظيما ، حيث لم يفرقوا بين الإرادة الدينية والكونية ، والإذن الكوني والديني والأمر الكوني والديني والبعث الكوني والديني ، والإرسال الكوني والديني . كما بسطناه في غير هذا الموضع .

وهؤلاء يؤول الأمر بهم إلى ألا يفرقوا بين المأمور والمحظور وأولياء الله وأعدائه ، والأنبياء والمتقين . ويجعلون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، ويجعلون المتقين كالفجار ، ويجعلون المسلمين كالمجرمين ، ويعطلون الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، والشرائع وربما سموا هذا « حقيقة » ولعمري إنه حقيقة كونية ، لكن هذه الحقيقة الكونية قد عرفها عباد الأصنام ، كما قال : (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) وقال تعالى : (قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) الآيات .

فالمشركون الذين يعبدون الأصنام كانوا مقرين بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ، فمن كان هذا منتهى تحقيقه كان أقرب أن يكون كعباد الأصنام .

و « المؤمن » إنما فارق الكفر بالإيمان بالله وبرسله ، وبتصديقهم فيما أخبروا ، وطاعتهم فيما أمروا ، واتباع ما يرضاه الله . ويحبه دون ما يقدره ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان ، ولكن يرضى بما أصابه من المصائب ، لا بما فعله من المعائب . فهو من الذنوب يستغفر . وعلى المصائب يصبر . فهو كما قال تعالى : (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ) فيجمع بين طاعة الأمر والصبر على المصائب . كما

قال تعالى : (وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا) وقال تعالى : (وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ) وقال يوسف : (إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ) .

و « المقصود هنا » : أن ما ذكره القشيري عن النصر آبادي من أحسن الكلام حيث قال : من أراد أن يبلغ محل الرضا فليلزم ما جعل الله رضاه فيه ، وكذلك قول الشيخ أبي سليمان : إذا سلا العبد عن الشهوات فهو راض ؛ وذلك أن العبد إنما يمنعه من الرضا والقناعة طلب نفسه لفضول شهواتها ، فإذا لم يحصل سخط ، فإذا سلا عن شهوات نفسه رضي بما قسم الله له من الرزق ، وكذلك ما ذكره عن الفضيل ابن عياض أنه قال لبشر الحافى : الرضا أفضل من الزهد فى الدنيا ؛ لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته ، كلام حسن . لكن أشك فى سماع بشر الحافى من الفضيل .

وكذلك ما ذكره معلقاً قال : قال الشبلي بين يدي الجنيد : لا حول ولا قوة إلا بالله . فقال الجنيد : قولك ذا ضيق صدر ، وضيق الصدر لترك الرضا بالقضاء . فإن هذا من أحسن الكلام . وكان الجنيد — رضي الله عنه — سيد الطائفة ، ومن أحسنهم تعليماً وتأديباً وتقويماً — وذلك أن هذه الكلمة كلمة استعانة ؛ لا كلمة استرجاع ، وكثير من الناس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع ، ويقولها جزعا لا صبراً . فالجنيد

أنكر على الشبلي حاله في سبب قوله لها ، إذ كانت حالاً ينافي الرضا ، ولو قالها على الوجه المشروع لم ينكر عليه .

وفيما ذكره آثار ضعيفة مثل ما ذكره معلقاً . (قال) وقيل : قال موسى : « إلهي ! دلني على عمل إذا عملته رضيت عني . فقال : إنك لا تطيق ذلك . فخر موسى ساجداً متضرعا ، فأوحى الله إليه : يا ابن عمران ! رضائي في رضاك عني » فهذه الحكاية الإسرائيلية فيها نظر ؛ فإنه قد يقال : لا يصلح أن يحكى مثلها عن موسى بن عمران . ومعلوم أن هذه الإسرائيليات ليس لها إسناد ، ولا يقوم بها حجة في شيء من الدين ، إلا إذا كانت منقولة لنا نقلا صحيحاً ، مثل ما ثبت عن نبينا أنه حدثنا به عن بني إسرائيل ، ولكن منه ما يعلم كذبه مثل هذه ؛ فإن موسى من أعظم أولي العزم ، وأكابر المسلمين ؛ فكيف يقال : إنه لا يطيق أن يعمل ما يرضى الله به عنه ؟! والله تعالى راض عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان . أفلا يرضى عن موسى بن عمران كليم الرحمن ؟! وقال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ * جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ)

ومعلوم أن موسى بن عمران عليه السلام من أفضل الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

ثم إن الله خص موسى بمزية فوق الرضا . حيث قال : (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ) . ثم إن قوله له في الخطاب : يا ابن عمران ! مخالف لما ذكره الله من خطابه فى القرآن حيث قال : ياموسى ، وذلك الخطاب فيه نوع غض منه كما يظهر . ومثل ما ذكر أنه قيل : كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبى موسى الأشعري أما بعد : فإن الخير كله فى الرضا فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر . فهذا الكلام كلام حسن . وإن لم يعلم إسناده .

وإذا تبين أن فيما ذكره مسنداً ومرسلا ومعلقاً ما هو صحيح وغيره . فهذه الكلمة لم يذكرها عن أبي سليمان إلا مرسلة . وبمثل ذلك لا تثبت عن أبي سليمان باتفاق الناس ؛ فإنه وإن قال بعض الناس: إن المرسل حجة ، فهذا لم يعلم أن المرسل هو مثل الضعيف وغير الضعيف . فأما إذا عرف ذلك فلا يبقى حجة باتفاق العلماء . كمن علم أنه تارة يحفظ الإسناد وتارة يغلط فيه .

والكتب المسندة فى أخبار هؤلاء المشايخ وكلامهم مثل كتاب (حلية الأولياء) لأبي نعيم و (طبقات الصوفية) لأبى عبد الرحمن و (صفوة الصفوة) لابن الجوزي . وأمثال ذلك لم يذكروا فيها هذه الكلمة عن الشيخ أبي سليمان . ألا ترى الذي رواه عنه مسنداً حيث قال : قال لأحمد بن أبى الحواري : يا أحمد ! لقد أوتيت من الرضا

نصيباً لو ألقاني فى النار لكنت بذلك راضياً . فهذا الكلام مأثور عن أبى سليمان بالإسناد ؛ ولهذا أسنده عنه القشيري من طريق شيخه أبى عبد الرحمن ؛ بخلاف تلك الكلمة فإنها لم تسند عنه . فلا أصل لها عن الشيخ أبى سليمان .

ثم إن القشيري قرن هذه الكلمة الثانية عن أبى سليمان بكلمة أحسن منها فإنه قبل أن يرويها قال : وسئل أبو عثمان الحيري النيسابوري عن قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أسألك الرضا بعد القضاء » فقال : لأن الرضا بعد القضاء هو الرضا . فهذا الذي قاله الشيخ أبو عثمان كلام حسن سديد . ثم أسند بعد هذا عن الشيخ أبي سليمان أنه قال : أرجو أن أكون قد عرفت طرفا من الرضا . لو أنه أدخلنى النار لكنت بذلك راضياً .

فتبين بذلك أن ما قاله أبو سليمان ليس هو رضا . وإنما هو عزم على الرضا ، وإنما الرضا ما يكون بعد القضاء ، وإن كان هذا عزماً فالعزم قد يدوم ، وقد ينفسخ ، وما أكثر انفساخ العزائم خصوصاً عزائم الصوفية ؛ ولهذا قيل لبعضهم : بماذا عرفت ربك ؟ قال : بفسخ العزائم ونقض الهمم . وقد قال تعالى لمن هو أفضل من هؤلاء المشايخ : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا

عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ * إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ) وفى الترمذي أن بعض الصحابة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : « لو علمنا أي العمل أحب إلى الله لعملناه فأنزل الله تعالى هذه الآية » وقد قال تعالى : (أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ) الآية .

فهؤلاء الذين كانوا قد عزموا على الجهاد وأحبوه لما ابتلوا به كرهوه وفروا منه ، وأين ألم الجهاد من ألم النار ؟ وعذاب الله الذي لا طاقة لأحد به ، ومثل هذا ما يذكرونه عن سمنون المحب أنه كان يقول :

وليس لي فى سواك حظ ... فكيفما شئت فاختبرني

فأخذه العسر من ساعته : أي حصر بوله ؛ فكان يدور على المكاتب ويفرق الجوز على الصبيان ويقول : ادعوا لعمكم الكذاب .

وحكى أبو نعيم الأصبهاني عن أبي بكر الواسطي أنه قال سمنون : يارب قد رضيت بكل ما تقضيه عليّ فاحتبس بوله أربعة عشر يوماً ؛ فكان يتلوى كما تتلوى الحية ، يتلوى يميناً وشمالاً ؛ فلما

أطلق بوله ؛ قال : رب قد تبت إليك . قال أبو نعيم : فهذا الرضا الذي ادعى سمنون ظهر غلطه فيه بأدنى بلوى ، مع أن سمنونا هذا كان يضرب به المثل ، وله فى المحبة مقام مشهور ، حتى روى عن إبراهيم ابن فاتك أنه قال : رأيت سمنونا يتكلم على الناس فى المسجد الحرام ، فجاء طائر صغير فلم يزل يدنو منه حتى جلس على يده ، ثم لم يزل يضرب بمنقاره الأرض حتى سقط منه دم ؛ ومات الطائر . وقال رأيته يوماً يتكلم فى المحبة فاصطفقت قناديل المسجد وكسر بعضها بعضاً .

وقد ذكر القشيري فى (باب الرضا) عن رويم المقرى رفيق سمنون حكاية تناسب هذا حيث قال : قال رويم : إن الراضى لو جعل جهنم عن يمينه ما سأل الله أن يحولها عن يساره ؛ فهذا يشبه قول سمنون : فكيف ما شئت فامتحني . وإذا لم يطق الصبر على عسر البول ؛ أفيطيق أن تكون النار عن يمينه ؟

والفضيل بن عياض كان أعلى طبقة من هؤلاء وابتلى بعسر البول فغلبه الألم حتى قال : بحبي لك إلا فرجت عني ؛ ففرج عنه .

و « رويم » وإن كان من رفقاء الجنيد فليس هو عندهم من هذه الطبقة ؛ بل الصوفية يقولون : إنه رجع إلى الدنيا وترك التصوف ؛ حتى روى عن جعفر الخلدي صاحب الجنيد أنه قال : من أراد أن يستكتم سراً

فليفعل . كما فعل رويم . كتم حب الدنيا أربعين سنة فقيل : وكيف يتصور ذلك ؟ قال : ولي إسماعيل بن إسحق القاضي قضاء بغداد وكان بينهما مودة أكيدة ؛ فجذبه إليه ، وجعله وكيلا على بابه فترك لبس التصوف ولبس الخز والقصب والديبقى وأكل الطيبات ، وبنى الدور ، وإذا هو كان يكتم حب الدنيا ما لم يجدها ، فلما وجدها أظهر ما كان يكتم من حبها . هذا مع أنه — رحمه الله — كان له من العبادات ما هو معروف وكان على مذهب داود .

وهذه الكلمات التى تصدر عن صاحب حال لم يفكر فى لوازم أقواله وعواقبها لا تجعل طريقة ولا تتخذ سبيلا ؛ ولكن قد يستدل بها على ما لصاحبها من الرضا والمحبة ، ونحو ذلك ، وما معه من التقصير في معرفة حقوق الطريق ، وما يقدر عليه من التقوى والصبر وما لا يقدر عليه من التقوى والصبر ، والرسل صلوات الله عليهم أعلم بطريق سبيل الله وأهدى وأنصح ، فمن خرج عن سنتهم وسبيلهم كان منقوصاً مخطئاً محروماً ، وإن لم يكن عاصياً أو فاسقاً أو كافراً .

ويشبه هذا : الأعرابي الذي دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وهو مريض كالفرخ فقال : « هل كنت تدعو الله بشيء ، قال : كنت أقول : اللهم ما كنت معذبنى به في الآخرة فاجعله فى الدنيا ، فقال : سبحان الله لا تستطيعه ولا تطيقه . هلا قلت : ربنا آتنا فى

الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار » فهذا أيضاً حمله خوفه من عذاب النار ، ومحبته لسلامة عاقبته على أن يطلب تعجيل ذلك فى الدنيا ، وكان مخطئاً فى ذلك غالطاً . والخطأ والغلط مع حسن القصد وسلامته ، وصلاح الرجل وفضله ودينه وزهده وورعه وكراماته كثير جداً ، فليس من شرط ولي الله أن يكون معصوماً من الخطأ والغلط ؛ بل ولا من الذنوب ، وأفضل أولياء الله بعد الرسل أبو بكر الصديق — رضي الله عنه — وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : له لما عبر الرؤيا « أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً » .

ويشبه — والله أعلم — أن أبا سليمان لما قال هذه الكلمة : — لو ألقاني فى النار لكنت بذلك راضياً — أن يكون بعض الناس حكاه بما فهمه من المعنى أنه قال : الرضا أن لا تسأل الله الجنة ، ولا تستعيذه من النار . وتلك الكلمة التى قالها أبو سليمان مع أنها لا تدل على رضاه بذلك ، ولكن تدل على عزمه بالرضا بذلك ، فنحن نعلم أن هذا العزم لا يستمر بل ينفسخ ، وإن هذه الكلمة كان تركها أحسن من قولها ؛ وأنها مستدركة ؛ كما استدركت دعوى سمنون ورويم وغير ذلك ؛ فإن بين هذه الكلمة وتلك فرقاً عظيما . فإن تلك الكلمة مضمونها : أن من سأل الله الجنة . واستعاذ من النار . لا يكون راضياً .

وفرق بين من يقول : أنا إذا فعل كذا كنت راضياً ، وبين

من يقول : لا يكون راضياً إلا من لا يطلب خيراً ، ولا يهرب من شر ؛ وبهذا وغيره يعلم أن الشيخ أبا سليمان كان أجل من أن يقول مثل هذا الكلام ، فإن الشيخ أبا سليمان من أجلاء المشايخ ، وساداتهم ومن أتبعهم للشريعة حتى إنه قال : إنه ليمر بقلبي النكتة من نكت القوم ، فلا أقبلها إلا بشاهدين : الكتاب والسنة . فمن لا يقبل نكت قلبه إلا بشاهدين ، يقول هذا مثل الكلام ؟!. وقال الشيخ أبو سليمان أيضاً : ليس لمن ألهم شيئاً من الخير أن يفعله ، حتى يسمع فيه بأثر فإذا سمع فيه بأثر كان نوراً على نور ؛ بل صاحبه أحمد بن أبي الحواري كان من أتبع المشايخ للسنة ، فكيف أبو سليمان ؟!

وتمام تزكية أبي سليمان من هذا الكلام تظهر بالكلام في « المقام الثانى » وهو قول القائل كائناً من كان : الرضا ألا تسأل الله الجنة ، ولا تستعيذه من النار .

ونقدم قبل ذلك مقدمة يتبين بها أصل ما وقع فى مثل هذه الكلمات من الاشتباه والاضطراب ، وذلك أن قوماً كثيراً من الناس : من المتفقهة والمتصوفة والمتكلمة ، وغيرهم ظنوا أن الجنة التنعم بالمخلوق من أكل وشرب ونكاح ولباس ، وسماع أصوات طيبة ، وشم روائح طيبة ولم يدخلوا في مسمى الجنة نعيما غير ذلك . ثم صاروا ضربين :

« ضرب » أنكروا أن يكون المؤمنون يرون ربهم . كما ذهب إلى ذلك الجهمية من المعتزلة وغيرهم .

« ومنهم » من أقر بالرؤية، إما الرؤية التى أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، وإما برؤية فسروها بزيادة كشف أو علم ، أو جعلها بحاسة سادسة ، ونحو ذلك من الأقوال التى ذهب إليها ضرار بن عمرو وطوائف من أهل الكلام المنتسبين إلى نصر أهل السنة فى مسألة الرؤية ، وإن كان ما يثبتونه من جنس ما تنفيه المعتزلة والضرارية . والنزاع بينهم لفظي ، ونزاعهم مع أهل السنة معنوي ؛ ولهذا كان بشر وأمثاله يفسرون الرؤية بنحو من تفسير هؤلاء .

و (المقصود هنا) أن مثبتة (الرؤية) منهم من أنكر أن يكون المؤمن ينعم بنفس رؤيته ربه ، قالوا : لأنه لا مناسبة بين المحدث والقديم كما ذكر ذلك الأستاذ أبو المعالي الجوينى فى « الرسالة النظامية » ، وكما ذكره أبو الوفاء بن عقيل في بعض كتبه ونقلوا عن ابن عقيل أنه سمع رجلا يقول : أسألك لذة النظر إلى وجهك . فقال : يا هذا هب أن له وجها ، أله وجه يتلذذ بالنظر إليه ؟! وذكر أبو المعالي : أن الله يخلق لهم نعيما ببعض المخلوقات مقارنا للرؤية ، فأما النعيم بنفس الرؤية فأنكره وجعل هذا من أسرار التوحيد .

وأكثر مثبتي الرؤية يثبتون تنعم المؤمنين برؤية ربهم ، وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها ، ومشايخ الطريق ، كما فى الحديث الذي في النسائى وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، اللهم إني أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيما لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك من غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة . اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين » وفى صحيح مسلم وغيره عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد ، ياأهل الجنة ! إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجز كموه ، فيقولون : ما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ؟ ويثقل موازيننا ؟ ويدخلنا الجنة ، ويجرنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب ؛ فينظرون إليه فما أعطاهم شيئاً أحب اليهم من النظر إليه » .

وكلما كان الشيء أحب كانت اللذة بنيله أعظم ، وهذا متفق عليه بين السلف والأئمة ومشايخ الطريق ، كما روى عن الحسن البصري أنه قال : لو علم العابدون بأنهم لا يرون ربهم فى الآخرة لذابت نفوسهم فى

الدنيا شوقا إليه ، وكلامهم فى ذلك كثير .

ثم هؤلاء الذين وافقوا السلف والأئمة والمشايخ على التنعم بالنظر إلى الله تعالى ، تنازعوا فى « مسألة المحبة » التى هي أصل ذلك ؛ فذهب طوائف من[1] والفقهاء إلى أن الله لا يُحَبُّ نَفْسُهُ ، وإنما المحبة محبة طاعته وعبادته ؛ وقالوا : هو أيضاً لا يحب عباده المؤمنين ؛ وإنما محبته إرادته للإحسان إليهم وولايتهم . ودخل فى هـذا القول من انتسب إلى نصر السنة مـن أهل الـكلام ، حتى وقع فيه طوائف من أصحاب مالك والشافعي وأحمـد : كالقاضي أبي بكر والقاضي أبي يعلى وأبى المعالي الجويني وأمثال هؤلاء .

وهذا فى الحقيقة شعبة من التجهم والاعتزال ؛ فإن أول من أنكر « المحبة » فى الإسلام الجعد بن درهم ، أستاذ الجهم بن صفوان ؛ فضحى به خالد بن عبد الله القسري . وقال : أيهـا الناس ، ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فإنى مضـح بالجعد بن درهم ، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ؛ ولم يكلم موسى تكليما ثم نزل فذبحه .

والذي دل عليه الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ومشايخ الطريق : أن الله يحب ويحب . ولهذا وافقهم على ذلك من تصوف مـن

---

(١) بياض بالأصل .

أهل الكلام : كأبى القاسم القشيري ؛ وأبى حامد الغزالي ، وأمثالهما . ونصر ذلك أبو حامد فى « الإحياء » وغيره . وكذلك أبو القاسم ذكر ذلك فى « الرسالة » على طريق الصوفية كما فى كتاب أبى طالب المسمى بـ « قوت القلوب » وأبو حامد مع كونه تابع فى ذلك الصوفية ، استند فى ذلك لما وجده من كتب الفلاسفة من إثبات نحو ذلك حيث قالوا : يعشق ويعشق .

وقد بسط الكلام على هذه المسألة العظيمة فى القواعد الكبار بما ليس هذا موضعه . وقد قال تعالى : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) وقال تعالى (وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) وقال : (أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ) وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » .

و (المقصود هنا) أن هؤلاء المتجهمة من المعتزلة ومن وافقهم الذين ينكرون حقيقة المحبة يلزمهم أن ينكروا التلذذ بالنظر إليه ، ولهذا ليس فى الحقيقة عندهم إلا التنعم بالأكل والشرب ، ونحو ذلك . وهذا القول باطل بالكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة ومشايخها ، فهذا أحد الحزبين الغالطين .

و **(الضرب الثاني)** : طوائف من المتصوفة والمتفقرة والمتبتلة :

وافقوا هؤلاء على أن الجنة ليست إلا هذه الأمور التى يتنعم بها المخلوق ؛ ولكن وافقوا السلف والأئمة على إثبات رؤية الله والتنعم بالنظر إليه ، وأصابوا فى ذلك وجعلوا يطلبون هذا النعيم ، وتسمو إليه همتهم ، ويخافون فوته ، وصار أحدهم يقول : ما عبدتك شوقا إلى جنتك ، أو خوفا من نارك ، ولكن لأنظر إليك وإجلالاً لك . وأمثال هذه الكلمات . مقصودهم بذلك : هو أعلى من الأكل والشرب والتمتع بالمخلوق ، لكن غلطوا في إخراج ذلك من الجنة . وقد يغلطون أيضاً في ظنهم أنهم يعبدون الله بلا حظ ولا إرادة ، وأن كل مايطلب منه فهو حظ النفس . وتوهموا أن البشر يعمل بلا إرادة ولا مطلوب ولا محبوب، وهو سوء معرفة بحقيقة الإيمان والدين والآخرة .

وسبب ذلك أن همة أحدهم المتعلقة بمطلوبه ومحبوبه ومعبوده تفنيه عن نفسه ، حتى لا يشعر بنفسه وإرادتها ، فيظن أنه يفعل لغير مراده ، والذي طلب وعلق به همته غاية مراده ومطلوبه ومحبوبه ، وهذا كحال كثير من الصالحين والصادقين ، وأرباب الأحوال والمقامات يكون لأحدهم وجد صحيح ، وذوق سليم ، لكن ليس له عبارة تبين كلامه ، فيقع فى كلامه غلط وسوء أدب ، مع صحة مقصوده ؛ وإن كان من الناس من يقع منه فى مراده واعتقاده .

فهؤلاء الذين قالوا مثل هذا الكلام : إذا عنوا به طلب رؤية الله

تعالى أصابوا فى ذلك ؛ لكن أخطأوا من جهة أنهم جعلوا ذلك خارجا عن الجنة ، فأسقطوا حرمة اسم الجنة ، ولزم من ذلك أمور منكرة ؛ نظير ما ذكر عن الشبلي رحمه الله أنه سمع قارئاً يقرأ :(مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ) . فصرخ وقال أين مريد الله ؟. فيحمد منه كونه أراد الله ؛ ولكن غلط فى ظنه أن الذين أرادوا الآخرة ما أرادوا الله ؛ وهذه الآية فى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين كانوا معه بأحد ، وهم أفضل الخلق ، فإن لم يريدوا الله ، أفيريد الله من هو دونهم ، كالشبلي ، وأمثاله ؟!.

ومثل ذلك ما أعرفه عن بعض المشايخ أنه سأل مرة عن قوله تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ) قال : فإذا كانت الأنفس والأموال في ثمن الجنة ، فالرؤية بم تنال ؟ فأجابه مجيب بما يشبه هذا السؤال .

والواجب أن يعلم أن كل ما أعده الله للأولياء من نعيم بالنظر إليه وما سوى ذلك هو فى الجنة ، كما أن كل ما وعد به أعداءه هو فى النار . وقد قال تعالى : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) وفي الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم « يقول الله : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر بله ما أطلعتهم عليه » وإذا علم أن

جميع ذلك داخل فى الجنة . فالناس فى الجنة على درجات متفاوتة كما قال : (ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) وكل مطلوب للعبد بعبادة أو دعاء أو غير ذلك من مطالب الآخرة هو فى الجنة .

وطلب الجنة والاستعاذة من النار طريق أنبياء الله ورسله ، وجميع أوليائه السابقين المقربين ، وأصحاب اليمين . كما فى السنن أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل بعض أصحابه : « كيف تقول : فى دعائك ؟ قال : أقول : اللهم إنى أسألك الجنة ، وأعوذ بك من النار ؛ أما إنى لا أحسن دندنتك ، ولا دندنة معاذ . فقال : حولها ندندن » فقد أخبر أنه هو صلى الله عليه وسلم ومعاذ — وهو أفضل الأئمة الراتبين بالمدينة فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم — إنما يدندنون حول الجنة ، أفيكون قول أحد فوق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاذ ، ومن يصلي خلفها من المهاجرين والأنصار ؟! ولو طلب هذا العبد ما طلب كان فى الجنة .

وأهل الجنة نوعان : سابقون مقربون ، وأبرار أصحاب يمين . قال تعالى : (كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ

وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ * وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ) قال ابن عباس تمزج لأصحاب اليمين مزجاً ويشربها المقربون صرفاً .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علي ، فإنه من صلى علي مرة صلى الله عليه عشراً ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلة ، حلت عليه شفاعتى يوم القيامة » فقد أخبر أن الوسيلة — التى لا تصلح إلا لعبد واحد من عباد الله ، ورجا أن يكون هو ذلك العبد — هي درجة فى الجنة ، فهل بقي بعد الوسيلة شيء أعلى منها يكون خارجاً عن الجنة ، يصلح المخلوقين ؟ ! .

وثبت فى الصحيح أيضاً فى حديث الملائكة الذين يلتمسون الناس فى مجالس الذكر قال : « فيقولون للرب تبارك وتعالى : وجدناهم يسبحونك ويحمدونك ويكبرونك . قال : فيقول : وما يطلبون ؟ قالوا : يطلبون الجنة . قال : فيقول : وهل رأوها ؟ قال : فيقولون : لا ، قال : فيقول : فكيف لو رأوها ؟ ! قال : فيقولون : لو رأوها لكانوا أشد لها طلباً . قال : ومم يستعيذون ؟ ! قالوا : يستعيذون من النار . قال : فيقول : وهل رأوها ؟ ! قال : فيقولون : لا . قال : فيقول :

فكيف لو رأوها ؟ قالوا : لو رأوها لكانوا أشد منها استعاذة . قال : فيقول : أشهدكم أني أعطيتهم ما يطلبون ، وأعذتهم مما يستعيذون ــ أو كما قال ــ قال : فيقولون : فيهم فلان الخطاء جاء لحاجة فجلس معهم ، قال : فيقول : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » . ــ فهؤلاء الذين هم من أفضل أولياء الله كان مطلوبهم الجنة ، ومهربهم من النار .

والنبي صلى الله عليه وسلم لما بايع الأنصار ليلة العقبة ، وكان الذين بايعوه من أفضل السابقين الأولين الذين هم أفضل من هؤلاء المشايخ كلهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم اشترط لربك ولنفسك ولأصحابك قال : « أشترط لنفسي أن تنصروني مما تنصرون منه أنفسكم وأهليكم وأشترط لأصحابي أن تواسوهم . قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : لكم الجنة . قالوا : مد يدك فوالله لا نقيلك ، ولا نستقيلك » . وقد قالوا له فى أثناء البيعة « إن بيننا وبين القوم حبالاً وعهوداً وإنا ناقضوها » .

فهؤلاء الذين [بايعوه] من أعظم خلق الله محبة لله ورسوله ، وبذلاً لنفوسهم وأموالهم فى رضا الله ورسوله ، على وجه لا يلحقهم فيه أحد من هؤلاء المتأخرين ، قد كان غاية ما طلبوه بذلك الجنة ، فلو كان هناك مطلوب أعلى من ذلك لطلبوه ، ولكن علموا أن فى الجنة كل محبوب ومطلوب ؛ بل وفى الجنة ما لا تشعر به النفوس لتطلبه ، فإن

الطلب والحب والإرادة فرع عن الشعور والإحساس والتصور ، فما لا يتصوره الإنسان ولا يحسه ولا يشعر به يمتنع أن يطلبه ويحبه ويريده فالجنة فيها هذا وهذا . كما قال تعالى : (لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) وقال : (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ) ففيها ما يشتهون ، وفيها مزيد على ذلك ، وهو ما لم يبلغه علمهم ليشتهوه . كما قال صلى الله عليه وسلم : « ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وهذا باب واسع .

فإذا عرفت هذه « المقدمة » فقول القائل : الرضا ألا تسأل الله الجنة ، ولا تستعيذه من النار ، إن أراد بذلك ألا تسأل الله ما هو داخل فى مسمى الجنة الشرعية ، فلا تسأله النظر إليه ، ولا غير ذلك مما هو مطلوب جميع الأنبياء والأولياء ، وإنك لا تستعيذ به من احتجابه عنك ، ولا من تعذيبك فى النار . فهذا الكلام مع كونه مخالفاً لجميع الأنبياء والمرسلين ، وسائر المؤمنين ، فهو متناقض فى نفسه ، فاسد فى صريح العقول . وذلك أن الرضا الذي لا يسأل ، إنما لا يسأله لرضاه عن الله . ورضاه عنه إنما هو بعد معرفته به ، ومحبته له . وإذا لم يبق معه رضا عن الله ولا محبة لله فكأنه قال : يرضى ألا يرضى وهذا جمع بين النقيضين . ولا ريب أنه كلام من لم يتصور ما يقول ، ولا عقله . يوضح ذلك أن الراضي إنما يحمله على احتمال المكاره والآلام

ما يجده من لذة الرضا وحلاوته . فإذا فقد تلك الحلاوة واللذة امتنع أن يتحمل ألما ومرارة ، فكيف يتصور أن يكون راضياً ، وليس معه من حلاوة الرضا ما يحمل به مرارة المكاره ؟ وإنما هذا من جنس كلام السكران والفانى الذي وجد فى نفسه حلاوة الرضا ، فظن أن هذا يبقى معه على أي حال كان ، وهذا غلط عظيم منه : كغلط سمنون كما تقدم .

وإن أراد بذلك أن لا يسأل التمتع بالمخلوق ، بل يسأل ما هو أعلى من ذلك ؛ فقد غلط من وجهين :

من جهة أنه لم يجعل ذلك المطلوب من الجنة وهو أعلى نعيم الجنة .

ومن جهة أنه أيضاً أثبت أنه طالب مع كونه راضياً ، فإذا كان الرضا لا ينافى هذا الطلب ، فلا ينافى طلباً آخر إذا كان محتاجاً إلى مطلوبه ؛ ومعلوم أن تمتعه بالنظر لا يتم إلا بسلامته من النار ، وبتنعمه من الجنة بما هو دون النظر . وما لايتم المطلوب إلا به فهو مطلوب ؛ فيكون طلبه للنظر طلباً للوازمه التى منها النجاة من النار ، فيكون رضاه لا ينافى طلب حصول المنفعة ودفع المضرة عنه ، ولا طلب حصول الجنة ودفع النار ولا غيرهما مما هو من لوازم النظر ، فتبين تناقض قوله .

و (أيضاً) فإذا لم يسأل الله الجنة ، ولم يستعذ به من النار ، فإما أن يطلب من الله ما هو دون ذلك مما يحتاج إليه من طلب منفعة ودفع مضرة . وإما ألا يطلبه ، فإن طلب ما هو دون ذلك واستعاذ مما هو دون ذلك فطلبه للجنة أولى ، واستعاذته من النار أولى . وإن كان الرضا ان لا يطلب شيئاً قط ، ولو كان مضطراً إليه ، ولا يستعيذ من شيء قط وإن كان مضراً ، فلا يخلو : إما أن يكون ملتفتاً بقلبه إلى الله في أن يفعل به ذلك ، وإما أن يكون معرضاً عن ذلك ، فإن التفت بقلبه إلى الله فهو طالب مستعيذ بحاله ، ولا فرق بين الطلب بالحال والقال . وهو بهما أكمل وأتم فلا يعدل عنه .

وإن كان معرضاً عن جميع ذلك ، فمن المعلوم أنه لا يحيا ويبقي إلا بما يقيم حياته ، ويدفع مضاره بذلك . والذي به يحيا من المنافع ودفع المضار ، أما أن يحبه ويطلبه ويريده من أحد ، أو لا يحبه ولا يطلبه ولا يريده . فإن أحبه وطلبه وأراده من غير الله كان مشركا مذموماً ، فضلاً عن أن يكون محموداً . وإن قال لا أحبه وأطلبه وأريده لا من الله ولا من خلقه . قيل : هذا ممتنع فى الحي ، فإن الحي ممتنع عليه ألا يحب ما به يبقى ، وهذا أمر معلوم بالحس ، ومن كان بهذه المثابة امتنع أن يوصف بالرضا ، فإن الراضي موصوف بحب وإرادة خاصة ، إذ الرضا مستلزم لذلك . فكيف يسلب عنه ذلك كله

فهذا وأمثاله مما يبين فساد هذا الكلام .

وأما فى سبيل الله وطريقه ودينه فمن وجوه :

(أحدها) أن يقال الراضي لا بد أن يفعل ما يرضاه الله ، وإلا فكيف يكون راضياً عن الله من لا يفعل ما يرضاه الله ؟ وكيف يسوغ رضا ما يكرهه الله ويسخطه ويذمه ، وينهى عنه .

وبيان هذا : أن الرضا المحمود : إما أن يكون الله يحبه ويرضاه وإما ألا يحبه ويرضاه ، فإن لم يكن يحبه ويرضاه لم يكن هذا الرضا مأموراً به ، لا أمر إيجاب ولا أمر استحباب ؛ فإن من الرضا ما هو كفر ، كرضا الكفار بالشرك ، وقتل الأنبياء وتكذيبهم ، ورضاهم بما يسخطه الله ويكرهه . قال تعالى : (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ) فمن اتبع ما أسخط الله برضاه وعمله فقد أسخط الله . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الخطيئة إذا عملت فى الأرض كان من غاب عنها ورضيها كمن حضرها ، ومن شهدها وسخطها كان كمن غاب عنها وأنكرها » . وقال صلى الله عليه وسلم « سيكون بعدي أمراء تعرفون وتنكرون ، فمن أنكر فقد برئ ، ومن كره فقد سلم ولكن من رضي وتابع هلك » . وقال تعالى : (يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ

لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ) فرضانا عن القوم الفاسقين ليس مما يحبه الله ويرضاه ، وهو لا يرضى عنهم . وقال تعالى : (أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ) فهذا رضا قد ذمه الله . وقال تعالى (إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا) فهذا أيضا رضا مذموم ، وسوى هذا وهذا كثير .

فمن رضي بكفره و كفر غيره وفسقه وفسق غيره ومعاصيه ومعاصي غيره فليس هو متبعاً لرضا الله ولا هو مؤمن بالله . بل هو مسخط لربه ، وربه غضبان عليه ، لاعن له ، ذام له ، متوعد له بالعقاب .

وطريق الله التي يأمر بها المشايخ المهتدون : إنما هي الأمر بطاعة الله والنهى عن معصيته . فمن أمر أو استحب أو مدح الرضا الذي يكرهه الله ويذمه وينهى عنه ويعاقب أصحابه فهو عدو لله لا ولى لله وهو يصد عن سبيل الله وطريقه ، ليس بسالك لطريقه وسبيله . وإذا كان الرضا الموجود فى بني آدم منه ما يحبه الله ، ومنه ما يكرهه ويسخطه ومنه ماهو مباح لا من هذا ولا من هذا ، كسائر أعمال القلوب من الحب والبغض وغير ذلك : كلها تنقسم إلى محبوب لله ومكروه لله مباح .

فإذا كان الأمر كذلك فالراضي الذي لا يسأل الله الجنة ولا يستعيذه من النار يقال له : سؤال الله الجنة واستعاذته من النار إما أن تكون واجبة ، وإما أن تكون مستحبة ، وإما أن تكون مباحـــة ، وإما أن تكون مكروهة ، ولا يقول مسلم : أنها محرمة ولا مكروهة ، وليست أيضاً مباحة مستوية الطرفين . ولو قيل : إنها كذلك ففعل المباح المستوى الطرفين لا ينافى الرضا ؛ إذ ليس من شرط الراضى ألا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يفعل أمثال هذه الأمور . فإذا كان ما يفعله من هـــذه الأمور لا ينافي رضـاه ، أينافى رضاه دعاء وسؤال هو مباح ؟ ! . وإذا كان السؤال والدعاء كذلك واجبـاً أو مستحباً فمعـلوم أن الله يرضى بفعـل الواجبات والمستحبات ، فكيف يكون الراضي الذي من أولياء الله لا يفعل ما يرضاه ويحبه ؛ بل يفعل ما يسخطه ويكرهه وهذه صفة أعداء الله لا أولياء الله .

والقشيري قـد ذكره فى أوائـل (باب الرضا) فقال : اعـلم أن الواجب على العبد أن يرضى بقضاء الله الذي أمر بالرضا بـه ، إذ ليس كل ماهو بقضائه يجوز للعبد أو يجب على العبد الرضا به . كالمعاصي وفنون محن المسلمين . وهـذا الذي قاله ، قاله قبله وبعده ومعه غـير واحد من العلماء : كالقاضي أبى بكر ، والقاضي أبي يعلى وأمثالهما . لما احتج عليهم القدرية بأن الرضا بقضاء الله مأمور به ، فـلو كانت المعاصي

بقضاء الله لكنا مأمورين بالرضا بها ، والرضا بما نهى الله عنه لا يجوز فأجابهم أهل السنة عن ذلك بثلاثة أجوبة :

(أحدها) — وهو جواب هؤلاء وجماهير الأئمة — أن هذا العموم ليس بصحيح ، فلسنا مأمورين أن نرضى بكل ما قضى وقدر ، ولم يجئ فى الكتاب والسنة أمر بذلك ، ولكن علينا أن نرضى بما أمرنا أن نرضى به ، كطاعة الله ورسوله . وهذا هو الذي ذكره أبو القاسم .

(والجواب الثاني) أنهم قالوا : إنا نرضى بالقضاء الذي هو صفة الله أو فعله لا بالمقضي الذي هو مفعوله . وفي هذا الجواب ضعف قد بيناه فى غير هذا الموضع .

(الثالث) أنهم قالوا : هذه المعاصي لها وجهان : وجه إلى العبد من حيث هي فعله وصنعه وكسبه ، ووجه إلى الرب من حيث هو خلقها وقضاها وقدرها ، فيرضى من الوجه الذي يضاف به إلى الله ، ولا يرضى من الوجه الذي يضاف به إلى العبد ، إذ كونها شراً وقبيحة ومحرما وسبباً للعذاب والذم ونحو ذلك إنما هو من جهة كونها مضافة إلى العبد . وهذا مقام فيه من كشف الحقائق والأسرار ماقد ذكرنا منه ما قد ذكرناه فى غير هذا الموضع ؛ ولا يحتمله هذا المكان . فإن

هذا متعلق بمسائل « الصفات والقدر » وهي من أعظم مطالب الدين وأشرف علوم الأولين والآخرين وأدقها على عقول أكثر العالمين .

والمقصود هنا أن مشايخ الصوفية والعلماء وغيرهم قد بينوا أن من الرضا ما يكون جائزاً ، ومنه مالا يكون جائزاً فضلا عن كونه مستحباً او من صفات المقربين ، وأن أبا القاسم ذكر ذلك فى « الرسالة » أيضاً .

(فإن قيل) : هذا الذي ذكرتموه أمر بين واضح ، فمن أين غلط من قال : الرضا ألا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار ؟ وغلط من يستحسن مثل هذا الكلام كائنا من كان ؟ .

(قيل) : غلطوا فى ذلك لأنهم رأوا أن الراضي بأمر لا يطلب غير ذلك الأمر ، فالعبد إذا كان فى حال من الأحوال فمن رضاه ألا يطلب غير تلك الحال ، ثم إنهم رأوا أن أقصى المطالب الجنة ، وأقصى المكاره النار . فقالوا : ينبغي ألا يطلب شيئاً ولو أنه الجنة ولا يكره ما يناله ، ولو أنه النار ، وهذا وجه غلطهم . ودخل عليهم الضلال من وجهين :

(أحدهما) : ظنهم أن الرضا بكل ما يكون أمر يحبه الله ويرضاه

وأن هذا من أعظم طرق أولياء الله ، فجعلوا الرضا بكل حادث وكائن أو بكل حال يكون فيها للعبد طريقاً إلى الله ، فضلوا ضـلالاً مبينا . والطريق إلى الله إنما هي أن ترضيه بأن تفعل مايحبه ويرضاه ليس أن ترضى بكل ما يحدث ويكون ، فإنه هو لم يأمرك بذلك ولا رضيه لك ولا أحبه ؛ بل [هو] سبحانه يكره ويسخط ويبغض على أعيان أفعال موجودة لا يحصيها إلا هو . وولاية الله موافقتـه بأن تحب ما يحب وتبغض ما يبغض ، وتكره مايكره ، وتسخط مـا يسخط ، وتوالي من يوالى ، وتعادي من يعادي . فإذا كنت تحب وترضى ما يكرهه ويسخطه كنت عـدوه لا وليـه ، وكان كل ذم نال من رضي ما أسخط الله قد نالك .

فتدبر هذا ؛ فإنه ينبه على أصل عظيم ضل فيه من طوائف النساك والصوفية والعباد والعامة من لا يحصيهم إلا الله .

(الوجه الثاني) : أنهم لا يفرقون بـين الدعاء الذي أمروا به أمر إيجاب ، وأمر استحباب ، وبـين الدعاء الذي نهوا عنـه ، أو لم يؤمروا بـه ولم ينهوا عنـه ، فإن دعاء العبـد لربـه ومسألته إياه ثلاثة أنواع :

« نوع » أمر العبد به إمـا أمر إيجاب وإما أمر استحباب : مثل

قوله (ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ) ومثل دعائـه في آخر الصلاة كالدعاء الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر به أصحابه فقال : « إذا قعد أحدكم في الصلاة فليستعذ بالله من أربع : من عـذاب جهنم ، وعذاب القبر ، وفتنة المحيا والممات ، وفتنة المسيح الدجال » . فهـذا دعاء أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعوا بـه في آخر صلاتهم . وقد اتفقت الأمة على أنه مشروع يحبه الله ورسوله ويرضاه ، وتنازعوا في وجوبه . فأوجبه طاووس وطائفة ، وهـو قول في مذهب أحمـد رضي الله عنه والأكثرون قالوا : هـذا مستحب ، والأدعيـة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بها : لا تخرج عن أن تكون واجبـة ، أو مستحبة ، وكل واحد من الواجب والمستحب يحبه الله ويرضاه . ومن فعله رضي الله عنه وأرضاه ، فهل يكون من الرضا ترك ما يحبه ويرضاه ؟!.

و « نوع من الدعاء » ينهى عنه : كالاعتداء مثل أن يسأل الرجل مالا يصلح من خصائص الأنبيـاء ، وليس هو بنبي ، وربمـا هو من خصائص الرب سبحانه وتعالى . مثل أن يسأل لنفسه الوسيلة التي لا تصلح إلا لعبد من عباده ، أو يسأل الله تعالى أن يجعله بكل شيء عليما ، أو على كل شيء قدير ، وأن يرفع عنه كل حجاب يمنعه من مطالعة الغيوب . وأمثال ذلك ، أو مثل من يدعوه ظانا أنـه محتاج إلى عبـاده ؛ وأنهم يبلغون ضره ونفعه فيطلب منه ذلك الفعل . ويذكر أنـه إذا لم يفعله

حصل له من الخلق ضير . وهذا ونحوه جهل بالله واعتداء فى الدعاء ، وإن وقع فى ذلك طائفة من الشيوخ . ومثل أن يقولوا : اللهم اغفر لي إن شئت ، فيظن أن الله قد يفعل الشيء مكرها ، وقد يفعل مختاراً . كالملوك فيقول : اغفر لي إن شئت ، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : « لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، ولكن ليعزم المسألة فإن الله لا مكره له » ومثل أن يقصد السجع في الدعاء ويتشهق ويتشدق ، وأمثال ذلك فهذه الأدعية ونحوها منهى عنها .

ومن الدعاء ماهو مباح كطلب الفضول التى لامعصية فيها .

و (المقصود) أن الرضا الذي هو من طريق الله لا يتضمن ترك واجب ولا ترك مستحب ، فالدعاء الذي هو واجب أو مستحب لا يكون تركه من الرضا ؛ كما أن ترك سائر الواجبات لا يكون من الرضا المشروع ، ولا فعل المحرمات من المشروع . فقد تبين غلط هؤلاء من جهة ظنهم أن الرضا مشروع بكل مقدور ، ومن جهة أنهم لم يميزوا بين الدعاء المشروع إيجابا ، واستحبابا ، والدعاء غير المشروع .

وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن طلب الجنة من الله ، والاستعاذة به من النار ، هو من أعظم الأدعية المشروعة لجميع المرسلين

والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وأن ذلك لا يخرج عن كونه واجباً أو مستحبا ، وطريق أوليــاء الله التى يسلكونها لا تخرج عن فعل واجبات ومستحبات ، إذ ما سوى ذلك محرم أو مكروه أو مباح لا منفعة فيه فى الدين .

ثم إنه لما أوقع هؤلاء فى هذا الغلط أنهم وجدوا كثيراً من الناس لا يسألون الله جلب المنافــع ، ودفــع المضار ، حــتى طلب الجنــة ، والاستعاذة من النار من جهة كون ذلك عبادة وطاعة وخيراً ؛ بل من جهة كون النفس تطلب ذلك ، فرأوا أن من الطريق ترك ما تختــاره النفس وتريده ، وألا يكون لأحدهم إرادة أصلا ؛ بل يكون مطلوبه الجريان تحت القدر ـــ كائناً من كان ـــ وهذا هو الذي أدخل كثيراً منهم فى الرهبانيــة ، والخروج عن الشريعــة ، حتى تركوا من الأكل والشرب واللباس والنكاح ما يحتاجون إليه ، وما لا تتم مصلحة دينهــم إلا به ؛ فإنهم رأوا العامة تعد هذه الأمور بحكم الطبع والهوى والعادة ، ومعلوم أن الأفعال التى على هذا الوجه لا تكون عبادة ولا طاعة ولا قربــة فرأى أولئــك الطريق إلى الله ترك هــذه العبادات ، والأفعال الطبعيات ، فلازموا من الجوع والسهر والخلوة والصمت وغــير ذلك ممــا فيــه ترك الحظوظ واحتمال المشاق ، ما أوقعهم في ترك واجبــات ومستحبات ، وفعل مكروهات ومحرمات .

وكلا الأمرين غير محمود ، ولا مأمور بـه ، ولا طريق إلى الله : طريق المفرطين الذين فعلوا هذه الأفعال المحتاج إليهـا على غـير وجه العبادة ، والتقرب إلى الله ، وطريق المعتدين الذين تركوا هذه الأفعال ؛ بل المشروع أن تفعل بنيـة التقرب إلى الله ، وأن يشكر الله . قال الله تعالى : (كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا) وقال تعالى : (كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ) فأمر بالأكل والشرب ، فمن أكل ولم يشكر كان مذمومـاً ، ومن لم يأكل ولم يشـكر كان مذموما ، وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليـه وسلم أنـه قال : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليهـا ، ويشرب الشربـة فيحمده عليها » . وقال النبي صـلى الله عليه وسلم لسعد : « إنـك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعـة ، حتى اللقمة تضعها فى فى امرأتك » وفى الصحيح أيضاً أنه قال : « نفقة المؤمن عـلى أهـله يحتسبها صدقة » . فكذلك الأدعية هنا من الناس من يسأل الله جلب المنفعة له ودفـع المضرة عنـه طبعاً وعادة لا شرعا وعبـادة ، فليس من المشروع أن أدع الدعاء مطلقاً لتقصير هـذا وتفريطه ؛ بـل أفعله أنـا شرعا وعبادة .

ثم اعلم أن الذي يفعله شرعا وعبادة إنما يسعى فى مصلحة نفسـه وطلب حظوظـه المحمودة فهو يطلب مصلحة دنياه وآخرته ؛ بخـلاف

الذي يفعله طبعاً فإنه إنما يطلب مصلحة دنياه فقط ، كما قال تعالى (فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ * أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ) وحينئذ فطالب الجنة والمستعيذ من النار إنما يطلب حسنة الآخرة فهو محمود .

ومما يبين الأمر فى ذلك أن يرد قول هؤلاء بأن العبد لا يفعل مأموراً ولا يترك محظوراً ، فلا يصلي ولا يصوم ولا يتصدق ، ولا يحج ولا يجاهد ولا يفعل شيئاً من القربات ، فإن ذلك إنما فائدته حصول الثواب ودفع العقاب . فإذا كان هو لا يطلب حصول الثواب الذي هو الجنة ، ولا دفع العقاب الذي هو النار ، فلا يفعل مأموراً ، ولا يترك محظوراً ، ويقول أنا راض بكل ما يفعله بي وإن كفرت وفسقت وعصيت ؛ بل يقول : أنا أكفر وأفسق وأعصي حتى يعاقبني وأرضى بعقابه فأنال درجة الرضا بقضائه ، وهذا قول من [هو من] أجهل الخلق وأحمقهم وأضلهم وأكفرهم .

أما جهله وحمقه ، فلأن الرضا بذلك ممتنع متعذر ، لأن ذلك يستلزم الجمع بين النقيضين .

وأما كفره فلأنــه مستلزم لتعطيل دين الله الذي بعث بــه رسله وأنزل به كتبه .

ولا ريب أن ملاحظة القضاء والقدر أوقعت كثيراً من أهل الإرادة من المتصوفة فى أن تركوا من المأمور وفعلوا من المحظور ما صاروا به إما ناقصين محرومين وإما عاصين فاسقين وإما كافرين ، وقد رأيت من ذلك ألوانا . (وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ) .

وهؤلاء المعتزلة ونحوهم من القدرية طرفا نقيض ــــ هؤلاء يلاحظون القدر ويعرضون عن الأمر . وأولئــك يلاحظون الأمر ويعرضون عن القدر ــــ والطائفتان تظن أن ملاحظة الأمر والقدر متعــذر ، كما أن طائفة تجعل ذلك مخالفاً للحكمة والعدل . وهذه الأصناف الثلاثة هي : القدرية المجوسية ، والقدرية المشركية ؛ والقدرية الإبليسية ؛ وقد بسطنا الـكلام عليهم فى غير هذا الموضع .

وأصل مايبتلى به السالكون أهل الإرادة والعامة فى هــذا الزمان هي « القدرية المشركية » فيشهدون القدر ويعرضون عن الأمر ، كما قال فيهم بعض العلماء : أنت عند الطاعة قدري ، وعند المعصية جبري أي مذهب وافق هواك تمذهبت به . وإنما المشروع العكس وهو أن يكون عند الطاعة يستعين الله عليها قبل الفعل ، ويشكره عليها بعد الفعل .

ويجتهد أن لا يعصى فإذا أذنب وعصى بادر إلى التوبة والاستغفار ، كما في حديث سيد الاستغفـار : « أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بـذنبي » وكما فى الحديث الصحيح الإلهي « ياعبادي إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

ومن هـذا الباب دخـل قوم من أهـل الإرادة فى ترك الدعاء وآخرون جعلوا التوكل والمحبة من مقامات العامة ، وأمثال هذه الأغاليط التي تكلمنا عليها فى غير هذا الموضع وبينا الفرق بين الصواب والخطأ فى ذلك ؛ ولهـذا يوجد في كلام هؤلاء المشايخ الوصيـة باتباع العلم والشريعة ، حتى قال سهل بن عبد الله التستري : كل وجد لايشهد له الكتاب والسنة فهو باطل . وقال الجنيد بن محمد : علمنا مقيد بالكتاب والسنـة ؛ فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصح أن يتكلم فى علمنا والله أعلم .

ما تقول السادة العلماء

فى من عزم على « فعل محرم » كالزنا والسرقة ، وشرب الخمر عزماً جازماً ــ فعجز عن فعله : إما بموت ، أو غيره . هل يأثم بمجرد العزم أم لا ؟ وإن قلتم : يأثم ، فما جواب من يحتج على عدم الإثم بقوله : « إذا هم عبدي بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه » وبقوله : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم » واحتج به من وجهين .

(أحدهما) أنه أخبر بالعفو عن حديث النفس ، والعزم داخل فى العموم والعزم والهم واحد . قاله ابن سيده .

(الثانى) أنه جعل التجاوز ممتدا إلى أن يوجد كلام أو عمل ، وما قبل ذلك داخل في حد التجاوز ، ويزعم أن لا دلالة فى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إذ التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » ؛ لأن الموجب لدخول المقتول فى النار مواجهته أخاه ، لأنه عمل لا مجرد قصد ، وأن لا دلالة فى قوله صلى الله عليه وسلم : في الذي قال : « لو أن لي مالا لفعلت وفعلت ، أنهما فى الإثم سواء وفى الأجر سواء » لأنه تكلم ،

والنبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما لم تعمل به أو تتكلم » وهذا قد تكلم ، وقد وقع فى هذه المسألة كلام كثير ، واحتيج إلى بيانها مطولا مكشوفاً مستوفاً .

فأجاب : شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ونور ضريحه .

الحمد لله ، هذه المسألة ونحوها تحتاج قبل الكلام فى حكمها إلى حسن التصور لها ، فإن اضطراب الناس فى هذه المسائل وقع عامته من أمرين .

(أحدهما) عدم تحقيق أحوال القلوب وصفاتها ، التى هي مورد الكلام .

و (الثاني) عدم إعطاء الأدلة الشرعية حقها ؛ ولهذا كثر اضطراب كثير من الناس فى هذا الباب ، حتى يجد الناظر في كلامهم أنهم يدعون إجماعات متناقضة فى الظاهر .

فينبغي أن يعلم أن كل واحد من صفات الحي التى هي العلم والقدرة والإرادة ونحوها له من المراتب ما بين أوله وآخره ما لا يضبطه العباد : كالشك ، ثم الظن ، ثم العلم ، ثم اليقين ، ومراتبه ؛ وكذلك الهم والإرادة والعزم وغير ذلك ؛ ولهذا كان الصواب عند جماهير أهل السنة ـ وهو

ظاهر مذهب أحمد ، وهو أصح الروايتين عنه ، وقول أكثر أصحابه ـ أن العلم والعقل ونحوهما يقبل الزيادة والنقصان ، بل وكذلك الصفات التى تقوم بغير الحي : كالألوان والطعوم والأرواح . فنقول أولا الإرادة الجازمة هي التى يجب وقوع الفعل معها ، إذا كانت القدرة حاصلة فإنه متى وجدت الإرادة الجازمة مع القدرة التامة وجب وجود الفعل ، لكمال وجود المقتضى السالم عن المعارض المقاوم ، ومتى وجدت الإرادة والقدرة التامة ولم يقع الفعل لم تكن الإرادة جازمة ، وهو إرادات الخلق لما يقدرون عليه من الأفعال ، ولم يفعلوه ، وإن كانت هذه الإرادات متفاوتة فى القوة والضعف تفاوتاً كثيراً ؛ لكن حيث لم يقع الفعل المراد مع وجود القدرة التامة فليست الإرادة جازمة جزماً تاماً .

وهذه « المسألة » إنما كثر فيها النزاع ؛ لأنهم قدروا إرادة جازمة للفعل لا يقترن بها شيء من الفعل ، وهذا لا يكون . وإنما يكون ذلك في العزم على أن يفعل ، فقد يعزم على الفعل في المستقبل من لا يفعل منه شيئا فى الحال ، والعزم على أن يفعل فى المستقبل لا يكفي فى وجود الفعل ، بل لا بد عند وجوده من حدوث تمام الإرادة المستلزمة للفعل ، وهذه هي الإرادة الجازمة .

و « الإرادة الجازمة » إذا فعل معها الإنسان ما يقدر عليه كان فى الشرع بمنزلة الفاعل التام له ثواب الفاعل التام ، وعقاب الفاعل التام

الذي فعل جميع الفعل المراد حتى يثاب ويعاقب على ما هو خارج عن محل قدرته ، مثل المشتركين والمتعاونين على أفعال البر ، ومنها ما يتولد عن فعل الإنسان كالداعي إلى هدى أو إلى ضلالة ، والسَّانّ سنة حسنة ، وسنة سيئة، كما ثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من تبعه ، من غير أن ينقص[1] أوزارهم شيء » وثبت عنه فى الصحيحين أنه قال : « من سن سنة حسنة كان له أجرها ، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء » .

فالداعي إلى الهدى وإلى الضلالة ، هو طالب مريد كامل الطلب والإرادة لما دعا إليه ؛ لكن قدرته بالدعاء والأمر ، وقدرة الفاعل بالاتباع والقبول ؛ ولهذا قرن الله تعالى فى كتابه بين الأفعال المباشرة والمتولدة فقال : (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) .

فذكر فى الآية الأولى ما يحدث عن أفعالهم بغير قدرتهم المنفردة :

---

(١) هكذا وردت في المطبوع ولعل الصواب (من أوزارهم)

وهو ما يصيبهم من العطش والجوع والتعب ، وما يحصل للكفار بهم من الغيظ ، وما ينالونه من العدو . وقال : (كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ) فأخبر أن هذه الأمور التى تحدث وتتولد من فعلهم وفعل آخر منفصل عنهم يكتب لهم بها عمل صالح ، وذكر فى الآية الثانية نفس أعمالهم المباشرة التى باشروها بأنفسهم : وهي الإنفاق ، وقطع المسافة ، فلهذا قال فيها : (إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ) فإن هذه نفسها عمل صالح ، وإرادتهم فى الموضعين جازمة على مطلوبهم الذي هو أن يكون الدين كله لله ، وأن تكون كلمة الله هي العليا ، فما حدث مع هذه الإرادة الجازمة من الأمور التى تعين فيها قدرتهم بعض الإعانة هي لهم عمل صالح .

وكذلك « الداعي إلى الهدى والضلالة » لما كانت إرادته جازمة كاملة فى هدى الأتباع وضلالهم ، وأتى من الإعانة على ذلك بما يقدر عليه ، كان بمنزلة العامل الكامل ، فله من الجزاء مثل جزاء كل من اتبعه : للهادي مثل أجور المهتدين ، وللمضل مثل أوزار الضالين وكذلك السان سنة حسنة وسنة سيئة ؛ فإن السنة هي ما رسم للتحري فإن السان كامل الإرادة لكل ما يفعل من ذلك ، وفعله بحسب قدرته .

ومن هذا قوله فى الحديث المتفق عليه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه أول من سن القتل » فالكفل

النصيب مثل نصيب القاتل ، كما فسره الحديث الآخر ، وهو كما استباح جنس قتل المعصوم، لم يكن مانع يمنعه من قتل نفس معصومة ، فصار شريكا في قتل كل نفس ، ومنه قوله تعالى : (مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا) .

ويشبه هذا أنه من كذب رسولاً معيناً كان كتكذيب جنس الرسل ، كما قيل فيه : (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ) (كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ) ونحو ذلك .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ) فأخبر أن أئمة الضلال لا يحملون من خطايا الأتباع شيئاً ، وأخبر أنهم يحملون أثقالهم ، وهي أوزار الأتباع ، من غير أن ينقص من أوزار الأتباع شيء ؛ لأن إرادتهم كانت جازمة بذلك ، وفعلوا مقدورهم ، فصار لهم جزاء كل عامل ؛ لأن الجزاء على العمل يستحق مع الإرادة الجازمة ، وفعل المقدور منه .

وهو كما ثبت فى الصحيحين من حديث ابن عباس عن أبي سفيان :

أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى هرقل : « فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين » فأخبر أن هرقل لما كان إمامهم المتبوع فى دينهم أن عليه إثم الأريسيين ، وهم الأتباع ، وإن كان قد قيل : إن أصل هذه الكلمة من الفلاحين والأكرة ، كلفظ الطاء بالتركي ، فإن هذه الكلمة تقلب إلى ما هو أعم من ذلك ، ومعلوم أنه إذا تولى عن اتباع الرسول كان عليه [مثل] آثامهم من غير أن ينقص من آثامهم شيء كما دل عليه سائر نصوص الكتاب والسنة .

ومن هذا قوله تعالى : (إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ) .

فقوله : (وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم) هي الأوزار الحاصلة لضلال الأتباع ، وهي حاصلة من جهة الآمر ، ومن جهة المأمور الممتثل فالقدرتان مشتركتان فى حصول ذلك الضلال ؛ فلهذا كان على هذا بعضه ، وعلى هذا بعضه ، إلا أن كل بعض من هذين البعضين هو مثل وزر عامل كامل ، كما دلت عليه سائر النصوص ، مثل قوله :

« من دعا إلى الضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ) .

فأخبر سبحانه أن الأتباع دعوا على أئمة الضلال بتضعيف العذاب ، كما أخبر عنهم بذلك فى قوله تعالى : (وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ * رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا) .

وأخبر سبحانه أن لكل من المتبعين والأتباع تضعيفاً من العذاب . ولكن لا يعلم الأتباع التضعيف .

ولهذا وقع عظيم المدح والثناء لأئمة الهدى ، وعظيم الذم واللعنة لأئمة الضلال ، حتى روى فى أثر — لا يحضرنى إسناده — « إنه ما من عذاب في النار إلا يبدأ فيه بإبليس ثم يصعد بعد ذلك إلى غيره ، وما من نعيم فى الجنة إلا يبدأ فيه بالنبي صلى الله عليه وسلم ثم ينتقل إلى غيره » فإنه هو الإمام المطلق في الهدى لأول بنى آدم وآخرهم . كما قال : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة

ولا فخر » وهو شفيع الأولين والآخرين فى الحساب بينهم ؛ وهو أول من يستفتح باب الجنة .

وذلك أن جميع الخلائق أخذ الله عليهم ميثاق الإيمان به كما أخذ على كل نبي أن يؤمن بمن قبله من الأنبياء ؛ ويصدق بمن بعده . قال تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ) الآية . فافتتح الكلام باللام الموطئة للقسم التى يؤتى بها إذا اشتمل الكلام على قسم وشرط ؛ وأدخل اللام على ما الشرطية ليبين العموم ، ويكون المعنى : مهما آتيكم من كتاب وحكمة فعليكم إذا جاءكم ذلك النبي المصدق الإيمان به ونصره . كما قال ابن عباس : ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه .

والله تعالى قد نوه بذكره وأعلنه في الملأ الأعلى ، ما بين خلق جسد آدم ونفخ الروح فيه ؛ كما فى حديث ميسرة الفجر قال : « قلت : يا رسول الله ! متى كنت نبياً ؟ — وفى رواية — متى كتبت نبياً ؟ فقال : وآدم بين الروح والجسد » رواه أحمد . وكذلك فى حديث العرباض بن سارية الذي رواه أحمد وهو حديث حسن عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنى عند الله لخاتم النبيين . وإن آدم لمنجدل في طينته » الحديث .

فكتب الله وقدر فى ذلك الوقت وفى تلك الحال أمر أمام الذرية كما كتب وقدر حال المولود من ذرية آدم بين خلق جسده ونفخ الروح فيه ، كما ثبت ذلك فى الصحيحين من حديث ابن مسعود .

فمن آمن به من الأولين والآخرين أثيب على ذلك ، وإن كان ثواب من آمن به وأطاعه فى الشرائع المفصلة أعظم من ثواب من لم يأت إلا بالإيمان المجمل : على أنه إمام مطلق لجميع الذرية ، وأن له نصيباً من إيمان كل مؤمن من الأولين والآخرين ؛ كما أن كل ضلال وغواية في الجن والإنس لإبليس منه نصيب ؛ فهذا يحقق الأثر المروي ويؤيد ما فى نسخة شعيب بن أبى حمزة عن الزهري عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلاً — إما من مراسيل الزهري ؛ وإما من مراسيل من فوقه من التابعين — قال : « بعثت داعياً وليس إلى من الهداية شيء ، وبعث إبليس مزيناً ومغوياً وليس إليه من الضلالة شيء » .

ومما يدخل فى هذا الباب من بعض الوجوه قوله فى الحديث الذي فى السنن : « وزنت بالأمة فرجحت ، ثم وزن أبو بكر بالأمة فرجح ثم وزن عمر بالأمة فرجح ، ثم رفع الميزان »

فأما كون النبي صلى الله عليه وسلم راجحاً بالأمة فظاهر ؛ لأن له مثل أجر جميع الأمة مضافاً إلى أجره ، وأما أبو بكر وعمر فلأن لهما

معاونة مع الإرادة الجازمة فى إيمان الأمة كلها ، وأبو بكر كان فى ذلك سابقاً لعمر وأقوى إرادة منــه ؛ فإنهما همــا اللذان كانا يعــاونان النبي صلى الله عليه وسلم على إيمان الأمة فى دقيق الأمور وجليلها ؛ فى محيــاه وبعد وفاته .

ولهذا سأل أبو سفيان يوم أحد : « أفى القوم محمــد ؟ أفى القوم ابن أبي قحافة ؟ أفى القوم ابن الخطاب ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تجيبوه . فقال : أما هؤلاء فقد كفيتموهم . فلم يملك عمر نفسه أن قال : كذبت ياعدو الله ! إن الذي ذكرت لأحياء وقــد بقي لك مايسوءك » رواه البخــاري ومسلم ، حديث الــبراء بن عازب . فأبو سفيــان ـــ رأس الكفر حينئذ ـــ لم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة ؛ لأنهم قادة المؤمنين . كما ثبت فى الصحيحين أن علي بن أبي طالب لمــا وضعت جنازة عمر قال : « والله ماعلى وجه الأرض أحــد أحب أن ألقى الله بعمله من هذا المسجى ، والله إني لأرجو أن يحشرك الله مع صاحبيك ؛ فإني كثيراً ما كنت أسمع النبي صــلى الله عليه وســلم يقول : دخلت أنا وأبو بكر وعمر ، وخرجت أنا وأبو بكر وعمــر ، وذهبت أنا وأبو بكر وعمر »

وأمثال هذه النصوص كثيرة ، تبين سبب استحقــاقهما أن كان لهما مثل أعمال جميــع الأمة ؛ لوجود الإرادة الجازمة مع التمكن من القدرة

على ذلك كله بخلاف من أعان على بعض ذلك دون بعض ووجدت منه إرادة فى بعض ذلك دون بعض .

و « أيضاً » فالمريد إرادة جازمة مع فعل المقدور هو بمنزلة العامل الكامل ، وإن لم يكن إماماً وداعياً ، كما قال سبحانه : (لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)

فالله تعالى نفى المساواة بين المجاهد والقاعد الذي ليس بعاجز ؛ ولم ينف المساواة بين المجاهد وبين القاعد العاجز ؛ بل يقال : دليل الخطاب يقتضى مساواته إياه . ولفظ الآية صريح . استثنى أولو الضرر من نفي المساواة ، فالاستثناء هنا هو من النفي ، وذلك يقتضي أن أولى الضرر قد يساوون القاعدين ، وإن لم يساووهم في الجميع ، ويوافقه ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فى غزوة تبوك : « إن بالمدينة رجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم . قالوا : وهم بالمدينة . قال : وهم بالمدينة حبسهم العذر » فأخبر أن القاعد بالمدينة الذي لم يحبسه إلا العذر هو مثل من معهم فى هذه الغزوة . ومعلوم أن الذي معه فى الغزوة يثاب كل واحد منهم ثواب غاز على قدر نيته

فكذلك القاعدون الذين لم يحبسهم إلا العذر .

ومن هذا الباب ما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل وهو صحيح مقيم » فإنه إذا كان يعمل فى الصحة والإقامة عملا ثم لم يتركه إلا لمرض أو سفر ثبت أنه إنما ترك لوجود العجز والمشقة ، لا لضعف النية وفتورها ، فكان له من الإرادة الجازمة التى لم يتخلف عنها الفعل إلا لضعف القدرة ، ما للعامل ، والمسافر وإن كان قادراً مع مشقة كذلك بعض المرض ، إلا أن القدرة الشرعية هي التى يحصل بها الفعل من غير مضرة راجحة ، كما فى قوله تعالى : (وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) وقوله : (فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا) ونحو ذلك ليس المعتبر فى الشرع القدرة التى يمكن وجود الفعل بها على أي وجه كان ، بل لا بد أن تكون المكنة خالية عن مضرة راجحة ، بل أو مكافية .

ومن هذا الباب ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من جهز غازياً فقد غزا ، ومن خلفه فى أهله بخير فقد غزا » وقوله : « من فطر صائماً فله مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء » فإن الغزو يحتاج إلى جهاد بالنفس ، وجهاد بالمال ، فإذا بذل هذا بدنه ، وهذا ماله مع وجود الإرادة الجازمة فى كل منهما كان كل منهما مجاهداً

بإرادته الجازمة ، ومبلغ قدرته ، وكذلك لا بد للغازي من خليفة في الأهل ، فإذا خلفه في أهله بخير فهو أيضاً غاز ، وكذلك الصيام لا بد فيه من إمساك ، ولا بد فيه من العشاء الذي به يتم الصوم ، وإلا فالصائم الذي لا يستطيع العشاء لا يتمكن من الصوم .

وكذلك قوله في الحديث الصحيح : « إذا أنفقت المرأة من مال زوجها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ، ولزوجها مثل ذلك ، لا ينقص بعضهم من أجور بعض شيئاً » وكذلك قوله في حديث أبي موسى : « الخازن الأمين الذي يعطي ما أمر به كاملاً موفراً طيبة به نفسه أحد المتصدقين » أخرجاه . وذلك أن إعطاء الخازن الأمين الذي يعطي ما أمر به موفراً طيبة به نفسه لا يكون إلا مع الإرادة الجازمة الموافقة لإرادة الآمر ، وقد فعل مقدوره وهو الامتثال ، فكان أحد المتصدقين .

ومن هذا الباب حديث أبي كبشة الأنماري الذي رواه أحمد وابن ماجه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنما الدنيا لأربعة : رجل آتاه الله علماً ومالاً فهو يعمل فيه بطاعة الله ، فقال رجل : لو أن لي مثل فلان لعملت بعمله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم فهما في الأجر سواء » وقد رواه الترمذي مطولاً وقال حديث حسن صحيح فهذا التساوي مع « الأجر والوزر » هو في حكاية حال من قال ذلك ،

وكان صادقاً فيه ، وعلم الله منه إرادة جازمة لا يتخلف عنها الفعل إلا لفوات القدرة ؛ فلهذا استويا فى الثواب والعقاب .

وليس هذه الحال تحصل لكل من قال : « لو أن لي ما لفلان لفعلت مثل ما يفعل » إلا إذا كانت إرادته جازمة يجب وجود الفعل معها إذا كانت القدرة حاصلة ، وإلا فكثير من الناس يقول ذلك عن عزم ، لو اقترنت به القدرة لانفسخت عزيمته ، كعامة الخلق يعاهدون وينقضون ، وليس كل من عزم على شيء عزماً جازماً قبل القدرة عليه [وعدم] الصوارف عن الفعل تبقى تلك الإرادة عند القدرة المقارنة للصوارف ، كما قال تعالى : (وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ) وكما قال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ) وكما قال : (وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ)

وحديث أبي كبشة فى النيات مثل حديث البطاقة فى الكلمات . وهو الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أن رجلاً من أمة النبي صلى الله عليه وسلم ينشر الله له يوم القيامة تسعة وتسعين سجلاً كل سجل منها مدى البصر ، ويقال له هل تنكر من هذا شيئاً ؟ هل ظلمتك ؟ فيقول :

لا يارب . فيقال له : لا ظلم عليك اليوم فيؤتى ببطاقة فيها التوحيد ؛ فتوضع فى كفة والسجلات فى كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » فهذا لما اقترن بهذه الكلمة من الصدق والإخلاص والصفاء وحسن النية ؛ إذ الكلمات والعبادات وإن اشتركت فى الصورة الظاهرة فإنها تتفاوت بحسب أحوال القلوب تفاوتاً عظيما .

ومثل هذا الحديث الذي في حديث : المرأة البغي التى سقت كلباً فغفر الله لها ؛ فهذا لما حصل فى قلبها من حسن النية والرحمة إذ ذاك ومثله قوله صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت . يكتب الله له بها سخطه إلى يوم القيامة »

فصل

وبهذا تبين : أن الأحاديث التى بها التفريق بين الهام والعامل وأمثالها ، إنما هى فيما دون الإرادة الجازمة التى لا بد أن يقترن بها الفعل . كما في الصحيحين عن أبى رجاء العطاردي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال :

« إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك : فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة . فإن هم بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات ومن هم بسيئة ولم يعملها كتبها الله له حسنة كاملة . فإن هم بها وعملها كتبها الله له عنده سيئة واحدة » وفى الصحيحين نحوه من حديث أبى هريرة .

فهذا التقسيم هو في رجل يمكنه الفعل ؛ ولهذا قال : « فعملها » « فلم يعملها » ومن أمكنه الفعل فلم يفعل لم تكن إرادته جازمة ؛ فإن الإرادة الجازمة مع القدرة مستلزمة للفعل ، كما تقدم أن ذلك كاف فى وجود الفعل ، وموجب له ؛ إذ لو توقف على شيء آخر لم تكن الإرادة الجازمة مع القدرة تامة كافية فى وجود الفعل ، ومن المعلوم المحسوس أن الأمر بخلاف ذلك ، ولا ريب أن « الهم » و « العزم » و « الإرادة » ونحو ذلك قد يكون جازماً لا يتخلف عنه الفعل إلا للعجز ، وقد لا يكون هذا على هذا الوجه من الجزم .

فهذا « القسم الثاني » يفرق فيه بين المريد والفاعل ؛ بل يفرق بين إرادة وإرادة ، إذ الإرادة هي عمل القلب الذي هو ملك الجسد . كما قال أبو هريرة : القلب ملك ، والأعضاء جنوده ، فإذا طاب الملك طابت جنوده ، وإذا خبث الملك خبثت جنوده . وتحقيق ذلك ما فى الصحيحين من حديث النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم

« إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لهـا سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب » فإذا هم بحسنة فلم يعملها كان قد أتى بحسنة ، وهي الهم بالحسنة فتكتب له حسنة كاملة ، فإن ذلك طاعة وخير ، وكذلك هو فى عرف الناس كما قيل :

لأشكرنك معروفاً هممت به   إن اهتمامك بالمعروف معروف

ولا ألومك إن لم يمضه قدر   فالشيء بالقدر المحتوم مصروف

فإن عملها كتبها الله له عشر حسنات ، لما مضى من رحمته أن من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف . كما قال تعالى : (مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ) وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح لمن جاء بناقة « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة مخطومة . مزمومة » إلى أضعاف كثيرة . وقد روى عن أبى هريرة مرفوعا « أنه يعطى به ألف ألف حسنة » .

وأما الهام بالسيئة الذي لم يعملها وهو قادر عليها فإن الله لا يكتبها عليه كما أخبر به في الحديث الصحيح . وسواء سمي همه إرادة أو عزماً أو لم يسم ، متى كان قادراً على الفعل وهم به وعزم عليه ولم يفعله مع القدرة فليست إرادته جازمة ، وهذا موافق لقوله فى الحديث الصحيح

حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم به أو تعمل به » فإن ما هم به العبد من الأمور التى يقدر عليها من الكلام والعمل ولم يتكلم بها ولم يعملها لم تكن إرادته لها جازمة ، فتلك مما لم يكتبها الله عليه ، كما شهد به قوله : « من هم بسيئة فلم يعملها » ومن حكى الإجماع كابن عبد البر وغيره . فى هذه المسألة على هذا الحديث فهو صحيح بهذا الاعتبار .

وهذا الهام بالسيئة : فإما أن يتركها لخشية الله وخوفه ، أو يتركها لغير ذلك ؛ فإن تركها لخشية الله كتبها الله له عنده حسنة كاملة كما قد صرح به فى الحديث ، وكما قد جاء فى الحديث الآخر « اكتبوها له حسنة فإنما تركها من أجلي » أوقال : « من جرائى » وأما إن تركها لغير ذلك لم تكتب عليه سيئة ، كما جاء فى الحديث الآخر « فإن لم يعملها لم تكتب عليه » . وبهذا تتفق معانى الأحاديث .

وإن عملها لم تكتب عليه إلا سيئة واحدة ، فإن الله تعالى لا يضعف السيئات بغير عمل صاحبها ، ولا يجزي الإنسان فى الآخرة إلا بما عملت نفسه ، ولا تمتلئ جهنم إلا من أتباع إبليس من الجنة والناس ، كما قال تعالى : (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) ؛ ولهذا ثبت فى الصحيحين من حديث أبي هريرة وأنس « أن الجنة يبقى فيها فضل فينشئ الله لها أقواماً فى الآخرة ، وأما النار فإنه ينزوى بعضها إلى

بعض حتى يضع عليها قدمه فتمتلئ بمن دخلها من أتباع إبليس » .

ولهذا كان الصحيح المنصوص عن أئمة العدل كأحمد وغيره الوقف في أولاد المشركين ، وأنه لا يجزم لمعين منهم بجنة ولا نار ، بل يقال فيهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديثين الصحيحين : حديث أبي هريرة وابن عباس : « الله أعلم بما كانوا عاملين » . فحديث أبي هريرة فى الصحيحين ، وحديث ابن عباس فى البخاري ، وفى حديث سمرة بن جندب الذي رواه البخاري « أن منهم من يدخل الجنة » ، وثبت « أن منهم من يدخل النار » كما فى صحيح مسلم فى قصة الغلام الذي قتله الخضر . وهذا يحقق ما روى من وجوه : أنهم يمتحنون يوم القيامة فيظهر على علم الله فيهم ، فيجزيهم حينئذ على الطاعة والمعصية ، وهذا هو الذي حكاه الأشعري عن أهل السنة والحديث واختاره .

وأما أئمة الضلال ـ الذين عليهم أوزار من أضلوه ـ ونحوهم فقد بينا أنهم إنما عوقبوا لوجود الإرادة الجازمة مع التمكن من الفعل ؛ بقوله في حديث أبي كبشة « فهما فى الوزر سواء » وقوله : « من دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من تبعه » فإذا وجدت الإرادة الجازمة ، والتمكن من الفعل صاروا بمنزلة الفاعل التام ، والهام بالسيئة التى لم يعملها مع قدرته عليها لم توجد منه إرادة جازمة ، وفاعل

السيئة التى تمضي لا يجزى بها إلا سيئة واحـدة ، كما شهد به النص وبهذا يظهر قول الأئمة حيث قال الإمام أحمـد : « الهـم » همان : هم خطرات ، وهم إصرار . فهم الخطرات يكون مـن القادر ، فإنـه لو كان همه إصراراً جازما وهو قادر لوقع الفعل .

ومن هذا الباب هم « يوسف » حيث قال تعالى : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ) الآية . وأما هم المرأة التى راودته فقـد قيل : إنه كان هم إصرار لأنها فعلت مقدورهـا ، وكذلك ما ذكره عن المنافقين فى قوله تعالى : (وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟) فهذا الهم المذكور عنهم هم مذموم ، كما ذمهم الله عليه ، ومثله يذم وإن لم يكن جازماً ، كما سنبينـه في آخر الجواب من الفرق بين ما ينافى الإيمان ، وبـين ما لا ينافيـه ، وكذلك الحريص على السيئات الجازم بإرادة فعلها ، إذا لم يمنعـه إلا مجرد العجز ، فهذا يعاقب على ذلك عقوبة الفاعل ، لحديث أبى كبشة ، ولما فى الحديث الصحيح « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتـل والمقتول فى النـار قيل : هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » وفى لفظ : « إنه أراد قتل صاحبه » .

فهذه « الإرادة » هي الحرص ، وهي الإرادة الجازمة ، وقد وجدمعها المقدور ، وهو القتال لكن عجز عن القتل ، وليس هذا من الهـم الذي لا يكتب ، ولا يقال إنه استحق ذلك بمجرد قوله : لو أن لي ما لفلان

لعملت مثل ما عمل ، فإن تمنى الكبائر ليس عقوبته كعقوبة فاعلها بمجرد التكلم ، بل لا بد من أمر آخر ، وهو لم يذكر أنه يعاقب على كلامه ، وإنما ذكر أنهما فى الوزر سواء .

وعلى هذا فقوله : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تكلم به أو تعمل » لا ينافى العقوبة على الإرادة الجازمة التى لا بد أن يقترن بها الفعل ، فإن « الإرادة الجازمة » هي التى يقترن بها المقدور من الفعل ، وإلا فمتى لم يقترن بها المقدور من الفعل لم تكن جازمة ، فالمريد الزنا والسرقة وشرب الخمر العازم على ذلك متى كانت إرادته جازمة عازمة فلا بد أن يقترن بها من الفعل ما يقدر عليه ، ولو أنه يقربه إلى جهة المعصية : مثل تقرب السارق إلى مكان المال المسروق ، ومثل نظر الزانى واستماعه إلى المزنى به ، وتكلمه معه ، ومثل طلب الخمر والتماسها ونحو ذلك، فلا بد مع الإرادة الجازمة من شيء من مقدمات الفعل المقدور بل مقدمات الفعل توجد بدون الإرادة الجازمة عليه ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ، فى الحديث المتفق عليه : « العينان تزنيان وزناهما النظر واللسان يزنى وزناه النطق ، واليد تزنى وزناها البطش ، والرجل تزنى وزناها المشي ، والقلب يتمنى ويشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » وكذلك حديث أبى بكرة المتفق عليه : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار . قيل : يارسول الله ! هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟

قال : إنه أراد قتل صاحبه » وفى رواية فى الصحيحين « إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » .

فإنه أراد ذلك إرادة جازمة فعل معها مقدوره ، منعه منها من قتل صاحبه العجز ، وليست مجرد هم ولا مجرد عزم على فعل مستقبل ، فاستحق حينئذ النار ، كما قدمنا من أن الإرادة الجازمة التى أتى معها بالممكن يجري صاحبها مجرى الفاعل التام .

و « الإرادة التامة » قد ذكرنا أنه لا بد أن يأتى معها بالمقدور أو بعضه ، وحيث ترك الفعل المقدور فليست جازمة ، بل قد تكون جازمة فيما فعل دون ما ترك ، مع القدرة ، مثل الذى يأتى بمقدمات الزنا : من اللمس ، والنظر والقبلة ، ويمتنع عن الفاحشة الكبرى ؛ ولهذا قال فى حديث أبي هريرة الصحيح « العين تزنى والأذن تزني ، واللسان يزنى — إلى أن قال — والقلب يتمنى ويشتهي » أي يتمنى الوطء ويشتهيه ، ولم يقل « يريد » ، ومجرد الشهوة والتمني ليس إرادة جازمة ، ولا يستلزم وجود الفعل ، فلا يعاقب على ذلك ؛ وإنما يعاقب إذا أراد إرادة جازمة مع القدرة والإرادة الجازمة [التى] يصدقها الفرج .

ومن هذا الحديث الذي فى الصحيحين عن ابن مسعود « أن رجلا أصاب من امرأة قبلة : فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك

له ، فأنزل الله تعالى : (وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ) الآية فقال الرجل : ألي هذه ؟ فقال : لمن عمل بها من أمتي » فمثل هذا الرجل وأمثاله لا بد في الغالب أن يهم بما هو أكبر من ذلك ، كما قال : « والقلب يتمنى ويشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » لكن إرادته القلبية للقبلة كانت إرادة جازمة ، فاقترن بها فعل القبلة بالقدرة ، وأما إرادته للجماع فقد تكون غير جازمة ، وقد تكون جازمة ، لكن لم يكن قادراً . والأشبه في الذي نزلت فيه الآية أنه كان متمكناً لكنه لم يفعل .

فتفريق أحمد وغيره : بين هم الخطرات ، وهم الإصرار هو الذى عليه الجواب ، فمن لم يمنعه من الفعل إلا العجز فلا بد أن يفعل ما يقدر عليه من مقدماته ، وإن فعله وهو عازم على العود متى قدر فهو مصر ، ولهذا قال ابن المبارك المصر الذي يشرب الخمر اليوم ، ثم لا يشربها إلى شهر ، وفي رواية إلى ثلاثين سنة ، ومن نيته أنه إذا قدر على شربها [شربها] . وقد يكون مصراً إذا عزم على الفعل في وقت دون وقت ، كمن يعزم على ترك المعاصي في شهر رمضان دون غيره ، فليس هذا بتائب مطلقاً . ولكنه تارك للفعل في شهر رمضان ، ويثاب إذا كان ذلك الترك لله وتعظيم شعائر الله ، واجتناب محارمه في ذلك الوقت ، ولكنه ليس من التائبين الذين يغفر لهم بالتوبة مغفرة مطلقة ، ولا هو مصر مطلقاً . وأما الذي

وصفه ابن المبارك فهو مصر إذا كان من نيته العود إلى شربها .

قلت : والذي قد ترك المعاصي فى شهر رمضان من نيته العود إليها فى غير شهر رمضان مصر أيضاً . لكن نيته أن يشربها إذا قدر عليها ، غير النية مع وجود القدرة ، فإذا قدر قد تبقى نيته وقد لا تبقى ، ولكن متى كان مريداً إرادة جازمة لا يمنعه إلا العجز فهو معاقب على ذلك . كما تقدم .

وتقدم أن مثل هذا لا بد أن يقترن بإرادته ما يتمكن من الفعل معه ، وبهذا يظهر ما يذكر عن الحارث المحاسبي أنه حكى الإجماع على أن الناوي للفعل ليس بمنزلة الفاعل له ، فهذا الإجماع صحيح مع القدرة ، فإن الناوي للفعل القادر عليه ليس بمنزلة الفاعل، وأما الناوي الجازم الآتى بما يمكن فإنه بمنزلة الفاعل التام . كما تقدم .

ومما يوضح هذا أن الله سبحانه فى القرآن رتب الثواب والعقاب على مجرد الإرادة كقوله تعالى : (مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا) وقال : (مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ) وقال : (مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ

مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ) .

فرتب الثواب والعقاب على كونه يريد العاجلة ، ويريد الحياة الدنيا ، ويريد حرث الدنيا ، وقال فى آية هود : (نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا) — إلى أن قال — (وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ) فدل على أنه كان لهم أعمال بطلت ، وعوقبوا على أعمال أخرى عملوها ، وأن الإرادة هنا مستلزمة للعمل ، ولما ذكر إرادة الآخرة ، قال : (وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ) . وذلك لأن إرادة الآخرة وإن استلزمت عملها فالثواب إنما هو على العمل المأمور به ، لا كل سعي ، ولا بد مع ذلك من الإيمان .

ومنه قوله : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا) الآية (وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ) فهذا نظير تلك الآية التى فى سورة هود ، وهذا يطابق قوله : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما » إلا أنه قال : « فإنه أراد قتل صاحبه » ، أو « أنه كان حريصاً على قتل صاحبه » فذكر الحرص والإرادة على القتل وهذا لابد أن يقترن به فعل ، وليس هذا مما دخل فى حديث العفو : « إن الله عفا لأمتى عما حدثت به أنفسها » .

ومما يبنى على هذا مسألة معروفة — بين أهل السنة وأكثر العلماء

وبين بعض القدرية ـــ وهي « توبة العاجز عن الفعل » كتوبة المجبوب عن الزنا ، وتوبة الأقطع العاجز عن السرقة ، ونحوه من العجز ؛ فإنها توبة صحيحة عند جماهير العلماء من أهل السنة وغيرهم ، وخالف فى ذلك بعض القدرية ؛ بناء على أن العاجز عن الفعل لا يصح أن يثاب على تركه الفعل ؛ بل يعاقب على تركه وليس كذلك ؛ بل إرادة العاجز عليها الثواب والعقاب كما بينا ، وبينا أن الإرادة الجازمة مع القدرة تجري مجرى الفاعل التام ، فهذا العاجز إذا أتى بما يقدر عليه من مباعدة أسباب المعصية بقوله وعمله وهجرانها وتركها بقلبه ، كالتائب القادر عليها سواء فتوبة هذا العاجز عن كمال الفعل ، كإصرار العاجز عن كمال الفعل .

ومما يبنى على هذا « المسألة المشهورة فى الطلاق » وهو أنه لو طلق فى نفسه وجزم بذلك ، ولم يتكلم به ، فإنه لا يقع به الطلاق عند جمهور العلماء . وعند مالك فى إحدى الروايتين يقع ، وقد استدل أحمد وغيره من الأئمة على ترك الوقوع بقوله : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها » فقال المنازع : هذا المتجاوز عنه ، إنما هو حديث النفس ، والجازم بذلك فى النفس ليس من حديث النفس .

فقال المنازع لهم : قد قال « ما لم تكلم به أو تعمل به » فأخبر أن التجاوز عن حديث النفس امتد إلى هذه الغاية التى هي الكلام به

والعمل به ، كما ذكر ذلك فى صدر السؤال من استدلال بعض الناس وهو استدلال حسن ؛ فإنه لو كان حديث النفس إذا صار عزماً ولم يتكلم به أو يعمل يؤاخذ به لكان خلاف النص ، لكن يقال : هذا فى المأمور [صاحب] المقدرة التى يمكن فيها الكلام والعمل ، إذا لم يتكلم ولم يعمل ، وأما الإرادة الجازمة المأتى فيها بالمقدور فتجري مجرى التى أتى معها بكمال العمل . بدليل الأخرس لما كان عاجزاً عن الكلام ، وقد يكون عاجزاً عن العمل باليدين ونحوهما ، لكنه إذا أتى بمبلغ طاقته من الإشارة جرى ذلك مجرى الكلام من غيره ، والأحكام والثواب والعقاب وغير ذلك .

وأما الوجه الآخر الذي احتج به وهو أن العزم والهم داخل فى حديث النفس المعفو عنه مطلقاً فليس كذلك ؛ بل إذا قيل : إن الإرادة الجازمة مستلزمة لوجود فعل ما يتعلق به الذم والعقاب وغير ذلك ، يصح ذلك ؛ فإن المراد إن كان مقدوراً مع الإرادة الجازمة وجب وجوده ، وإن كان ممتنعاً فلا بد مع الإرادة الجازمة من فعل بعض مقدماته ، وحيث لم يوجد فعل أصلاً فهو هم . وحديث النفس ليس إرادة جازمة ولهذا لم يجيء فى النصوص العفو عن مسمى الإرادة والحب والبغض والحسد والكبر والعجب وغير ذلك من أعمال القلوب ، إذ كانت هذه الأعمال حيث وقع عليهم ذم وعقاب فلأنها تمت حتى صارت قولا وفعلا .

وحينئذ قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تجاوز لأمتى » الحديث حق ، والمؤاخذة بالإرادات المستلزمة لأعمال الجوارح حق ؛ ولكن طائفة من الناس قالوا : إن الإرادة الجازمة قد تخلو عن فعل أو قول ، ثم تنازعوا فى العقاب عليها ، فكان القاضي أبو بكر ومن تبعه كأبى حامد وأبى الفرج ابن الجوزي يرون العقوبة على ذلك ، وليس معهم دليل على أنه يؤاخذ إذا لم يكن هناك قول أو عمل .

والقاضي بناها على أصله فى « الإيمان » الذي اتبع فيه جهما والصالحي ، وهو المشهور عن أبى الحسن الأشعري ، وهو أن الإيمان مجرد تصديق القلب ، ولو كذب بلسانه ، وسب الله ورسوله بلسانه ، وإن سب الله ورسوله إنما هو كفر فى الظاهر ، وأن كلما كان كفراً فى نفس الأمر فإنه يمتنع أن يكون معه شيء من تصديق القلب ، وهذا أصل فاسد فى الشرع والعقل ، حتى إن الأئمة : كوكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وأبى عبيدة وغيرهم كفروا من قال فى « الإيمان » بهذا القول ؛ بخلاف المرجئة من الفقهاء الذين يقولون : هو تصديق القلب واللسان ؛ فإن هؤلاء لم يكفرهم أحد من الأئمة ، وإنما بدعوهم .

وقد بسط الكلام فى « الإيمان » وما يتعلق بذلك فى غير هذا الموضع ، وبين أن من الناس من يعتقد وجود الأشياء بدون لوازمها . فيقدر ما لا وجود له .

وأصل جهم فى « الإيمان » تضمن غلطاً من وجوه :

(منهـا) ظنه أنـه مجرد تصديق القلب ومعرفته بدون أعمـال القلب : كحب الله وخشيته ونحو ذلك .

و (منهـا) ظنه ثبوت إيمـان قائم فى القلب بدون شيء مـن الأقوال والأعمال .

و (منها) ظنه أن من حكم الشرع بكفره وخلوده فى النـار ، فإنه يمتنع أن يكون فى قلبه شيء من التصديق ، وجزمـوا بأن إبليس وفرعون واليهود ونحوهم لم يـكن فى قلوبهم شيء من ذلك . وهـذا كلامهم فى الإرادة والكراهـة والحب والبغض ونحو ذلك ؛ فإن هـذه الأمور إذا كانت هما وحديث نفس فإنه معفو عنها ، وإذا صارت إرادة جازمة وحباً وبغضاً لزم وجود الفعل ووقوعه ، وحينئذ فليس لأحـد [أن] يقدر وجودها مجردة . ثم يقول : ليس فيها إثم ، وبهذا يظهر الجواب عن حجة السائل .

فإن الأمة مجمعة على أن الله يثيب على محبته ومحبة رسوله ، والحب فيه والبغض فيه ، ويعاقب على بغضه وبغض رسوله ، وبغض أوليائه ، وعلى محبة الأنداد من دونه ، وما يدخل فى هـذه المحبة من الإرادات

والعزوم ، فإن المحبة سواء كانت نوعاً من الإرادة أو نوعاً آخر مستلزماً للإرادة ، فلا بد معها من إرادة وعزم ، فلا يقال : هـذا من حديث النفس المعفو عنه ؛ بل كما جاء فى الحديث الذي رواه الترمذي : « أوثق عرى الإيمان : الحب فى الله ، والبغض فى الله » وفى الصحيحين عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « والذي نفسي بيده لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » وفى صحيح البخاري عن عبد الله بن هشام قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال عمر : لأنت يارسول الله أحب إلي من كل شيء ، إلا من نفسي . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا ، والذي نفسي بيده ! حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال عمر : فإنك الآن أحب إلي من نفسي . فقال النبي صلى الله عليه وسلم الآن ياعمر » بل قد قال تعالى : (قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ)

فانظر إلى هذا الوعيد الشديد الذي قد توعد الله بـه من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فعلم أنه يجب

أن يكون الله ورسوله والجهاد فى سبيله أحب إلى المؤمن من الأهـل والمال والمساكن.والمتاجر والأصحاب والإخوان ، وإلا لم يكن مؤمناً حقاً ومثل هذا مافى الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم « لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله وحتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع فى الكفر ، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليـه مما سواهما » وهـذا لفظ البخاري ، فأخبر أنه لا يجد أحد حلاوة الإيمان إلا بهذه المحبات الثلاث .

(أحدها) أن يـكون الله ورسوله أحب إليـه مـن سـواهما ، وهـذا من أصول الإيمـان المفروضة التى لا يكون العبد مؤمناً بدونها .

(الثانى) أن يحب العبد لا يحبه إلا لله وهذا من لوازم الأول .

و (الثالث) أن يكون إلقاؤه فى النـار أحب إليه من الرجوع إلى الكفر .

وكذلك التائب من الذنوب من أقوى علامات صدقه في التوبـة هذه الخصال ، محبة الله ورسوله ومحبة المؤمنين فيه ، وإن كانت متعلقة بالأعيان ليست من أفعالنـا كالإرادة المتعلقة بأفعالنـا ، فهي مستلزمة لذلك ، فإن من كان الله ورسوله أحب إليه من نفسه وأهله وماله لابد

أن يريد من العمل ما تقتضيه هـــذه المحبــة ، مثل إرادتــه نصر الله ورسوله ودينه والتقريب إلى الله ورسوله ، ومثل بغضـه لمن يعــادي الله ورسوله

ومن هذا الباب ما استفاض عنه صــلى الله عليه وســلم فى الصحاح من حديث ابن مسعود وأبى موسى وأنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « المرء مع من أحب » وفي روايــة « الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم » أي ولما يعمل بأعمالهم . فقال : « المرء مع من أحب » قال أنس : فما فرح المسلمون بشيء بعد الإسلام فرحهم بهــذا الحديث فأنا أحب النبي صلى الله عليـه وسلم وأبا بكر وعمــر ، وأرجو أن يجعلني الله معهم ، وإن لم أعمل عملهم . وهــذا الحديث حق ، فإن كون المحب مع المحبوب أمر فطري لا يكون غير ذلك ، وكونه معــه هو على محبته إياه ، فإن كانت المحبة متوسطة أو قريبــاً من ذلك كان معه بحسب ذلك ، وإن كانت المحبة كاملة كان معه كذلك ، والمحبة الـكاملة تجب معها الموافقة للمحبوب في محــابه ، إذا كان المحب قادراً عليهــا ، فحيث تخلفت الموافقة مع القدرة يكون قد نقص من المحبة بقدر ذلك ، وإن كانت موجودة .

وحب الشيء وإرادته يستلزم بغض ضـــده وكراهتــه ، مع العلم بالتضاد ؛ ولهــذا قال تعــالى : (لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ

يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ) والموادة من أعمال القلوب .

فإن الإيمان بالله يستلزم مودته ومودة رسوله ، وذلك ينـاقض موادة من حاد الله ورسوله ، وما ناقض الإيمـان فإنه يستلزم العـزم والعقاب ؛ لأجل عدم الإيمان . فإن ما ناقض الإيمان كالشك والإعراض وردة القلب ، وبغض الله ورسوله يستلزم الذم والعقاب لكونه تضمن ترك المأمور ممـا أمر الله به رسوله ، فاستحق تاركه الذم والعقـاب وأعظم الواجبات إيمان القلب ، فما ناقضه استلزم الذم والعقـاب لتركه هذا الواجب ؛ بخلاف ما استحق الذم لكونه منهياً عنه كالفواحش والظلم ؛ فإن هذا هو الذي يتـكلم فى الهم به وقصده ، إذا كان هذا لا يناقض أصل الإيمان ، وإن كان يناقض كماله ؛ بل نفس فعل الطـاعات يتضمن ترك المعاصي ، ونفس ترك المعاصي يتضمن فعل الطاعات ، ولهذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فالصلاة تضمنت شيئين :

(أحدهما) نهيها عن الذنوب .

و (الثاني) تضمنها ذكر الله ، وهو أكبر الأمرين ، فمـا فيها من ذكر الله أكبر من كونها ناهية عن الفحشاء والمنـكر ، و [ابسط] هذا موضع آخر .

و (المقصود هنا) أن المحبة التامة لله ورسوله تستلزم وجود محبوباته ؛ ولهذا جاء فى الحديث الذي فى الترمذي « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » فإنه إذا كان حبه لله ، وبغضه لله ، وهما عمل قلبه . وعطاؤه لله ، ومنعه لله ، وهما عمل بدنه ، دل على كمال محبته لله ، و [دل] ذلك على كمال الإيمان ؛ وذلك أن كمال الإيمان أن يكون الدين كله لله ، وذلك عبادة الله وحده لاشريك له ، والعبادة تتضمن كمال الحب ، وكمال الذل ، والحب مبدأ جميع الحركات الإرادية ، ولا بد لكل حي من حب وبغض ، فإذا كانت محبته لمن يحبه الله ، وبغضه لمن يبغضه الله ، دل ذلك على صحة الإيمان فى قلبه ، لكن قد يقوى ذلك وقد يضعف ، بما يعارضه من شهوات النفس وأهوائها ، الذي يظهر فى بذل المال الذي هو مادة النفس ، فإذا كان حبه لله ، وعطاؤه لله ، ومنعه لله . دل على كمال الإيمان باطناً وظاهراً .

وأصل الشرك فى المشركين — الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً — إنما هو اتخاذ أنداد يحبونهم كحب الله ، كما قال تعالى : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ) ومن كان حبه لله وبغضه لله ، لا يحب إلا لله ، ولا يبغض إلا لله ، ولا يعطي إلا لله ولا يمنع إلا لله ، فهذه حال السابقين من أولياء الله كما روى البخاري

فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشي بها ، فبي يسمع وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبى يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن : يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » . فهؤلاء الذين أحبوا الله محبة كاملة تقربوا بما يحبه من النوافل ، بعد تقربهم بما يحبه من الفرائض ، أحبهم الله محبة كاملة حتى بلغوا ما بلغوه ، وصار أحدهم يدرك بالله ، ويتحرك بالله ، بحيث إن الله يجيب مسألته ، ويعيذه مما استعاذ منه .

وقد ذم فى كتابه من أحب أنداداً من دونه ، قال تعالى : (وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ) وذم من اتخذ إلهه هواه وهو أن يتأله ما يهواه ويحبه ، وهذا قد يكون فعل القلب فقط . وقد مدح تعالى وذم فى كتابه فى غير موضع على المحبة والإرادة والبغض والسخط والفرح والغم ، ونحو ذلك من أفعال القلوب كقوله : (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) وقوله : (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ)

وقوله : (يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا) .

وقوله (إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا)
وقوله : (وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) وقوله : (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا) وقوله : (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم) وقوله : (مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ) وقوله : (وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ) .

وقوله : (وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ)
وقوله : (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ)
وقوله : (وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا) الآية ،
وقوله : (وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ) وقوله : (قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ) .

وقال : (إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ)

وقال : (ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ)

وقال : (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) وقال :

(وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا) وقال : (وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ) وقال : (وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا) وقال : (إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) .

وقال : (وَلَا تَا۟يْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ)

وقال : (وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ) .

وقال : (وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ)

وقال : (بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا) . وقال : (أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ) وقال : (وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

وقال : (وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ)

وقال : (لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ) وقال : (إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ

تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ) وقال : (إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ) وقال : (فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗا) وقال : (فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ) . وقال : (وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) . وقال : (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡ) . وقال : (قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ) .

ومثل هذا كثير فى كتاب الله وسنة رسوله واتفاق المؤمنين يحمد ويذم على ما شاء الله من مساعي القلوب وأعمالها : مثل قوله فى الحديث الصحيح المتفق عليه : « لا تباغضوا ولا تحاسدوا » وقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه » وقوله : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » وقوله : « لا يدخل الجنة من فى قلبة مثقال ذرة من كبر » ، و « لا يدخل النار من فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان » . وقوله : « لا تسموا العنب الكرم وإنما الكرم قلب المؤمن » وأمثال هذا كثير .

بل قول القلب وعمله هو الأصل : مثل تصديقه وتكذيبه وحبه وبغضه ، من ذلك ما يحصل به مدح وذم وثواب وعقاب بدون فعل الجوارح الظاهرة ، ومنه مالا يقترن به ذلك إلا مع الفعل بالجوارح الظاهرة

إذا كانت مقدورة ، وأما ما ترك فيه فعل الجوارح الظاهرة للعجز عنه فهذا حكم صاحبه حكم الفاعل ، فأقوال القلب وأفعاله ثلاثة أقسام :

(أحدها) ماهو حسنة وسيئة بنفسه .

و (ثانيها) ما ليس سيئة بنفسه حتى يفعل ، وهو السيئة المقدورة كما تقدم .

و (ثالثها) ما هو مع العجز كالحسنة والسيئة المفعولة ، وليس هو مع القدرة كالحسنة والسيئة المفعولة ، كما تقدم .

« فالقسم الأول » : هو ما يتعلق بأصول الإيمان من التصديق والتكذيب ، والحب والبغض ، وتوابع ذلك ؛ فإن هذه الأمور يحصل فيها الثواب والعقاب ، وعلو الدرجات ، وأسفل الدركات ، بما يكون فى القلوب من هذه الأمور ، وإن لم يظهر على الجوارح : بل المنافقون يظهرون بجوارحهم الأقوال والأعمال الصالحة ، وإنما عقابهم وكونهم فى الدرك الأسفل من النار على مافى قلوبهم من الأمراض ، وإن كان ذلك قد يقترن به أحيانا بغض القول والفعل ، لكن ليست العقوبة مقصورة على ذلك البغض اليسير ، وإنما ذلك البغض دلالة كما قال تعالى :

(وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ) فأخبر أنهم لابد أن يعرفوا فى لحن القول .

وأما « القسم الثاني » ، و « الثالث » فمظنة الأفعال التى لاتنافى أصول الإيمان ، مثل المعاصي الطبعية ؛ مثل الزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر . كما ثبت في الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من مات يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، دخل الجنة . وإن زنا وإن سرق . وإن شرب الخمر » وكما شهد النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح للرجل الذي كان يكثر شرب الخمر، وكان يجلده كلما جيء به فلعنه رجل ، فقال : « لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله » وفى رواية قال بعضهم : أخزاه الله ما أكثر ما يؤتى به فى شرب الخمر . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تكونوا أعواناً للشيطان على أخيكم » وهذا فى صحيح البخاري من حديث أبى هريرة .

ولهذا قال : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تكلم به أو تعمل به » والعفو عن حديث النفس إنما وقع لأمة محمد المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . فعلم أن هذا العفو هو فيما يكون من الأمور التى لا تقدح فى الإيمان ، فأما ماناقى الإيمان فذلك لا يتناوله لفظ الحديث ؛ لأنه إذا نافى الإيمان لم يكن صاحبه من

أمة محمد فى الحقيقة ، ويكون بمنزلة المنافقين ، فلا يجب أن يعفى عما في نفسه من كلامه أو عمله ، وهذا فرق بين يدل عليه الحديث ، وبه تأتلف الأدلة الشرعية . وهذا كما عفا الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان . كما دل عليه الكتاب والسنة ، فمن صح إيمانه عفي له عن الخطأ والنسيان وحديث النفس ، كما يخرجون من النار ؛ بخلاف من ليس معه الإيمان فإن هذا لم تدل النصوص على ترك مؤاخذته بما فى نفسه وخطئه ونسيانه ، ولهذا جاء : « نية المؤمن خير من عمله » هذا الأثر رواه أبو الشيخ الأصبهاني فى « كتاب الأمثال » من مراسيل ثابت البنانى . وقد ذكره ابن القيم [(١)] في النية من طرق عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم ضعفها . فالله أعلم .

فإن النية يثاب عليها المؤمن بمجردها ، وتجري مجرى العمل إذا لم يمنع من العمل بها إلا العجز ، ويمكنه ذلك فى عامة أفعال الخير ، وأما عمل البدن فهو مقيد بالقدرة ، وذلك لا يكون إلا قليلا ؛ ولهذا قال بعض السلف : قوة المؤمن فى قلبه ، وضعفه فى بدنه ، وقوة المنافق فى بدنه وضعفه في قلبه .

وقد دل على هذا الأصل قوله تعالى : (وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ

---

(١) لعل كلمة ابن القيم تصحيف من الناسخ فليحرر ، وذلك أن ابن القيم ذكر هذه الرسالة من مؤلفات شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله تعالى .

أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ) الآية .

وهذه الآية وإن كان قد قال طائفة من السلف إنها منسوخة كما روى البخاري فى صحيحه عن مروان الأصغر عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم — وهو ابن عمر — أنها نسخت ، فالنسخ في لسان السلف أعم مما هو فى لسان المتأخرين ، يريدون به رفع الدلالة مطلقاً ، وإن كان تخصيصاً للعام أو تقييداً للمطلق ، وغير ذلك ، كما هو معروف فى عرفهم ، وقد أنكر آخرون نسخها لعدم دليل ذلك ، وزعم قوم : أن ذلك خبر ، والخبر لا ينسخ . ورد آخرون بأن هذا خبر عن حكم شرعي . كالخبر الذي بمعنى الأمر والنهي .

والقائلون بنسخها يجعلون الناسخ لها الآية التى بعدها وهي قوله : (لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) كما روى مسلم في صحيحه من حديث أنس فى هذه الآية فيكون المرفوع عنهم ما فسرت به الأحاديث ، وهو ما هموا به وحدثوا به أنفسهم من الأمور المقدورة ، مالم يتكلموا به أو يعملوا به ، ورفع عنهم الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه . كما روى ابن ماجه وغيره بإسناد حسن « أن الله تجاوز لأمتى عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

و « حقيقة الأمر » أن قوله سبحانه : (إِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ) لم يدل على المؤاخذة بذلك ؛ بل دل على المحاسبة به ولا

يلزم من كونه يحاسب أن يعاقب ؛ ولهذا قال : (فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ) لا يستلزم أنه قد يغفر ويعـذب بلا سبب ولا ترتيب ، ولا أنه يغفر كل شيء ، أو يعذب على كل شيء ، مع العلم بأنه لا يعـذب المؤمنين ، وأنه لا يغفر أن يشرك به إلا مـع التوبة . ونحو ذلك .

والأصل أن يفرق بين ما كان مجامعاً لأصل الإيمان وما كان منافياً له ، ويفرق أيضاً بين ما كان مقدوراً عليه فـلم يفعل ، وبـين ما لم يترك إلا للعجز عنه ، فهذان الفرقان هما فصل فى هذه المواضيع المشتبهة .

وقد ظهر بهذا التفصيل أن أصل النزاع في « المسألة » إنما وقع لكونهم رأوا عزماً جازماً لا يقترن به فعل قط ، وهذا لا يكون إلا إذا كان الفعل مقارناً للعزم ، وإن كان العجز مقارناً للإرادة امتنع وجود المراد ، لكن لا تكون تلك إرادة جازمة ، فإن الإرادة الجازمة لما هو عاجز عنه ممتنعة أيضاً ، فمع الإرادة الجازمة يوجد ما يقدر عليه من مقدمات الفعل ولوازمه ، وإن لم يوجد الفعل نفسه .

والإنسان يجد من نفسه : أن مع قدرته على الفعل يقوى طلبه والطمع فيه وإرادته ، ومع العجز عنه يضعف ذلك الطمع ، وهو لا يعجز عما يقوله ويفعله [على] السواء ، ولا عما يظهر على صفحات وجهه ،

وفلتات لسانه . مثل بسط الوجه وتعبسه ، وإقباله على الشيء والإعراض عنه ، وهذه وما يشبهها من أعمال الجوارح التى يترتب عليها الذم والعقاب ، كما يترتب عليها الحمد والثواب .

وبعض الناس يقدر عزما جازماً لا يقترن به فعل قط ، وهذا لا يكون إلا لعجز يحدث بعد ذلك من موت أو غيره ، فسموا التصميم على الفعل فى المستقبل عزماً جازماً ، ولا نزاع فى إطلاق الألفاظ ؛ فإن من الناس من يفرق بين العزم والقصد فيقول : ما قارن الفعل فهو قصد ، وما كان قبله فهو عزم . ومنهم من يجعل الجميع سواء ، وقد تنازعوا هل تسمى إرادة الله لما يفعله فى المستقبل [عزما] ، وهو نزاع لفظي ؛ لكن ما عزم الإنسان عليه أن يفعله فى المستقبل فلا بد حين فعله من تجدد إرادة ، غير العزم المتقدم ، وهي الإرادة المستلزمة لوجود الفعل مع القدرة ، وتنازعوا أيضاً هل يجب وجود الفعل مع القدرة والداعي ؟ وقد ذكروا أيضاً في ذلك قولين :

والأظهر أن القدرة مع الداعي التام تستلزم وجود المقدور ، والإرادة مع القدرة تستلزم وجود المراد .

والمتنازعون فى هذه أراد أحدهم إثبات العقاب مطلقاً على كل عزم على فعل مستقبل ، وإن لم يقترن به فعل . وأراد الآخر رفع العقاب

مطلقاً عن كل ما فى النفس من الإرادات الجازمة ونحوها ، مع ظن الإثنين أن ذلك الواحد لم يظهر بقول ولا عمل . وكل من هذين انحراف عن الوسط .

فإذا عرف أن الإرادة الجازمة لا يتخلف عنها الفعل مع القدرة إلا لعجز يجري صاحبها مجرى الفاعل التام فى الثواب والعقاب . وأما إذا تخلف عنها ما يقدر عليها فذلك المتخلف لا يكون مراداً إرادة جازمة ؛ بل هو الهم الذي وقع العفو عنه . وبه ائتلفت النصوص والأصول .

ثم هنا « مسائل كثيرة » فيما يجتمع فى القلب من الإرادات المتعارضة كالاعتقادات المتعارضة ، وإرادة الشيء وضده ؛ مثل شهوة النفس للمعصية وبغض القلب لها . ومثل حديث النفس الذي يتضمن الكفر إذا قارنه بعض ذلك والتعوذ منه ، كما شكا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فقالوا : « إن أحدنا يجد فى نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة ، أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به ، فقال : أو قد وجدتموه ؟! فقالوا : نعم . قال : ذلك صريح الإيمان » رواه مسلم من حديث ابن مسعود ، وأبي هريرة . وفيه : « الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة » .

وحين كتبت هذا الجواب لم يكن عندي من الكتب ما يستعان

به على الجواب ؛ فإن له موارد واسعة . فهنا لما اقترن بالوسواس هـذا البغض وهذه الكراهة كان هو صريح الإيمان ، وهو خالصه ومحضه ؛ لأن المنافق والكافر لا يجد هذا البغض ، وهذه الكراهة مع الوسوسة بذلك ؛ بل إن كان في الكفر البسيط ، وهو الإعراض عما جاء به الرسول ، وترك الإيمان به — وإن لم يعتقد تكذيبه — فهذا قد لا يوسوس له الشيطان بذلك ، إذ الوسوسة بالمعارض المنافى للإيمان إنما يحتاج إليها عند وجود مقتضيه ، فإذا لم يكن معه ما يقتضي الإيمان لم يحتج إلى معارض يدفعه ؛ وإن كان فى الكفر المركب وهو التكذيب فالكفر فوق الوسوسة ، وليس معه إيمان يكره به ذلك .

ولهذا لما كانت هذه الوسوسة عارضة لعامة المؤمنين ، كما قال تعالى : (أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ)

الآيات . فضرب الله المثل لما ينزله من الإيمان والقرآن بالماء الذي ينزل في أودية الأرض ، وجعل القلوب كالأودية : منها الكبير ، ومنها الصغير كما فى الصحيحين عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً : فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها طائفة أمسكت الماء فسقى الناس وشربوا ، وكانت منها طائفة إنما هي

قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ . فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما بعثني به من الهدى والعلم . ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » فهذا أحد المثلين .

و « المثل الآخر » ما يوقد عليه لطلب الحلية والمتاع : من معادن الذهب والفضة والحديد ونحوه ، وأخبر أن السيل يحتمل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه فى النار زبد مثله ، ثم قال : (كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ) الرابي على الماء وعلى الموقد عليه فهو نظير ما يقع فى قلوب المؤمنين من الشك والشبهات فى العقائد والإرادات الفاسدة كما شكاه الصحابة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : (فَيَذْهَبُ جُفَآءً) يجفوه القلب فيرميه ويقذفه كما يقذف الماء الزبد ويجفوه (وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ) وهو مثل ما ثبت فى القلوب من اليقين والإيمان . كما قال تعالى : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ) الآية إلى قوله : (يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ)

فكل ما وقع في قلب المؤمن من خواطر الكفر والنفاق فكرهه وألقاه ازداد إيماناً ويقيناً ، كما أن كل من حدثته نفسه بذنب فكرهه ونفاه عن نفسه وتركه لله ازداد صلاحاً وبراً وتقوى .

وأما المنافق فإذا وقعت له الأهواء والآراء المتعلقة بالنفاق لم يكرهها ولم ينفها ، فإنه قد وجدت منه سيئة الكفر من غير حسنة إيمانية تدفعها أو تنفيها ، والقلوب يعرض لها الإيمان والنفاق ، فتارة يغلب هذا ، وتارة يغلب هذا .

وقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله تجاوز لأمتى عما وسوست أو حدثت به أنفسها » كما فى بعض ألفاظه فى الصحيح ، هو مقيد بالتجاوز للمؤمنين ، دون من كان مسلماً فى الظاهر ، وهو منافق فى الباطن وهم كثيرون فى المتظاهرين بالإسلام قديماً وحديثاً . وهم فى هذه الأزمان المتأخرة فى بعض الأماكن أكثر منهم فى حال ظهور الإيمان فى أول الأمر ، فمن أظهر الإيمان وكان صادقاً مجتنباً ما يضاده أو يضعفه يتجاوز له عما يمكنه التكلم به والعمل به ؛ دون ما ليس كذلك . كما دل عليه لفظ الحديث .

فالقسمان اللذان بينا أن العبد يثاب فيها ويعاقب على أعمال القلوب خارجة من هذا الحديث ، وكذلك قوله : « من هم بحسنة » و « من هم بسيئة » إنما هو في المؤمن الذي يهم بسيئة أو حسنة يمكنه فعلها فربما فعلها وربما تركها ؛ لأنه أخبر أن الحسنة تضاعف بسبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة .

وهذا إنما هو لمن يفعل الحسنات لله . كما قال تعالى : (مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ) و (ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ) و (ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ) وهذا للمؤمنين ؛ فإن الكافر وإن كان الله يطعمه بحسناته في الدنيا ، وقد يخفف عنه بها في الآخرة ؛ كما خفف عن أبي طالب لإحسانه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وبشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يوعد لكافر على حسناته بهذا التضعيف ، وقد جاء ذلك مقيداً في حديث آخر : إنه في المسلم الذي هو حسن الإسلام .

والله سبحانه أعلم . والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

فهرس المجلد العاشر

صفحة	الموضوع

٥ ـ ٩٠ « التحفة العراقية في الأعمال القلبية »

صفحة	الموضوع
٤٨ ـ ٦١ ، ٧٥	فصل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان بل هي أصل كل عمل ، إخلاص الدين هو خلاصة الدعوة النبوية ، وهو الدين الذى لا يقبل الله سواه ، وهو حقيقة لا إله إلا الله معنى هذه الكلمة العظيمة ، السور التى ذكر فيها هذا الأصل
٥٤ ، ٥٥	سورتا الإخلاص تضمنتا نوعى التوحيد ، إيضاح ذلك ، ارتباط أحد نوعى التوحيد بالآخر .
٥٥ ، ٥٦	اليهود كثيرا ما يمثلون الخالق بالمخلوق والنصارى كثيرا ما يعدلون المخلوق بالخالق ولذلك أمرنا بسؤال الهداية
٥٦ ، ٥٧	العبادة تتضمن كمال الحب والذل ونهايتهما ، كمال الدين بكمال محبة الله ونقصه بنقصها
٥٧ ـ ٥٩	الجهاد أفضل ما تطوع به وهو دليل كمال المحبة يرضى الله لرضى محبيه ويسخط لسخطهم .
٥٩ ، ٦٠	الاتحاد نوعان ، والحلول نوعان ، قد يفنى بعض المصطلمين فى المحبة ، ما لا يحمد من الفناء فى المحبة ونحوها ، الملامية
٦١ ـ ٦٤	فصل الخوف والرجاء يستلزم المحبة ويرجع إليها ، الرحمة ، العذاب ، دار الرحمة ، دار العذاب ، مراد من قال ما عبدتك شوقا إلى جنتك ولا خوفا من نارك .
٦٣	لا يمكن أن يعمل الحى عملا بلا إرادة ولا حب وإن ظنه بعض النساك
٦٤ ـ ٦٩ ، ٧٢ ـ ٧٤	الكلام فى المحبة محبة الله للمؤمنين وللأعمال الصالحة ، وجبت محبة الرسول وصحابته وقرابته لمحبة الله ، الله هو المحبوب لذاته
٦٦ ـ ٧٣	أنكرت الجهمية المحبة من الطرفين ، أول من ابتدع هذا وادعى أنه مجاز وتأوله وأقام الشبه ومن انتقل إليه بعده أصل قول الجميع مأخوذ عن ٠٠٠٠ أدلة الخلة والمحبة
٦٨ ، ٦٩	الرسول يحب أشخاصا لكن لم يخالل منهم أحدا ، سبب ذلك ، قول الجهمية فى كلام الله
٧٠ ، ٧١	لفظ العبادة متضمن للمحبة ، محبة القلب للبشر على طبقات
٧٥ ـ ٨١	كان سلف الأمة يحركون محبة الله فى القلوب بما شرع أن تحرك به من أنواع العبادات وكان يحركها بعض المتصوفة بالتغبير وسماع المكاء والتصدية حكم السماع المبتدع والسماع الشرعى عند محققى الصوفية وغيرهم ، الفرق بين السماع والاستماع
٨١	محبة الله توجب اتباع الرسول واتباع الرسول يوجب محبة الله للعبد .
٨١ ـ ٨٣	ذم من يدعى محبة الله مع عدم الخوف منه ، أصناف الناس فى المحبة

صفحة	الموضوع
٨٤ ـ ٨٦	أصل المحبة معرفة الله ولها أصلان (١) محبته لأجل إحسانه إلى عباده (٢) محبته لما هو له أهل والحمد نوعان
٨٦ ، ٨٧	غلط من استعمل فى باب محبة الله ما يظن فى محبة غيره مما هو من جنس التجنى والهجرة والقطيعة لغير سبب ونحو ذلك .
٨٧ ـ ٩٠	سبب شرعية الاستغفار فى جميع الأحوال وفى خواتيم الأعمال ، قوام الدين بالتوحيد والاستغفار

٩١ ـ ١٣٨ «أمراض القلوب وشفاؤها»

صفحة	الموضوع
٩١ ، ٩٢	مرض البدن .
٩٣ ـ ١٠٤	فصل مرض القلب أنواع ، (فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ) بأى شىء يموت القلب ويظلم أويحيى ويشفى ويزكو وينمو ويتنور ويسمع ويبصر ويعقل ويتم صلاحه ، ما فى القرآن من شفاء أمراض القلوب .
٩٧ ، ٩٨	تفسير (وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ) وقوله : (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم) الآية ، أصل التزكية
٩٨ ـ ١٠٠	العدل والظلم ، ثواب الحسنات فى الدنيا ، تفسير أن تبسل ، القسط والظلم
١٠٠ ـ ١٠٢	تفسير (ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) الآية ، ضرب الله للإيمان مثلين وللنفاق مثلين فقال (أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ) وقال (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا).
١٠٤ ـ ١٠٩	حياة البدن بدون حياة القلب من جنس حياة البهائم، قوله وإذا مس الإنسان ونحوها ليس فى الكفار خاصة المظهرون للإسلام فيهم مؤمن ومنافق والنفاق نوعان .
١٠٦ ـ ١٠٩	غلط من قال المؤمن قد هدى إلى الصراط المستقيم فأى فائدة فى طلب الهدى أو أن معنى ذلك ثبتنا أو زدنا هدى
١٠٩ ، ١١٠	ليست حياة القلب وحياة غيره مجرد الحس والحركة الإرادية أو مجرد العلم والقدرة .
١١١ ـ ١١٧ ، ١٢٠ ـ ١٢٥	فصل ومن أمراض القلوب الحسد ، حد الحسد الحسد نوعان معنى لا حسد إلا فى اثنتين وسبب الحسد فيهما .
١١٥ ، ١١٦	تفسير ضرب الله مثلا عبدا مملوكا الآيتين .
١١٧ ـ ١٢٠	منافسة عمر لأبى بكر ومنافسة موسى لمحمد ، السالم من هذه المنافسة أفضل وإن كانت مباحة .
١١٩ ـ ١٢٦	تفسير ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، حسد إخوة يوسف

صفحة — الموضوع

صفحة	الموضوع
١٧٦ ـ ١٧٨	كمال المخلوق فى تحقيق عبوديته لله من ظن أن المخلوق يخرج عن العبودية أو أن الخروج عنها أكمل فهو من أضل الخلق
١٧٨ ، ١٧٩	كل رسول افتتح دعوته بالدعاء إلى عبادة الله ، لا نجاة إلا بالعبادة
١٨٠ ، ١٨١ ، ١٩٣ ـ ١٩٨	فصل تفاضل الناس فى العبادة والإيمان والمحبة وفى ربوبية الله لهم الشرك الخفى
١٨١ ـ ١٩١	أسباب عبودية القلب لغير الله والطريق إلى تخليصه منها واستغناءه عن جميع المخلوقات
١٨١ ـ ١٨٤	النهى عن مسألة المخلوق والأمر بمسألة الله، الهجر الجميل والصفح الجميل والشكوى إلى الخالق أو إلى الخلق
١٨٦ ـ ١٨٩	العشق قد يستعبد القلب ، أسباب هذا الداء وعلاجه ، القلب يحب الحق ما لم تعرض له إرادة الشر
١٨٩ ، ١٩٠	المال يستعبد طالبه ، ما ينبغى للعبد فى طلب المال واستعماله وتعلق قلبه به
١٩٠ ـ ١٩٣	المحبة لله والمحبة فى الله وعلاماتها وتمامها
١٩٢ ، ٢١٠ ـ ٢١٢	ترك الجهاد دليل على ضعف محبة الله ورسوله
١٩٥ ـ ٢٠٢	حقيقة دين الإسلام ، الاستكبار ينافى العبودية وكل مستكبر عن عبادة الله مشرك بغيره كفرعون
١٩٨ ـ ٢٠٠	الشرك غالب على النصارى ، والكبر غالب على اليهود تفسير (وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا)
٢٠٢ ـ ٢٠٥	معنى الخلة ، المحبة مراتب ، غلط من زعم أن المحبة أعلى من الخلة وأن محمدا حبيب الله وإبراهيم خليل الله
٢٠٥ ، ٢٠٦	حلاوة الإيمان ، كمال محبة العبد لله بثلاثة أمور
٢٠٦ ـ ٢١٢	الخلة والمحبة من تحقيق العبودية ، ليست العبودية مجرد ذل لا محبة معه وليست المحبة انبساطا فى الأهواء ومخالفة الشرع وترك المجاهدة فى سبيله
٢١٠ ، ٢١١	معنى كلام بعض الشيوخ المحبة نار تحرق فى القلب ما سوى مراد المحبوب
٢١٣ ـ ٢١٧	لا بد من عمل صالح خالص لوجه الله قد يخالط النفوس ما يفسد تحقيق محبتها وعبوديتها لله آثار الإخلاص وعكسه
٢١٧ ، ٢١٨	إبراهيم وآله هم أئمة الحنفاء وفرعون وآله أئمة المشركين المتبعين أهواءهم ، القائلون بوحدة الوجود حققوا مذهب فرعون بعكس الحنفاء
٢١٨ ـ ٢٢٥	الفناء ثلاثة أنواع نوع للأنبياء والأولياء ، ونوع للمقتصدين ونوع للملحدين
٢٢٥ ـ ٢٢٦	غلط من زعم أن لا إله إلا الله ذكر العامة و (الله) ذكر الخاصة

صفحة	الموضوع
	و (هو) ذكر خاصة الخاصة ، حجتهم ونقضها
٢٢٩ ــ ٢٣١	تفسير (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ) و (اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ) و (بِسْمِ اللَّهِ) ونحوها وما يضمر في مثل هذا
٢٣٢	ما يراد بالكلمة والكلام وأقسامه
٢٣٧ ــ ٣٣٧	«سئل عن قول النبي صلى الله عليه وسلم دعوة أخي ذي النون إلخ . ما معنى هذه الدعوة ؟ ولم كانت كاشفة للكرب ؟ وهل لها شروط وكيف مطابقة اعتقاد القلب لمعناها حتى توجب كشف الضر، وما مناسبة ذكره إنى كنت من الظالمين مع أن التوحيد يوجب كشف الضر . وهل يكفيه اعترافه أم لا بد من التوبة فى المستقبل ؟ وما هو السر فى أن كشف الضر وزواله يكون عند انقطاع الرجاء عن الخلق ؟ وما الحيلة فى انصراف القلب عن رجاء المخلوقين وتعلقه بالله » .
٢٣٧ ــ ٢٤٠ ، ٢٤٣	لفظ الدعاء والدعوة فى القرآن يتناول دعاء العبادة ودعاء المسألة وأما إذا جمع بينهما فيراد بالسائل ... ويراد بالعابد ...
٢٣٨ ، ٢٤٠	تفسير لولا دعاؤكم
٢٤٠ ــ ٢٤٢	لا يخلو الداعى من الرغب والرهب ، جعل بعض الشيوخ الخوف والرجاء من مقامات العامة
٢٤٠ ، ٢٤١	مراد بعضهم بقوله : لم أعبدك شوقا إلى جنتك ولا خوفا من نارك ونحو ذلك ، إنكار بعض أهل الكلام لذة النظر
٢٤٢	غلط من زعم أن شهود توحيد الربوبية يكفى عن شهود توحيد الإلهية
٢٤٤ ــ ٢٥٥	قوله (إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) اعتراف بالذنب وهو يتضمن طلب المغفرة ، للدعاء صيغتان
٢٤٧ ، ٢٤٨	إن قيل لم ناسب حال صاحب الحوت صيغة الوصف والخبر دون صيغة الطلب ، شرح حديث اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا
٢٤٨ ــ ٢٥٢	معنى قوله (سُبْحَانَكَ) وعلاقة ذلك بدعوة ذى النون ، غلط من

صفحة	الموضوع

صفحة	الموضوع

صفحة	الموضوع
٣٨٧ ـ ٤٢٢	« فصل فى العبادات والفرق بين شرعيها وبدعيها »

صفحة	الموضوع
	فى مواقيتها ، من لم يعتقد وجوبها على كل بالغ عاقل ولو كان من الخواص فهو كافر ولو صلى
٤٣٥ ، ٤٣٦	كفر الرهبان ، لم يثنى الله على من لاعقل له
٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠ ، ٤٤١	لا يعم الإسلام من كان يهوديا أو نصرانيا ثم جن وأسلم ، من آمن ثم كفر ثم جن فحكمه حكم الكفار
٤٣٧ ـ ٤٤٠	سبب نزول قوله (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ) ، هل ينقض النعاس الوضوء
٤٣٩ ، ٤٤٠	الصلاة أفضل العبادات ، ولا تدخلها النيابة ، يحرم أن يتقرب من زال عقله بفرض أو نفل
٤٤٢	من زال عقله بسبب محرم استحق العقوبة على ذلك
٤٤٢	كيف يستجلبون الأحوال الشيطانية ، وهل هم مكلفون فى حال زوال عقلهم
٤٤٣ ـ ٤٤٥	من قال أعطاهم الله عقولا وأحوالا فأبقى أحوالهم وأذهب عقولهم وأسقط ما فرض بما سلب
٤٤٣ ـ ٤٥٤	الأحوال تنقسم إلى رحمانى وشيطانى ، ليس زوال العقل مقربا إلى الله ، أولياء الله وأولياء الشيطان من يدعى فيهم الولاية مع ذلك ، قد يكون الشخص وليا لله من وجه دون وجه
٤٥٤	« سئل عمن يقول الطرق إلى الله عدد أنفاس الناس »
٤٥٥ ـ ٥٤٩	« وقال فى شرح كلمات لعبد القادر في كتاب فتوح الغيب »
٤٥٥ ـ ٤٥٩	قال عبد القادر لا بد لكل مؤمن من أمر يمتثله ونهى يجتنبه وقدر يرضى به ، معنى ذلك
٤٥٩ ـ ٤٦٨	الحقيقة الشرعية نوعان أحدهما أن يكون العبد مأمورا فيما فعله الرب إما بحب له وإعانة عليه ، وإما ببغض له ودفع له والثانى أن لا يكون مأمورا بواحد منهما ، الناس فى هذا الباب أربعة أقسام
٤٦٠ ـ ٤٦٢	هل هناك من الأفعال ما هو مباح مستوى الطرفين ؟
٤٦٣ ، ٤٦٤	السلوك نوعان : سلوك الأبرار وسلوك المقربين
٤٦٨ ـ ٤٧١	الناس فى المباحات من الملك والمال وغير ذلك على ثلاثة أقسام قسم يتصرفون فيها بالحكم الشرعىوقسم بإرادتهم وقسم لا بهذا ولا بهذا
٤٧٠ ـ ٤٧٢	يأمر عبد القادر وأمثاله بالترجيح بالإلهام والذوق أو بالقضاء والقدر إذا لم يتبين الحكم الشرعى
٤٧٠ ، ٤٧١	تخيير ولى الأمر بين القتل والأسر والمن والفداء للمصلحة ، قد يخفى

صفحة	الموضوع
	الحكم الشرعي في بعض المسائل ولذلك قال لا تنزلهم على حكم الله ...
٤٧٢	بأى شيء يرجح المجتهد إذا تكافأت عنده الأدلة
٤٧٢ ـ ٤٧٩	القلب المعمور بالتقوى إذا رجح بإرادته فهو ترجيح شرعي ، معنى حديث واعظ الله في قلب كل مؤمن ، الإلهام
٤٧٧ ، ٤٧٨	لا بد في كل حادثة من دليل شرعي يصيبه المستدل تارة ويخطئه أخرى ، لا تتكافأ الأدلة في نفس الأمر
٤٧٨ ، ٤٧٩	الشارع بين الأمور الكلية والمعينات تعلم غالبا بأدلة خاصة كالإلهام
٤٧٩ ، ٤٨٠	والنوع الثانى يتبعون هواهم لا أمر الله
٤٨٠	القسم الثالث الذى يريد تارة إرادة يحبها الله وتارة إرادة يبغضها
٤٨٠ ـ ٤٨٢	القسم الرابع أن يخلو عن الإرادتين وهذا يقع على وجهين ، خلو الإنسان عن الإرادتين ممتنع
٤٨٢ ـ ٤٨٥	الرضا بالقضاء ثلاثة أنواع ، غلط كثير من السالكين في الاسترسال مع القدر
٤٨٦ ، ٤٨٧	فصل طريق العلم لا بد فيه من العلم النبوى وطريق الإرادة لا بد فيه من تعيين المراد وهو الله والطريق إليه ، قد يغلط أهل الإرادة في أحدها
٤٩٠	فصل قال الشيخ عبد القادر أفن عن الخلق بحكم الله وعن هواك بأمره وعن إرادتك بفعله ... معنى ذلك
٤٩١	قوله فعلامة فنائك عن خلق الله انقطاعك عنهم ...
٤٩١ ، ٤٩٢	قوله وعلامة فنائك عنك وعن هواك ترك التكسب الخ
٤٩٣ ـ ٤٩٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩	قوله وعلامة إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مرادا قط إلخ الناس في الإرادة على أقسام
٤٩٧ ـ ٥٠٢	وقع نزاع بين الجنيد وبين طائفة من أصحابه في مقام الجمع والفرق
٤٩٩ ـ ٥٠٤ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩	الخوارق ، أكمل الناس إرادة لما يحبه الله هم الرسل ، خير البرية الخليلان ، من أخلاق نبينا
٥٠٥ ـ ٥٠٨	احتجاج آدم وموسى حث الرسول على الاجتهاد والاستعانة بالله والنهى عن العجز والنظر إلى القدر ، إذا غلبك أمر
٥١٠ ـ ٥١٤	يرى بعض منحرفي الزهاد أن الجهاد نقص ومنهم من يحرم ذبح الحيوان أولا يتقرب إلى الله بذبحه ولا يأكل لحمه ولا ينكح النساء ، إنكار النبى على هؤلاء
٥١١ ـ ٥١٣	الزهد المشروع والورع
٥١٤ ـ ٥١٦	الذين زهدوا في الإرادات حتى فيما يحبه الله بإزائهم طائفتان
٥١٦ ـ ٥١٨	فصل ، مراد عبد القادر وغيره من المشايخ أهل الاستقامة بقولهم

صفحة	الموضوع
	(٤) الدعاء المكروه كالدعاء ببغى أو قطيعة رحم أو سؤال منازل الأنبياء ودعاء الأعرابى ...
٥٥٦	لم يستحب من الذكر إلا ما كان كلاما مفيدا نحو ...
٥٥٦ ـ ٥٥٨ ، ٥٦١ ، ٥٦٢	الذكر بالاسم المفرد مظهرا أو مضمرا ليس بمشروع ولا معقول ، اقتدوا بالشبلى وهى من غلطاته
٥٥٧ ـ ٥٦٠ ، ٥٦٥	غلا بعضهم حتى جعل المفرد للخاصة والكلمة التامة للعامة ، من اذكارهم ، حججهم وتاويلاتهم لبعض الآيات كقوله (قل الله) (وما يعلم تاويله)
٥٦٢ ـ ٥٦٤	إن قيل فالذاكر والسامع للاسم المجرد قد يحصل له وجد ومحبة ونحو ذلك ، ونظير هذا ذكر الحب المطلق والشوق المطلق والوجل المطلق
٥٦٥	أسباب الاعتقادات والأحوال الفاسدة الخروج عن الشريعة
٥٦٦	فإن قيل إذا لم يكن هذا الذكر مشروعا فهل هو مكروه فى حق كل أحد ، الناس فى الذكر أربع طبقات

٥٦٨ ـ ٦١٤ « وقال فصل في الصراط المستقيم في الزهد والعبادة والورع الخ »

صفحة	الموضوع
٥٦٨	لزوم السنة يحفظ من شر الشيطان والنفس وهو علم وعدل وهدى والبدع جهل وظلم واتباع الظن وما تهوى الأنفس ، لا بد ان يقع أهل البدع فى الآصار والأغلال ، لم قيل لأهل البدع أهل الأهواء
٥٦٨ ـ ٦٠٦	الرشد ، الضلال ، الغى ، اتباع الشهوات ، كل الميل ، خلق الإنسان ضعيفا يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، تفسير آيات
٥٧٣ ـ ٥٧٨	الاستمناء ، الصبر عن المحرمات ، والصبر على الطاعات
٥٨٧ ، ٥٨٨	أوصى يوسف بن عبيد أن لا يدخل على السلطان ولا على امرأة ولا على مبتدع ، على الشخص اذا ابتلى بذلك ..
٥٨٩ ـ ٥٩٢	تفسير (ومن يوق شح نفسه) الحسد ، الشح ، البخل
٥٩٣ ـ ٥٩٥	الآلهة كثيرة والعبادات لها متنوعة ، قد تتصور الشياطين فى صورة من يعبد أو يعشق ، قد تستولى محبة الصورة على القلب
٥٩٥ ـ ٦٠١	قد يغمر القلب ويستولى عليه ما يريده العبد ويحبه ويخافه كائنا من كان ، معنى « تعس عبد الدينار »
٥٩٩ ، ٦٠٠	طالب الرئاسة ترضيه الكلمة التى فيها تعظيمه ـ ولو بالباطل ـ وكذلك طالب المال

صفحة | الموضوع

صفحة	الموضوع
٦٣٨ ، ٦٣٩	هل تحبط السيئات من الحسنات بقدرها وهل تحبط بعض الحسنات بذنب دون الكفر
٦٣٩ ، ٦٤٠	إن قيل لم يرد إبطال الأعمال إلا بالكفر كما فى قوله ...
٦٤١ – ٦٤٥	« سئل عن رجل تفقه وعلم ما أمر الله به ثم تزهد فهل يجوز له أن يقطع الرحم ويسيح فى الأرض »
٦٤١ – ٦٤٣	الزهد المشروع ، ليس الإعراض عن الأهل والأولاد مما يحبه الله
٦٤٣ ، ٦٤٤	السياحة فى البلاد لغير قصد مشروع منهى عنها ، السياحة المذكورة فى القرآن
٦٤٥ – ٦٥٣	« سئل عن قوله (حَقُّ ٱلْيَقِينِ) و (عِلْمَ ٱلْيَقِينِ) و (عَيْنَ ٱلْيَقِينِ) فما معنى كل مقام منها وأي مقام أعلى »
٦٤٥ ، ٦٤٦	مقالات الناس فى معانى هذه الأسماء
٦٤٦ – ٦٥١	ما يجده الناس ويذوقونه من حلاوة الإيمان وما أخبروا به من أمر الآخرة وما يجدونه من ثمرة التوحيد والإخلاص والتوكل والدعاء
٦٥٣ – ٦٦٦	« الوصية الصغرى »
٦٥٣ ، ٦٥٤	نص السؤال ، الجواب أنفع الوصايا وصية الله التى أوصى الرسول بها معاذا ، بيان شمول هذه الوصية أن العبد عليه حقان
٦٥٥ ، ٦٥٦	قوله « حيثما كنت » قوله « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » ، يزول موجب الذنوب بأشياء (١) التوبة (٢) الاستغفار (٣) الأعمال الصالحة المكفرة
٦٥٦ – ٦٥٨	قد يتلطخ الإنسان بعدة أشياء من أمور الجاهلية وإن نشأ بين أهل علم ودين
٦٥٨	(٤) المصائب المكفرة
٦٥٨	جماع الخلق الحسن مع الناس ، الخلق العظيم الذى وصف الله به محمدا
٦٥٨ ، ٦٥٩	اسم التقوى يجمع أمورا
٦٦٠ – ٦٦٢	أفضل الأعمال بعد الفرائض ملازمة ذكر الله ، أقل ما يلازم عليه العبد من ذلك الأذكار المؤقتة
٦٦١	أفضل الذكر مطلقا لا إله إلا الله ، وقد تعرض أحوال يكون بقية الذكر أفضل
٦٦١	كل ما تكلم به الإنسان وتصوره القلب مما يقرب إلى الله فهو من ذكره كتعلم العلم وتعليمه والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
٦٦٢ ، ٦٦٣	أرجح المكاسب ، على المهتم بأمر الرزق أن يلجأ إلى الله ويدعوه وهو معنى التوكل على الله فى طلب الرزق
٦٦٣	ينبغى للعبد أن يأخذ المال بسخاوة نفس لا بإشراف وهلع ، وأن

صفحة | الموضوع

صفحة	الموضوع
٦٨٧ ـ ٦٨٩	مما روى فى الرضا عن موسى عليه السلام ولا يصح أنه سأل الله عملا يرضى به عنه فقال إنك لا تطيق ذلك
٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩٣ ـ ٧٠٩	قول أبى سليمان لو أدخلنى النار لكنت بذلك راضيا
٦٩٠ ـ ٦٩٢	يذكر عن سمنون فكيفما شئت فامتحنى ، قصته لما امتحن ، يذكر عن رويم والفضيل والأعرابى ونحو ذلك
٦٩٢ ، ٦٩٣	الكلمات التى تصدر عن أهل الأحوال لا تجعل طريقة ، الرسل أعلم بطريق الله وأهدى وأنصح
٦٩٤	ظن بعض الناس أن الجنة التنعم بالمخلوق ولم يدخلوا فى مسماها النظر ، هؤلاء ضربان ضرب أنكر الرؤية ومنهم من أقربها لفظا ووافق المنكرين لها معنى ، تأويلهم للرؤية
٦٩٦	أكثر مثبتى الرؤية يثبتون تنعم المؤمنين برؤية ربهم
٦٩٧ ، ٦٩٨	من أنكر صفة المحبة ولذة النظر الى الله
٦٩٨ ـ ٧٠١	(٢) طوائف من المتصوفة أثبتوا الرؤية وظنوا أن الخير اسم للتنعم بالمخلوقات فقط وأن الذين يسألون الله الجنة لم يسألوا النظر إليه ، طلب الجنة والاستعاذة من النار طريق أنبياء الله وأوليائه ، أهل الجنة نوعان
٧٠٤ ـ ٧٠٩ ، ٧١١ ـ ٧١٧	غلط من قال الرضا أن لا تسأل الله الجنة ولا تستعيذ به من النار
٧٠٩ ـ ٧١١	احتجت القدرية بأن الرضا بقضاء الله مأمور به فلو كانت المعاصى بقضاء الله لكنا مأمورين بالرضا بها والرضا بما نهى الله عنه لا يجوز أجوبة أهل السنة عن ذلك
٧١٢ ـ ٧١٤	ما يؤمر به العبد من الدعاء وما ينهى عنه أو يباح له
٧١٨ ، ٧١٩	ملاحظة القضاء والقدر أوقعت بعض المتصوفة فى ترك المأمور وفعل المحظور ، والمعتزلة ونحوهم بالعكس
٧٢٠ ـ ٧٦١	« ما تقول السادة فيمن عزم على فعل محرم عزما جازما فعجز عنه هل يأثم بمجرد العزم ؟ وإن قلتم يأثم فما جواب من يحتج على عدم الإثم بقوله « إذا هم بسيئة إلخ . » وقوله « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها إلخ . »
٧٢١	عامة اضطراب الناس فى هذه المسائل وقع من أمرين (١) عدم تحقيق أحوال القلوب وصفاتها (٢) عدم إعطاء الأدلة الشرعية حقها ، صفات القلوب بالنسبة إلى القوة والضعف على مراتب
٧٢٢	العلم والعقل يقبل الزيادة والنقصان وكذلك الألوان والطعوم والأراييح

صفحة	الموضوع

(١١٠٠٠/ي٣ - ٣ -ج١٠) (٦) (٠١)
ردمك : ٦-٠٢-٠٧٧-٩٩٦٠ (مجموعة)
٣-٠٣-٠٧٧-٩٩٦٠ (ج ١٠)